ترجمت الرواية إلى 24 لغة وحققت مبيعات قياسية

زلفى ياسر درويش

بينما تنمو أشجار الليمون

ترجمة: أميمة صبحي

مكتبة رواية ياسمين

SEPSAYA PUBLISHING HOUSE

"كل ليمونة ستنجب طفلًا ومحالٌ أن ينتهي الليمونُ"

نزار قباني

تتبع هذه الرواية المذهلة حكاية سلامة الشابة السورية -ابنة مدينة حمص- التي انهار عالمها فجأة وقضى قصف دموي ونظام همجي على أسرتها، ولكنها تحاول رغم ذلك الصمودَ لمساعدة من اضطر للبقاء في مدينتها المحاصَرة.

تضطر سلامة أن تقوم بدور الطبيبة الوحيدة المتبقية في المدينة، ولكن التعامل مع المصابين ومع الأموات والمخاطر الجمَّة جعلها ممزقة بين مغادرة سوريا وبين بقائها في ذلك الجحيم.

يتغير المصير حين تقابل سلامة الحب الذي كان مقدَّرًا لها فيما مضى، تتطور المشاعر تحت القصف دون أمل، ولكن هل انعدم الأمل فعلًا!

"بينما تنمو أشجار الليمون" هي عمل عن الصدمة واليأس والفقد، وعن الحب الذي بمقدوره إنقاذنا من أنفسنا وحملنا إلى طوق النجاة. ستترك الرواية بصمة دائمة على كل من يقرؤها، لأن ما أن تبدأ سطورها الأولى، لن تتمكن من تركها.

زلفى ياسر درويش: كاتبة كندية من أصل سوري، تمتهن الصيدلة وتدرس الماجستير في علوم الأدوية والصيدلة في سويسرا. تعد "بينما تنمو أشجار الليمون" روايتها الأولى وقد تُرجمت إلى 24 لغة، من بينها: الألمانية والفرنسية والإيطالية واليابانية والأندونيسية والإسبانية والتركية، وغيرها.

وتعتبر زلفى درويش أول كاتبة سورية شابة تُنشر أعمالها في الولايات المتحدة وانجلترا في الوقت نفسه.

t.me/yasmeenbook

Cover design by: Alaa Elnewehy

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

9 789778 214192

مكتبة ياسمين

كل ليمونة ستنجب طفلا

ومحالٌ أن ينتهي الليمونْ

نزار قباني

1

ثلاث حبات ليمون ذابلة، وخبز بلدي جاف في كيس بلاستيكي، أكثر جفافًا من أن يصل إليه العفن.

هذا كل ما يقدمه هذا السوبر ماركت.

أحدق بعيون مرهقة قبل أن ألتقطهم، وعظامي تؤلمني مع كل حركة. أتجول في الممرات المتربة والفارغة مرة أخرى؛ على أمل إيجاد شيء فاتني، لكن كل ما أجده هو شعور قوي بالحنين. أيام الطفولة التي كنت أنا وأخي نهرول بها إلى هذا السوبر ماركت بعد المدرسة ونملأ ذراعينا بأكياس الشيبسي والجيلي. يجعلني هذا أفكر في ماما، والطريقة التي كانت تهز بها رأسها؛ محاوِلةً ألّا تبتسم لطفليها ذوي الوجهين الأحمرين والعيون البراقة وهما يبذلان أقصى جهدهما لإخفاء غنائم الحرب في حقيبتي الظهر الخاصة بهما. كانت تمشط شعرنا...

أهز رأسي، كفاية.

عندما أتأكد أن الممرات فارغة حقًا من أي أطعمة، أسير بثقل إلى الكاونتر لأدفع ثمن الليمون والخبز بأموال بابا المدّخرة، ما استطاع سحبه قبل ذلك اليوم المشؤوم. يعطيني صاحب السوبر ماركت -رجل عجوز أصلع في الستينات- ابتسامة متعاطفة قبل أن يُعيد الباقي لي.

أخرج من السوبر ماركت، لأواجه منظرًا قاحلًا. لا أتراجع عن المضي في طريقي، فلقد تعوّدت على هذا الرعب، لكنه يُضخِّم الألم في قلبي. كان الطريق متشقّقًا، والأسفلت قد تحوّل إلى حطام. والمباني رمادية متهالكة أو منهارة؛ حيث تسعى الطبيعة لإنهاء ما بدأته قنابل الجيش. دمار مطلق وتام.

بدأت الشمس تذوب ببطء بقايا فصل الشتاء، لكن البرد لا يزال هنا، فالربيع رمز الحياة الجديدة، لا يمتد إلى سوريا المتعبة، ولا سيما مدينتي، حمص. أرى البؤس يخيّم بقوة على الأغصان والأنقاض الساقطة والثقيلة، ولا يثنيه سوى الأمل في قلوب الناس.

تغلق الشمس منخفضة في السماء بادئة وداعها لنا، وتتغير الألوان ببطء من البرتقالي إلى الأزرق الثقيل. فأهمس لنفسي: «الأقحوان.. الأقحوان.. الأقحوان.. زهور الأقحوان العطرة».

أرى على مرمى بصري عدة رجال يقفون خارج السوبر ماركت، وجوههم شاحبة ومليئة بعلامات سوء التغذية، لكن عيونهم تتلألأ بالنور. عندما أمرُّ بجانبهم أسمع بعضًا من حديثهم، لكنني لم أتباطأ. أعرف عنما يتحدثون، إنه ما تحدّث عنه الجميع خلال التسعة أشهر الماضية. أسرع في مشيي مبتعدة عنهم، لا أريد الاستماع، فأنا على علم بالفعل أن الحصار العسكري المفروض علينا هو حكم بالإعدام، وأن إمداداتنا الغذائية تتناقص ونموت جوعًا، كما أعلم أن المستشفى على وشك الوصول إلى مرحلة تصبح فيها الأدوية ضربًا من الخيال. أعلم ذلك لأنني قمت اليوم بإجراء جراحات دون تخدير، الناس يموتون أمامي من النزيف والالتهابات ولا توجد طريقة لمساعدتهم. وأعلم أننا جميعًا سنخضع لمصير أسوأ من الموت إذا لم يستطع الجيش السوري الحر إيقاف تقدُّم الجيش على حمص القديمة!

بينما أتوجّه إلى المنزل يصبح النسيم باردًا، وأضغط حجابي بإحكام حول عنقي. أشعر بوضوح بنقاط الدم الجافة التي تمكّنت من التسلل تحت

أكمام معطفي الطبي، فلكل شخص لا أتمكن من إنقاذه خلال نوبتي في المستشفى، قطرة دم إضافية تصبح جزءًا مني. تتسرذب دماء الشهداء تحت جلدي، بصرف النظر عن عدد مرات غسل يدي، بل وتندمج في خلايا جسدي، حتى إنها قد تكون مشفّرة الآن في حمضي النووي. واليوم، يرنُّ في رأسي باستمرار صدى المنشار المتأرجح خلال عملية البتر، الذي جعلني دكتور زياد أقوم بإجرائها.

لمدة سبعة عشر عامًا ربّتني حمص وزرعت أحلامي: التّخرّج من الجامعة بمعدل تراكمي عالٍ، والحصول على وظيفة رائعة في مستشفى الزيتونة كصيدلانية، وأخيرًا أن أكون قادرة على السفر خارج سوريا ورؤية العالم. لكن لم يتحقق سوى حلم واحد منهم، وليس بالطريقة التي توقّعتها.

قبل عام من الآن، بعد اندلاع الربيع العربي في المنطقة، انتزعت سوريا الأمل الذي أيقظ الشعب ونادى بالحرية، وردّت الديكتاتورية بإطلاق العنان للجحيم.

ومع استهداف الجيش للأطباء عمدًا، أصبحوا نادرين مثل الضحك. لكن حتى دون الأطباء، لم تتوقف القنابل، وأصبحت مستشفى الزيتونة على حافة الانهيار؛ ممّا اضطرهم إلى ضمّ كل يد قد تساعد، حتى إنهم وظّفوا عمال النظافة كممرضين.

كنت مساوية في العلم لطبيب مبتدئ بعد قضائي سنة في كلية الصيدلة، لكن لم يكن هناك اختيارات بعد أن دفن الصيدلي الأخير تحت أنقاض منزله. ليس مهمًا أنني كنت لا أزال في الثامنة عشرة من عمري، ولم يهم أن خبرتي الطبية مقتصرة على كلمات الكتب المدرسية، حلّ كل هذا عندما وضعت أول جثة أمامي لأخيطها، فالموت معلّم ممتاز.

في السنة أشهر الأخيرة، شاركت في المزيد من الجراحات ممّا لا يمكنني حصرها، وأغلقت المزيد من العيون أكثر ممّا كنت أتوقع. لم يكن من المفترض أن تكون هذه حياتي!

يذكّرني الطريق العائد إلى المنزل بصور الأبيض والأسود التي رأيناها في كتب التاريخ لألمانيا ولندن بعد الحرب العالمية الثانية؛ بيوت مُسطّحة تفيض بخشبها وخرسانتها الداخلية مثل الأمعاء المثقوبة؛ رائحة الأشجار المحترقة التي تحوّلت إلى رماد.

الهواء بارد يلدغ من خلال قماش معطفي الطبي المهترئ، ولمسته الخشنة تجعلني أرتجف، وأغمغم: «فيفرفيو، تبدو مثل زهور الأقحوان، تعالج الخفّى وآلام المفاصل. فيفرفيو، فيفرفيو، فيفرفيو».

أخيرًا أرى منزلي ويتسع صدري. ليس هذا هو المنزل الذي كنت أعيش فيه مع عائلتي يومًا ما، لكنه ما منحتني إياه ليلى بعد أن سقطت قنبلة على منزلي، دونها كنت سأُشرّد في الشوارع.

مكان ليلى -بيتنا، على ما أظن- هو منزل من طابق واحد متكدّس بجوار أخرى تشبهه تمامًا. جميعها تحمل آثار طلقات الرصاص التي تزيّن الجدران كفنٍّ قاتل. كلها هادئة، وحزينة، ووحيدة. أمّا حينا، فهو الأخير الذي تبقّت فيه معظم المنازل سليمة. ففي الأحياء الأخرى ينام الناس تحت أسقف مُحطّمة أو في الشوارع. القفل صدئ ويصدر صريرًا عندما أدير المفتاح وأنادي: «لقد غدت إلى المنزل!»... «أنا هنا». تردّ ليلى.

جئنا إلى هذا العالم معًا عندما تشاركت أمهاتنا نفس غرفة المستشفى. إنها صديقتي المفضلة، وصخرتي، ولأنها وقعت في حب أخي حمزة، فهي

زوجة أخي. والآن، مع كل ما حدث، هي مسؤوليتي، والوحيدة من عائلتي التي بقيت لي في هذا العالم.

عندما رأت ليلى هذا المنزل للمرة الأولى، فُتنت فورًا بجماله الخارجي، فقام حمزة بشرائه لها على الفور. غرفتا نوم كانتا مثاليتين للزوجين الجديدين، ولإضفاء لمسة خاصة على المكان، قامت ليلى برسم فروع من الكروم الخضراء من أسفل أحد الجدران وصولًا إلى الأعلى، ونقشت أزهار اللافندر البنفسجية على جدار آخر، ثم غطت الأرضيات بسجاد عربي سميك، شاركتُها في شرائه من سوق الحميدية. كما دهنت المطبخ باللون الأبيض لتتباين مع الرفوف المصنوعة من خشب الجوز، وملأتها بتشكيلة مختلفة من الأكواب التي صمّمتها بنفسها. ويطل المطبخ على غرفة المعيشة، حيث كانت في يوم من الأيام. أدوات رسمها تملأ كل زاوية من الزوايا، وكانت الأوراق الملطّخة بأصابعها الملونة متناثرة على الأرض، والدهانات المتسربة من صندوقها تقطر من فرش الألوان. كثيرًا ما جئت إلى المنزل فوجدتها ممدّدة تحت حامل اللوحة، شعرها الأشقر مبعثر وتحدّق إلى السقف، وتغني كلمات أغنية عربية شعبية قديمة.

كان المنزل تجسيدًا لروح ليلى، لكن لم يعد كذلك بعد الآن. فقد بريقه، وأصبحت الألوان باهتة تمامًا، تاركة في أعقابها ظلًا رماديًا غائرًا، بمثابة قشرة للمنزل. أتجه نحو المطبخ لأجد ليلى في طريقي مستلقية على الأريكة المطبوعة بزهور الأقحوان في غرفة المعيشة، فأضع كيس الخبز البلدي على الكاونتر. بمجرد رؤيتي لها، يختفي إرهاق جسدي. «سأسخن الحساء. هل تريدين بعضًا؟»، تجيب: «لا، لست جائعة». صوتها على عكس صوتي؛ قوي مع

وعد الحياة. إنها كبطانية دافئة تحيط بي بذكريات حلوة. «كيف سار موضوع القارب؟» هراء. أتظاهر بالانشغال بصبّ حساء العدس المخفّف بالماء في القدر وإشعال الموقد الغازي المحمول. «هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين بعضًا من الحساء؟». تجلس ليلى مستقيمة، وبطنها المنتفخ بجنينٍ عمره سبعة أشهر ملحوظ أسفل الفستان الأزرق الداكن الذي ترتديه. «أخبريني كيف كانت الأمور يا سلامة».

ألصق عيني بالحساء البني، مستمعة إلى حسيس النار. منذ وقت قريب بعد انتقالي هنا، أصبحت ليلى تزعجني بحثّي على التحدث إلى آم في المستشفى. لقد سمِعَت قصصًا عن السوريين الذين يجدون ملاذًا آمنًا في ألمانيا، كما سمعث أنا. بعض مرضاي تمكّنوا من تأمين عبورهم عبر البحر المتوسط بمساعدةِ من آم. كيف استطاع إيجاد القوارب، ليس لديّ أدنى فكرة! لكن مع المال، كل شيء ممكن.

«سلامة!».

أتنهّد، وأضع إصبعي في الحساء فأجده دافئًا، لكن معدتي الفقيرة تقرقر ولا تهتم بدرجة سخونته، لذلك أزيحه من على الموقد وأجلس بجانبها على الأريكة. تنظر لي ليلى بصبر، حاجباها مرفوعان، وعيناها الزرقاوان الأوسع من المعتاد تتّسعان فوق معظم وجهها. دائمًا ما بدت كأنها خريف مُجسّد، بشعرها الأحمر الذهبي ونمشها المبعثر وبشرتها الشاحبة. حتى الان، ومع كل هذا الألم، لا تزال تبدو باهرة الجمال. لكنني أرى كيف برز مرفقاها بشكل غريب، وكيف ذبل خداها اللذان كانا ممتلئين.

«لم أسأله»، أقول أخيرًا، وأتناول ملعقة من الحساء وأعدُّ نفسي لتذمُّرها... وها قد أتى: «لماذا؟

لدينا بعض المال...». «نعم، مالنا الذي نحتاجه للبقاء عندما نصل هناك. لا نعرف كم سيطلب منّا، وعلاوة على ذلك، القصص...». تهزُّ رأسها، وشعرها متساقط على خدها. «حسنًا، نعم. بعض الناس لا يصلون... إلى اليابسة، لكن هناك المزيد الذين يصلون! سلامة، نحن بحاجة إلى اتخاذ قرار. نحن بحاجة إلى المغادرة! تعلمين هذا، قبل أن أبدأ في الرضاعة». لم تنته بعذ من الكلام وأنفاسها وشت بتعبها. «ولا تجرئين على اقتراح أن أذهب من دونك! إمّا أن نركب قاربًا معًا أو لا أحد! لن أكون في أي مكان، الله وحده يعلم أين قد يكون، خائفة من عقلي ووحيدة، لا أعرف ما إن كنتِ ميتة أم حية. لا يمكن لهذا أن يحدث بأي شكل من الأشكال! ولا يمكننا المشي إلى تركيا... أنت قلتِ ذلك بنفسك!». تُشير إلى بطنها المنتفخ، وتكمل: «ناهيك بحرس الحدود والقنّاصة المنتشرين في جميع الأنحاء مثل النمل، سيتم إطلاق النار علينا بمجرد خروجنا من منطقة الجيش السوري الحر. لدينا خيار واحد. كم مرة عليّ تكرار ذلك؟».

أسعل، الحساء سميك في حلقي، وينزل كالحجارة إلى معدتي. إنها على حق. هي في الثلث الثالث من حملها، ولا يمكننا أن نمشي أربعمائة ميل للوصول إلى مكان آمن، ونتجنّب الموت على طول الطريق. أضع القِدر على طاولة القهوة المصنوعة من خشب الصنوبر أمامنا وأحدّق في يدي. الندبات المتشابكة التي تغطيها، هي علامات ما تركه الموت عندما حاولت الانتحار. بعضها خافتة وفضية، في حين أن بعضها أكثر وعورة، والجرح الجديد لا يزال يبدو حديثًا على الرغم من أنه شُفي. إنها تذكير بالعمل أسرع، والتغلب على الإرهاق وإنقاذ حياة أخرى. أحاول سحب أكمامي فوقها، لكن يد ليلى تغطي

إحدى يديّ بلطف فأنظر إليها. «أعرف لماذا لم تسأليه، وليست المشكلة في المال».

ترتعش يدي تحت يدها. ويهمس صوت حمزة في ذهني، مشوبًا بالقلق: «سلامة، عديني. عديني». أهزّ رأسي، محاولةً التخلص من صوته، وآخذ نفسًا عميقًا: «ليلى، أنا الصيدلانية الوحيدة التي بقيت في ثلاثة أحياء. إذا غادرت، فمن سيساعدهم؟ الأطفال الباكون. ضحايا القناص. الرجال الجرحى». تمسك فستانها بإحكام: «أعلم. لكنني لن أضحي بكِ!». أفتح فمي لأقول شيئًا، لكنني أتوقّف عندما تجفل وتغمض عينيها بقوة. أسألها: «هل الطفل يركل؟»، وأقترب منها. على الرغم من أنني أحاول ألّا أدع القلق يظهر، فإنه يغلبني. مع الحصار، تكاد تكون الفيتامينات السابقة للولادة شحيحة والفحوصات المختبرية محدودة. تعترف ليلى: «نعم، قليلًا». «هل يؤلمك؟». «لا. فقط شعور غير مريح». «هل هناك أي شيء يمكنني فعله؟». تهزّ رأسها. «أنا بخير». «حسنًا، أستطيع سماعك تكذبين من على بعد ميل. استديري». أقول، وهي تضحك قبل أن تستدير. أضغط على عُقدات الإجهاد في كتفيها حتى أشعر بالتوتر يتلاشى منها. ليست لديها الكثير من الدهون تحت جلدها، وكل مرة تلمس أصابعي عظامها في منطقة الكتف والظهر، أرتجف. هذا... هذا خطأ. لا ينبغي أن تكون هنا.

«يمكنك التوقف الآن». تقول ليلى بعد بضع دقائق، وتظهر ابتسامة ممتنّة على وجهها، «شكرًا لك». أحاول العودة إلى النقطة التي توقّفنا عندها. «إنها الصيدلانية في داخلي، تعرفين. الحاجة إلى العناية بك في عظامي». «أعلم». أنحني وأضع يدي على بطنها، وشعرت بالطفل يضغط قليلًا

بالمقابل. «أحبك، يا طفلتي، لكن عليك التوقف عن إيذاء أمك، فهي تحتاج إلى النوم». أتمتم بنعومة. بينما تعمّقت ابتسامة ليلى وربتت على خدي. «أنت لطيفة جدًا يا سلامة. يومًا ما سيختطفك شخص ما بعيدًا عني». «الزواج؟ في هذه الأوضاع الاقتصادية؟».

أقول وأنفخ، وأفكر في المرة الأخيرة التي أخبرتني بها ماما أننا سنستقبل عمّة وابنها لتناول القهوة. من الطريف أنهما لم يصلا أبدًا. حدثت الانتفاضة في نفس اليوم. لكني أتذكر أنني كنت أشعر بالحماس لهذه الزيارة. عند تفكيري في فرص الوقوع في الحب. عندما أنظر الآن إلى الماضي، يبدو لي كأنني أشاهد فتاة مختلفة ترتدي وجهي وتتحدث بصوتي. تغضّنت حواجب ليلى. «قد يحدث، لا تكوني متشائمة هكذا». أضحك على تعبيرها المستاء وأقول: «كما ترين!».

ذلك الجزء من ليلى لم يتغير. في تلك الأيام، عندما اتصلت بها لأخبرها بالزيارة، كانت على باب بيتي في غضون خمس عشرة دقيقة، تحمل حقيبة كبيرة مليئة بالملابس والمكياج، وتصرخ بصوت عالٍ: «سترتدين هذا!»، أعلَنت بعدما جذبتني إلى غرفتي، وطرحت قفطانها الأزرق السماوي. كان القماش غنيًا ينساب بسلاسة على ذراعي، وكانت حاشيته مخيطة بالذهب، وكذلك الحزام في الخصر، حيث تدفّق القماش من الجوانب مثل الشلال. كان اللون يذكّرني بالبحر المصنوع من المطر في فيلم «المخطوفة»(1). سحريٌ، هذا ما يمكن القول عنه. «فلنضع الكحل الأزرق، وسيتوسل إليك لرؤيته مجددًا»، غمزت، وضحكتُ أنا، «تبدين رائعة للغاية عندما تضعين الكحل الأزرق!». «أعرف

ذلك»، هززت حاجبيّ، «من مزايا كوني ببشرة بنية». «في حين أبدو أنا كأنني جثة مكدومة!». مسحت دموعًا وهمية من عينيها، وخاتم زواجها يتلألأ في أصبعها. «أوقفي هذه الدراما يا ليلى». ضحكتْ. تحوّلت ابتسامتها إلى ابتسامة شيطانية، وتوهّجت عيناها الزرقاوان. «أنت على حق. يحبها حمزة كثيرًا». بحركة فورية، قمت بتغطية أذني بيدي. «أووووه، لا! لا أحتاج إلى معرفة أي شيء عن ذلك!».

ضحكت بشدة، وشدّت ذراعي، محاولة إثارة إحراجي أكثر، لكنها لم تستطع تركيب جملة مفهومة؛ وذلك بسبب تعابير وجهي المفزعة التي جعلتها تنهار في نوبة من الضحك. صوت تنهيدة ليلى يعيدني إلى واقعي. تقول: «الحياة أكثر من مجرد النجاة يا سلامة». أجبت: «أعرف ذلك». اختفى مزاجنا الهزلي. تلقّتني بنظرة حادة: «حقًّا؟ لأني أرى كيف تتصرفين. أنت تركّزين فقط على المستشفى، والعمل، وعليّ. لكنك لا تعيشين فعليًا. لا تفكرين في سبب حدوث هذه الثورة. كأنك لا تريدين التفكير فيها على الإطلاق». (تتوقّف، وهي تحدّق فيّ، ويجف حلقي)، «كأنك لا تهتمين يا سلامة. لكن أنا أعرف أنك تهتمّين. تعلمين أن هذه الثورة تتعلق بإعادة حياتنا. إنها ليست مجرد محاولة للبقاء. إنها عن كفاحنا. إذا لم تستطيعي الكفاح هنا، فلن تستطيعي ذلك في أي مكان آخر. حتى لو غيّرت رأيك ووصلنا إلى ألمانيا!». أقف وأومئ إلى الدهانات الباهتة والمتقشرة على الجدران. إلى لا شيء.

«كفاح ماذا؟ سنكون محظوظين إذا كان أسوأ ما يحدث لنا هنا هو الموت، وتعلمين ذلك! إمّا أن يعتقلنا الجيش أو أن تقتلنا قنبلة. ليس هناك شيء

يستحق الكفاح لأننا لا يمكننا المحاربة. لا أحد يساعدنا! أتطوّع في المستشفى لأني لا أتحمل رؤية الناس يموتون. لكن هذا كل شيء». تنظر لي ليلى ولا يوجد في عينيها أي غضب، بل رحمة فقط. «نحن نحارب بينما نحن لا نزال هنا، سلامة، لأن هذه بلادنا. هذه أرض والدك وجدّك قبله. تاريخك محفور في هذا التراب. لا يوجد بلد في العالم يحبك كما يفعل بلدك».

تلسع الدموع عينيّ. تردد صدى كلماتها من كتب التاريخ التي قرأناها في المدرسة. حب بلدنا في نخاع عظامنا. إنه في النشيد الوطني الذي كنا نغنيه كل صباح من أول يوم لنا في المدرسة. الكلمات كانت مجرد كلمات حينها. لكن الآن، بعد كل هذا، أصبحت واقعنا.

نفوس أباة وماضٍ مجيد

وروح الأضاحي رقيب عتيد

أتجنّب نظرات ليلى. لا أريد أن أشعر بالذنب. لقد اكتفيت من ذلك بالفعل. «لقد فقدت الكثير في هذه الحرب». أقول بمرارة. صوتها حازم: «ليست حربًا يا سلامة، إنها ثورة!». «أيًّا كان!»، وبهذا، أعود مرة أخرى إلى غرفتي، وأغلق الباب خلفي لأتمكن من التنفس. كل ما يهمني -كل ما لديّ من بقايا في هذا العالم- هو ليلى والمستشفى. لست وحشًا، هناك أشخاص يعانون وأستطيع المساعدة. هذا هو السبب الذي دفعني لأصبح صيدلانية. لكني أرفض التفكير في سبب وصولهم إلى المستشفى، ولماذا يحدث كل هذا. السبب وراء أخذ ماما. أتذكر أصابعها الباردة على أصابعي. أخذوا بابا وحمزة إلى مكان لا يعلمه إلا الله. لا أريد أن أسهب في الحديث عن الماضي. لا أريد البكاء بسبب كيف سأنهي

مراهقتي بلا شيء سوى الأمل المفقود والأحلام المليئة بالكوابيس. أريد النجاة. أريد عائلتي. أريد عائلتي فقط. حتى لو كان ما تقوله ليلى حقيقة.

أقوم بتغيير ملابسي إلى البيجاما الوحيدة التي تبقّت لديّ، سترة وبنطلون من القطن الأسود، لائقة بما يكفي إذا اضطررت للهروب في الليل. في الحمام، أتجاهل انعكاسي الهزيل وشعري البني الجاف الذي يتدلى على كتفي، وأفتح صنبور الماء كالعادة. لا شيء. لم تصل الماء أو الكهرباء إلى الحي منذ أسابيع. كانت تأتي على دفعات، لكنها توقّفت تمامًا بسبب الحصار. لحسن الحظ، تساقطت الأمطار الأسبوع الماضي، لذا وضعنا بعض الدّلاء لجمع الماء. استخدمت قبضة يدي الصغيرة للوضوء والصلاة.

انطفأت أشعة الشمس الضعيفة من ألواح الأرضية المخدوشة في غرفتي، وسيطرت عباءة الليل القاتمة على حمص. اصطكّت أسناني لبعض الوقت مع الترقب قبل أن أغلق شفتي بإحكام وأبتلع ريقي بصعوبة. أي سيطرة أمارسها خلال النهار تتداعى عندما تغرب الشمس.

أجلس على سريري، أغلق عينيّ وأتنفس بعمق. أحتاج إلى تصفية ذهني. أحتاج إلى التركيز على شيء آخر غير الخوف والألم اللذين تجذّرا في روحي. «أليس(2) الحلوة. حلوة كاسمها»، همهمت، وأدعو ألّا تخذلني أعصابي. «بتلات بيضاء. تُستخدم لتخفيف الالام. كما تُستخدم للأنفلونزا والتشنّجات البطنية والسعال. حلوة. حلوة».

طريقة فعّالة. تبدأ رئتاي في توزيع الأكسجين بالتساوي في دمي، وأفتح عيني وأراقب كتلة من الغيوم الرمادية خارج نافذتي. الزجاج متشقق على

الجوانب منذ أن تعرّض منزل ليلى للقصف القريب، والإطار ممزق. أتذكر أنني عندما انتقلت إلى هنا، كان عليّ تنظيف الدم من فوق لوح الزجاج. على الرغم من أن النافذة مغلقة بإحكام، إلا أن البرد يخترق الغرفة وأرتجف، أعلم ما سيحدث. الرعب الذي أراه ليس مقتصرًا على المستشفى، فإن رعبي قد سكن في عقلي، مكتسبًا حياة وصوتًا، ولا يتردد في الظهور كل ليلة.

«كم من الوقت ستجلسين هنا دون التحدث إليّ؟» يأتي الصوت العميق من جانب حافة النافذة؛ ممّا يجعل جلد رقبتي يقشعر بالكامل. صوته يذكّرني بالماء البارد الذي أرشه على جسدي عندما أعود غارقة بدماء الشهداء. إنه أحجار تثقل على صدري، وتغرقني في الأرض أسفلنا. ثقيل كيوم رطب، وصاخب كالقنابل التي تلقيها علينا القوات النظامية. إنه ما بني عليه مستشفانا، والأصوات الصامتة التي نصدرها. أستدير نحوه ببطءٍ. «ماذا تريد الآن؟».

ينظر خوف إليّ. بدت بدلته نظيفةً ومنتعشةً. يزعجني بالرغم من تلك البقع الحمراء على كتفيه. كانت هناك منذ لقائنا الأول، ولا زلت لم أعتد عليهم. كما لا أحب أن أنظر إلى عينيه أيضًا، فهي زرقاء كالجليد. بشعره الأسود اللامع، لا يبدو بشريًا، وأعتقد أن هذا هو الهدف. إنه يبدو كأنه أقرب ما يمكن إلى الإنسان.

«أنت تعرفين ما أريد»، تماوج صوته، وارتجفت أنا.

2

لقد فقدت كل شيء في يوليو الماضي ، كل ذلك في غضون أسبوع واحد.

في ذلك الوقت، كنت مستلقية على سرير المستشفى، والدموع الصامتة تلسع الجروح على وجهي، وفخذي اليسرى تؤلمني من السقوط، وضلوعي المصابة بالكدمات تحتجُ بألم في كل محاولة للتنفس. كانت يدي ملفوفة في شاش ثقيل، منتفخة كأنها قفازات. أحدثت الشظايا ثقوبًا في يدي، وتفجّر الدم كالينبوع. لكن كل ذلك كان يمكن التحكم فيه.

كانت الإصابة الخطيرة الوحيدة في مؤخرة رأسي، حيث دفعتني قوة الانفجار إلى الخلف، وارتطمت قاعدة جمجمتي بالخرسانة؛ ممّا أدّى إلى ترك ندبة مدى الحياة. قام حينها الدكتور زياد بتخييطي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي به فيها. قال لي إنني محظوظة لأنني نجوت بندبة فقط. أعتقد أنه كان يحاول تشتيت ذهني عن حقيقة أن ماما لم تكن بنفس حظي، أن القنبلة انتزعتها بعيدًا عني ولن أتمكن أبدًا من احتضانها مرة أخرى.

فيما بعد في ذلك اليوم، عندما ظهر خوف وأخبرني باسمه، استغرق الأمر بعض الوقت حتى أدركت أنني الوحيدة التي تراه. في البداية، اعتقدت أن الأدوية جعلتني أرى رؤى، وأنه سيختفي عندما ينتهي تأثير المورفين. لكنه بقي بجانبي، يهمس بأشياء مرعبة بينما أبكي على ماما. حتى عندما هدأ الألم، وشفيت الأضلاع، وتحوّلت الجروح في يدي إلى ندوب، لم يغادر. وبمجرد أن استقرّت هذه القناعة، جاء الذعر بعد فترة وجيزة.

لقد كان هلوسة، ظهرت لتبقى في صورة شخص يأتيني كل ليلة على مدار الأشهر السبعة الماضية، وينثر مخاوفي بقسوة، وينفخ الحياة فيها. ليس لديّ تفسير آخر. وضعه أمام التفسيرات العلمية هو الطريقة الوحيدة التي أستطيع من خلالها مواجهته.

«ما يجعلك مرتاحة أكثر». يبتسم في شر.

أفرك ندبة رأسي الخلفية، وأتحسس الحواف الخشنة بأصابعي. «الأقحوان»، أهمس. «أقحوان، أقحوان».

خوف يبعد شعره عن عينيه، ويأخذ علبة سجائر من جيبه الأمامي. العلبة حمراء، دائمًا نفس البقع على كتفيه. يختار سيجارًا طويلًا ويضغطه بين شفتيه قبل إشعاله. يتأجج الطرف، وتتآكل الحواف، ويأخذ نفسًا طويلًا. ويقول: «أريد أن أعرف لماذا لم تتحدثي إلى آم. ألم تعديني بالأمس بأنك ستفعلين ذلك؟».

صوته خافت، لكن لا شك في أن التهديد يسمّم كل كلمة. هكذا بدأ الأمر معه: ملاحظة دنيئة هنا وهناك تحفز أفكاري على مغادرة سوريا، حتى قرّر يومًا ما أن عليّ طلب مكان على قارب من آم. ولم يتوقف من حينها عن المطالبة بذلك. أحيانًا أتساءل كيف يمكن لعقلي أن يخلق شخصًا مثله.

تتساقط قطرة من العرق البارد على رقبتي. وأجيب بصعوبة: «نعم...».

ينقر السيجارة فيتساقط الرماد على الأرض، ثم يختفي كما لو أن عليه الاصطدام بالأرض. «ماذا حدث؟» توفيت فتاة في الخامسة من عمرها، كان لها شعر بني مجعد، بسبب رصاص قناص أصابتها في قلبها بينما أنقذت أخاها الأكبر من التسمم الدموي. أنهم في حاجة إليّ. «أنا... لم أستطع».

عيناه تضيقان. «لم تستطيعي!»، يكرّر بجفاء. «لذلك أفترض أنك تريدين السقوط سحقًا تحت هذا البيت. حية ومكسورة وتنزفين. لا يأتي أحد لإنقاذك لأنه كيف سيتمكّنون من ذلك؟ فالعضلات التي تعاني من سوء التغذية مثل عضلاتك يمكنها بالكاد حمل الأجساد، فضلًا عن الخرسانة. أو ربما تريدين الاعتقال. يأخذونك إلى حيثما يوجد بابا وحمزة. أو الاغتصاب والتعذيب للحصول على إجابات ليست لديك. يضع الجيش الموت كمكافأة وليس كعقاب. هل هذا ما تريدينه يا سلامة؟».

ترتجف عظامي. «لا!».

ينفخ الدخان مرة أخرى قبل أن يهرس السيجارة تحت كعب حذائه ماركة أكسفورد. ثم يجتاز العتبة ويقف أمامي. أرفع رأسي للنظر إليه. عيناه باردة مثل نهر العاصي في ديسمبر.

«لا يمكنك مخالفة وعدك»، يقول، «لقد وعدت أنك ستطلبين من آم مركبًا اليوم. ومرّ بجوارك ثلاث مرات ولم تفعلي ذلك». شدّ عضلات شفتيه مكوّنًا خطًا رفيعًا. «أم تريدين مني أن أتراجع عن صفقتي؟».

«لا!» صرخت. «لا».

طرقعة واحدة من أصابعه ويمكنه أن يغيّر واقعي تمامًا، ويطلق العنان للهلوسة التي تُدخلني في حالة هذيان، ويظهر للجميع أن القناع الذي أضعه ليس أكثر من أغصان هشّة ضد الرياح القوية. ولن يسمح لي الدكتور زياد بالعمل في المستشفى بعد الآن. ليس عندما قد أشكّل خطرًا على المرضى. فأنا بحاجة إلى المستشفى، أحتاجه لأنسى ألمي، لإبقاء يدي مشغولة حتى لا يصرخ عقلي بنفسه بصوت أجش. أنا في حاجة إلى إنقاذ الأرواح.

الأسوأ من ذلك، أنني سأزيد من هموم وقلق ليلى؛ ممّا يؤثّر على صحتها وصحة الطفل. لا، سأتحمل كل هذا من أجلها. سأغرق في دموعي وأقدم روحي له إذا كان بإمكاني الحفاظ على ليلى آمنة بالتظاهر أنني على ما يرام. وهكذا، فقد وعد خوف بألا يظهر أثناء النهار وحصر الرعب الذي يظهره لي في الليل فقط، بعيدًا عن أعين أي شخص آخر.

ابتسامة غير لطيفة ترفع شفتيه إلى أعلى. «هذه فرصتك الأخيرة يا سلامة، وأقسم لك، إذا لم تسأله غدًا، فسأمزق عالمك».

يتصاعد الغضب من بين دقّات قلب الخوف. قد يجعلني العقل الباطن تحت ضرسه، لكنه في النهاية عقلي الباطن.

«ليس الأمر بهذه السهولة، يا خوف»، أهمس إليه، وأنا أبعد عن ذهني نظرة كانت على وجه الصبي عندما كان يحمل أخته الصغيرة بين ذراعيه، وجسدها النحيل. صغيرة جدًا. «قد لا يكون لدى آم قارب. وحتى لو لديه واحد، فسيكون الثمن باهظًا لدرجة أننا لن نتمكن من دفعه، لذا فإن المخرج الوحيد هو السير إلى تركيا؛ ممّا يجعلنا هدفًا مثاليًا للجيش. هذا إن نجت ليلى من المشي!».

يراوغ بحاجبيه لاهيًا. «لماذا تختارين تجاهل الوعد الذي قطعته لحمزة بخصوص إخراج ليلى من هنا؟ مشاعرك المتضاربة حول المستشفى تُسبّب فوضى في قلبك. الفكرة المهمة هي أنك قدّمت وعودًا والآن تتراجعين. كل هذه الثرثرة ليست أكثر من مجرد أعذار لإبعاد شعورك بالذنب. ما الثمن الذي لن تدفعيه مقابل سلامة ليلى؟».

نظرت بعيدًا وخبّأت يدي في جيبي، وغرقت داخل المرتبة.

«هذه الذكرى...» -يستقيم ويبتسم- «يجب أن تعزِّز قرارك». وقبل أن أصل بقدرتي على الصراخ، يفرع بأصابعه.

رائحة النعناع الغنية والقرفة المطهية في مرق اللبن، واللحوم، تغزو أنفي بينما أنا غارقة في النوستالجيا. أتردد لثانية قبل فتح عيني. عندما أفعل ذلك، أجد نفسي لم أغد في غرفتي المتعفنة بل عدت إلى البيت. بيتي.

كان المطبخ بالضبط كما أتذكّره. الحوائط الرخامية بين البيج والبني، حيث تظهر اللوحات المعلقة بالخط العربي والليمون الذهبي المرسوم. مساحة التخزين أسفل الكاونتر تحمل القدور والأواني المكدسة بعناية. مفرش أبيض من الساتان المطرز بالزنابق فوق طاولة المطبخ. حول الطاولة تتراص أربعة كراسي خشبية، وفوقها تتدلى زهور الأوركيد من فازة كريستال. زهور أوركيد كنت قد اشتريتها من أجل زيارة كان من المفترض أن تتم في وقت لاحق من ذلك النهار- اليوم. لقد اشتريت دائمًا الأوركيد الأزرق حين كان لدينا مناسبة اجتماعية.

استدرت أخيرًا إلى يساري، حيث تقف ماما بجانبي، وعيناها على شُشبرك(3)، تقلّب القِدر بملعقة خشبية. بين حين وآخر شفتاها تتحركان بالدعاء.

تهمس: «احفظهم يا الله. احفظ زوجي وأولادي بأمان. أعذهم إليّ أحياء وبصحة جيدة. احمهم من أولئك الذين يتمنون لهم الأذى».

أنا متجذّرة في مكاني، وقلبي ينقسم نصفين. إنها بجانبي. بضع دموع صامتة تتساقط على خدي، والحاجة إلى إلقاء نفسي بين ذراعيها تغمرني. أريد

ماما. أريدها أن تهدئ حزني وتقبّلني بينما تناديني «يا عمري» و«تؤبريني». حياتي ومماتي.

بدلًا من ذلك، أنغز ذراعها برفق. كانت تنظر بعينين محتقنتين بالدم، مشتتتين، قبل أن تظهر ابتسامة مُتعبة على شفتيها، ويمكنني أن أرى كيف غيّرتها هذه الحرب بشكل جذري. وجهها، الذي لم يبدُ أن عمره يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، مُرهق من التوتر، وجذور شعرها البني الأشقر رمادية. لم تدع جذورها تصبح رمادية أبدًا، دائمًا ما تكون في صورة أنيقة ولائقة. وقد ظهرت عظامها بشكل حاد وظلال داكنة تحت عينيها لم تكن موجودة من قبل.

«تؤبرينيي، سنكون بخير. إن شاء الله»، همَست وهي تلفّ إحدى ذراعيها حول كتفي وتضمني إليها. ادفنيني قبل أن أدفنك.

وفعلتُ.

«حسنًا يا ماما»، تمكّنتُ من الالتصاق بها، والذوبان في لمستها.

ينادي حمزة وهو يدخل مع بابا من غرفة المعيشة: «آه، سلومة»، وكدت أبكي. إنهما هنا. عيون حمزة العسلية مليئة بالحياة، انعكاس لبابا. كلاهما يرتديان معاطِف مع علم الثورة السورية يتدلى على كتف واحدة. التفّ واحدٌ وتحول إلى ما يشبه الأنشوطة. «هل ستبكين فعلًا؟».

لا أسأل حمزة عن مكان ليلى لأنني أعرف أنها عادت إلى منزلهما، في انتظاره. لكنه لن يعود إليها اليوم.

«حمزة، لا تضايق أختك»، قال بابا، وهو يمشي تجاه ماما. قامت على الفور بابتلاعه في حضنها، ولفّت ذراعيه حولها، فهمهم بشيء في أذنها.

لا أستطيع تحمّل رؤية هذا، لذا ابتعدت. أسأل حمزة وصوتي يتكسّر، ولا بدّ لي من إمالة ذقني لأعلى للنظر إليه: «أنت ذاهب الآن؟». لم أفعل ذلك منذ سبعة أشهر. يبتسم بهدوء. «التظاهر يحدث بعد الصلاة، لذلك يجب أن نصل مبكرًا».

أمنع نفسي من النحيب. كان قد بلغ للتوّ الثانية والعشرين من عمره، وتخرّج حديثًا في كلية الطب، وتقدم بطلب للحصول على عمل في مستشفى الزيتونة. لم يكن يعلم أنه سيكون أبًا. هل كان ذلك سيمنعه من الانضمام إلى المظاهرات؟

«لا تـ... تذهب»، أتأتئ. ربما قد تنتهي هذه الهلوسة بشكل جيد. ربما يمكنني تغيير الأحداث. «أرجوك أنت وبابا. لا تذهبا اليوم!». يتجهّم ويقول: «أنتِ تقولين ذلك في كل مرة!».

أمسكت بذراعه بإحكام، وعيناي تتذكّران مؤخّرة عنقه المنخفضة، والغمازة في خدّه الذي تظهر عندما يبتسم. هذه آخر ذكرى لديّ من أخي. مع مرور الوقت، تتشوّه الذكريات، وأنا أعلم أنني سأنسى ملامحه الدقيقة. سوف أنسى شعر بابا البني، المخطّط بالشيب، والتلألؤ اللطيف في عينيه. سوف أنسى كيف أن حمزة على الأقل أطول بشبرين وأننا نتشارك نفس ظلال الشّعر البني. سوف أنسى الغمازات في خدي ماما وابتسامتها التي تضيء العالم. صور عائلتنا مدفونة تحت أنقاض هذا المبنى، ولن أستعيدها أبدًا.

«يا الله! سلامة، لماذا أنت قلقة هكذا؟»، يقول، ثم يهزّ رأسه عندما يرى الدموع في عيني، ويضيف بلطف: «أعدك بأننا سنعود». تنقبض رئتي. أنا أعرف ما سيقوله بعد ذلك. لقد أعدت هذه المحادثة في ذهني بشكل متكرر حتى تتدافع الكلمات معًا. «لكن

إذا لم أفعل...»، يأخذ نفسًا عميقًا، ويتحول إلى كلام جاد. «سلامة، إذا لم أفعل... إذن ستعتني بليلى. تأكّدي من أنها وماما بخير. عليك التأكد من بقائكم أنتم الثلاثة على قيد الحياة، وبأمان». أبتلع ريقي بصعوبة. «لقد وعدتك بذلك بالفعل».

عندما غمر الناس الشوارع خلال المظاهرة الأولى، أخذني حمزة على الفور جانبًا وجعلني أقسم على ذلك بالضبط. كان دائمًا حدسه عاليًا. ذكي، متجاوز عدد سنوات عمره. كان يشعر بي دائمًا عندما أكون محبطة، حتى لو لم أقل شيئًا. وصل قلبه، الناعم كالغيمة، إلى كل من حوله. كان يعلم أن ماما، على الرغم من رعبها، ستحتاج إلى سحبها من سوريا وهي ترفس وتصرخ، وأن ليلى ستتهكّم إذا طلب منها الهرب وتركه وراءها. لكنني سأحرص على أن كلتيهما ستبقيان على قيد الحياة. أودّ أن أضع سلامة عائلتي فوق كل شيء، أو مَن بقي منها.

«عديني مرة أخرى»، قال بعنف. «لا يمكنني الخروج إلى هناك بضمير مرتاح دون أن أعلم على وجه اليقين. أحتاج إلى سماع هذه الكلمات». العسل في عينيه يحترق كالنار.

«أعدكَ»، تمكّنتُ من الهمس. كلمة ثقيلة إلى حدّ لم أشهده من قبل. الآن من المفترض أن ينكش شعري قبل أن يخرج مع بابا... دون عودة. لكنه لم يفعل، بل تتخذ يداه موضعًا على كتفي، وسأل: «هل فعلتِ ذلك؟»، أتلعثم وأجيبه: «ماذا؟».

النيران تشتعل في عينيه: «بعدما اختطفتني قوات النظام وبابا، هل قمت بإخراج ماما؟ هل أنقذت ليلى؟ أم أهدرت حياتيهما؟»، ترتجف عظامي. «سلامة، هل كذبت عليّ؟»، يتساقط الألم من تعابير وجهه. أعود إلى الوراء، وأضع يدي على

صدري. «هل تركت ماما تموت؟»، يسأل، صوته أعلى الآن. يقف ماما وبابا بجانبه، والدم يتساقط من الجانب الأيمن لوجه ماما. يسقط على السيراميك التي كانت تُلمّعه كل يوم. أشعر بكل قطرة كأنها سكين تخترق القلب. «آسفة»، أتوسل. «رجاءً. اغفر لي!».

«آسفة؟»، يقول بابا، حاجباه متجهّمان. «تركت أمّك تموت، وتركت ليلى تموت. لماذا؟»، يقول حمزة: «ربما تسامحك ماما، لكني لن أفعل. إذا تعرّضت ليلى للمعاناة بسبب اختياراتك يا سلامة، لن أسامحك أبدًا!».

أنهار بكاءً على الأرض. «آسفة... آسفة...»، «لا يكفي»، يقولون جميعًا بصوت واحد. تهتز الأرض تحتي، وتلتف الكثير من الأغصان حول كاحلي لتسحبني تحت البلاط. ينهار مطبخي ومنزلي، وأسقط في الهاوية السوداء، صراخًا. يصطدم ظهري بحجر، وأتكبّد صعوبة في استنشاق الهواء. عندما أفتح عينيّ، أجد دخانًا صاعدًا من مبنى مشتعل يغطي السماء الزرقاء الفاتحة أعلى رأسي.

يصبح الأكسجين قليلًا في رئتي، وأسعل، وترتجف قدمي. أمامي يقف المبنى المكوّن من سبعة طوابق الذي كنت أسميه بيتي. منشور بالشرفة في الطابق السادس ملابس في انتظار أن تجف، وتحتها يتدلى علم الثورة السورية بفخر من الدرابزين، يتلوى مع الرياح، يبدو كما لو أنه سيطير. لكن حمزة ربطه بإحكام من كل جانب للتأكد من ثباته. لم تتحمل ماما فكرة إزالته، بعد اعتقاله ومعه بابا.

الهواء من حولي هادئ جدًا. أعرف أين أنا دون الحاجة إلى السؤال. سحبني خوف إلى أسبوع في المستقبل، إلى واحد من أسوأ أيام حياتي.

ماما.

أتأوه. «لا... لا».

«لا يمكنك إنقاذها». يقف خوف على بُعد عدة أمتار مني. «لقد ماتت بالفعل». مبناي على بُعد خمس عشرة خطوة. يمكنني إنقاذها. يمكنني إنقاذها. أصرخ: «ماما!»، راكضة باتجاهها. «اخرجي! اخرجي! الطائرات قادمة!».

لكني متأخرة جدًا، فالطائرات أسرع من صوتي، والقنابل لا تهتم بوجود الأشخاص الخطأ بالداخل. يدوّي الصوت العالي في أذني حينما يضربون المبنى ليتحول إلى حطام ملطّخ بالدماء، لكن الرجفة لا تساعدني على الابتعاد. يسوّدون المبنى حتى يصبح ركامًا، وأنا واقفة فوق جثّة أمي المشوهة. لم تكن ترتدي الحجاب، شعرها البني أصبح رماديًا بفعل الأتربة، وكان رأسها ملتويًا في زاوية خاطئة. والدم، هناك الكثير من الدم الذي يلطّخ قدميّ العاريتين، وأحس بالغثيان من الرائحة المعدنية الحادة.

أبكي، وأسقط على ركبتي، وأحتضن جسدها، محاولة سحبها بعيدًا عن الموت. ترتعش يدي بشكل لا يمكن السيطرة عليه حيث أحاول تمشيط الشعر الملتصق بخدّيها، لكنني ألطّخها بدمها فحسب. تتطاير قطرات من دمها في فمي. «يا ماما! يا الله، ليس مرة أخرى! ليس مرة أخرى!»، تلمع عيناها، تحدّق بي مباشرة. «لماذا لم تنقذيني؟»، تهمس ماما، عيناها فارغتان. «لماذا؟».

«أنا آسفة»، أتلفّظ بهذا الكلام بين الشهقات. «من فضلك، أرجوك، تسامحيني!»، تنزل دموعي على وجهها الساكن، شفتي تتوسّل إليها أن تعود، وأحتضنها. حتى مع كل الدم الذي يغمرنا، لا تزال

رائحتها هي نفسها. «انتهى الأمر يا سلامة»، يقول خوف من خلفي. «انظري، أنتِ هناك».

ألقي نظرة على المكان الذي يشير إليه. بين أنقاض القنبلة ودخانها المتلاطم، هناك كانت نفسي السابقة. خدّاها لا يزالان ممتلئين، وعيناها تبدأن في التأقلم مع الألم الذي سيصبح رفيقها الدائم. إنها فقط في السابعة عشرة من عمرها، وبالكاد تلمح لديها الرعب الحقيقي. تسعل، ملابسها وحجابها ممزّقان، إنها تسعى للزحف نحو جثّة ماما قبل أن تفقد قوة عضلاتها ثم تسقط أرضًا فاقدة الوعي.

الغضب والحزن يتداخلان في قلبي، مشتملين على عظامي المتدهورة. «هذا يكفي»، أتنفس بصعوبة، وأضغط على جسد ماما بشدة. «أعِدني إلى الحاضر!».

يجلس خوف بجانبي، يمسح نقطة دم من خدّي ويبتسم. لا يصل الحطام إليه، ملابسه لم تتأثر. ومع ذلك، يبدو أن البقع الحمراء على كتفيه تزداد، ولا أعرف ما إذا كنت أرى الأمور بشكل صحيح، ولكن يبدو أنها تتسرّب على طية صدريته.

يطرقع بأصابعه وأنا أعود إلى سريري، حيث يختفي كل آثار الحطام والدم. أرمش بعينيّ، أنظر إلى يديّ الجافّتين المجعّدتين، وأشعر بالاضطراب بسبب اختفاء ماما فجأةً من حضني. الدموع على وجهي، لا تزال رطبةً، هي الدليل الوحيد على ما تحمّلته. يأخذ خوف نفسًا عميقًا، والرضا ينحت كل خطوط وجهه الشاحب، وينحني على النافذة.

«إذا استمررت في العناد، سيحدث هذا مع ليلى». يستلّ سيجارة جديدة. «لقد كسرت نصف وعدك بالفعل، هل تريدين أن تكون نتيجة تقاعسك هي وفاتها؟»، يخونني جسدي، يرتجف في كل مكان،

وأنا أمسك ببطانيتي الرثة لأخفي ذلك.

يطلق سحابة دخان رمادي داكن تسقط على الأرض المتهالكة في خيوط قبل أن تختفي. «يموت مرضاك يومًا بعد الآخر. كل واحد منهم يُشكّل ندمًا آخر في قلبك. البقاء هنا سيدمّرك حتى لو بقيت ليلى على قيد الحياة». أتذمّر: «ارحل». أكره عقلي لجعله يفعل هذا بي. «لا أحب أن أتعامل كأحمق يا سلامة»، يهمس. «أعطيني ما أريد وقد أدعك وشأنك».

لساني جاف والندوب على راحتي تبدأ في التألم بسبب أظافري التي تنشب بها. بدلًا من الإجابة عليه، ألتفت بعيدًا، وعقلي يصطدم بجمجمتي. تتساقط عيناي على الأدراج المغلقة للطاولة الجانبية بجوار السرير، حيث أحتفظ بمخزني المخفي من حبوب بانادول. لقد كنت أجمعها منذ يوليو تحضيرًا لدخول ليلى في مرحلة المخاض، ومن أجل اللحظة التي سأفكر في تناول حبة واحدة، ثم قرّرت ألّا أفعل. أنا لا أعرف إذا كنا سنتمكن من الوصول إلى أي دواء آخر في أي مكان سنكون فيه.

«ياسمين. ياسمين. ياسمين...»، أردّد مرارًا حتى أشعر وكأنني أستطيع شمّ رائحته مثلما كنت أشعر بها عندما كانت ماما تحتضنني.

3

في الصباح التالي، أقبّل ليلى على خدها وأتوجّه إلى العمل، لا نعرف أبدًا إن كنا سنرى بعضنا ثانية، فكل لحظة هي وداع. قالت: «تحدّثي مع أم»، ابتسامتها دافئة تذكّرني بحمزة. أومأتُ، غير قادرة على قول أي شيء، وانسللت من الباب، وأغلقته ورائي.

تقع المستشفى على مسافة خمس عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام من بيت ليلى. وكانت هذه ميزة يتطلّع حمزة إليها؛ إذ لن يحتاج للقيادة كطبيب شاب يتدرَّب في مستشفى حيّه. منذ أن استطاع القراءة، في الثالثة من عمره، أدرك ماما وبابا أن ابنهما عبقري. التحق بالمدرسة في سنٍّ مبكرة، وأنجز بسهولة المراحل المتوسطة والثانوية، واختار من بين الجامعات التي قَبِلَته، جامعة في حمص لكي يكون بالقرب من عائلتنا، لكني عرفت أن الأمر يتعلق بقربه من ليلى وبدء حياته معها.

الآن، لقد أخذتُ الوظيفة التي كان من المفترض أن تكون له. وظيفة بعيدة تمامًا عن مجالي. فالصيادلة يَصِفون الأدوية لكن لا يجرون عمليات جراحية. كان من المفترض أن أتخرّج وأصبح هذا النوع من الصيادلة، أو حتى باحثة. لست جرّاحًا، لم أُخلق لأقوم بقطع الأجساد وخياطة الجروح وبتر الأطراف، ولكني تركت نفسي لأصبح هذا الشخص.

عندما أخرج، يبدو المنظر في حمص لي كما لو كان مستوحًى من كتب التاريخ. الدمار الذي أمامي، كنت قد رأيته في العديد من المدن عبر السنين. نفس القصة ولكن في مكان مختلف. أكاد أجزم أن أشباح الشهداء تتجول في المنازل والشوارع المهجورة، أصابعهم ترفرف على أعلام الثورة التي

تمّ رسمها على الجدران. أما الناجون، فجالسون خارجًا على كراسي بلاستيكية، ملفوفين بالمعاطف والأوشحة. اليوم، يلعب الأطفال بما استطاعوا سحبه من تحت الأنقاض. تصرخ امرأة مُسنّة عليهم ليحذروا شظايا الزجاج المفروشة كسجاد على الأرض، وحين ترى معطفي الطبي، تبتسم، فأرى بضع أسنان مفقودة. تقول: «الله معك!»، أبتسم بحرج وأطرق برأسي.

المستشفى ليس بمأمن من الديكتاتورية، وتوضّح الجدران الخارجية الملوّثة بالأصفر والأحمر المتلاشي ذلك. وهذه التربة التي أضغط فوقها بحذائي القديم ملطّخة بدم الجرحى الذين ينقلونهم يومًا بعد يوم. والأبواب دائمًا مفتوحة، واليوم لا يختلف عن سابقه، إنه مزدحم كالمعتاد، ويتردّد أنين وصراخ الجرحى بين جدرانه.

نعاني من نقص حاد في أدوات الجراحة والأدوية، وأستطيع رؤية آثار ذلك على الوجوه المنهكة المستلقية فوق الأسِرّة من حولي. في الآونة الأخيرة، بدأت استخدام محلول ملحي وإخبار المرضى أنه مخدّر، على أمل أن يؤمنوا به بما يكفي حتى يعمل كدواء وهمي. أذكر المقالات التي قرأتها حول الأدوية الوهمية في السنة الأولى من دراستي في الجامعة والتي أثبتت نجاحها. في ذلك الوقت كنت أجلس في زاوية السلم خارج قاعة المحاضرات، مع الثرمس الخاص بي ممتلئًا بالشاي الأخضر، وكنت أتدرب على الملاحظات التي كتبتها في الصف. أُضيّع بضع ساعات من الدراسة المكثفة حتى تأتي ليلى عند غروب الشمس وتلمس أنفي لجذب انتباهي.

على الرغم من ذلك النقص في الموارد الذي نعاني

منه، يتمتع مستشفانا بحالة أفضل بكثير تحت إدارة الجيش السوري الحر مقارنةً بالمناطق التي تخضع لسيطرة جيش النظام. لقد سمعنا قصصًا عن الأشخاص الذين قبض عليهم الجيش النظامي، حيث يموت المرضى في المستشفيات ليس بسبب الجروح التي أصيبوا بها خلال الاحتجاجات، لكن بسبب ما يتعرّضون له داخل المستشفى. بينما نحن نعاني هنا من الحصار فحسب، يتمُّ ربط مصابي الاحتجاجات هناك بالأغلال ويتعرضون للتعذيب، وينضم بعض الأطباء والممرضين في بعض الأحيان إلى هذه الأعمال.

هنا في مستشفانا، الأسِرّة مكدّسة جنبًا إلى جنب، محاطة بالعائلات؛ لذا يتعيَّن عليّ أن أتقدم بينهم لأسأل المريض عن حالته. يتجه الدكتور زياد مهرولًا نحوي، وهو يخطو بحرص بين أجساد المرضى الملقاة على الأرض، الوحيدون في هذا العالم دون عائلة، ولا حتى سرير. شعر دكتور زياد المختلط أسوده بالبياض المبعثر، وتبرز التجاعيد حول عينيه البنيتين. أخذ الوظيفة كرئيس جراحة بعد وفاة طبيب آخر في هجوم سابق. كان يعمل في البداية كطبيب للغدد الصماء بعدد ساعات يحددها بنفسه، ويرسم خطة تقاعده ببطء. عندما بدأت الاضطرابات، أرسل عائلته إلى لبنان وأصبح المستشفى موطنه. تمامًا كما تمّ إجباري على أن أصبح جرّاحة، فقد أُجبر على ذلك العمل أيضًا.

«هناك إصابات، تقارير تفيد بقصف الغوطة. عشرون ضحية. السبعة عشر المصابون يجري نقلهم إلى هنا»، يقول الدكتور زياد. كرئيس جراحة، فهو على اتصال بالجيش السوري الحر، الذي يزوّده بأي معلومات يحصلون عليها والتي يمكنها مساعدتنا

على إنقاذ المزيد من الأرواح. يتسع قلبي لثانية واحدة مع الشعور الارتياح. وقع الحادث هذا على الجانب الآخر من حيّي، على بُعد نصف ساعة بالسيارة. ليلى بأمان إذن. ثم تتقلّص أمعائي، القنابل تعني أن أي شيء قد يأتي من خلال هذه الأبواب، أحشاء خارجة وملتوية داخل الجسم، حروق، أطراف مفصولة.

أنتظر بجوار المدخل مع الدكتور زياد الذي يهمس بآيات من القرآن تتحدث عن السكينة ورحمة الله. يهدأ العرق البارد الذي يتدفّق على رقبتي. في أي لحظة الآن، ستنفتح الأبواب بقوة.

في أي لحظة.

يظهر خوف بجوار النوافذ أمامي، وبدلته تلمع رغم انعدام الإضاءة في المستشفى، وشعره مصفّف إلى الخلف دون ترك شعرة واحدة خارج مكانها، ويبتسم لي. يحب خوف المستشفى، ويعرف أن خوفي من كون ليلى قد تصبح الجسد التالي الذي سأدفنه، سوف يُفني عزيمة بقائي على قيد الحياة. وفي النهاية سأرغب في مغادرة سوريا.

نسمع صراخًا قبل فتح الأبواب؛ ممّا يعطينا لحظة ثانية للتحضير. لكن لا يمكن لأي عدد من التحذيرات أن يعدّني لمنظر إنسان يكافح من أجل التنفس. هذا ليس طبيعيًا، ولن يكون أبدًا.

«سلامة، توجّهي للأطفال أوّلًا»، يقول الدكتور زياد بحزم، بينما يركض بالفعل نحو المرضى. «نور، تأكّدي من عدم نزيف أحدهم. محمود، لا تدعهم يفرغون الضمادات. استخدم الشراشف إذا لزم الأمر. اذهب!».

خمس ضحايا محمولون على النقالات بينما يحمل متطوعون الباقين من موقع الحادث. يوجد حشد

كبير يتجمع حولهم، جميعهم يصرخون ويتلوّون. يواصل الدكتور زياد صياح الأوامر إلى بقية الطاقم، ومرة أخرى أشعر بالامتنان لهدوئه في مواجهة هذه الفظائع. إنه الشخص الذي يمنحنا الثبات. هو السبب في قدرتنا على إنقاذ هذه الأرواح.

يقف خوف بشموخ، يشاهد الفوضى تنتشر بابتسامة راضية، ويبدأ في دندنة لحنٍ، ثم يردّد بصوتٍ عالٍ: «كم هي حلوة الحرية»، النشيد الذي كان يردّده المتظاهرون، لكن ليس لديّ وقت لأعلّق بأي شيء، فالموت لا ينتظر أي شخص.

بالنسبة لي، العمل على تضميد الجروح ومحاولة شفاء المرضى، يأتي مع تحديات أكثر من مجرد الحفاظ على حياتهم. في بعض الأحيان يراني بعض المرضى، ويطالبون بطبيب أكثر خبرة وكبير في السن. في البداية كنت أجفل، أحاول التوقف عن الرعشة، وأتلعثم في شرح كيف أن جميع الأطباء مشغولون، وأنني بنفس قدرتهم. لكن الآن، إذا حاول أي شخص إضاعة ثوانٍ قيّمة، أخبرهم «أنا أو الموت!»، هذا يساعدهم على اتخاذ قرارهم بسرعة. العمل هنا جعل قلبي يتحول إلى الصلابة والرقة بطرق لم أتخيلها أبدًا.

بينما كنت أقوم بتضميد مريضي الخامس، لاحظت شخصًا يبدو مضطربًا، يحمل فتاة صغيرة على ذراعيه. لا يبدو أكبر سنًا مني، بل في أواخر المراهقة. كان رأس الفتاة مائلًا إلى الجانب، والدم يقطر من قميصها على الأرض. تتبع عيناي الشاب، والضوء الخافت في المستشفى ينعكس فوق شعره الكثيف والمجعّد. يبدو مألوفًا، لكن قبل أن أحاول تذكره، يدعوني الدكتور زياد لمساعدته في إنقاذ مريض آخر، كان العظم الزندي في يده مكسورًا،

ومزّق ذراعه. يجعل مشهد العظم الخارج من الجلد الحمض في معدتي يرتفع إلى حلقي، مُحرقًا إياه. أبتلعه، وأشعر بهطوله إلى المعدة يذوّب مخاطها، ثم أبدأ في العمل على إعادة العظم إلى مكانه الصحيح.

أثناء راحتي بعد ثلاث عمليات جراحية متتالية، أرى أم يمز، وأتذكر أنني يجب أن أتحدث إليه اليوم، وأشعر بنظرة خوف التي تخترق عظام جمجمتي من الخلف، وتهديداته تتردد في عقلي. «سأفجر عالمك».

يصرّ على إجباري مغادرة سوريا، وسيفعل أي شيء لجعل ذلك يحدث. لم أفهم يأسه طوال الأشهر التي عرفته فيها. ولكن اليوم، تتردد الهمسات في عقلي؛ نتيجة لمحادثتي مع ليلى. ما الضرر في السؤال؟ أنت فقط تحصلين على معلومات. فقط لمعرفة كم يكلف الأمر. افعلي ذلك من أجلها.

«آم»، أتلعثم، وهو يتوقف ويتجه نحوي. «نعم؟» يقول بدهشة. إنه أصغر سنًّا مما يبدو، لكن مع كل ما يحدث، ليس غريبًا أن يبدأ رجل في أواخر الثلاثينيات في الوصول إلى الشّيب.

«أنا... كنت أتساءل عن...» أتلعثم وأنا أسبُّ نفسي، كان يجب أن أفكر فيما سأقول. «هل تريدين قاربًا يا سلامة؟» يقول، فيوقف تلعثمي، ويتدفّق الدم في وجهي. أتعلق بمعطف المختبر المتعثر، وأنا أجعّد نسيجه الخشن. يظن أنني جبانة. من بين جميع الأشخاص الذين يطلبون منه وسيلة للخروج، أنا الأخيرة والوحيدة الصيدلانية في ثلاث أحياء متجاورة. «هل تريدينه؟» يكرّر، ويرفع حاجبيه.

وردت الصورة الشاحبة لوجه حمزة في ذهني، «نعم»، أجيبه. ينظر على الجانبين، ويتأكد من عدم

وجود أي شخص يستطيع سماعنا قبل أن يقول: «حسنًا، انتظريني في الردهة الرئيسية بعد عشر دقائق».

يمكنني قضاء بضع دقائق قبل أن يأتي دكتور زياد أو نور بحثًا عني، يصرّ دكتور زياد دائمًا على أن أستريح قليلًا، ولكن مع ذلك، تتعرّق يدي. يمكن أن يحدث الكثير في عشر دقائق. فشل تنفسي مفاجئ مثلًا، أو أزمة قلبية، أو مريض آخر يتقيّأ الدم وبعض الإفرازات. قد يحدث أي شيء. لكنني وعدت حمزة. وليلى هي شقيقتي، عائلتي الوحيدة، تحمل طفلة أخي، الذي لا يعلم بها ولن يلتقي بها أبدًا. وأنا بحاجة إلى معرفة ما إذا كان بإمكاننا تحمّل تكاليف الهجرة عبر البحر. كما أنني لا أريد اختبار حدود خوف. إذا ما تحقّق تهديده، فإن اليوم قد يكون آخر يوم لي في العمل هنا.

«زنبق النهار»، أهمس لنفسي بينما أسير نحو الردهة الرئيسية، محدّقةً في الأرض الموحلة. «يخفف تشنُّجات العضلات والتقلصات. يمكنه علاج التسمم بالزرنيخ. زنبق النهار... زنبق النهار...».

الردهة الرئيسية مليئة بالمرضى، وأفهم لماذا اختار آم هذا المكان؛ إنها دعاية مجانية له لأن الناس هنا يمكنهم سماعنا، سوف يعرفون مَن هو آم، وماذا يفعل، وما يمكنه تقديمه لهم: فرصة للحياة.

يأتي آم إلى المستشفى كل يوم للبحث عن أشخاص قد يقبلون عرضه. دفع كل ما يمتلكون مقابل الإبحار على قارب إلى قارة أخرى، لا يعرف الكثيرون عنها سوى ما قرؤوه في الكتب. الجميع في المستشفى يعرفون ام، حتى الدكتور زياد الذي يعتقد بقوة بضرورة بقاء الناس في سوريا، على الرغم من أنه لن يمنع أي شخص من الرحيل إذا

اختاره، حيث إنه أرسل عائلته بعيدًا. طالما أن ام لا يعرقل إنقاذ حياة المرضى، فهو حرٌ في نشر أجندته. لذلك يركّز أم على المرضى ويتجنب الأطباء، يتأكد من أن الجميع يعرف عن الرحلات الناجحة عن طريق عرض صور لأولئك الذين وصلوا أخيرًا إلى الشواطئ الأوروبية. لن يخاطر أي شخص خصيصًا مع احتمال الغرق دون ضمانات بنجاح هذا العبور. في نقطة ما، ربما حتى بدون ضمانات، فرصة بسيطة للنجاة أفضل من العيش تحت رحمة الإبادة الجماعية. على الرغم من أن لا أحد يختار الصعود على قارب متهالك في البحر لو كان لديه خيار آخر.

من بين الوجوه المتعبة، يبرز وجه خوف مع عينيه المتلألئتين وابتسامة تدل على معرفة. ربما يمكن شرح سبب عزمه على كسري لإجباري على الصعود إلى القارب بطريقة علمية: إنه آلية دفاعية قدمتها دماغي لي، يحاول ضمان بقائي على قيد الحياة بأي وسيلة. لكن لا تزال معدتي تعاني من الرعب الذي ينتظرني بين يديه.

في غضون عشر دقائق، يجدني آم في الردهة الرئيسية، ويتقدم في طريقه من بين الجموع حتى يصل إليّ بجانب نافذة مكسورة ومغطاة بورق رقيق. جهازي العصبي يعمل بشكل متهور ويصدر إشارات كهربائية تمر عبر جسدي ولا يمكنني تهدئتها مهما جرّبت طرقًا مختلفة. شعور القلق بشأن ظهور الدكتور زياد بشكل غير متوقّع عالٍ، واضطررت إلى دسّ يديّ في جيوبي لإخفاء رعشتهما. لا أعتقد أنني سأكون قادرة على الاستمرار في هذه المحادثة إذا رآني، فأنا أدير ظهري لشعبي.

«كم عددكم؟» يسألني آم، وأنا أتّجه بسرعة نحوه. «اثنان»، أقول بصوت خافت. يتفحصني لثانية

«هذه عائلتك بأكملها؟» ينكسر قلبي في ذلك الوقت وأنا أسمع صوت تكسر رقائق قلبي، ثم يتساقطون من خلال عظامي. «نعم» يومئ برأسه، لكن تعبير وجهه بارد. لم يعُد غريبًا أن تكون الأسرة مكوّنة من شخص واحد الآن. «سأقودك إلى طرطوس»، يقول كما لو كان يناقش الطقس. «عادة ما تبحر القوارب من هناك. يستغرق الأمر يومين ونصف عبر البحر الأبيض المتوسط ثم تصلين إلى إيطاليا. ستكون هناك حافلة في انتظارك هناك لنقلك إلى ألمانيا. أهم شيء هو الوصول إلى إيطاليا».

ينجلط قلبي بكل كلمة يقولها. وعلى الرغم من صوته الجاف، يمكنني أن أرى الرحلة تتكشّف أمامي. القارب يتأرجح بلطف فوق البحر الأزرق، والمياه تتلؤى على الشواطئ التي تَعِد بالأمان. ليلى تتحول إليّ، وتفلت من بين شفتيها ضحكة صادقة: «نحن آمنون». وأشعر أن الشوق يمزق معدتي.

يبكي طفل رضيع فيقطع أحلام يقظتي، وتصبح آهات المرضى مؤلمة جدًا لأذني. لا. لا. كيف يمكنني التفكير في سلامتي وقد تعهّدت بشفاء المرضى؟ ولكن ليلى حامل، وقد وعدث حمزة. ليلى لن تغادر بدوني، ولا يمكنني تركها عالقة وحيدة في أوروبا وهي بالكاد تتحدث الإنجليزية، ولا تعرف الألمانية أو الإيطالية. فتاة حامل بمفردها ستصبح فريسة سهلة. الوحوش ليست مقتصرة على سوريا. التردد هو سمٌّ ينمو في شراييني. أتنحنح. «كم يكلف الأمر؟» يفكر لحظة ثم يجيب: «أربعة آلاف دولار. وهناك طابور انتظار». أرمش بعيني. «ماذا؟» «أتعامل بالدولار، الليرات ضعيفة. أربعة آلاف دولار. ألفان لكل واحد».

يفرغ الدم من وجهي ويجفُّ حلقي. هذا أكثر

بكثير مما لدينا. كان بابا قادرًا على سحب ستة آلاف دولار في البداية، لكن معظم المال قد صُرف، كما ارتفعت أسعار الطعام. لدينا بالكاد ثلاثة آلاف دولار متبقية. يُلاحظ تغيير تعابير وجهي ويزفر. «هل كنت تعتقدين أن الوصول إلى أوروبا سيكون رخيصًا؟ هل كنت تعتقدين أنه سيكون سهلًا؟ نحن نتحدث عن تهريب اثنين من الأشخاص إلى قارة مختلفة. بالإضافة إلى رشوة جميع الجنود في طريقنا إلى هناك».

لقد فقدت الإحساس بساقيّ. «أنت... لا تفهم. الشخص الآخر هي زوجة شقيقي. وهي حامل في الشهر السابع. إذا قامت بالولادة... سنكون بحاجة إلى المال للحفاظ على حياتها. لا يوجد لديّ ما يكفي. من فضلك».

يفكر في الأمر لمدة دقيقة. «أربعة آلاف دولار، وسأتيح لك الفرصة لتجاوز طابور الانتظار. هذا كل ما يمكنني فعله بلطف. لا تستغرقي وقتًا طويلًا في التفكير في الأمر، فالقارب لا ينتظر أحدًا».

ثم يبتعد ويتركني متأرجحة على الأرض بينما يحدق خوف خلفه بعينين ضيقتين. وأتساءل أنا ماذا سيفعل دماغي في هذه العقبة.

4

عندما يجدني الدكتور زياد، يراني ملقاة على الأرض في زاوية إحدى غرف الإنعاش، أمسك ركبتي بين ذراعي، وأتحرك للأمام والخلف وأبكي وأحاول تهدئة نفسي. تستلقى أمامي فتاتان صغيرتان، مثقوبتان بثقوب الرصاص في حنجرتيهما. نحن نعرف أنهم ينشرون القناصة العسكريين على الأسطح على الحدود بين مواقع الجيش ومناطق الجيش السوري الحر المحمية. الفتاتان القتيلتان تبدوان في السابعة من عمريهما، ملابسهما ممزقة والركب مكشوطة.

غالبًا ما يكون ضحايا القناصة الأبرياء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، من الأطفال والمسنّين والنساء الحوامل. أبلغ الجيش السوري الحر الدكتور زياد بأن الجيش سيستهدفهم في البداية من أجل اللعب، حتى إن ليلى كادت أن تتعرّض لإصابة بالغة في أكتوبر. الآن لا أسمح لها بمغادرة المنزل، أبدًا. لا بدّ من وجودي معها. يجثو دكتور زياد بجانبي، وجهه الطيب متألمًا. «سلامة»، يقول بلطف. «انظري إليّ».

أبعد عينيّ عن الوجوه الصغيرة ذات الشفاه النازفة لألتقي بعينيه. أضع يدي على شفتي، أتوسّل إليهما أن يتوقّفا عن الارتجاف. «سلامة، تحدثنا عن هذا. لا يمكنك العمل بجدّ حتى تصلي إلى هذه النقطة. يجب أن تهتمي بنفسك. إذا كنت مرهقة وتعانين من الألم فلن تتمكني من مساعدة أحد. لا يجب على أي شخص التعامل مع هذا الرعب. خاصة إذا كان في مثل سنك المبكرة هذه»، ثم تلين نظرته ويكمل: «لقد فقدت أكثر مما يجب أن يفقده أي شخص. لا تُقيّدي نفسك في المستشفى. اذهبي إلى

المنزل».

تسقط يدي على فخذي وأنا أفهم ما يقوله. خلال الأشهر السبعة الماضية، أصبح دكتور زياد مثل أب لي. أعرف أن إحدى بناته في مثل عمري، وأنه يراها فيّ. أعرف أيضًا أنه لن يطلب منها ما يتوقعه مني كل يوم، أن أغرق يدي في دماء الأبرياء وأعيد حقنها في أجسادهم. شاهدة على الرعب ولا أزال أعود في اليوم التالي. جزء صغير جدًا مني يحسده لذلك، على الرغم من أنه يحاول جاهدًا العناية بصحتي وعدم السماح لي بتجاوز حدودي.

أتنحنح. «لا يزال هناك مزيد من المرضى...»، «حياتك مهمّة بنفس القدر كما هي حياتهم»، يقاطعني، صوته لا يترك مجالًا للتفاوض. «حياتك مهمة بنفس القدر». أغلق عيني، وأحاول الإمساك بكلماته، أحاول أن أصدقها، لكن كلما حاولت الإمساك بالحروف، تتلاشى من بين يدي. مع ذلك، أقف على ساقيّ المرتجفتين بينما يلقي الدكتور زياد غطاءً أبيض على الجثث.

ليلى لا تقول شيئًا لفترة طويلة بعدما انهرت وجلست على الأريكة. وبينما أغلق عينيّ، أعيد على مسامعها حديثي مع آم، وصوتي يتكسر عندما أخبرها بالسعر. أكرهه. حياة الأبرياء لا تهمّه، المهم ملء جيوبه من معاناتنا. لا أحد يريد الهرب أكثر من الأشخاص الذين تمّ تحطيمهم حتى النخاع، إنهم يبحثون عن خط النجاة، مهما كان هشًا.

«قولي شيئًا»، أتوسل إليها، وأفتح عيني لمواجهة صمتها. فأجدها محدقة في الطاولة الموجودة أمامها، إنها تفكر في خطة، ومن ثم تعبّر عن استيائها. «ليس لديّ شيء لأقوله»، يتجعد جبينها، «إلا إذا...». أسألها: «إلا إذا ماذا؟».

«يمكننا بيع ذهبنا؟» تلفُّ خصلة من شعرها حول إصبعها. تتدفق أشعة الشمس في وقت متأخر من بعد الظهيرة من بين النوافذ المتسخة وتتجمع في نُقر بمنتصف غرفة المعيشة، محوّلةً البساط العربي الذي نجلس فوقه إلى شيء روحاني. أراقب كيف يرقص الضوء حول ظلي بين النباتات الخضراء الداكنة التي تطرز البساط. إذا ركزت في ذلك، يمكنني التظاهر بأن أي شيء موجود خارج هذه الهالة الصفراء على ما يرام، أو بالأحرى: آمنٌ.

«بيع ذهبنا!».

الذهب في أسرتنا يُمرَّر، تحت سطحه المتلألئ العميق، يحتفظ بتاريخنا وقصصنا في خيوطه المضفورة السميكة. عندما عدت إلى مبنى المنزل المدمَّر بعد القصف، لم أتمكن من العثور على أي شيء ينتمي إليّ. الجرانيت أغلق عليّ الطريق. ذهبيتي لا تزال هناك، مدفونة، لكن ذهب ليلى هنا. ذهب أعطاه حمزة لها كجزء من مهرها. «من سيشتريه؟» أسأل. تجيب ليلى بلا اهتمام: «ربما يقبل به آم بدلًا من المال».

لم أسمع من قبل عن أي شخص يشتري طريقه بالذهب، ونحن بالتأكيد لسنا الأوائل الذين يفكِّرون في هذه الفكرة. على أي حال، لا أرغب في التخلي عن ذهب ليلى -ذهب عائلتي- بهذه الطريقة، خاصة لشخص غير مستقيم مثل آم.

«لم يقل مالًا أو ذهبًا». أخذت في نزع الخيوط المتدلية من الأريكة. «إذا أراد الذهب، لقال ذلك». تراقبني ليلى بينما أستمر في النقر على الخيوط. «إذن لا تريدين أن تحاولي وتسأليه؟» تسأل أخيرًا. أقول: «سأساومه.» تعضُّ شفتيها قبل أن تنفجر في الضحك. «تساومينه؟» تكرّر. «ماذا تعتقدينه؟ سوق

الحميدية؟».

أشير إلى الإطار الماهوجني الذي يحتوي على لوحة رسمتها ليلى. إنها لوحتها التي أحببت النظر إليها دائمًا. سماء زرقاء داكنة تمتزج مع البحر الرمادي عند الأفق. لا أعرف كيف تمكنت ليلى من التقاطه بوضوح كهذا، كما لو كانت صورة فوتوغرافية. يشعرك الماء أحيانًا وكأنه سيتسرب من حواف الإطار، مُبللًا السجادة. والغيوم متجمِّدة ومتقاربة، رسمت اللحظات قبل العاصفة. «من أقنع ذلك الرجل بالسماح لك بشراء هذا الإطار بنصف الثمن؟» أطبق ذراعي على صدري، وأكمل: «هذا الإطار الجميل بشكل مذهل؟ هل كان أنت؟»، تبتسم ليلى: «لا، بل أنتِ».

«نعم، كان أنا. لذلك... سأفاوضه».

لا أقول بقية ما أفكر فيه، أنني فقط أكتفي بموافقتها، وأنني ممزَّقة بين واجبي تجاه أخي وبين المستشفى، والحبال التي تمسكني من كل جانب تتآكل عند الحواف، ولا أعرف أيٌ منهما سيتم قطعه قبل الآخر. لكن شيء ما في نظرتها يجعلني أشك في أنها تعرف كل ذلك.

«تتحدثين عن ألمانيا كما لو كانت الأرض التي ستتحقق فيها كل أحلامنا!» أعيد تركيز نظري على اللوحة. تبدو حقيقية جدًّا. «نحن لا نتحدث اللغة الألمانية. يكاد يكون بإمكاننا التحدث باللغة الإنجليزية، وليس لدينا عائلة هناك. سنكون عالقين في منتصف لا مكان، وهناك العديد ممَن سيحاولون الاستفادة منّا. يتم خداع اللاجئين فيما يخص كل ما يملكون كما تعلمين. ناهيك عن الاختطافات».

مرة، قبل حين، أردت العيش في أوروبا لمدة عام، كما أردت العيش في الولايات المتحدة وكندا

واليابان. كما أردت زرع البذور في جميع القارات. أردت أن أدرس الماجستير في العلوم النباتية، وأن أجمع النباتات والزهور الطبية من جميع أنحاء العالم. أردت أن تتذكر الأماكن التي زرتها أن سلامة كساب سارت فوقها. أردت أن آخذ هذه الخبرات وأكتب كتبًا للأطفال بصفحات محفورة بالسحر وكلمات تحرّك القارئ إلى عوالم أخرى. «وأنت؟» سألت ليلى يومًا، «إلى أين تريدين الذهاب؟».

كنا في الريف في مزرعة جدتي وجدي بعد أن انتهينا من الثانوية العامة، حيث الحياة الجامعية على بُعد شهرين فقط. كان المشمش ناضجًا، وقضينا الصباح بأكمله في ملء السلال به لتناوله وتقديمه لجيراننا. وبعدها كنّا نأخذ استراحة، ونستلقي على ملاءة النزهة ونشاهد السحب. الشمس كانت مختبئة خلفهم، بينما تحوّل أشعتها السماء إلى زرقاء فاتحة. وعلى مرمى البصر فراشة تحرك جناحيها ونحلة طنانة تختبئ داخل زهرة أقحوان. كان يومًا هادئًا وجيدًا حيث يتم تداول الآمال والأحلام. حيث يتم إعادة زيارة الذكريات الطفولية الحلوة. تنهدت ليلى بعمق، مأخوذة برائحة المشمش وقالت: «أريد رسم النرويج».

«البلد كله؟» ضحكتُ.

تلتفت نحوي وترفع يدها لتضرب أنفي. أصرخ وأغطيه.

«أنت لست مضحكة». تغمض عينيها، لكن الابتسامة تلعب على شفتيها. «أنا مرحة». قلتُ وأنا أستلقي على جنبي. انزلق حجابي قليلًا وسقط شعر مقدمة رأسي، لم يكن هذا مشكلة لأننا كنا نختبئ بعيدًا عن أعين أي مارة، فقمت بإسقاطه أكثر قليلًا، وتدلّى شعري إلى الجانب.

تجلس ليلى مستقيمة وتنظر حولها، لا ترى أحدًا، ثم تجمع شعري من وراء ظهري وتخلع مشبك الشعر. «رأيت كل درجات اللون الأزرق، باستثناء درجة منه، في النرويج»، قالت بصوت هادئ. تعلق صوتها بالنسيم، «رأيته فقط على جوجل، وكان رائعًا. أريد رؤية اللون الحقيقي. أريد رسم كل درجات اللون الأزرق وعقد معرض فني. شيء ما يسقّى الأزرق من كل زاوية. لا أعرف».

أتلفت حولي وأقول: «هذا يبدو جميلًا جدًّا يا ليلى. مثل ستوديو جيبلي». ابتسمَت وبدأت تضفر شعري، وهو شيء تفعله كلما كنث متوترة. «لديّ أحلام تأخذني بعيدًا عن هنا». في نظرتها، كنت أرى السؤال: هل سأكون بخير إذا غادرت؟ كنا معًا منذ ولادتنا، وكانت ليلى أقرب إلى أخت لي، وكونها ابنة وحيدة وأنا الابنة الوحيدة؛ تشكّلَت علاقتنا بالكامل بيننا. «سلامة!» كنا نسمع صوت حمزة ينادي من بعيد. «ليلى! يلّا، الغداء جاهز».

تتلألأ عينا ليلى عند سماع صوته، وتقفز وتركض نحوه. يمسك هو بها من الخصر وكادا يقعان. لقد وقفث، وأنا أشاهدهما، وشعرتُ كأنني واقفة على الجانب الاخر من باب لا يمكنني المرور من خلاله.

تجعّد حاجبا ليلى. «ماذا؟» أدرك أن تعبير وجهي بائس وسرعان ما أقوم بإزالته بابتسامة. «لا شيء». كم كانت مشاكلي ساذجة في ذلك الوقت. كم كانت أحلامنا بريئة. الآن، فتاة حامل جائعة تجلس أمامي، عيناها كبيرتان جدًّا بالنسبة لوجهها، في حين ترتجف معدتي كطبل فارغ. «سلامة»، تقول ليلى، وأنا أنظر إليها، مستيقظة من حلمي. «كان اليوم مليئًا بالحزن، أليس كذلك؟» أفرك كُمّ ثوبي. «كل يوم كذلك». تهزّ رأسها قليلًا وتطرق فخذها. «ضعي

رأسك على فخذي».

وأفعل ذلك.

تغرق أصابع ليلى في شعري وتبدأ في عمل ضفائر صغيرة، بينما يرقد حجابي مهملًا في مكانٍ ما بجوار الأريكة، وأتنفس بارتياح مع لمستها اللطيفة. بطنها المنتفخ يحيط برأسي وأشعر بركلات الجنين داخل بطنها. فلا شيء سوى النسيج، وطبقات من الجلد، وسائل مشيمي يفصله عن رعب هذا العالم.

تقول، وأنا أحدق بها: «لا تركّزي على الظلام والحزن»، ثم تبتسم بدفء. «إذا فعلتِ، لن تري النور حتى لو كان يحدّق في وجهك»، أجيبها بتذمر: «عن ماذا تتحدثين؟»، فتقول: «إن ما يحدث الآن، ومهما كانت فظاعته، ليس نهاية العالم. التغيير صعب، وهو مختلف حسب ما يجب تغييره. انظري، سأتحدث حتى بلغة العلوم، إذا كان سرطانٌ قد انتشر، فلن يكون ما يجب القيام به لإزالته هو نفسه ما يجب عمله لإزالة بثرة، أليس كذلك؟»، ابتسامة تهدهد شفتيّ. «منذ متى تعرفين المصطلحات الطبية؟» أسألها بينما تلمع عيناها. «كفنانة، أنا طالبة في مدرسة الحياة. خذيها بخفّة يا سلامة».

أقول ببطء: «مع السرطان، نحتاج إلى إجراء عملية جراحية لإزالة الورم، ولكنها عملية صعبة.. فرص البقاء على قيد الحياة... قطع الأنسجة غير الصحية؛ هي أمور كثيرة يجب النظر إليها». «ومع البثرة؟» أهزُّ كتفي وأكمل: «فقط يمكننا علاجها بحمض الساليسيليك». «وعندما تنجح عملية استئصال السرطان، وعندما يكون المريض قد قاتل من أجل حياته، ألن يتحسن وضع حياته؟» أومئ موافقة. «ألا تعتقدين أن الديكتاتورية السورية أكثر شبهًا بالسرطان الذي ينمو في جسم سوريا

منذ عقود، وأن الجراحة، على الرغم من المخاطر، أفضل من الاستسلام له؟ مع شيء متأصل بعمق في جذورنا، لا يأتي التغيير بسهولة. له ثمن كبير». لا أجيبها.

«هناك نور يا سلامة»، واصلت، «على الرغم من الألم، نحن أحرار لأول مرة منذ أكثر من خمسين عامًا». أشعر بثقل أصابعها في شعري. «تتحدثين وكأنك تريدين البقاء هنا»، أقول. تنظر إليّ نظرة ذات معنى. كما لو كانت تعرف بالضبط ما أخفيه في قلبي. «النضال ليس في سوريا فقط يا سلامة. إنه في كل مكان. كما قلت لك، يبدأ النضال هنا. ليس في ألمانيا أو أي مكان آخر».

تختار كلماتها بعناية، وتراوغ كل كلمة وهي تخترق قناة أذني، صدى فوق طبلة أذني، مباشرة عبر الخلايا العصبية إلى دماغي. تستقر هناك مثل بذور صغيرة زُرعت بين الخلايا. «كيف لا تشعرين بالمرارة مثلي؟» أمزح بضعف، لكن الجملة تخرج خافتة وأكثر صدقًا مما أرغب.

عندما اعتُقِلَ حمزة، مرّت ليلى بتغييرين كبيرين: خلال الخمسة أسابيع الأولى، كانت لا تتقبّل العزاء. تبكي حتى أصبح صوتها هزيلًا، لا تأكل أو تستحم. ثم، فجأة، عادت إلى نفسها القديمة. هادئة ومحِبّة، بابتسامة يمكن أن تشغل حمص بأكملها.

«أوّلًا، لا يمكن للجميع أن يكونوا كاملين»، تقول، وأخيرًا أبتسم. وتستمر هي راضية: «لأنني أرى حبك لي. أرى تضحياتك وطيبتك. أركّز على الأمل بدلًا من عدّ حسابي بالخسائر. لديّ حب في قلبي بسببك، بسبب كل المساعدة التي قدمتها لي عندما... عندما أخذوه».

يظهر دمع في زاوية عينها، ينزلق على خدّيها

وأمسك به قبل أن يصل إلى ذقنها. فقدت والديها عندما بدأت القنابل تتساقط. ثم في منتصف الحداد على عائلتها، في غضون أسبوع واحد، فقدنا ماما وبابا وحمزة. الأسوأ من ذلك؛ إننا لا نزال نجهل ما إذا كان حمزة وبابا على قيد الحياة.

أريد أن أؤمن أنهما ماتا. وأنا أعلم أن ليلى تريد الشيء نفسه. الموت هو نهاية أكثر رحمة من العيش كل يوم في العذاب.

«لو كان الجميع في العالم مثلك!» أتمتم. تضحك ضحكات متقطعة، وأمسك بيدها بإحكام. لكن نسمع صوت عاليًا خارج المنزل يجعلنا نقفز. يتبخُّر أي دفء كنا نشعر به، ويصبح الهواء باردًا مرة أخرى. تضغط ليلى على يدي، وتغلق عينيها. أدعو معها أن يكون صوتًا عابرًا. أرجوك يا الله، ألّا تكون غارة! ألّا تكون غارة! رجاء!

يصعد قلبي لحلقي لعدة دقات، لكن عندما لم يخترق أيٌ صراخ الليل، هدأت قبضة ليلى. «أعتقد أنها مجرد أمطار»، تهمس، محاولة إخفاء الخوف من صوتها. «فلتحضري الدّلاء إذن»، أقوم من فوق الأريكة بينما يهتز الليل مرة أخرى بانفجار رعدي. ويدور رأسي قليلًا، وأشعر أنني ينقصني الأمان الذي كان يوفره حضن ليلى. «ولا تنسي الدعاء، الدعوات تُجاب عندما تمطر»، تُذكّرني.

تمر الرياح بجانبي عندما أفتح باب الشرفة لوضع الدّلاء خارجًا. وتبرد بشرتي الحارة، ويعود قلبي تدريجيًا إلى مكانه في صدري. أتنفس كل ما أستطيع من السحب المتساقطة، رمادية وكثيفة، مما يجعلني أمل أن تحمينا من الطائرات الحربية التي يمكن أن تحطم حياتنا.

بعد ذلك، أساعد ليلى على الاستعداد للنوم. لم

تعد تنام في غرفتها بعد الآن، فهناك الكثير يذكّرها بحمزة. أما أنا، فلم أدخلها منذ اليوم الذي انتقلت فيه إلى هنا. لا أريد أن أرى ملابس أخي المعلّقة في الدولاب، وساعته المفضلة على الكومدينو، وصورته وهو يضحك ويُقبّل خدّها في يوم زفافهما.

لذلك تنام ليلى على الأريكة حيث أضع لها الوسائد والبطانيات، وعيناها ممتلئتان بالدموع، وتعبيرات وجهها شاردة. أعرف هذه النظرة الموجهة إلى الماضي، ولا أريد أن أفزعها أثناء حلم اليقظة. على الرغم من الألم الذي تسببه الذكريات، إلا أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من رؤية أحبائنا، عندما نعيد سماع كلماتهم، ونترك خيالنا يضخّم أو يخفّف من صوتهم كيفما نريد. تتحرك ليلى بوضوح مع ذاكرتها العضلية وتستلقي على الوسائد.

وأخيرًا، تبدو عيناها واضحتين وتنظر إليّ. «سلامة»، تنادي وكأنها لم تعرف أنني كنت هناك طوال الوقت. أردّ عليها: «أتحتاجين ماء؟ بانادول؟ يمكننا السماح ببعض الأشياء الآن أنكِ في الثلث الأخير من الحمل»، تجيبني: «لا، شكرًا. الطفلة مهذّبة جدًا اليوم». فأقول لها: «إنها تهتم بمشاعر أمها». «هي؟» تقول ليلى بلطف، ويصبح تعبيرها أخفّ. أومئ: «إنها فتاة. أستطيع أن أشعر بذلك». «هل هذا جزء من قدراتك الطبية؟» تدور عينيها بلطف. «عندما تكونين في هذه المهنة لفترة طويلة مثلي، تحصلين على حاسة سادسة بشأن هذه الأشياء»، أغمز لها وأكمل: «ثقي بي، أنا صيدلانية». تبتسم: «أثق فيك بحياتي. وحياة طفلتي». «مسؤولية كبيرة جدًا!» أتظاهر بالانهيار، وهي تضحك. «هل فكرت في أي أسماء؟» تقول بجدية: «حسنًا، عندما كنا، حمزة وأنا، نناقش أسماء الأطفال

في المستقبل، كان يفكر دائمًا في أسماء الأولاد. كان يريد دائمًا صبيًا. وقال لي إنه لن يكون قادرًا على رفض أي طلب لابنته الأولى. إنه لن يتمكن من تجاهلها». «أوه، نحن نعرف جميعًا أن حمزة سيصبح سندًا حقيقيًا لابنته للاعتماد عليه».

«لذلك علينا أن نترك هذا المكان» تهمس، «لا يمكننا السماح لها بالولادة هنا. إذا كان الأمر يتعلق بك وبي يا سلامة، فلن أترك زوجي. لكنها ابنته. إنها طفلتي». تتعالى أنفاسي وأضم قبضة يدي. خصائص اللافندر: مضاد للالتهابات ومضاد للجراثيم، زهرة بنفسجية، يمكن استخدامها لمشاكل النوم، لافندر. لافندر. لافـ.... «كنتِ تخبرينني عن الأسماء؟» أتكلم بصعوبة، وتسقط نظرة عينيها فيما بيننا. «نعم»، تجيب بعد دقيقة. «إذا كان ذكرًا، مالك، وإذا كان أنثى...».

«سلامة»، أقاطعها. «كيف عرفتِ؟» تصرخ. أعود إلى وعيي مذهولة. «ماذا؟ كنت أمزح!»... «أنا جادة، سأسميها سلامة إذا كانت فتاة!»، أجيب مع ابتسامة سخيفة: «ولمَ لا؟ فسلامة اسم رائع»، وتضحك هي. «أنا أتفق معك».

أتزحزح جانبًا وأهمس فوق بطنها. «عليكِ أن تكوني فتاة. أحبكِ، سالومة الصغيرة». بالكاد تلاشى الألم في عيون ليلى، لكن آثاره لا تزال موجودة وتكفي ليغرس الذنب شوكه في قلبي. آخذ نفسًا عميقًا وأخرجه. «ليلة سعيدة». أمرّر يدي على شعرها وأشدد بطانية حولها.

تعصر يدي في المقابل، وهي تستسلم لأحلامها، أخيرًا أظهر خوفي، وتتكرر الكلمات التي قالتها لي في دائرة في ذهني: «بحياتي وحياة طفلتي».

5

«ماذا ستفعلين؟» يسأل خوف من الزاوية المظلمة، فأقفز وأضع يدي على صدري. «ماذا؟» يخرج من الظلال، تتلاشى الظلال عنه، وعيناه تلمعان. «ماذا ستفعلين بشأن أم؟»، «لا أعرف»، «هذا يعني أنك لن تفعلي شيئًا»، «يعني أنني لا أعرف». أبتلع قلقي. «اتركني وحدي». يقضم شفته، وهو يفحصني من الرأس إلى القدم، وأضغط ساقي على صدري لأتقلص وأقول: «فعلت ما تريد، سألت أم، هل هذا خطئي أن الثمن مرتفع جدًا؟» لا يجيبني، بل يسحب سيجارة ويضعها بين شفتيه. طريقته في التدخين تذكّرني بجدي. عندما يتم سؤاله عن شيء ما، كان -رحمه الله- لا يجيب حتى يسحب نفسًا من سيجارته. لكن جدو كان يبتسم بلطف، وكانت لديه طريقة فخورة في النظر إليّ، ولا يوجد شيء من ذلك في خوف. لا شيء.

«لا، ليس كذلك. ولكن يبدو أنك قد تخلّيتِ عن الأمر. ألم تخبري ليلى بأنك ستتفاوضين معه؟».

أهزّ رأسي بلا اهتمام. تركّز عيناه على عيني. «على الرغم من أن حماسك الظاهر رائع»، يسخر، «إلا أنه ليس كافيًا. تحتاجين إلى الصعود على ذلك القارب»، أقول بضجر: «لقد بلغت حدودي هنا. ماذا تريد يا خوف؟»، يحجب دخان فضي رؤيتي له. «لماذا، سلامتك بالطبع». يبتسم. «ألا تعتقدين أنني نوع من آلية الدفاع؟» أزمجر بابتذال.

يقف أمامي وأنا بغريزة إنسانية أرتجف. «سلامة، يجب أن تعرفي، على عكسك، بأني لا أتعب، ولا أشعر بالألم، ولن أتوقف حتى أحصل على ما أريد. محاربتي هي محاربة عقلك». يلفّ أصابعه ويتسارع نبضي بينما يغلّفنا الظلام الدامس حتى

لا يمكن رؤية أي شيء سوى عينيه الزرقاوين الثلجيتين ووميض أسنانه البيضاء، «لن تفوز». لا أستطيع رؤية أي شيء، ولا أستطيع سماع أصوات الاحتجاجات الخافتة في الخارج. لا شيء موجود سوى خوف وأنا في هذه الحفرة السوداء. يمد يده إلى ذقني وأنا أتراجع، ولكنه لا يلمسني. ومع ذلك، فإن سلطته عليّ كبيرة، لدرجة أنني أنظر إليه، وأشعر بالرعشة وأنا متجمدة في مكاني.

«أنا لا محدود، لكن أنتِ لست كذلك»، يهمس. يمر بإصبعه الذي لا أشعر بها على حلقي، لكن أسناني لا تزال تصطك كما لو أنني أشعر بحدة أظفاره. «ابحثي عن طريقة للحصول على ذلك القارب».

***

تتدفق شمس الصباح على جسدي المرتجف. أبدل ملابسي، وأحاول تجاهل ثقل وجود خوف في حياتي. تقرقر معدتي جوعًا، وتؤلمني أطرافي. لكن لا يهم أيًا من ألمي طالما يمكنني إنقاذ الأرواح اليوم. إذا استطعت التعويض عن قصوري. عن كل الأرواح التي لم أستطع إنقاذها بالأمس.

لا تعد سنة دراستي في كلية الصيدلة كافية لإعدادي لهذا العمل. وحتى لو تخرّجت، لم يكن سيحدث فرقًا. لم يكن من المفترض أن أقوم بالعمل الذي أقوم به الآن. كانت دروسي في السنة الأولى نظرية بشكل رئيسي، وكانت دورات المختبر عن مزج التراكيب البسيطة، وهو الأساس للبناء عليه في السنوات القادمة.

أول يوم لي في المستشفى، كان بمثابة إلقاء نفسي بلا دروس سباحة في المياه العميقة. علمت نفسي كيف أسبح، كيف أرفع رجلي وأبقى فوق سطح الماء قبل أن تجرفني أمواجه الثقيلة للأسفل.

في الظهيرة، تضرب الفاجعة على شكل شظايا تمطر على مدرسة ابتدائية قريبة. تسقط على الأطفال. عندما يُنقلون بالأسرّة الطبية، تتباطأ حركة العالم. ترتكز رجلي على الدم اللزج الذي يلطخ حذائي. أنا واقفة في وسط الأشلاء، أرى اللحظات بين الحياة والموت تتكشف أمامي. تلتقط عيناي كل دمعة تسقط وكل روح ترتفع لتلتقي خالقها. أرى طفلًا يبكي وينادي والدته التي لا تظهر.

أرى طفلًا بفم صغير، لا يكثر عمره عن عشر سنوات، وجهه شاحب كورقة، ويوجد شريحة كبيرة من المعدن محشورة في ذراعه اليمنى. يعبِّر عن ألمه بعبوس دون إصدار أي صوت، لا يريد أن يخيف شقيقته الصغيرة التي تمسك بيده الأخرى وتبكي «تؤبرني».

أرى الأطباء، القلائل الذين تبقّوا في حمص، يهزّون رؤوسهم على الأجساد الضعيفة الصغيرة الهشة، وينتقلون إلى الآخرين. أرى فتيات صغيرات بأرجل ملتوية في وضع غير طبيعي. تحمل أعينهن معنى الحدث بكل كلمة. بتر أطرافهن. أتمنى أن يتم بثُّ ما نراه حاليًا على جميع القنوات والهواتف الذكية في العالم حتى يتمكن الجميع من رؤية ما يسمحون به أن يحدث للأطفال.

يبدأ طفل صغير يغني بعينيه الزجاجيتين، يحدق في السقف. بلا قميص، وشعره الأسود خفيف. صدره يتمايل مع كل نفس، يجاهد لملء رئتيه. يمكنني رؤية ضلوعه، أعد كل واحدة منها. يغني إحدى الأغاني العديدة المستخدمة من قبل المتمردين للتعبير عن الحرية. صوته الصغير هادئ ولكن قوي. ينتشر فوق الفوضى ويغرس نفسه في جدران المستشفى. إذا كانت هذه الجدران يمكن

أن تتحدث، تخيّل ما ستقوله. أمشي نحوه وأنا في حالة ذهول، موجّهة فقط بنغمة غنائه. لا يوجد أحد بجواره. يداه وذراعاه في مكانها. لا يوجد دم يخرج من فمه أو ينزف من رأسه. ليس أولوية. ولكن... أمسك يديه بيديّ. باردتين كالجليد. يجب أن يكون معطفه الصغير في المدرسة، مدفونًا تحت الأنقاض. «هل أنت مصاب؟» أسأل بدموع صامتة. لم يتوقف عن الغناء، لكن صوته أصبح منخفضًا. فحصت نبضه. بطيء وغير طبيعي. لم أر أي جروح.

«أنت مُصاب؟» أسأله مجدّدًا بشكلٍ عاجل. بمعدله الحالي، قلبه سيتوقف. يلتفت نحوي. «اسمي أحمد. عمري ست سنوات. هل يمكنك مساعدتي في العثور على ماما؟» يقول بصوت هادئ. عيناه الزرقاوان العميقتان غارقتان في جمجمته، أشعر بالخوف من اختفائهما.

إنه في حالة صدمة. أخلع معطفي الطبي وأضعه حوله، وأحمل يديه في يدي، وأقبّلهما. «نعم، حبيبي. سأجد لك أمك. هل يمكنك أن تخبرني إذا كنت تشعر بالألم؟»، «أشعر بالغرابة». «أين؟»، «رأسي. أشعر... بالنعاس»، يسعل بقوة «وصدري... لا أعرف».

نزيف داخلي. أنادي دكتور زياد. يتجه الطبيب إلى جانبي بسرعة ويفحص نبض أحمد. يخبر دكتور زياد بأنه يشعر بالعطش الشديد في حين يفحص رأسه. العطش الشديد يمكن أن يعني شيئًا واحدًا فقط. بتنهد عميق يهز رأسه. «ماذا يعني هذا؟» أسأل، «هل ستتركه؟».

«سلامة، ليس لدينا جرّاح أعصاب. لا أحد هنا يعرف كيفية إجراء جراحة لنزيف داخلي في الدماغ». يتحدث الطبيب بصوت جادّ ومليء بالأسف. «ماذا؟ إذن، ستتركه...؟» أهمس، لكن لا

يمكنني التفوه بهذه الكلمة الرهيبة. لا أريد أن يسمعها أحمد.

يمسّد الطبيب شعر أحمد ويزيحه عن جبينه. هناك قطرات من العرق تغطيه. أبتلع المرارة بفمي. «هل تشعر بالألم يا بني؟» يسأله. يهزُّ أحمد رأسه. «الأدرينالين والصدمة. لا يحتاج مورفين. لا يمكننا فعل شيء سوى جعل لحظاته الأخيرة أفضل!».

«سأقوم بنقل الدم». ألتفُّ حول نفسي حيث نكدّس المعدات. فصيلة دمي O-، لذلك أنا متبرعة عالمية. لدينا جهاز يدوي صنعه الدكتور زياد لتبرع الدم للمرضى لأن آلات النقل لا تعمل دائمًا، خاصة مع نقص الكهرباء. «يمكنني إعطاؤه دمي. سأعطيه...»، «لن يساعد». يقول بصوت مؤلم. «دكتور زياد...» يرفع يده ويقاطعني: «سلامة، لن يساعد. إذا كنت أستطيع أن أعطي حياتي حتى يكون هذا الصبي آمنًا وسليمًا وصحيًا، فسأفعل. ولكن لا أستطيع. لا يمكنني مساعدته. ولكن يمكنني مساعدة الفتاة الصغيرة التي برزت أمعاؤها على الأرض. لا يمكننا إنقاذ الجميع». يغادر قبل أن أصرخ.

«يا طنط» يبدأ أحمد بلين في التّنفُّس. «نعم حبيبي؟» ألتفت إليه وأعود لأمسك بيديه في يديَّ. أقسم إن عشت، سأعتني بك. فقط عِش. من فضلك. فقط عش. «أنا سأموت؟» يسأل، ولا أرى أي خوف. هل يعرف جميع الأطفال البالغين من العمر ست سنوات ما هو الموت؟ أم أنها معرفة يحملها أطفال الحرب فقط؟ ترتجف يدي. «هل تخاف من الموت؟» أجيب بدلًا من ذلك. «أنا...» يسعل، وقطرات حمراء تتدفق من شفتيه. يا إلهي. «لا أعرف. بابا مات. قالت لي ماما إنه في الجنة. هل سأذهب أنا أيضًا إلى الجنة؟» أرتعد. «نعم، سوف تذهب. سوف ترى

بابا هناك». يبتسم برفق. «الحمد لله. ماذا يمكنني أن أفعل في الجنة، يا طنط؟» كيف يمكن للطفل أن يتمتع بالكثير من الهدوء في وجه الموت؟ أبتلع دموعي، غارقة في الداخل. «سوف تلعب طوال اليوم. هناك ألعاب وطعام وحلوى وألعاب وكل شيء يمكن أن تريده». «هل يمكنني التحدث إلى الله أيضًا؟» أذهلني سؤاله. «بالطبع يمكنك، يا عمري». «حلو».

نجلس بصمت لبضع دقائق، وأستمع لكفاح رئتيه. يفقد بالفعل تركيزه، وتصبح أنفاسه أكثر ضحالة في ثانية. أدعو لروحه وأتلو آيات من القرآن بصوت منخفض. «طنط، لا تبكي، عندما أذهب إلى الجنة، سأخبر الله بكل شيء»، يتلعثم. أنظر لأعلى، ووجهه قد أصبح هادئًا. عيناه زجاجيتان، ويبدو وكأن نجومًا صغيرة عالقة في قزحيتيه الزرقاوين.

6

لم أتحرك من جوار جسد أحمد لفترة طويلة. حتى لم أترك يديه. أضغطهما على شفتيّ، محاولةً أن أجعل الحياة تعود إليه مرة أخرى. الأصوات الخلفية مكتومة في أذني. كل ما أسمعه يتكرر مثل شريط مكسور: «سأخبر الله بكل شيء».

يقشعرُ جلد رقبتي، وأشعر بالبرد يتخلّل عظامي، قد يحلُ غضب الله. تقوم يدٌ بالنقر على ظهري، فأتجاهلها. حتى إنني لا أسمع ما يقوله الشخص. «أنتِ!» النقر يزداد ويصل إلى مستوى مزعج.

أنا في حالة حزن على صبي لم أعرفه، لكنني خذلته. «ماذا؟» أنفجر بغضب وأستدير. إنه شاب. في نفس عمري أو أكبر. يلهث ويرتجف. لا يستطيع أن يبقي يديه ثابتتين، يجريهما على وجهه وشعره الكيرلي الكستنائي، عيناه الخضراوان جامحتان. يبدو مألوفًا، وأستغرق لحظة حتى أدرك أنه الشاب الذي رأيته أمس، الذي كان يحمل فتاة صغيرة بين ذراعيه.

«من فضلك... من فضلك! عليك أن تساعدني». يتكلم بسرعة، وكتفاه يرتجفان. صوته يجلبني مرة أخرى إلى واقع الأمر. قد يكون أحمد قد توفي، ولكن الأحياء لا يزالون هنا. أدفع حزني إلى أعماق عقلي المظلمة، سأتعامل معه لاحقًا ثم أقفز على قدمي. «نعم؟ ماذا حدث؟»، «أختي -من فضلك- جاءت أمس بسبب القنبلة- كانت هناك شظايا في بطنها- تمت إزالتها- أخذناها إلى المنزل- قالوا في المستشفى إنه لا يوجد مكان- قالوا إنها ستكون بخير- من فضلك- فقط...» يتلعثم، غير قادر على مواكبة وتيرة كلماته من الذعر النقي. أنقر بأصابعي أمامه. «استرخ! أحتاجك أن تهدأ الآن. تنفّس

بعمق». يوقف نفسه ويحاول التنفس، لكنه بائس. لا يستطيع أن يهدأ بما فيه الكفاية.

«أختي»، يبدأ بصوت هادئ مضطرب. ووريده ينبض في حنجرته. «في الليلة الماضية، أصابتها حمى شديدة، ولم تنقطع طوال اليوم. حتى عندما أعطيتها بانادول. الأمر سيئ. سيئ حقًا. تقيّأت ثلاث مرات، ولا أستطيع حملها إلى هنا. في كل مرة أحاول تحريكها، تصرخ من الألم. من فضلك... يجب أن تساعديني».

أعرف فورًا ما هو الأمر. بتردّد، أخلع معطفي الطبي عن جسد الصغير أحمد. لا يمكنني حتى أن أقول وداعًا. ثم ألقي نظرة حولي لأرى ما إذا كان أيٌّ من الأطباء قد يتمكن من المساعدة، ولكن يبدو أن كل واحد منهم مشغول بمرضاه. يجب أن أفعل ذلك بنفسي. عندما بدأت هنا قبل بضعة أشهر، رأيت كيف يبذل الدكتور زياد جهودًا إضافية لمرضاه، ممّا جعلني أرغب في القيام بالمثل.

على الرغم من اعتراضاته، لأنني أعرف عواقب عدم القيام بذلك، تعلمت كيفية إخراج الشظايا، وخياطة الجروح الواسعة، ومحاولة إيقاف الموت بمفردي. أصبحت جرّاحًا بالقوة. قمت بإزالة ما يكفي من الرصاص لصهره ليتحول إلى ضلب ويدخل في صناعة سيارة. أمسك بحقيبة الجراحة الطارئة وأشير للشاب ليقود الطريق. «أين تعيش؟» أسأل ونحن نسارع خلال طقس بعد الظهيرة البارد. عيناه مشدودتان إلى السماء وأعلى المباني. إنه يبحث عن القناصين والطائرات. «فقط بضعة طرق قبلنا. يا دكتور، لماذا تشعر بالألم؟ هل تعرفين؟» أتردّد لبضع ثوانٍ قبل الرد. «أعتقد أنه ربما يكون هناك قطعة شظايا داخل جرحها». يهمس بشباب.

«أنا آسفة».

يهز رأسه. «لا. مع الضغط الزائد على المستشفى مثل هذا، أفهم كيف يمكن أن يحدث ذلك. على الأقل إنها قطعة واحدة». آمل أن تكون واحدة فقط. «كم عمرها؟»، «تسعة». اللعنة. من المحتمل أنها جوعانة للغاية ومعرّضة للعدوى بشكل كبير. «علينا أن نسرع». يزيد من الوتيرة، وأنا أتابعه عبر الأزقّة القديمة في مدينتنا المتمزقة. بعض الناس في الخارج، إما غارقون في محادثاتهم أو في انتظار الدور في المخبز.

«أنا كنان»، يقول فجأة، وألتفت نحوه، مشتّتة. «ماذا؟»، «كنان»، يُكرّرها، وينجح في التّبسّم قليلًا. «سلامة»، أقول. اسمه بدا مألوفًا، كما لو أنني سمعته في الحلم مرة.

ولكن قبل أن أحاول فكّ ربطة التعرف الخافتة تلك، يتوقف. أمامنا مبنى. أو ما تبقى منه. مثل كل المباني المحيطة به، المتأثرة بالعديد من القذائف المتناثرة وطلقات البنادق. الدهان متشقّق ويتقشر طبقة تلو الأخرى. يتألف من خمسة طوابق ولا بُدّ أنه كان بنيانًا بُنّيّ اللون في وقت ما.

يفتح كنان باب المبنى ببطء ويطل عليّ بنظرة مترددة. يكفهر وجهي، غير فاهمة. يتغير كل سلوكه تمامًا. كأنه يشعر بالخجل. نتسلق السلالم الخرسانية المتشققة على الحواف حتى نصل إلى الطابق الثاني. بابهم خشبي وقديم ويُفتح على غرفة المعيشة، التي تبدو كما لو انفجرت فيها قنبلة صغيرة، تمامًا في الوسط. أثاث مكسور وجدران تتدهور وسجاد ممزق ومغبر. من الجهة الأخرى، أندهش من حالة الشرفة. هي مدمّرة بنسبة أكثر من نصفها، أجزاء منها سقطت بوضوح إلى الشوارع

أسفلها. ثقب ضخم يسمح لنسمات الهواء الشتوي بتجميد من في الداخل. الوقوف بالقرب من الحافة يعرضك لخطر السقوط.

ينادي، وأحد إخوته، أعتقد، يهرول إليه. هو صغير، يدق باب سنواته المراهقة. هناك ثقب كبير في جانب قميصه، وبنطلونه يتدلى فضفاضًا عليه. أستطيع سماع شقيقتهما تتأوّه من حيث تستلقي على الأرض في غرفة المعيشة. أحتاج إلى العمل بسرعة. ينزل كنان على ركبتيه بجانبها ويسأل عمّا إذا كانت بخير، ويهمس بالتشجيع والحب. يقف الصبي الأصغر بجوار الباب، يتململ بيديه ويلقي نظرات متوترة على الطفلة الصغيرة.

«لمى، هذه الدكتورة ستساعدك». الفتاة الصغيرة تتنفس بصعوبة قبل أن تومئ برأسها. وجهها كله ملتوٍ من الألم. أجلس بجانبها. «لمى، حبيبتي. أريد أن أساعدك، ولكن عليك مساعدتي أوّلًا. حسنًا؟» توافق مجدّدًا.

«هل أعطوها دمًا في المستشفى أمس؟» أسأل كنان مستخرجةً الأدوات التي سأحتاجها. «نعم»، يتنهد. «أحد الأطباء تبرع بالدم. فصيلة سالبة ربما؟» أوافقه وأفتح قميصها. بشرتها شفّافة، وأضلاعها تبرز كما كانت لأحمد. لا يمكنني أن أسمح للدموع بأن تعترض نظري، لذا أرجو نفسي ألّا أبكي. كنان يمسك يدها ويستمر في الحديث، يحاول تشتيت انتباهها عن ألمها. تصيح من الألم عندما أزيل قميصها المبتل بالعرق. أضع راحة يدي على جبينها الساخن. «لمى، من أين يأتي الألم؟» «من... من بطني»، تتنفّس بصعوبة. العرق يتدفق على خدها.

أقطع الضمادات بعناية قدر استطاعتي وأقول:

«سأضع يدي على بطنك، وعندما يصبح الألم شديدًا جدًا، أخبريني». تومئ بوهن. يراقب كنان كل حركة لي بعيون مليئة بالدموع. وأنا مندهشة من هدوئي. في اللحظة التي ألمس فيها بطنها، تصرخ.

اللعنة.

أضغط بقوة وتصرخ بصوت أعلى. أزهار الأقحوان. الأقحوان. الأقحوان، أكرِّر لنفسي، وأثبِّت يدي. «ماذا تفعلين؟» يقول كنان بصوت مبحوح.

«أحتاج أن أعرف أين مكان الشظايا». تستمر لمى في الصراخ، لكني لا أستطيع أن أتوقف. يجب أن أشعر بحافة جسم معدني يضغط على يدي. «أنتِ تؤذينها!» يصرخ. أسكِته بنظرة تعلَّمتها من ماما. «أتعتقد أنني أرغب في فعل ذلك؟ أنا بحاجة لمعرفة أين هي!» يصمت، لكن يمكنني رؤية النار تشتعل في عينيه. «لديها كدمات وغرز في كل مكان. لا يمكنني تحديد أي منها نتيجة للشظايا. هذا هو السبب وراء ما أفعله». يطرق برأسه، ووجهه أبيض كالورقة.

«لمى، يجب أن تخبريني عندما يصبح الألم أشد، حسنًا؟ أنت شجاعة جدًا، وأعلم أنك ستكونين قوية الآن أيضًا. حسنًا؟» تنزلق دموع من عينيها قبل أن تومئ مرة أخرى، «شاطرة». أضغط برفق، وأمشي خطًا على بطنها. تعضّ أسنانها ولا تصرخ بعد الآن، لكن أنفاسها تخرج بانفجارات قصيرة حتى أصل إلى أسفل سُرّتها. «هنا!» تصرخ. أتوقف على الفور. شعرت بحافتها قبل أن تخبرني. «شاطرة يا لمى». أتنفَّس، محاولةً جعل صوتي خافتًا. «أنتِ رائعة. الآن الشيء الوحيد الذي تبقى هو إزالة الشظايا». «افعلي ذلك»، يقول كنان. «أنا فقط...» أبتلع الحمض في فمي وأنظر إليه. «سيكون الأمر صعبًا قليلًا». «لماذا؟» أهز رأسي. كيف يمكنني أن أقول

هذا؟

«أحتاج...»، «تحتاجين شقّ بطنها، ولا يوجد تخدير». «نعم»، أهمس.

يمرّ كنان بيده فوق شعره ووجهه، متحطّم. «يجب عليّ أن أفعل ذلك الآن. قبل أن تتحرك الشظية وتنتهي في مكان لا يعلمه إلا الله». يتشتّت تنفُسه. «افعليها. ليس لدينا خيار. فقط افعليها». صوته متألم كصوت أخته.

«أحضر لها شيئًا لتعضّ عليه». يخلع حزامه. «لمى، أنا آسفة جدًا. أعلم أنك تشعرين بالألم، ولكن يمكنك فعل ذلك. أنا هنا. إخوتك هنا». تبدأ في البكاء. «عضّي على الحزام»، أخبرها. هذا ليس ما توقّعت أن أقوم به أبدًا. كان من المفترض أن أكون صيدلانية. لم يكن من المفترض أن أقوم بقطع بطون الأطفال في منازلهم. ترتعش يدي بينما أخرج المطهر والمشرط. حتى الآن، كل مرة قمت فيها بالعملية وحدي كانت في المستشفى، مع الدكتور زياد دائمًا في مكان ما، قريبًا، في حال أخطأت. من الطمأنينة أن أعلم أنه هناك. لكن هنا، إذا انزلقت، إذا قمت بقطع وريدٍ أو تسبّبت في مزيد من النزف الداخلي، فإنها ستموت. وسأكون قاتلتها.

أغلق عيني بشدة، أحاول ضبط تنفسي وأفكر في الأقحوان. «مرحبًا»، أسمع كنان يقول. «هل أنت بخير؟» أفتح عيني على الفور، وأقول: «نعم»، وأنا فخورة بأن صوتي لم ينكسر. جميع المرات التي كان عليّ فيها الحفاظ على هدوئي في المستشفى تؤتي ثمارها. عيناه تتلطف، وأعتقد أنه يمكنه قراءة الخوف الذي أحاول إخفاءه بجنون. أتجاهل لحظة التردد السريعة التي تمر بتعابير وجهه، ثم أنظر إلى لمى، التي تحدق في السقف ودموع تتلألأ في

عينيها. ترتعش شفتاها حيث تعضّ على الحزام. إنها صغيرة جدًا على هذه التجربة.

يا الله، أرجوك أرشد يدي، واسمح لي بإنقاذ هذه الفتاة المسكينة. أعقّم معدتها والمشرط وأنظر إلى كنان. سيؤلمه هذا أكثر مما سيؤلمها. «أمسك يدها»، أوجّه له التعليمات. يوافق بوجه شاحب. أضغط بالمعدن البارد على بطنها، وتتأوّه. «لمى، انظري إليّ فقط»، يقول شقيقها.

أتنفس عميقًا وأقوم بتحريك المشرط لأسفل وأُحدِث قطعًا صغيرًا. لكن ذلك لا يمنع لمى من الصراخ. تحاول دفعي بعيدًا، وتركل بساقيها، ولكن كنان يُمسك بها. «لمى، من فضلك، أحتاجك أن تبقي هادئة!» أقول وأعمل بأسرع ما أستطيع.

تنفجر الدماء من الجرح الذي أحدثته، وأغرز إصبعين للبحث عن الشظية. تبكي هي، تتوسّل لي أن أتوقف. أشعر وكأنني وحش. لكن ليس هناك وقت لأكون لطيفة. يلامس طرف إصبعي الحافة الحادة. «وجدتها!» أصرخ وأمسك بها. إنها مغروسة في منطقة ضحلة، بعيدة عن الأمعاء الكبيرة، وأكاد أن أسقط من الارتياح. على الرغم من ذلك، أدعو بشدة لكيلا تُسبّب أي نزيف داخلي. أسحبها ببطء. كانت هذه حركة خطرة. بحرص، أتأكّد من عدم وجود مزيد من الشظايا قبل أن أخيط جرحها. كل ثقب في جلدها يرسل موجة جديدة من الألم لها ولكنان ولي. الخياطة سيئة، وبالتأكيد ستترك ندبة، لكنها على قيد الحياة، وهذا هو الأمر الأهم. أضغط حول معدتها، متأكّدة من عدم وجود شيء آخر. «انتهيت». ألتقط أنفاسي بصعوبة، كما لو أنني ركضت ماراثون، وأبدأ في تلفيفها بلطف بمجموعة من الضمادات النظيفة. ترتاح قسمات وجه كنان.

يقبّل جبينها، يزيح شعرها الرطب من التعرّق.

«لقد قمت بعمل رائع يا لمى. أنا فخورة جدًا بك. أنت شجاعة جدًا». تتداخل دموعهما معًا. تبتسم بضعف، عيناها تترقرقان من الإرهاق. لكن عملي لم ينته بعد. أقوم بالنهوض لغسل دمها من يدي، لكن أتذكر فجأة أن المياه مقطوعة. «ها هنا»، أسمع كنان يقول من خلفي. يحمل دلوًا كبيرًا من الماء، الذي ربما يستخدمونه للشرب والطبخ. أهزُ رأسي. «لا يمكنني فعل ذلك. أنتم بحاجة إلى هذا الماء. سأغسل يدي في المستشفى». «لا تكوني سخيفة. تعالي هنا واغسلي الدماء. لدينا دِلاء من الماء». لا أحد لديه دلاء من الماء. لكنني آخذه منه. يتدفق الماء على ندوبي مثل أنهار صغيرة تغسل الدماء. «هل أعطوك بالمستشفى أي مضادات حيوية؟» أجفّف يدي على معطفي الطبي. «نعم». يلتقطها من جيبه ويسلمها لي. سيفالكسين، 250 ملغ. «أعطِها حبّتين كل اثنتي عشرة ساعة، لمدة سبعة أيام». يهرع ليعطيها حبّتين منها. تشتكي بأن جانبيها لا يزالان يؤلمان، لكنها تتناول الدواء. يظهر أخوهما من وراء الباب ويجلس بجوارها، محاولًا أن يجعلها مرتاحة قدر الإمكان. يتنهد ويفرك عينيه الحمراوين، وهي تبتسم قليلًا قبل أن تغلق عينيها. إرهاقها بات بارزًا للغاية، حتى إنني أشعر به على بشرتي الخاصة.

أنظر إلى ساعتي. إنها تقترب من الساعة السادسة مساءً. يجب أن أعود إلى ليلى. عاد كنان إليّ. «شكرًا جزيلًا يا دكتورة. لا أعرف ماذا أقول». أترفّع عن تقديره. «ليس بالأمر الكبير. أقوم فقط بعملي كصيدلانية». يقول بينما ينظر إليّ في ذهول: «أعتقد أن هذا ليس ضمن حدود وظيفتك»، يقولها

بإعجاب يتسلل إلى عيني. يتدفق الأدرينالين من جديد في جسدي وأشيح بنظري بعيدًا. هناك حياة في عينيه. شيء لم أعتد رؤيته خارج عيون ليلى. «وأنت صغيرة السّنّ أيضًا». أعبث بأصابعي وأجيبه: «لست أصغر كثيرًا منك.» يهز رأسه قائلًا: «لم أقصد بهذا أي سوء. أعتقد أنه من الرائع أن تستطيعي فعل كل هذا».

أهزّ كتفًا واحدة قائلة: «ظروف الحياة». يقول: «نعم»، وتستمر نظرته نحوي لبضع ثوانٍ قبل أن يلتفت بعيدًا، ويتورد خدّاه. أتنحنح وأشير باتجاه لمى قائلة: «الآن، لن تستطيع أختك تناول أي شيء لفترة من الوقت. هنا يأتي دور السوائل. دعها تشرب قدر الإمكان. حساء، ماء، عصيرًا... أي شيء فعلًا. الفواكه أيضًا إذا وُجِدَت».

يومئ موافقًا على كل كلمة أقولها، ويخزّنها في ذهنه. يمكنني أن أرى أنه يحاول التفكير في المكان الذي سيحصل منه على كل هذه الأشياء. إنهم لا يتضورون جوعًا باختيارهم. لم أسأل عن والديه. إذا لم يكونا هنا، فإنه ليس لغزًا ما حدث لهما.

«سأكون في المستشفى إذا احتجت إلى أي شيء. عندما تتمكّن قليلًا من التحرك، قُم بإحضارها إلى هناك حتى نرى ما يمكننا فعله بشكل أكبر». «شكرًا لك». أرفع حقيبة الجراحة على كتفي. «مرة أخرى، لا داعي للشكر». يمشي بجانبي إلى الطابق السفلي. «سأقوم بإيصالك إلى المستشفى». «لا، أنا بخير. أنا ذاهبة إلى المنزل على أي حال. أختك بحاجة إليك أكثر».

يبدو ممزقًا بين رغبته في أن يكون شهمًا وبين البقاء مع أخته. «لا بأس»، أكرر بحزم. يقول: «دعيني على الأقل أصطحبك إلى الخارج»، صمتُ

موافقة. نمشي معًا، ننزل السلم في صمت. عند الباب الأمامي، استدرت نحوه بينما يبتسم. «شكرًا مرة أخرى»، يقول، «عفوًا»، أجيب وأتخطى عتبة الباب. «خُذ...» لكن صوته يختفي عندما تدوّي الطلقات في الهواء. ألتفت بخوف لأرى عينيه تتسعان، وفورًا يمسك ذراعي ويسحبني للداخل. «مهلًا!» أحتجُّ، مُنزلة ذراعي بقوة من قبضته، لكنه لا ينتبه، بل يغلق الباب بقوة.

يضع إصبعه على شفتيه ويلصق أذنه بالإطار المعدني. أنتظر بفارغ الصبر، داعيةً ألّا يكون ما أخشاه. يتلاشى الأمل عندما تتبعها المزيد من الطلقات وتتأكّد أسوأ شكوكنا. «ليس آمنًا الخروج الآن»، يقول أخيرًا.

«هذا واضح. لكن يجب أن أذهب». أحاول التحرك جانبًا، لكنه يسدُّ المساحة بجسده. «ربما الجيش يتصادم مع المتظاهرين. يجب أن تبقي في الداخل حتى ينتهي الأمر. سيكون لديهم قناصة في كل مكان على أسطح المباني».

على الرغم من توقع حدوث هذا في أي وقت، لكنني بدأت في الذعر. ليلى وحيدة. لا يمكنني تركها هكذا طوال الليل. «يجب أن أذهب. ليلى بحاجة إليّ»، أكرّر صدى أفكاري. «مَن ليلى؟»، «صديقتي. إنها أيضًا زوجة أخي، وحامل في الشهر السابع. لا أستطيع تركها». «كيف ستكونين عونًا لها إذا كنتِ ميتة أو مُعتقلة؟» يقول بقوة، ويشكّل درعًا بشريًا عند الباب. اللعنة. «أليس بإمكانك الاتصال بها؟».

«لدينا هواتف، لكننا لا نستخدمها. أنا خائفة جدًا من أن يقوم الجيش بتعقُّب الاتصال ويعلم أنها وحيدة». يتردد لبضع ثوانٍ، ثم يسحب موبايل نوكيا قديمًا. «هذا هاتف غير معروف. يُستخدم

فقط للاتصال بالناس. يمكنك استخدامه». أسأل باندهاش: «كيف حصلت عليه؟»، «أتريدين طرح الأسئلة، أم تريدين الاتصال بها؟» يسلّمه لي ويعود إلى الطابق العلوي. يتوقف كنان في منتصف الطريق ويقول: «لا تركضي نحو الموت». أومئ، ويختفي.

أطلب رقمها، قلبي يدق بصوت عالٍ مع تقدّم الجرس. لا ترد، وأكاد أفقد وعيي من الرعب. ثلاث محاولات أخرى. ولا يوجد ردٌّ. يتجسد خوف أمامي، والقلق يفتح أسود حفرة في قلبي. «ماذا يحدث؟» ألهث. «تخيّلي لو كانت في المخاض الآن»، يقول، والأرض ترتجف تحت قدمي.

«هذه هي الخيارات التي تختارينها كل يوم يا سلامة». يقف قربي أكثر، ينظر إليّ برثاء. «أنت تقامرين بحياة ليلى. ناهيك عن حياة جنينها الذي لم يولد بعد. ابنة أخيك. أيهما أهم؟ المرضى أم ليلى وطفلها؟» أسمع عظامي تطقطق تحت ثقل كلماته. أتذكر ألم ليلى عندما تمّ اختطاف حمزة. كيف قضت أسابيع تصرخ وتضمُّ وجعها الذي يفيض مثل الفيضان، يهدد بإغراقها. أتصور ما سيقوله حمزة لي إذا سمحت لأي أذى أن يصيب ليلى. إذا ماتت بسببي.

7

أفتح باب شقة كنان وأدخل كجسد ممسوس. الأمور لا تبدو على ما يرام. أحتاج أن أكون مع ليلى. «كيف حال أختك؟» يسأل كنان وهو يخرج من المطبخ. «لم تجب على الموبايل». أبتلع ريقي بصعوبة. «احتفظي بالموبايل»، يقول، مدركًا خوفي. «وحاولي مرة أخرى». أهمس: «شكرًا لك».

أومئ وأنا أقف بجانب الجدار، أحاول تهدئة أعصابي المتوترة. يبدأ اللون البرتقالي الضبابي لفترة المغرب في التلاشي، جالبًا النسيم البارد القاسي إلى داخل شقة كنان نصف المدمَّرة. أرتجف، وأضغط معطفي الطبي أكثر حول جسدي. يلاحظ كنان ذلك، وبمساعدة شقيقه يعلّق بطانية صوف رمادية على جانبي الثقب؛ في محاولة للحد من وصول الهواء البارد. «شكرًا لك»، أهمس، ويبتسم لي، ورأسه تهتز في تفهُّم.

يدخل إحدى الغرف ليجلب فراشًا قديمًا ويسحبه على الأرض. شقيقه يلقي عليّ نظرات خجولة، وجنتاه غائرتان، وعظام رسغيه بارزة. يشبه كنان قليلًا، على الرغم من أن عينيه لونهما أفتح من اللون الأخضر وشعره أغمق من البني؛ سمتان يشترك بهما مع أخته. «إذًا، سنضع الفراش بجوار لمى. أعتقد أنك ستشعرين براحة أكثر بألّا تكوني وحدك الليلة». ثم يقول كنان بسرعة، كما لو أنه يحاول إخراج الكلمات بأسرع ما يمكن: «إذا أردت، يمكنك أن تأخذي أيًا من هذه الغرف. سنكون -يوسف وأنا- مستيقظين طوال الليل. لكن إذا كنت بحاجة إلى أي شيء أو فقط...».

قاطعته: «أنت على حق. لا تزال لمى تعاني من الحمى، وأريد التأكد من أنها ستكون بخير. لن

أستطيع النوم أيضًا. يجب أن ينام أخوك، لا يبدو منطقيًا أن تظل العائلة كلها مستيقظة». لا يجادلني ويهمس شيئًا ليوسف، ويمرّر يده على شعره. يصل يوسف بالكاد إلى ذقن كنان، وهو ينظر إليه بإعجاب قبل أن يدخل غرفته.

أنا سعيدة أن شخصًا ما سينام، لأنني لا أعلم ما إذا كنت سأتمكن من النوم بعيدًا عن ليلى. أتجه إلى الفراش وأجلس بجانب لمى، وأفحص درجة حرارتها. لا تزال دافئة جدًا، ولكنني آمل أن تعود إلى طبيعتها بفعل المضادات الحيوية. أمسح جبينها بقطعة قماش مبلّلة، أتذكر كيف كانت ماما تفعل ذلك عندما كنت مريضة. أصابعها الناعمة، وكلماتها المشجّعة عندما أشرب كوبًا من عصير الليمون. «برافو، تؤبريني»، كانت تقولها، وكفها الباردة على جبيني اللامع بالعرق. «أنا فخورة جدًا بك. هيا، اشربيها كلها. اقضي على كل تلك الجراثيم». أغلق عيني بقوة. لا. لن أفكر في ذلك.

«كيف حالها؟» يسأل كنان، وهو يجلس على الجانب الآخر من فراش لمى. أظهر ابتسامة. «على الرغم من الحمّى، تنفُّسها أفضل. أنا متفائلة». «الحمد لله». يمدّني بشطيرة حلوم، وأنا مندهشة. الخبز والجبن لا يأتيان بسهولة. ألاحظ أن ليس معه ساندوتش كذلك. «أنت ضيفتنا»، يقول، ولا يسعني إلا أن أتساءل ما سيكلّفهم هذا. «لا أستطيع أن أتناوله. أعطه لشقيقك». «لا، لديه بالفعل واحد. إذا لم تتناوليه، سأرميه، وحينئذٍ لن يأكله أحد. لذا، من فضلك، لا تحاولي مجادلتي في ذلك».

قد يبدو التهديد فارغًا لو كان قادمًا من أي شخص آخر، لكنه لا يبدو مازحًا. عيناه صلبتان، لا تتسعان للتفاوض. تنهّدت وشطرته إلى نصفين، ومددت له

الجزء الأكبر. «خذه». يهزُّ رأسه.

«إذا لم تأخذه، فسأرميه الآن، ولن يأكله أحد». يضحك ويأخذه من يدي. «لم يكن أمرًا صعبًا، أليس كذلك؟» «أنا متأكد أن روحي والديّ تحدّق في من السماء الآن لقبولي. ولكنني كنت مخادعًا». يضحك مرة أخرى. تقع نظراته على يدي، على ندباتي، لثانية فقط. تصبح معدتي فارغة وأسحب أكمامي فوقها. الفعل لم يمر دون أن يُلاحظه، لكنه لا يقول شيئًا. «يجب أن يكون الإنسان ذكيًا في هذه الأوقات»، أقول، حاولت أن أضفي لهجة عادية على صوتي.

حوّل الغسق السماء إلى اللون الوردي الغامق المرقّط بالأزرق. بعدما أنهينا طعامنا، نادى شقيقه وصلّينا معًا. يبدأ كنان بتلاوة آيات من القرآن بلحن جميل وهادئ. أشعر وكأنني سُحِرتُ بكل كلمة، استيعاب المعنى، شعور بأنها تجلب السلام والهدوء لكل خلية في جسدي، تغسل الأحزان بعيدًا. لا أستطيع تذكُّر آخر مرة كنت فيها بهذا السلام، تقريبًا خالية من القلق. وبعد الصلاة، أفحص لمى. لا تغيير.

يُحضر كنان عددًا من الشموع ويشعلها، وبفضل البطانية التي تغطي الثقب في الجدار؛ لا تنطفئ. أعتذر للذهاب إلى الحمام لإنعاش نفسي وأحاول الاتصال بليلى مرة أخرى دون جدوى.

هي بخير، أكرّر لنفسي وأنا أدلك فروة رأسي وأرش ماءً على وجهي لأهدأ. عندما أعود إلى غرفة المعيشة، يجلس كنان بجانب أخته، وأجلس أنا في الجانب المقابل على الفراش. يكون اللاب توب على الأرض بجانبه وشاشته مغلقة. «متى سنعرف عندما تصبح بخير تمامًا؟» يسأل، وهو يبلّل جبينها بقطعة قماش. «يستغرق السيفالكسين حوالي عشر إلى أربع وعشرين ساعة للوصول إلى تركيز ثابت في

الدم. غدًا، إن شاء الله، ستكون بخير». ينظر إليّ. «أنت بالتأكيد لديك معرفة جيدة بالأدوية». أهز كتفي. «هذا عملي». «نعم، لكنك تعرفين الأوقات والأشياء عن ظهر قلب بلا تردّد. يجب أن يكون هذا مستوى متقدم».

«نعم، إنه مستوى متقدم». أشعر أن وجهي يحمرُّ وأحوّل نظري إلى النافذة بجانبنا، مركّزة على اللون الأزرق الذي يتحول إلى اللون الأسود. يتضح لي أخيرًا أنني سأقضي الليل في منزل شاب. في ظروف استثنائية، نعم، ولكن ذلك لا يغيّر الواقع. تصبح يدي رطبة بالعرق، وأحاول ألّا أتخيل عيون ليلى تتسع بسماعها هذه المعلومة المشوقة. أكثر شيء فاضح فعله أي شخص أعرفه هو عندما قبّل حمزة يد ليلى بعد مراسم قراءة الفاتحة. ولم يكونا حتى مخطوبين رسميًا. كان ذلك في حفلة خطبة مبدئية. كنت أزعج حمزة بشأن ذلك كلما رأيته، حتى إنه قام بدعك أنفي، ولم يتركها سوى حمراء تمامًا. والآن أنا هنا، جالسة على أرض غرفة المعيشة بجوار شاب لا يفصلنا سوى بضعة أقدام. «ما زلت تتذكرين كل هذه المعلومات حتى بعد التخرج؟» يسأل كنان فجأة، فألقيت نظرة سريعة نحوه، مدركة التغيير في طريقة كلامه. إنه يحاول أن يشتّت انتباهي، وفي المقابل، يُشغل نفسه عن الإحراج في هذا الموقف.

أتنحنح، وتهدأ الأصوات في ذهني. «لم أتخرج بعد. بدأت فقط العام الثاني عندما... كما تعلم». لا أخبره أنني توقفت عن الذهاب عندما اندلعت الاحتجاجات في جامعتنا واعتقل الجيش العشرات من زملائي في الصف. لا أعرفه بما يكفي.

«أنهيت العام الثاني في العام الماضي. حصلت

على شهادة في علوم الكمبيوتر. كان لديّ حلم أن أصبح رسّامًا للرسوم المتحركة. كل شيء كان يسير بشكل مثالي»، قال متأمّلًا، وهو يرفع ذقنه نحو اللاب توب. «من المفارقة، مع كل ما حدث، لديّ الكثير من القصص لأرويها. لتصبح أفلام رسوم متحركة». «تعني مثل أفلام هاياو ميازاكي؟». «تمامًا مثلها»، يقول مندهشًا. «هل تعرفينه؟». «أنا مهووسة بأفلامه».

يعتدل في جلسته، عيناه تلمعان بالحماسة. «أنا أيضًا! ستوديو جيبلي هو هدفي. ذلك المكان حيث تجري الأفكار والخيالات بحرية. هم يحاكون القصص كالسحر هناك».

حماسه يثير شيئًا في قلبي. «هذا يبدو جميلًا»، أتمتم. يغمض عينيه، ويبتسم. «زبّ ضارة نافعة». هناك فرحة حقيقية في صوته، ولكن لأول مرة هذه الليلة، أستطيع رؤية وجهه الحقيقي وراء الشظايا التي اضطرّ لإعادة تجميعها مرارًا وتكرارًا. يبدو كمنكسر، وقلبي يحزن لأجله. ولكنه يبدو أيضًا مألوفًا وكأنني أعرفه.

أهزّ رأسي وأسأله بصراحة: «هل سبق وأن التقينا؟» يفتح عينيه بسرعة، متفاجئًا. «ماذا تقصدين؟» يجيب ببطء. «قد لا يكون شيئًا». ألعب بطرف سترتي. «لكن أعتقد أنني رأيتك من قبل. ليس في المستشفى، بل في... مكان آخر».

صوتي يؤثّر في أخر الكلمات كأنها سؤال. يعضّ شفتيه، ولا أستطيع قراءة التعبير على وجهه. الحماس قد تحوّل إلى شيء آخر. الارتباك؟ الشك؟ الشفقة؟ لا أعلم. فجأة، ظهر خوف بجانب الباب الأمامي وانزلق ببطء بالقرب مني. العرق يتصبّب على مؤخرة رقبتي. «أنا... أه...» يتنحنح كنان، حاكًا

الأرض بيده. «لم نلتق يومًا ما».

هاه.

أقول: «لا بدّ أن هذا في خيالي، أظن»، متظاهرة بأنه مجرد خطأ شائع ومحاولة ألّا أسمح لحضور خوف بوضعي في حالة من عدم الارتياح. «لا بدّ أنك تشبه شخصًا أعرفه أو تعاملت معه». يومئ، لكن الأمر واضح كالنهار: هناك شيء آخر يحدث. «ما اسم عائلتك؟» أسأل بصوت عالٍ، فيقفز من مكانه. بطريقة ما، يُعرّف الجميع في حمص بأسماء عائلاتهم. تستطيع جدتي سرد تاريخ عائلة شخص ما إذا أخبرها بلقبه العائلي. ستعرف من كان جده، وماذا درست عمته في الجامعة، وما العائلات الأخرى التي تربطهم بها صِلة قرابة. ستسمّي كل ذلك، تحليل السلالة كما يفعل العلماء عند فحص الخلية تحت المجهر. هذا تخصُّص يشترك فيه السوريون جميعًا. يبتسم ويجيب: «الجندي». إنه لقب عائلي معروف يشاركه الكثيرون. أحاول أن أتذكر إذا ذكرت ماما يومًا ما الجندي، لكن لا أستطيع.

يضيّق خوف عينيه بغضب، وينظّف بدلته بصبر قبل أن يستخرج سيجارة. خوف لا يهتمُّ بمكان وجودنا. لا أفعل شيئًا غير تجاهله، مُركّزةً على كنان ولمى، وأدعو ألّا يعذبني. لا يمكن السماح له بسؤالي بخصوص واقعتي مع كنان وأخته هنا. لا يمكنني أن أفقد نفسي هذه الليلة.

«كانت أختك رائعة اليوم»، أبدأ. يرفع خوف حاجبيه. «لم ألتق بالعديد من الأطفال الذين يبلغون تسعة أعوام ويستطيعون المرور بكل هذا وما زالوا قادرين على أن يبتسموا لأخوتهم».

«نعم، إنها قوية»، رتّب شعرها بلُطفٍ إلى جانب

رأسها. «كانت دائمًا كذلك. أعتقد أنها تكره نفسها لأنها كانت تصرخ كثيرًا، ممّا يُظهر مدى الألم الذي كانت تعاني منه». أشعر بالذنب. «أنا آسفة». «لم أكن أحاول لومك! يجب أن يكون الأمر صعبًا عليك أيضًا». يتدخّل خوف: «اسأليه مرة أخرى. من أين تعرفينه؟» مطلقًا دخانًا فضيًا. أستمر في تجاهله. «افعلي ذلك، ولن أزعجك مرة أخرى هذه الليلة». أترجّاه في ذهني: «أرجوك، اذهب بعيدًا!». «هل أنت راضية حقًّا بهذا الجواب المتردد؟ يعرف أي أحمق أنه يخفي شيئًا. ماذا لو كان أمرًا سيئًا؟ ماذا لو كان شيئًا يمكن أن يؤذيك؟». أطلق عليه نظرة غاضبة، إلّا أنه لا يبدو مذعورًا على الإطلاق.

«أنتِ هنا، وحدك، لليلة كاملة. وحتى لو علِمَت ليلى أين أنت، ما هي قدرة فتاة حامل على مساعدتك؟ كل ما لديك هو مشرطك». يستقيم، متأمّلًا كنان من الأعلى لأسفل. «وبناءً على بنيته، على الرغم من أنكما على وشك الموت جوعًا، يمكنه التغلب عليك في خمس ثوانٍ. ثلاث ثوانٍ إذا لم تقاومي». العرَق يتزايد فوق مؤخّرة رقبتي. لماذا يفعل هذا بي؟ يُدخل كل شكّ ورهبة في دماغي حتى لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر غير ما يقوله.

كنان الجندي. اسمه يبدو مألوفًا جدًا. أين سمعت به من قبل؟ «هو يعرفك»، يصرُّ خوف. «لقد تعرّف إليك. هذا يعطيه اليد العليا. أراهن أنه عرف بالفعل اسمك. لم يسألك عن اسم عائلتك». تبًا، لديه وجهة نظر! أتنحنح. الجزء العقلاني من دماغي يعلم أن كنان لن يؤذيني، لكن الجزء الاخر منزعج لأنه يخفي شيئًا.

«كنان. أنا آسفة، لكنني أشعر أننا التقينا حقًّا». لا

أترك مجالًا للمفاوضة في نبرتي. ينعكس تراقص لهيب الشمعة فوق عينيه المتعكّرتين. «قلت لك إننا لم نلتق»، يصرّ. أنظر إليه، ونظرتي تتحول بسرعة إلى البرودة. «أنا متأكدة تمامًا أننا التقينا». يتنهّد بصوت عالٍ ويقف. ينتقل جسدي فورًا إلى وضع الدفاع، لكن حقيبة الجراحة بعيدة بعض الشيء لأحضر مشرطًا منها. حتى لو وقفت، سيظل أطول بكثير مني، وأكره ذلك. كان يجب أن أستمع إلى حدسي وأمشي إلى البيت، حتى لو كان القنّاصة في كل مكان.

اهدئي!

«أنا لا أكذب يا سلامة، عندما أقول إننا لم نلتق». يستدير لينظر في وجهي. خوف يستمتع كثيرًا بهذا، يلقي نظرة إلى كنان ثم مرةً أخرى إليّ. «إذن؟» أشعر بالضّعف من مكاني على الأرض. «لم نلتقِ لأننا لم نحصل على الفرصة لذلك». أتعلم؟ أنا سأقف أيضًا، وقلت: «هل يمكنك التوقف عن التحدث بتورية؟» ينظر إليّ بحسم ويجيب: «كان من المفترض أن نلتقي لتناول القهوة قبل حوالي عام».

القهوة. الجمعة.

قفطان ليلى الأزرق.

«يا إلهي»، أتنفّس بهدوء، وأبدأ في تجميع أجزاء اللغز منذ أكثر من عام. «كنت أنت...» أخيرًا أتمتم، «كنت نعم، لكن الحياة تغيّرت».

«كنت ستأتي إلى بيتي لمناقشة زواجنا!».

يطلق خوف صيحة ويصفق بيديه.

8

يحدّق كنان في وجهي، ويحمرُّ خدّاه وأذناه، وأنظر إليه أنا أيضًا، متذكّرةً ماما وكيف بدأت بداية النهاية.

في ذلك اليوم قبل انهيار عالمي، كنت جالسة على هاتفي أتصفح خُلاصة أخباري على فيسبوك. كنت قد أوقفت فلم «الأميرة مونونوكي» مؤقتًا على اللاب توب -ليلى كانت قد أرسلت لي فيديو تعليميًا للمكياج- عندما دخلت ماما الغرفة، ونادت: «سلامة».

رفعت رأسي، شعري ينسدل على عيوني. رفعته للوراء. كانت ابتسامتها مترددة، وقد مرّرت أصابعها على أوراق نبات اللبلاب التي تتدفق من رفّ الكتب على الأرض. أهدتها لي ليلى عندما تمّ قبولي في كلية الصيدلة، وأطلقت عليها اسم «أرجوان». الاسم ساخر، حيث إنه يعني «بنفسجي»، في حين أن أوراق نبات اللبلاب كانت بأغمق درجات اللون الأخضر لكنه اسمٌ أحببته. الطريقة التي تجتمع فيها الأحرف «أ، ر، ج، ن» لتشكّل كلمة موسيقية تبدو الأكثر تعبيرًا عن اللغة العربية. أرجوان بدت جميلة بجانب الجرار المملوءة بالأعشاب والزهور والألبومين اللذين يجمعان كل المعلومات التي جمعتها عن الزهور والأعشاب الطبية على مرّ السنين، مع البتلات المجففة الملصقة على الصفحات الثقيلة والتعليقات المكتوبة على الجانب، وساعدتني ليلى برسوماتها عند الحاجة. كنت فخورة جدًا بهذه الألبومات، حتى إنني أظهرتهما لأستاذي، الذي أثنى عليّ أمام الفصل بأكمله. كان ذلك اليوم الذي قرّرت فيه التخصص في علم الأدوية.

جلست ماما بجانبي على السرير. «سيأتون غدًا». أنا متأكدة أنها لم تتوقع أن يحين هذا اليوم بهذه السرعة. خاصة بعد أن تزوّج حمزة وليلى قبل أقل من سنة. «في الساعة الثالثة بعد صلاة الجمعة»، قلت بصوت شخص يقرأ أحداث تاريخية، «أعلم».

مضغت خدّها، وفي الضوء الذي سقط على وجهها من الشمس، بدت أصغر سنًا بما فيه الكفاية لتخطئ وتظن أنها توأمتي. «لماذا تشعرين بالقلق؟» ضحكت. «كنت أعتقد أن من المفترض أن يكون هذا حالي». تنهّدت. بالرغم من أن وجوهنا متشابهة ولون ونعومة شعرنا البني المحمرّ، فإن أعيننا هي المكان الذي ينتهي التشابه فيه. في حين كانت عيناي مزيجًا من البني والبني المائل للأخضر، مثل لون قشور أشجار الليمون لدينا، كانت عيناها زرقاوين عميقتين، لون سماء الغسق، والآن كانت تشعر بالدفء تجاهي.

«حسنًا، أنت لا تبدين قَلِقة»، قالت بسخط. «لذلك، أنا أقوم بذلك نيابةً عن كلينا». بعد توقُّف صغير، قالت: «ربما يجب أن نؤجّل الأمر». «لماذا؟» لقد رأيت صورته على فيسبوك، وأعجبت بما رأيت. أردت أن أرى ما إذا كان شخصيته تطابق وجهه الجذاب. «بعد...» توقّفت، أخذَت نفسًا واستكملت بصوت منخفض. «لست متأكدة ممّا إذا كانت المظاهرات في درعا لن تؤثر علينا هنا في حمص».

كانت المظاهرات التي كانت تتحدث عنها نتيجة اختطاف الحكومة لأربعة عشر صبيًا، جميعهم في أوائل المراهقة. تم تعذيبهم وتمزيق أظافرهم، ثم أعيدوا إلى عائلاتهم، كل ذلك لأنهم كتبوا «حان دورك يا دكتور» على الجدران بعد نجاح الثورات في مصر وتونس وليبيا. بالـ«الدكتور» كانوا

يقصدون الرئيس بشار الأسد، الذي كان طبيب عيون. السخرية من رجل غارق في دماء الأبرياء ويتعهّد بعدم الإيذاء، ليس غريبًا عليّ.

أعضُّ شفتي، وأنظر بعيدًا. لم يتحدث أحد عن ذلك في الجامعة، لكنني شعرت بالتوتر في الهواء وفي الشوارع. هناك شيء تغيّر. لقد رأيت ذلك في كلام بابا وحمزة على مائدة العشاء. «درعا بعيدة عن هنا»، قلت بصوت هادئ. «و... لا أعرف...». «لا يهم»، أخذت ماما يدي بين يديها وضغطت عليهما. «إذا أظهرنا حتى القليل من المقاومة، فلا يمكنني السماح لهم بأخذ أطفالي بعيدًا عني».

«ماما، اهدئي»، قلت متألمة قليلًا عندما أحكَمت قبضتها. «لن أذهب إلى أي مكان».

«نعم، ستذهبين»، قالت بابتسامة حزينة. «إذا نجحت الأمور مع كنان غدًا، ستتزوجين يا حبيبتي». نظرت إلى نبات اللبلاب، معجبة بالأوردة التي تنبثق من الأوراق والتفاصيل المعقدة. «هل الأمر فعلا سيئ هناك بسبب المظاهرات في درعا؟ مَن يرغب في العيش تحت سلطة حكومة مثل هذه؟ لقد كنت تخبرينني دائمًا عن كيفية اختطاف جدي وأخيه وأنك لم تريهما مرة أخرى». كانت ماما الشخص الذي انتفض هذه المرة، لكن عندما التفت نحوها، لم أجد إلا السكينة على وجهها. «نعم، اختطفوا والدي وعمي»، كانت عيناها مبللتين. «قاموا بسحب بابا أمام أخواتي وأمي وأنا. كنت أبلغ من العمر عشر سنوات فقط، لكنني لن أنسى ذلك اليوم أبدًا. كنت أتمنى موته. هل تصدّقين ذلك؟» توقّفت، عيناها اتّسعتا، لكنني لم أشعر بأي مفاجأة.

كنت أعلم أننا عشنا لخمسين عامًا في خوف،

لا نثق بأحد لنعبّر عن الأفكار الثائرة التي تجتاح عقولنا. اقتطعت الحكومة كل شيء منا، وأزالت حريتنا، وارتكبت إبادة جماعية في حماة. حاولوا إخماد روحنا، حاولوا زرع الخوف فينا، لكننا صمدنا. كانت الحكومة جرحًا مفتوحًا، تستنزف مواردنا لصالحها بطمعها ورشاويها، ومع ذلك، نحن مستمرّون. رفعنا رؤوسنا عاليًا وزرعنا أشجار الليمون تعبيرًا عن الثورة، ندعو -عندما يأتون- أن يوجّهوا رصاصة لرؤوسنا، لأن ذلك أكثر رحمة ممّا ينتظرنا في أحشاء نظام سجونهم.

أخذت أمي نفسًا عميقًا. «بالطبع أرغب في العدالة لعائلتي يا سلامة. لكنني لا أستطيع أن أفقدك أنت أو أخاك، ناهيك عن والدك وليلى. أنتم الأربعة عالمي». أصبحت عيناها مشعّتين. «إذن، كنافة؟» قلت بصوت خافت، محاولةً جلبها للعودة إليّ. حدّقت. «آه، نعم. كنافة. وفّرتُ لكِ كل المكونات التي ستحتاجينها».

«سأصنعها فور انتهائي من هذا». ابتسمتْ. «لكن لماذا الكنافة؟» كانت شفتا أمي تخفيان سرًا. «لأنك جيدة جدًا في تحضيرها، وأنا أؤمن بالقدر». «ماذا يعني هذا؟» نهضت وقبّلَت جبيني. «لا شيء، حبيبتي. أحبك». «أنا أيضًا أحبك».

كنان يمرُّ بيده على شعره، وعيناي تلتفتان إليه بسرعة، قلبي ينبض بألم في قفص أضلاعي. «أنا على حق، أليس كذلك؟» أتلعثم، أشعر بالحرارة تتصاعد من جسدي بسبب الكنزة الرقيقة والمعطف الطبي. كنان يلتفت بعيدًا، يطرقع مفاصل أصابعه. «اقتراح الزواج، ذلك الذي رتّبته أمهاتنا!» يتجهّم وينظر إليّ مرة أخرى. «عندما تصفينه بهذه الطريقة، لا يبدو أمرًا رومانسيًا على الإطلاق!»

شعرت بأن الهواء خرج مني، وتراجعت إلى الوراء على الفراش وعانقت ساقيّ. يا إلهي، ليلى ستحظى بيوم مشوق بالتأكيد بعد هذا! أنا أختبئ في منزل الشاب الذي ربما كنت سأتزوّجه. ربما.

يا لها من كلمة! إنها تحمل إمكانيات لا حصر لها لحياة محتملة. العديد من الخيارات مرصوصة واحدة فوق الأخرى، مثل البطاقات في انتظار اللاعب لاختيارها واختيار مصيره، لتجربة حظّه. أرى شظايا من حياة كانت من الممكن أن تحدث. تتماشى أرواحنا تمامًا منذ أول محادثة لنا. تزدهر بقية زياراتنا. أعدُّ الثواني حتى نقول «موافق». نشتري منزلًا جميلًا في الريف، نرقص في الغسق، نسافر حول العالم، ننشئ عائلة، نكتشف طرقًا جديدة للوقوع في حبّ بعضنا البعض كل يوم. أصبح أخصائية في علم الأدوية مشهورة، وهو أحد رسّامي الرسوم المتحركة المشهورين. نعيش حياة طويلة معًا، شركاء في الجريمة، حتى تلتقي أرواحنا بخالقها.

ولكن هذا ليس الواقع.

مستقبلنا مظلم. شقة مُدمَّرٌ نصفها، مع أخته الصغيرة تكافح من أجل حياتها. حياتنا هي طعنات الجوع، وأطراف متجمّدة، وأشقّاء يتيمون، وأيدٍ ملطّخة بالدماء، وشظايا قديمة، وخوف من الغد، ودموع صامتة، وجروح جديدة. تمزّق مستقبلنا بين أيدينا.

في مكان بعيد، أسمع لحن الحرية المألوف، أو ربما هو خوف يغمغمه لنفسه.

كنان يعبث بأصابعه. «لم أكن أرغب في أخبارك لأنني لم أكن متأكدًا ممّا إذا كنت ستتذكّرينني». ينفخ في الهواء. «كم كان سيئًا إذا قلت.. مهلًا،

والدتانا حذّدتنا لنا زيارة اجتماعية حول زواجنا المستقبلي. هذا هو إجابة سؤالك؟» أفرك عيني وأضحك لنفسي بصمت. يجب أن يشعر بالانزعاج والإحراج، ممّا يساعد كثيرًا. «لا بأس، أفهم ذلك». أبتسم، فينظر لي بحذر. «لماذا تبتسمين؟». «لأنه آخر شيء كنت سأفكر فيه». أضحك حتى يتحول إلى ضحك بالغ. تتّسع ابتسامته حتى ينضم ضحكه إلى ضحكي. في كل مرة نلقي فيها نظرة على بعضنا البعض، نضاعف ضحكنا. المثل العربي لم يكن أكثر صدقًا: شرُّ البليّة ما يُضحِك. يدخن خوف سيجارته وينحسر إلى زاوية الغرفة، راضيًا عن النتيجة. نهدأ، نضحك بهدوء. «حسنًا، إنه واحد من أجمل الطرق لكسر الجليد بيننا»، أقول. «إذا كنت أعلم أن هذا سيحدث، كنت سأعترف بالأمر في وقت سابق».

فجأة تستيقظ لمى، تطلب «ماء» ويتغير المزاج فورًا. يقف كنان على قدميه على الفور ويحضر إبريق ماء. أمسح جبينها مرة أخرى وأشعر بالارتياح حينما أجد أنها لا تزال تتعرّق. «تعرّقَت في كامل قميصها». أبتسم. «وهل هذا جيد؟» يسأل بحاجب مرتفع ويساعدها على الشرب. «إنه ممتاز. لمى، اشربي المزيد من الماء، من فضلك». تطيع. «هذا علامة جيدة. إنها تعني أن جسمها يتعافى. يمكنك أن ترى أن تنفُّسها مستقِرٌّ، ولا يوجد صديد حول الجروح. الحمد لله. إنها تُحقّق تقدمًا. احرض على أن تُبقيها دافئة وتجعلها تشرب الكثير من الماء».

تمتلئ عيون كنان مرة أخرى بالدموع. بالتأكيد اعتقد أنه سيفقدها وكان قد عزم على قبول حقيقة أنها قد لا تفتح عينيها. عندما تعود لمى للنوم مرة أخرى، ألفّ بطانية أخرى حولها. يحدّق في وجه أخته، يأخذ يدها الصغيرة في يده، مغموسًا فيها

تمامًا. عندما يتحدث، يبدو أنه في حالة غيبوبة.

«هي الصغرى في العائلة. كنا جميعًا سعداء عندما ولدت. اثنان من الأولاد يشكّلون عبئًا كبيرًا، ثم جاءت هذه الملاك إلى العالم. أتذكر صوت بابا وهو يبكي من السعادة عندما قالت له الممرضة إنها فتاة. كانت مدلّلة جدًا. الفراشة التي تلامس جلدها كانت كارثة. لم ندع أي ضرر يصيبها. كيف نستطيع أن نسمي أنفسنا إخوتها بعد ذلك؟ حُماتها؟ والآن... جسدها يتأذى بسبب الكراهية». يتلكأ صوته، غاضب ومستاء. «فشلت. لم أتمكن من حمايتها. يوسف لم يتحدث منذ وفاة والدي، وهو يتجاوب بالرعب من أدنى صوت. كانت هي وأنا اللذين تمكّنا من أن نبقي الأمور تحت السيطرة. لكن... جعلوها تعاني في النهاية. وعدت بابا بأنني سأحميهما بحياتي و... لقد خذلته». بينما يضبط البطانية حولها بيديه المرتجفتين، أفكر في بابا وحمزة. وليلى. أرجو أن تكوني بخير يا ليلى، أدعو. من فضلك. «ماذا تفعل خلال النهار؟» أسأل، محاولة تغيير موضوع مروع إلى موضوع أقل ترويعًا بقدر بسيط.

«من أجل المال؟ لديّ عائلة في ألمانيا، يرسلون بعض المال عندما يكون ذلك ممكنًا». أعبث بأصابعي. «المستشفى لا يدفع، لكنه يساعد الناس. على الرغم من أنه من يدري إذا كنت سأبقى طويلًا».

أتوقف فورًا عن الحديث، وينظر كنان إليّ، وحاجباه مجعّدان. من السهل عليه فهم كل شيء من تعبير وجهي. أضغط يدي على صدري وأردّد في نفسي «أقحوان، أقحوان، أقحوان». لا أستطيع أن أصدق أنني تفوّهت بهذا الأمر. لا بدّ أن يكون السبب نقص النوم والرعب الذي عايشته اليوم.

«سوف ترحلين؟» يسألني. أفكر للحظة. «لا أعلم». يبدو متحيرًا. «لا تعرفين؟» أمضغ لساني. «ألن ترحل أنت أيضًا لو أتيحت لك الفرصة؟» لديه شقيقان يعانيان من سوء التغذية تحت رعايته كأسباب للرحيل، فما يمنعه؟ المستشفى هو الشيء الوحيد الذي يمنعني من الرحيل.

«لا» يقول دون تردُّد، وهو ينظر إليّ نظرة مباشرة. «ماذا، ماذا عن يوسف ولمى؟» يأخذ نفسًا عميقًا وينظر إلى لمى. وجهها مشدود بالألم، وفمها مفتوح أثناء التنفس. خيوط من شعرها ملتصقة بجبينها، ويقوم كنان بتمريرها بأصابعه المرتجفة. «لربما كنت سأرسل أخي وأختي بمفردهما لو كان الأمر آمِنًا بالنسبة لهما، لكنه ليس كذلك. يوسف عمره ثلاثة عشر عامًا. هي عمرها تسعة. هما... لا يمكنهما القيام بذلك بمفردهما». أحدّق فيه وأسأل: «إذن لماذا لم تغادر معهم؟» يختفي الحزن من عينيه، ويحل محله نظرة شرسة. «هذه بلدي. إذا هربت... إذا لم أدافع عنها، فمَن سيفعل ذلك؟». لا أصدق الكلمات التي أسمعها.

«كنان»، أبدأ ببطء، ولا أعرف ما إذا كان السبب ضوء الشموع المتذبذب، لكنَّ وجنتيه تبدوان محمَّرتين. «نحن نتحدث عن حياة إخوتك». يبتلع ريقه بصعوبة. «وأنا أتحدث عن بلدي. حول الحرية التي أنتمي إليها بحق. أنا أتحدث عن دفن ماما وبابا، وإخبار لمى أنهما لن يعودا إلى المنزل أبدًا. كيف...» صوته يتقطع. «كيف أترك ذلك؟ متى ولأول مرة في حياتي كلها أتنفس الهواء السوري الحر؟». كيف يكون بهذا العناد؟ أريد أن أهزّه.

«لا أفهم. كيف أن إقامتك هنا ستساعد هذه الحرب؟ هل فقط عن طريق استنشاق الهواء

السوري الحر؟». يستهجن كنان من اختياراتي للكلمات، لكنه لا يعلق عليها. يأخذ نفسًا عميقًا ويقول: «أسجّل المظاهرات». أفقد كل الإحساس بركبتي ومعدتي تنهار. «أنت... أنت ماذا؟» أهمس. يرتجف ويضيق قبضته على يد لمى. «لهذا السبب لا يمكنني المغادرة. أعرض للناس -للعالم- ما يحدث هنا». يشير برأسه إلى اللاب توب الخاص به. «أحمّل مقاطع الفيديو على يوتيوب عندما تعود الكهرباء».

أضغط بأظافري بعصبية على الأرض. «لماذا تخبرني بهذا؟ هل تدرك أنه إذا تمّ اكتشافك، ستكون في حال أسوأ من الموتى؟ إذا فشل الجيش السوري الحر في الدفاع عنّا أمام الجيش، فسوف يتم القبض عليك».

كنان يضحك، لكنه ضحك بصوت أجوف. «سلامة، إنهم يعتقلون الناس بدون سبب. سوف يعذبونني للحصول على إجابات لا أملكها، وهم يعلمون جيدًا أنني لا أملكها. ولست الوحيد الذي يسجّل. هناك الكثير منّا يحتجّون على طريقتهم الخاصة. في داريا، قام رجل واحد، هو غيّاث مطر، بتوزيع الورود على جنود الجيش. إنه يحارب البنادق بالورود. وأنا أعلم في قلبي أنهم يرون ذلك كتهديد. أي شكل من أشكال الاحتجاج، سواء كان سلميًا أم لا، هو تهديد للديكتاتورية. لذلك لا يهمُّهم ما إذا كنت أسجّل أم لا. أعيش في مكان يحميه الجيش السوري الحر. نحن جميعًا في نفس الخطر، لأننا جميعًا في حمص القديمة. أنا متواطئ فقط من خلال التواجد هنا. إذا كنت مذنبًا في كلتا الحالتين، فقد أحتجُّ أيضًا». ينظر إلى يديّ، وأغطيهما مرة أخرى بأكمامي. إنه بعيد جدًا بالنسبة لي لقراءة وميض العاطفة الحارق في عينيه. لكنها تبدو مثل الألم.

فمي جاف وأنا أحدّق فيه. لا أعتقد أنه غير مُبالٍ بالتهديد بالاعتقال. ينزلق نظري إلى الجانب، إلى مدخل غرفة النوم، وأرى عينَي يوسف تُطلّان تحت شعره الفوضوي. إنه صبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا. من المفترض أن يكون على وشك أن يترك وراءه العجائب البريئة التي تمتع بها في طفولته حيث إن المراهقة تشكّل عقله وتمدّد أطرافه. لكني لا أرى ذلك فيه. أرى صبيًا خائفًا يتراجع إلى طفل. يرغب في العودة إلى وقت كان آمنًا مرة أخرى، عندما كان والداه على قيد الحياة، وكان قلقه الأكبر هو ما إذا كان سيُسمَح له بمشاهدة ساعة إضافية من الرسوم المتحركة. عيونه ضخمة ومليئة بالدموع. إنه يفهم تمامًا الخيارات التي يتخذها شقيقه. والعواقب.

أرى ليلى فيه. أرى خوفها في كل مرة أهرب فيها من موضوع الهروب. يا إلهي. يا إلهي! إذا حدث أي شيء لي، فسوف تهلك. سيكون أسوأ من الموت. ترتجف يدي، وأغطي وجهي، وآمُرُ نفسي بأخذ نَفَس عميق. هل هذا صوتي؟ عنيد جدًا، لا أستطيع أن أرى كيف تُدمِّر أفعالي من حولي؟ أفعال نبيلة كما أعتقد، إلا أن هذا لا يُقلّل من مدى تأثيرها المدمر.

يجب عليّ أن أغادر. يجب أن آخذ ليلى وأغادر، وإلا فلن تنجو من هذا. ليس الحمل ولكن أنا. لن تنجو من موتي. وأنا لن أنجو منها. إذا ماتت ليلى، آخر فرد من عائلتي -أختي- سأصبح قشور شخص. لقد اقتربنا كثيرًا من أكتوبر. ماذا أفعل إذا رحلت؟ ضحكة خوف المنخفضة تجذب عينيّ إليه، وهو يهزُّ رأسه مبتسمًا باستخفاف. يقول: «الان ترين». أضرب بقبضتي على جبهتي، وألعن نفسي بغبائي وسذاجتي. كان خوف على حق. ما الثمن الذي لن

أدفعه مقابل سلامة ليلى؟ يجب عليّ أن أغادر.

القرار يزيد الوجع في قلبي وأسفل جفوني يحترق بالدموع التي ترفض السقوط. كيف لا أراه؟ نظرت مرة أخرى لأرى خوف يقف خلف كنان، متكئًا على الحائط، بابتسامة راضية. يغمز. «الآن كل ما تبقّى هو التذلُّل لآم». يشعر رأسي بالدوار بينما يستقيم هو، وينفض الغبار عن سترته اللامعة. «ووفقًا لكلمتي، سأتركك وشأنك الآن. لكنني سأراك لاحقًا». عندما رمشت، رحل.

استقرت نظراتي على الأرض، وكان كنان يحدّق بي في حيرة من أمره، ويلوي أصابعه. يقول: «آه يا سلامة»، وهو يتعامل مع كل كلمة وكأنها مزهرية رقيقة كان يمسكها بيديه. «هل كل شيء بخير؟» تحدّثت، ليس تعليقًا على الكلام، ولكن على نبرته. «نعم»، أجبت بسرعة كبيرة. «لماذا؟» يهرش مؤخرة رأسه. «لا أعرف. كنتِ تنظرين ورائي كما لو كان الشيطان نفسه يقف هناك، وارتعبت جدًا من الاستدارة والتحقُّق بنفسي». يخرج صوته خافتًا، تحوَّلت شفتاه إلى ابتسامة مترددة ومازحة.

أبتسم لكني أشعر بالإجبار. «أنا بحال ممتازة، شكرًا لك». هذا أفضل ما يمكنني فعله الآن. اطمأنَّ كنان وهدأت حيرته، وأدركت أنني لا بدّ صمتٌ لفترة من الوقت. ولا بدّ أن ابتسامتي بعد هذا الصمت الطويل كانت مُربكة. أتنحنح: «على الرغم من أنني أختلف معك بشأن البقاء هنا». ينظر إليّ لثانية قبل أن يقول: «ألست صيدلانية في المستشفى تقومين بتضميد الجرحى المتظاهرين؟».

«هذا ليس له علاقة بأي شيء. أنا خضعت ليمين أبقراط. أنت تضع نفسك وإخوتك في مرمى النيران». يهزُّ كتفيه. «أعتقد أنني أحب سوريا

لدرجة أن العواقب لا تهمُّ». شيء ما ينفجر بداخلي. «وبإخبارك بالمغادرة، أنا لا أحبها؟».

ينزعج. «لا! لا، ليس هذا ما قصدته على الإطلاق! أنا... سلامة، هذا بيتي. طوال حياتي -طوال تسعة عشر عامًا- لم أكن أعرف أي شيء آخر. سأحطم قلبي بالمغادرة. هذه الأرض أنا وأنا هي. تاريخي، أجدادي، عائلتي. كلنا هنا». يذكّرني قراره العنيف بحمزة والخطب الحماسية التي كان يلقيها عندما عاد من المظاهرات مع بابا. بالتأكيد كان سيحب كنان. هذه الأفكار تجعل معدتي تنقبض.

أهزُّ رأسي وأركز على الوعد الذي قطعته على حمزة. التركيز على سعادة ليلى عندما أخبرها أنني كنت مخطئة وأنني آسفة. أنني سأنقذها وسأنقذ نفسي. على الرغم من أنني أعلم أن كنان على حق. عندما أغادر، لن يكون الأمر سهلًا. سوف أمزّق قلبي إلى شرائط وستتناثر كل القطع على طول الشاطئ السوري، مع صرخات شعبي تطاردني حتى يوم وفاتي.

9

أستيقظ مخضوضة، وتطير يدي إلى حجابي. لقد تعثّر وكاد يسقط أثناء الليل. أضع يدي على رأسي، محاولةً تذكُّر ما يحدث. أيقظني كنان لأداء صلاة الفجر، ثم عدت إلى النوم على الفور.

«آه...» أنا أتأوّه، أفرك جبهتي وأعدل حجابي بسرعة. لاحظت جسد لمى الصغير يتحرك بجانبي. زحفت إليها على عجل وأتنفّس الصعداء حين ألمس خديها. لم تغد محمومة بعد الآن. يخرج كنان من المطبخ حاملًا كوبين من الشاي الساخن ويسلمني أحدهما. شعره منتفش وبرز من جميع الجهات بسبب النوم. إن منظر وجنتيه الورديتين وعينيه المرصّعتين بالنجوم تجعلني أشعر بالارتباك.

يا إلهي، قضيت الليلة هنا. في شقته. يقول: «صباح الخير». «شكرًا لك». أقبل الشاي بامتنان. «تحسّنت حالة لمى للغاية، الحمد لله». الشاي ساخن وأنا آخذ رشفة. شاي بالنعناع. لذيذ، ليلى تحب الشاي بالنعناع. ليلى. اختنقت من الشاي، فرفع كنان نظره قلقًا. «ماذا حدث؟».

«أنا بخير»، شهقت، وعيني تتألق من الشاي وهو يحرق لساني. «لقد نسيت أمر ليلى. أنا بحاجة الى المغادرة. كم ساعة؟ أنا بحاجة للوصول إلى المستشفى. يا إلهي، كم من الوقت نمث؟ لا يهم. أريد أن أعود إلى ليلى! أبق عينك على أختك، حسنًا؟ إنها بخير، لكن ستستمر بالمضادات الحيوية. شكرًا لك على الشاي».

أشربه على جرعة واحدة، وأتجهّم بينما فمي يحترق، وأقفز على قدمي. «كنان، كم الساعة الان؟» أقول، مشتتة الانتباه، عندما أجد نفسي مصادفة داخل إطار المراة. يا إلهي، أبدو فظيعة. أمسك

بمعطفي الطبي، وأسرع إلى الشرفة المدمّرة، وأنظر إلى الخارج. يقوم كنان بإنزال البطانية للسماح بدخول النسيم، والهواء النقي هو ما أحتاجه لجسدي المحموم.

«هل هو آمن؟» أرتدي معطفي الطبي. «هل هناك قنّاصة؟ أنا قلقة على ليلى. من الأفضل أن تكون بخير. كنان، كم الساعة؟ لديّ نوبة عمل في المستشفى». أطرقع بأصابعي خلف ظهري لجذب انتباهه أثناء مشاهدة الشارع بالخارج. إنه تقريبًا فارغ، ويبدو أن لا أحد يحاول الاختباء على أسطح المنازل.

أدرك أن كنان لم يَقُل أي شيء منذ بعض الوقت. أستدير، أراه يحتسي الشاي، ويراقب ارتباكي بنظرة مسلية. «لماذا لا تجيبني؟» أسأله. يأخذ رشفة أخرى ويضع كوبه على الأرض. «لم تعطني فرصة مع مناجتك تلك. كانت ممتعة للغاية». يقولها مبتسمًا. «سعيدة لأنك تستمتع بهذا». أحملق به، لا يبدو منزعجًا على الإطلاق. يقول: «هل أنتِ دائمًا هكذا؟».

«هكذا؟» أكرّر، أرفع حاجبي. «هل تشعرين بالذعر مع لمحة من الهوس بالسيطرة؟». «نعم، أغلب الأيام». «هذا جيد» يقول مازحًا، ما زال مبتسمًا، ولا أعرف إذا ما كان ساخرًا أم لا. إنه لا يبدو ساخرًا. على أي حال، ليس لديّ الوقت لتحليل لهجته أو ملامحه. «تمام. أحتاج أن أذهب الآن. هل يوجد قنّاصة في الخارج؟» أقوم بسحب حقيبتي بقوة أكبر على كتفي. أكره أن أشعر بالوعي الذاتي تجاه شكلي، بشفتي المشقوقة والحجاب المتجعّد. «كيف لي أن أعرف؟» يقول. «إنهم يغيرون توقيتهم دائمًا. الجيش السوري الحر يدفعهم إلى الوراء في بعض

الأحيان».

أتنهد. سأضطر إلى تجربة هذا بنفسي. «حسنًا، سأتدبّر الأمر»، أقول بفتور وأتقدم نحو الباب. يرفع ذراعه على المدخل. «أين تعتقدين أنك ذاهبة؟». «ممم... المنزل؟». «هل تعتقدين بصدق أنني سأتركك تمشين بمفردك؟ حيث يمكن أن يكون هناك قنّاصة؟». «هل لديك طائرة سرية غير مرئية يمكنني أخذها؟». «ها! أنا قادم معك»، يقولها وهو يرتدي سترته.

«لا لن تصطحبني. أختك بحاجة إليك». «معذرة، هل أنتِ أمي!» إنه يجادلني. «أنا أتّخذ قراراتي، شكرًا جزيلًا لكِ. دعينا نذهب». «لا يمكنك...» أبدأ وأنا أهزّ يدي للتأكيد. «يمكن أن يعتني يوسف بها حتى أعود. إنه ليس عاجزًا». لم يمنحني فرصة للإجابة قبل أن يخرج من الباب. اللعنة! الآن عليّ أن أقلق على حياته وما إذا كانت روحه ستثقل كاهلي. يخرج يوسف من غرفته، وهو ينظر إليّ بخجل قبل أن يجلس بجوار لمى. «اعتنِ بها، حسنًا؟ أيضًا اعتنِ بنفسك»، أقول. أومأ برأسه وتجاهَلتُ الألم في بطني عندما رأيت قميصه المتعرّج وإطاره الضيق. على كنان أن يغادر، اتّخذتُ قراري، قبل أن يدفن هؤلاء الأطفال شقيقهما أيضًا.

***

ألقيت نظرة خاطفة على الخارج، مسرورة وخائفة بنفس القدر لرؤية الشمس تشرق علينا؛ من ناحية، توفّر الدفء ضد آثار الشتاء، لكنها توفّر من ناحية أخرى ظروفًا مثالية للقناصين.

هناك عدد قليل من الرجال يقفون أمام مبنى كنان، ويحملون أكواب الشاي المكسورة، وهم في نقاش عميق، بينما يجوب بعض الأطفال بسرعة، يصرخون

بحماسة. حتى إنني أسمع بعض الضحكات وأشعر بالبراءة التي لا تزال على قيد الحياة وتقاتل، وأدخلها بأمان في قلبي.

تجرش أحذيتنا الحصى ونحن نشقُّ طريقنا إلى منزلي. مررنا بمخبز متهدّم لا يزال يعمل. يوجد طابور طويل بالخارج، يقوم الناس بتدفئة أيديهم وشدّ معاطفهم بإحكام. ينتظرون بصبر، على الرغم من وجود اضطراب في عيونهم، كلهم قلقون من نفاد الخبز واضطرارهم للعودة إلى عائلاتهم خالي الوفاض.

مع كل خطوة نتخذها، أتعامل مع القرار الذي اتخذته الليلة الماضية. كان من السهل صنعه، حيث كان يلفّه الظلام ويضيئه ضوء الشموع الضعيف. لقد كان سرًّا كنت قادرة على أن أهمس به لنفسي. لكن الآن في ضوء الشمس الساطع الذي يجعل روحي عارية، أشعر وكأنني وصمة عار دائمة.

ألقي نظرة على شكل كنان الطويل. حتى السترة الفضفاضة لا يمكنها إخفاء الحواف الحادة لمرفقيه أو يديه العظميّتين. ليس من المفترض أن يبدو هكذا. يجب أن يكون هو وإخوته بصحة جيدة وآمنين وسعداء. يجب أن يعمل على لغته اليابانية ويحاول الدخول إلى ستوديو جيبلي. لا يمكنه البقاء هنا.

«هل حقًّا تقيم في حمص؟» أهمس. «هل ستموت حقًّا هنا؟». توقّف عن المشي واستدار لينظر إليّ بدهشة. ثم يقول ببطء: «أنا لا أنوي أن أُقتل». أهزُّ رأسي. «بالطريقة التي تعيش بها، مع طموحاتك وأفكارك الخطيرة، ستكون هذه هي الطريقة التي تنتهي بها قصتك. هل سيكون والداك على ما يرام مع ذلك؟ إذا تمّ اعتقالك وترك إخوتك وحدهم

يعانون ويحزنون عليك؟ ماذا عن الوعد الذي قطعته لوالدك؟».

يحدّق بي، حزن عميق يكتنف تعابيره. قلت: «كنت الفتاة الوحيدة في عائلتي، الأخ الأكبر حمزة. كان عالمي. صديقي المفضّل. كل شيء بالنسبة لي. كان هو وبابا في مظاهرة، ولم يتمكّنا من الفرار عندما انقضّ عليهما الجيش. بعد أسبوع، ماتت ماما عندما سقطت قنبلة على بنايتنا».

يقول: «سلامة». نبرته ناعمة وخائفة تقريبًا ممّا سأقوله. لكنني أكملت: «لقد فقدت عائلتي ولا يزال لديك عائلتك. هناك مشهد أراه كل يوم في المستشفى: ناس على استعداد بيع أرواحهم مقابل دقيقة أخرى مع أحبائهم. أنا منهم». أسفل جفوني يحترق، لكني منعت نفسي من الانهيار. الأقحوان. الأقحوان. الأقحوان ذو رائحة حلوة.

«حاولت زيارتهما في السجن. لكن لم يُسمح لي برؤيتهما. كنت على وشك أن يتمّ اعتقالي أيضًا، وكانت معجزة أنهم تركوني أسير حرة. حذّروني من العودة». يأخذ نفسًا مرتجفًا وسرعان ما أفرغ الدموع المتساقطة على خدي.

أتذكّر كل شيء، رائحة الدم المؤكسد، الصراخ الخافت الذي يتردّد في أذني. كان ذلك قبل أسابيع قليلة من حصار حمص القديمة. السجن ليس في حمص القديمة، وتمكّنت من الدخول إلى المعتقل بأطراف ترتجف. كان الجرح في مؤخرة رأسي في مراحل تكوّن الندبة الأولى، وكان خوف قد بدأ في مطاردة لياليّ. لم يكن لدى ليلى أدنى فكرة عمّا كنت أفعله لأنها كانت طريحة الفراش من الحزن، وعيناها شاخصتان، والدموع تنهمر على خدّيها مثل نهرين.

قال العسكري: «سلامة كساب»، وهو يميل بشدة

إلى الوراء في كرسيه ويتصفح قائمة ملطخة بالقهوة. كنت آمل أن تكون قهوة. «نعم». أمسكت بحواف الأريكة الجلدية القديمة حيث كانت الحشوة تخرج، وكلها صفراء متجعّدة ومتعفّنة. غمغم وهو يحدق في القائمة من خلال نظارته الشمسية الفضية. لم أستطع رؤية عينيه، وقد أزعجني ذلك.

قال بسلاسة: «لقد تسبّب والدك وشقيقك في إثارة المشاكل»، لكنني شعرت بالخطر الكامن في نبرة صوته. «من فضلك...» همست، وقلبي يدق. «من فضلك، هما كل ما لديّ. والدتي ما... والدي يعاني من ارتفاع ضغط الدم. يحتاج دواءه وأخي...» توقّفت عن الحديث. لم أستطع إخبارهم عن ليلى. سوف يستخدمونها لمعاقبته.

«هل تعرفين كم مرة أسمع فيها نفس هذه القصة المبكية؟» قال بصوت غاضب. «من فضلك أخرج والدتي، فهي لا تعرف ما كانت تفعل. من فضلك دَع ابني يخرج، إنه الوحيد الذي أملكه في هذا العالم. من فضلك دَع ابنتي تخرج، فهي لم تدرك كم عظيمة هذا الإهانة. من فضلك دع زوجي يخرج، إنه عجوز وضعيف». قذف بالقائمة على الطاولة، فأجفلت. «لا. لا لن أسمح لهم بالخروج. لقد خالفوا القانون. لقد خرقوا السلام مع هذه الأفكار».

وصلت صرخة مؤلمة إلى أذني. أغمضت عيناي قبل أن أفتحهما لأحدق في الرجل الذي كان يقرر مصير أحبائي في قبضته. كرهته. «لم أذهب إلى أي احتجاج قطّ، ولن أفعل ذلك أبدًا. أقسم. لذا من فضلك، بالنسبة لي، دعهما يخرجان. لن يفعلا أي شيء من هذا القبيل مرة أخرى. أعدك». أخذ صوتي نبرة توسل، وبدأت أكره نفسي أيضًا. للتذلل

لقاتلينا وجلادينا. لقد وعدت الحكومة منذ فترة طويلة بالعواقب إذا تمردنا. كل ما كنا نخشاه طوال خمسين عامًا أصبح حقيقة.

ابتسم الرجل، وكل أسنانه صفراء، وقام من مقعده بثقل. «فتاة صغيرة». وقف أمامي، وضغطت بأظافري على كفّ يدي، جفلت. كانت الجروح تتبرعم لتتحول إلى ندبات. «من الأفضل أن تغادري قبل أن تنضمي إليهما».

«أنا آسف»، يهمس كنان، ويوقظني صوته من الكابوس الذي كان يتكرر في ذهني. «لا تتأسف من أجلي». ابتلع ريقي بصعوبة. «لا يزال لديك إخوتك. إذا كنت ستبقى، فلا تهدر من حياتك». أكتافه متقلصة. وأنا أفهم لماذا يفعل ما يفعله. يا إلهي. لكن ليس هكذا. ليس بعدما شعرت بدماء لمى تسيل بين أصابعي كالنبع وسمعته يخبرني عن قلبها الشجاع. ليس بعدما عرفت أن يوسف لا يستطيع التحدث بعد الآن بسبب الصدمة. إنهما بحاجة إلى مساعدة ليست في حمص. كلاهما يحتاج إلى السماح لهما بأن يكونا أطفال.

لكن يتضح من النيران المتلألئة في عينيه والعذاب المكبوت في كلماته: إنه يعلم أن مستقبلًا مقفرًا ينتظره إذا لم يرحل. إنه ليس أحمق. لكن قلبه يفيض بالكثير من الحب لبلده وهو على استعداد للسماح لهذا الحب بإغراقه وأحبائه. الأمر هو أن سماع قصص عن غضب المحيط يختلف عن الوقوع في وسط الأمواج الغاضبة.

«ماذا تسجّل بالضبط يا كنان؟» أسأل، ويبدو أنه مندهش من السؤال. «ممم... الاحتجاجات كما أخبرتك. أغاني الثورة». «وماذا عن الموت؟» يتجهم. «عندما تنفجر الطلقات النارية، أتوقف

واركض». أفكر به لثانية قبل أن أومئ وأبدأ في المشي بجانبه، فكرة غير متماسكة تومض في ذهني، لكنه يتنحنح. قال بصوت هادئ: «أمي حموية». أتوقف.

«لقد نجت من مذبحة حماة»، يتابع، والتفت إليه. «عندما اقتحم الجيش مدينتها ودمرها لمدة شهر كامل، نجت. كانت تبلغ من العمر سبع سنوات، وشاهدت شقيقها البالغ من العمر تسع سنوات يُصاب برصاصة في رأسه. رأت دماغه يتناثر في كل مكان. كانت تتضوّر جوعًا مع عائلتها. كانوا يأكلون مرة كل ثلاثة أيام. لقد فقدت عائلتي حتى قبل ولادتي يا سلامة. الظلم هو كل ما عرفته». توقّف لبرهة، وصدره تصاعد مرة واحدة، وعندما ينظر إليّ، هناك تصميم مطلق في عينيه. كدت أرتجف من شدته. «هذا هو سبب احتجاجي. سبب تسجيلي. سبب بقائي. كل تلك السنوات قبل اندلاع الثورة. ألم تفقدي عائلتك بسبب الديكتاتورية أيضًا يا سلامة؟».

هو يعرف الجواب. لم تفلت أي عائلة سورية من قسوة الدكتاتورية. لقد فقدنا كلانا عائلة في مجزرة حماة قبل أن نولد، لكن خسارة كنان عزّزت عزيمته منذ أن كان طفلًا. لقد كبرت معه. شكلته. خلافًا لي. لقد تجاهلت الخسارة حتى أصبحت واقعي. تتشكّل غقدة في حلقي ويصعب البلع دون أن أنفجر في البكاء، لذا بدلًا من ذلك أسير نحو منزلي. وبعد ثانية، يتبعني.

نحن نقترب من بعضنا البعض، ممّا يجعلني أكثر قلقًا. أريد أن ألمس ليلى لأعرف أنها على قيد الحياة وبصحة جيدة. أحتاج إلى التأكد من أن الطفل لم يقرّر إلغاء خططنا ويأتي مبكرًا. نبقى صامتين بقية

الطريق ضائعين في همومنا وأفكارنا. عندما ظهر منزلي، تنهّدت من الراحة. الحي الذي أعيش فيه هادئ، وأنا وكنان الوحيدان في الشوارع. يبدو كل شيء طبيعيًا قدر الإمكان، ولا يزال الباب الأمامي الأزرق الباهت قطعة واحدة. أخرجت مفاتيحي، وأتحسس القفل بيأس.

كنان يستند على الحائط. «سأنتظر في الخارج». «ماذا! ادخُل قبل أن يطلق أحدٌ النار عليك!». أدخلته وأغلقت الباب بسرعة. المنزل هادئ. لا يتسرّب أي ضوء من النوافذ المكسوة في غرفة المعيشة. تتراقص الظلال على جدران الردهة وبطريقةٍ ما يبدو الجو باردًا داخل المنزل مقارنةً بالخارج. «ابقَ هنا». أتمتم. يومئ ويتجه نحو الباب الأمامي في حالة ظهور ليلى فجأة من دون حجاب. أنادي بصوت عالٍ: «ليلى، لقد عدت!» لا تجيب. تتلوّى معدتي. «ربما تكون نائمة؟» يقترح كنان وهو لا يزال في مواجهة الباب. «ربما».

أتحقق من غرفة المعيشة التي تنام فيها عادة، لكنها فارغة وباردة بشكل مزعج، ولا تتسرّب أشعة الشمس من خلال الستائر. السجادة الموجودة أسفل الأريكة غامقة، والدوائر المرسومة تشبه السحب الرمادية التي تحوم قبل العاصفة. المطبخ المطل عليها صامت أيضًا، كما لو أن شخصًا ما يخفِّف الألوان. ينمو القلق مثل الكروم، ويلتفُّ حول هيكل جسدي. أكرر: «ليلى»، وأتوجّه إلى الردهة، وحذائي الرياضي يرتطم بهدوء على السجادة.

الظلال تغلّف خطواتي، وقلبي في حلقي يرفرف مثل طائر صغير. كان باب غرفة نومها مغلقًا بإحكام، وقمت بتمرير أصابعي على طول سطحه قبل أن أقرّر فحص غرفتي أوّلًا. عندما أفتح باب غرفتي،

وأتوسل إلى الله أن تكون هناك، كدت أسقط على الأرض من الراحة. ليلى مستلقية على أغطيتي، تحتضن وسادتي إلى صدرها. عيناها مغمضتان، وشفتاها تتحركان في صلاة صامتة.

«ليلى!» صرخت، وانفتحت عيناها بقوة، وخرج صوت مختنق من حلقها. «سلامة!». إنها تلهث. تقفز من السرير. اصطدمنا ببعضنا البعض، ذراعاي ترتجفان وأنا أضمها بالقرب مني، وشعرها في فمي. لكنني لا أهتم. إنها على قيد الحياة وحامل. حامل جدًا، وبطنها يصدمني. تميل إلى الخلف، وتمسك بكتفي، وتهزني. «أين كنت؟» تتساءل.

«لم يكن من الممكن نقل المريضة من منزلها، لذلك اضطررت للذهاب إلى هناك وإجراء العملية. ثم اندلع قتال بين الجيش السوري الحر والجيش، ولم أتمكن من المغادرة». قلت ونَفَسي منقطع. عيناها محمرّتان، وخدّها مُبقّعان، لكنها تأخذ نَفَسًا عميقًا. «تمام». «لقد أعادني شقيق المريضة إلى المنزل. إنه، ممم، إنه هنا»، قلت في محاولة لأكون غير مكترثة.

تنظر من فوق كتفي. «هنا؟ في منزلنا؟» أومئ. تبدأ في الإدراك ببطء وتتجلّى الصدمة الفاضحة في كل كلمة. «أوه يا سلامة. هل قضيت الليل في منزل شاب؟» أدفع كتفها بشكل هزلي وهي تضحك. «توقّفي عن ذلك» أتمتم. «لقد مرضت تقريبًا من القلق. لماذا لم تردّي عندما اتصلت؟». تنظر إليّ بشكل واضح. «أنت تعلمين أنني لا أجيب على أرقام مجهولة!».

أضع يدي على وجهي، وأنا أتنهد. «تمام. تمام. الحمد لله أنك بخير. هذا كل ما يهم». «أنا بخير». «يجب أن أخبر كنان أنك بخير. يمكنك أن ترحّبي به إذا أردت». أعطتني نظرة غاضبة وأشارت إلى

نفسها. الشعر المتطاير والعيون الدامعة والملابس المتجعدة. «أرحّب به بهذا المظهر؟ لا، شكرًا لك، أفضّل البقاء هنا». أهزّ رأسي مبتسمة.

لا يزال كنان يدير ظهره لي عندما خرجت. أتفحّص كتفيه العريضتين والطريقة اللطيفة التي يضع بها يديه في جيوبه وهو يتأرجح ذهابًا وإيابًا على كعب حذائه. أتوقف وأسمح لنفسي لمدة دقيقة واحدة أن أتخيل حياتنا المحتملة في هذا الردهة المغبرة؛ أنني أعيش فيلمي الخاص في ستوديو جيبلي؛ أنه في هذا الكون، هو وأنا لدينا نكتتنا الداخلية، وإصبعي البنصر ترتدي الخاتم الذهبي الذي أعطاني إياه. تلك الأفكار تجعل خدّيّ يحترقان، لكنني لا أهتم. أنا مدينة بهذا. أنا مدينة لمخيّلتي على الأقل. أنادي عليه: «كنان. يمكنك أن تستدير. ليلى لن تخرج». يفعل ذلك ببطء شديد، وما زالت نظراته ملتصقة بالسجادة. «هل هي بخير؟» يسأل، وأخيرًا التقى بعيني. أومئ له.

تنطلق نظراته فوق الردهة وهو يستوعب الرثاثة. لا يقول شيئًا، وأرى الحزن في تعبيراته. «هل أنتِ متأكدة من أنها بخير؟» يسأل مرة أخرى. «يمكنني الذهاب لأحضر لكِ شيئًا. مثل... الخبز أو الحليب إذا كان متاحًا في السوبر ماركت». أهزّ رأسي. «شكرًا لك. نحن بخير. إنها في حالة جيدة». يزفر. «حسنًا. أعتقد... هذا هو الوداع». أمضغ لساني، وأشعر ببعض الانزعاج من هذه الكلمة. كم أكره ذلك. الوداع!

«صحيح» أقول بدلًا من ذلك. أومأ لي قبل أن يفتح الباب وينظر إلى الوراء مرة أخرى. «شكرًا لك يا سلامة على كل شيء. أنت لم تنقذي حياة لمى فحسب، بل أنقذت حياتي وحياة يوسف أيضًا».

يبتسم، عيناه خضروان مشرقتان ودافئتان. في الوقت الراهن، على ما أعتقد.

ثم ينزلق عبر الباب وفكرة غير متماسكة تتشكّل في الجزء الخلفي من ذهني تشقّ طريقها أخيرًا إلى فمي. «كنان!» ناديته. توقّف على بُعد بضعة أقدام. «نعم؟» يسأل، وأقسم أنني أسمع الأمل. أمشي نحوه، وأفرك ذراعي. يمكنني إنقاذه وإخوته. أعلم أنني أستطيع. «سجّل في المستشفى» قلت عندما اقتربت بدرجة كافية حتى أتمكّن من رؤية النمش على رقبته. يبدو متفاجئًا. «ماذا؟».

«تعال إلى المستشفى وسجّل أحوال المصابين. أنت تقول إنك تريد المساعدة، أليس كذلك؟ أظهِر للعالم ما يحدث؟ حسنًا، لا شيء يصرخ بالظلم أكثر من ذلك. عادة ما تكون التظاهرات ليلًا. ولأن الظلام يكون قد حَلّ، فإن الرؤية ليست جيدة. لكن في المستشفى، أنت ســ... ستكون أكثر تأثيرًا». ويتحول صوتي إلى همس هادئ.

تلمع عيناه عند سماع كلامي ويحدق بي لدقيقة طويلة قبل أن يقول: «لماذا؟» أكرّر سؤاله:

«لماذا؟». «لقد أوضحتِ أنكِ تعتقدين أن ما أفعله خطير. لماذا تريدينني أن أفعل المزيد من ذلك، أقرب إليك؟». أطرقع مفاصل أصابعي بحثًا عن طريقة لتصريف القلق المتراكم في دمي. لأنه عندما ترى الناس الذين يموتون. عندما ترى الأطفال المشوهين وتسمعهم يبكون من الخوف والألم، ربما ستعرف حينها كم أنت محظوظ لأنك بخير. أنه يمكنك المغادرة. لم أقل ذلك، بل قمت بالنظر إليه بنظرة باردة. «اعتقادي بأن الأمر خطير لا علاقة له بحقيقة أنني أحب بلدي، ولا أريد أن أرى المزيد من الناس يُقتلون». تتحول أذناه إلى اللون

الأحمر ويغطي وجهه بيد واحدة. «أنا... أنا اسف. لم أكن...». أهزُّ رأسي. «لا بأس. أعلم أنك لم تقصد الأمر بهذه الطريقة. اسمع، أنا لا أجبرك. هل ترغب في فعل ذلك؟».

وضع ذراعيه بجانبه، والتقيت مرة أخرى بعينيه الخضراوين اللامعتين. يقول: «نعم». أشعر بقشعريرة تسري في ظهري صعودًا وهبوطًا. «أجل... أريد». تنهّدتُ في ارتياح. «جيد. علينا أن نطلب الإذن من الدكتور زياد، لكني أشك في أنه سيمانع. إنه مستعدٌ لهذه الحرب». يقول كنان: «الثورة يا سلامة». ابتسامته حزينة. «إنها ثورة». ضممت شفتيّ. «كُن في المستشفى غدًا في الساعة التاسعة».

***

عندما عدت إلى الداخل، رأيت ليلى واقفة أمام الباب مباشرةً مبتسمة أكبر ابتسامة رأيتها تبتسمها في حياتي. «كنان، هاه؟» تهزُّ حاجبيها وأنا أتمتم. «لقد بدا عليك الارتياح للغاية هناك. كنتُ على مقربة من فتح الباب والسير إلى هناك بنفسي لأرى ما كان يحدث». اندفع من جوارها، والحرارة تستحوذ على خديّ، لكنها كانت سريعة، أمسكت بذراعي وأدارتني في اتجاهها. «لماذا تحمرّين خجلًا؟» تسأل. «لست كذلك!» أتلعثم. تُضيّق عينيها. «هل تعرفينه؟». «نعم؟».

قالت بنظرة شرسة: «يا إلهي، إذا كنت ستطيلين إجاباتك، فسوف أضربك على رأسك!». «حسنًا! أنا... نحن... هو الذي كان من المفترض أن يأتي مع والدته العام الماضي من أجل الحديث عن الزواج». أقول ذلك على عجل وكأنني أمزق ضمادة.

صمت. ثم...

«يا إلهي!». لا توجد وسيلة لمقاطعتها عندما تبدأ ليلى في الحديث بتدفُّق. كل ما اعتقدت أنها ستقوله وكل شيء لم أفكر فيه بعد ينفجر على الفور. كنان وأنا مقدّران لبعضنا. هذا هو المصير. هذا هو الحب الحقيقي. سأكون سعيدة. سأتزوج. سنكون ثنائيًا قويًا. ستكون العمة المحبوبة التي سيعشقها أطفالنا. هذا رائع. سيكبر أطفالنا معًا. سنتجاوز المصاعب. حديثها يتبعني من المطبخ إلى غرفتي حيث أغيّر ملابسي إلى سترة نظيفة وأعود إلى معطفي الطبي -لأنني متأخرة بالفعل على ورديتي في المستشفى- وأتوجه مرة أخرى إلى الباب الأمامي.

«ليلى، هذا يبدو جميلًا وكل شيء»، قلتها أخيرًا عندما توقّفت عن الحديث لتلتقط أنفاسها. «لكن لدينا أشياء أكبر يجب أن نقلق بشأنها». آخُذ نفسًا عميقًا، وأعدُّ نفسي للكلمات التي ستدمّرني. «لقد قرّرت أننا سنغادر. سأتحدث مع آم وسأجد طريقة لدفع ثمن هذا القارب». تتوقف ليلى فجأة، وفمها مفتوح. «ماذا... ما... الذي غيّر رأيك؟» تهمس. أخدش بقعة على كمي. «الواقع الذي نعيشه».

تمدُّ ليلى يدها وتمسكني من كتفي وتعانقني بقوة. «أعرف مدى صعوبة هذا القرار بالنسبة لك. ولكنك لن تفعلي أي شيء خاطئ، حسنًا؟» لا أقول شيئًا، فقط أستنشق رائحة الأقحوان. «قولي ذلك»، تقول بقوة. «قولي إنك لن ترتكبي أي خطأ بمغادرة المكان». أطلقت ضحكة مكتومة. «أنا... لا أرتكب أي خطأ بالمغادرة».

تترك كتفي وتمرّر أصابعها على خدي، قائلة: «جيد». قبل أن أخرج، أمسكت بيدي ونظرت إليها. «سلامة»، تقول وهي تبتسم. ومع ضوء الشمس

المتدفق من الباب المتصدع وهو يداعب وجهها، تبدو كما كانت في الأيام الخوالي. خدود وردية وعيون زرقاء تتألق بالحياة. «لا يضرك أن تفكري في مستقبلك. ليس علينا أن نتوقف عن الحياة لأننا قد نموت. قد يموت أي شخص في أي لحظة وفي أي مكان في العالم. نحن لسنا استثناء. نحن فقط نرى الموت بشكل أكثر انتظامًا منهم».

أفكر في كنان، وربما الحياة. ماراثون أفلام جيبلي في ليالي السبت. جمع النباتات والزهور في الأصص حتى تمتلئ شقتنا بالحياة دائمًا. أستضيف ليلى والطفلة سلامة لتناول العشاء وأستمتع بابنة أخي. حمزة وكنان يرتبطان بشيء مثل كرة القدم أو ألعاب الفيديو. تنحنحث بصوت عالٍ إلى حدٍّ ما. «حسنًا، سأراك الليلة يا ليلى». الابتسامة التي تعطيني إياها تعكس ابتسامة كنان في حزنها.

10

«لا»، يقول أم، وتجمُّعات حمضية تعلو في معدتي. «لا استثناءات».

نقف في الردهة الرئيسية مرة أخرى ويداي ملوّثتان بدماء المرأة التي ساعدتها منذ عشرين دقيقة. انفجر الجرح الذي أصيبت به في رأسها، ولم تتماسك الغُرز، وأغمي عليها بسبب فقدان الدم. طوال فترة علاجي للجرح، كنت أجهّز ما سأقوله لآم، لكنه قاطعني بمجرد أن فتحت فمي. يقول بعينين جامدتين: «أنا لا أقوم بأعمال خيرية يا سلامة. كل مَن يريد خدماتي لديه مشاكل. أنتِ لست الوحيدة. كان لديّ أب لديه ثلاثة أطفال وزوجة مريضة. لقد قلت له 'لا'، وسأقول 'لا' لكِ أيضًا».

انقبض فكّاي، وحفرت بأظافري في راحتي. أنا أكرهه والطريقة التي يستفيد بها من رعبنا. أعلم أنني أستطيع استخدام ذهب ليلى للمساومة معه، لكن لساني مثقل بالكبرياء. لقد اتخذت أخيرًا القرار الفظيع بترك مرضاي ورائي واحترام رغبات حمزة، لكن جشع آم أوقفني.

يعضُّ ظفره. «لا شيء يقال؟» لا بُدّ لي من التحرك بعناية. أنا وليلى لا نستطيع أن نعيش على الكبرياء وحده. إذا أهنته، فقد لا يوفّر لي قاربًا، حتى لو عرضت عليه كل الذهب الموجود في العالم، فقط ليغيظني.

«سأجد طريقة لأحصل لك على المال»، أقول بصوت مهذب قسري. «لكنني أطلب منك إعادة النظر. أنا وليلى صغيرتان، ولا نتكلم الألمانية. لم نغادر سوريا قطّ. أنت وأنا أقرباء. نحن سوريون». لم يقُل آم شيئًا، لكن هناك وميض مختلف داخل عينيه. يبدو كما لو أنه معجب بي. أخيرًا، همهم: «لو أمكننا

جميعًا أن نعيش على النُبل! ابحثي عن المال وإلا فلن يكون هناك قارب». وبهذه الجملة يبتعد.

عندما تمتزج خيبة الأمل والرعب معًا، يشكّلان حبّة مريرة تكون آثارها طويلة الأمد. يبقى طعمها في فمي طوال اليوم، ويقوى عندما أعود إلى المنزل، مرهقة للغاية، وأرى وجه ليلى المتوتر وأنا أخبرها بما قاله آم. إنها لا تسأل لماذا لم أعرض عليه ذهبها، وأنا ممتنّة لها لذلك. تضعني في السرير وتمشّط شعري للخلف. «لا بأس» همست. «سنكون بخير».

أحدّق في السقف وأشعر بفراغ في صدري. وكأن قلبي لم يغد موجودًا هناك، وأنا أعيش على كل ما علق في ضلوعي من شظايا. ما أن سمحت لنفسي بالتفكير في الرحيل، حتى نمت في عقلي شتلات الأمل، وسيطرت على مخيّلتي. ليست حياة محتملة، بل حياة حقيقية مع ليلى وشقة في ألمانيا. إنها ضيقة ولكن جيدة. نتعافى ونملؤها بالضحك ورسومات الطفلة سلامة. وفي يوم من الأيام، وجدت الإرادة لكتابة القصص السحرية التي دفنتها منذ فترة طويلة في ذهني. أنا وهي، نبني منزلًا مما تبقّى من عائلتنا.

تبقى ليلى معي حتى يتحول الغسق إلى ليل. «سأكون هنا إذا كنت بحاجة إلى أي شيء، حسنًا؟» تقول، وأومئ. عندما تغلق الباب خلفها، يخيّم صمت غريب على انصرافها، وتستأنف مخيلتي الغبية من حيث توقّفت. هذه المرة فقط، كنان موجود في شقتنا. وكذلك إخوته. نحن سعداء وآمنون ونتغذى جيدًا. ولدقيقة واحدة، لا يبدو ظلام الليل قاتمًا إلى هذا الحد. وذلك حتى يضحك شخص ما من الزاوية. أرفض أن أنظر.

«لو أستطيع أن ألخص حياتك في كلمة واحدة يا سلامة...». أسمع هسهسة ولاعته. شهيق عميق. زفير. «ستكون المفارقة». «تبًا لك» أنا أنعق.

أشعر بأن خوف يجلس بجانبي، لكني لا ألتفت إليه على أمل أن يرحل. عظامي مصنوعة من الفولاذ وأنا مشغولة بمحاولة جمع قطع قلبي لتركيبها مرة أخرى من أجل جحيم الغد المحتوم. أنا على دراية تامة بمخبأ البانادول المخبّأ في الدرج، ويجب أن أحارب نفسي حتى لا آخذ واحدة. أو ثلاثة. حتى ليلى لا تأخذ واحدة منها عندما تعاني من الصداع. نحن نحفظها ليوم ممطر.

أستطيع التنفس من خلال هذا. ويتابع خوف: «يجب أن أقول. أنا فخور جدًا بتقدُمِك. لكن دعينا نأخذ الأمر إلى مستوى أعلى. ستخبرين آم غدًا أنك ستعطينه كل ما لديك من الذهب. بئسًا، سوف تعطينه هذا المنزل أيضًا إذا أراد ذلك. لا يعني ذلك أنه سيستفيد منه. لكن ربما». أصمت وأجد نفسي أشتاق إلى الليلة الماضية التي غاب فيها خوف. أتوق للتحدث مع كنان مرة أخرى ورؤية شعلة الحياة تحترق في عينيه.

«لا»، يقول خوف باقتضاب. «هذا الشاب ليس سوى عقبة. بقلبك الناعم، سوف تثنيك أفكاره الوطنية بسهولة عن المغادرة. لقد عملت لفترة طويلة جدًا وصعبة للغاية لأتمكن من تغيير رأيك. أنت...». «راحلة، أعلم ذلك»، قلت فجأة ونظرت إليه أخيرًا. نظراته تومض فوقي باستياء، لكنني لا أهتم. «ابتعدي عن كنان». أقول: «لا تقلق، وعدي لحمزة يأتي أوّلًا». «من الأفضل أن تصلّي لكي يقبل أم بالذهب».

يبتسم خوف، وأنيابه حادة. «أوه، أنا على ثقة أنك

ستفعلين كل ما في وسعك لإقناعه». يثني أصابعه، وتتراقص السيجارة من إصبع إلى أخرى، وتبدأ الظلال على الجدران والسقف في تغيير شكلها. أفواه فاغرة وعيون جوفاء تحدق بي. وسرعان ما تبعتها صرخات مؤلمة، لذا وضعت يدي على أذني وأغلقت عيني بإحكام. «أنت تعرفين ما سيقوله حمزة، أليس كذلك؟» قطع أفكاري صوت خوف. «كيف يريد منك أن تغادري. كيف كان يتوسل إليك».

«سلامة»، صوت حمزة يهمس في أذني. يبدو كأنه مجروح. «سلامة، لقد وعدتي، أتذكرين؟ سوف تنقذين ليلى، ونفسك. سوف تعوّضين عن ترك ماما تموت. لن تتراجعي عن كلمتك، أليس كذلك؟». يحترق الجزء الخلفي من عيني وأتدحرج لأضغط على الوسادة فوق رأسي. «توقّف... أرجوك».

سيطر الصمت على الغرفة، وأعتقد أنه فعل ذلك للحظة. لكن عندما أفتح عيني، يقف حمزة أمام سريري. هناك جرح مفتوح في جبهته. ضاقت عيناه العسليتان من الاستياء، وهناك بُقع من الكدمات على خديه. إنه يرتدي الملابس التي رأيته فيها آخر مرة، لكنها ممزقة وموحلة ودامية.

«لا»، أتذمّر. هذا ليس هو. هذا خوف. لكن في أعماق قلبي، أعرف أنه هو. حتى لو كان ما أمامي شبحًا، فلا بدّ أن حمزة يعاني الآن، إذا لم يكن ميّتًا. «سلامة، إذا قبضوا على ليلى، هل تعرفين ماذا سيفعلون بها؟» يهمس، ويخرج من شفتي صوت مؤلم. «إذا قبضوا عليك؟ لن يُسمح لك ولليلى بالموت أبدًا. سلامة، عليك أن تغادري. فكّري في بابا. فكّري بي». أشعر بأن دموعي كالحمض على بشرتي، تقطر على وسادتي.

«حمزة، من فضلك، قلت سأفعل». يهزُّ رأسه. «ثم لماذا لم تعطي أم ما يريد؟ سلامة، البقاء هو كل شيء!». أقول: «سأفعل. لقد وعدت بأني سأفعل». عندما رمشت، اختفى حمزة، وصوت خوف يلوح في الأفق من جديد. «في كل مرة يجعلك كلام كنان تشكين في قرارك تذكّري أخاك». «جذور الدم»، أهمس. «بتلات بيضاء. مركز أصفر. يفرز سائلًا أحمر. فعّال بجرعات منخفضة لأمراض الجهاز التنفسي. جذور الدم. جذور الدم. جذور الدم». يتابع خوف: «إذا غيّر هذا الشّابّ رأيكِ يا سلامة، سأفعل ما سيجعلك لا تتذكرين حتى ما هي الزهور».

11

في اليوم التالي، هرع إليّ الدكتور زياد بمجرد دخولي. وكانت على وجهه ابتسامة لم أرها منذ فترة طويلة. «سلامة!» يصرخ. «لقد حصلنا على شحنة من الأدوية. بانادول. سيبروفلوكساسين. أزيثروميسين. حتى المورفين!».

ينفتح فمي، ويرتفع قلبي حتى يعبر السحاب. لو كانت الحياة طبيعية، لكان من واجباتي اليومية أن أطلع الدكتور زياد على آخر المستجدات بشأن مخزون الأدوية. سيكون التوزيع والاستشارة والجرد هو مجالي. إعادة التخزين ستكون مُمِلّة في أحسن الأحوال. ليس سببًا للاحتفال. «كيف؟» يقول الدكتور زياد: «لقد تمكّن الجيش الحر من تهريبها». مرِّر يده على شعره، وكانت هناك طاقة أمل تنبعث منه. «لقد وضعنا الصناديق في مخزن الأدوية من أجلك».

أبتسم بإشراقة. «أنا في الطريق». المستشفى أكثر إشراقًا اليوم. وجوه المرضى، رغم أنها لا تزال متعبة ومتألمة، تظهر عليها درجة من السعادة. أو ربما هذا مجرد مخيلتي. قبل أن أنطلق بسرعة، يمد الدكتور زياد ذراعه. «لقد غادرت المستشفى فجأة أمس. هل كل شيء على ما يرام؟ هل تأكلين جيدًا؟ تنامين؟ هل تحتاجين لأي شيء؟». أقول: «أنا بخير». وفي هذه اللحظة، محاطة بالمرضى، لا يبدو الأمر وكأنه كذبة. في الوقت الحالي، أنا بخير. كلي بخير.

إذا كان لا يصدقني، فهو لا يُظهر ذلك. ولإلهائه، أخبره عن لمى وكيف سارت الجراحة بشكل جيد. يتهلل وجهه ويمتدح تفكيري السريع. يقول مبتسمًا: «أحسنت».

قفزت إلى المخزن، خطواتي أخفُّ من ذي قبل،

ناسية كل شيء عن الكوابيس التي جزتني إلى الأسفل الليلة الماضية. اليوم هو يوم جيد. وسيكون يومًا جيدًا إن شاء الله. الصناديق الكرتونية مجعّدة، وزواياها مضغوطة، لكن عندما أفتحها، أجد الأدوية كلها سليمة. إنها باردة الملمس، وأنا أضمّ زجاجة كاملة من شراب الأسيتامينوفين المخصّص للأطفال إلى صدري. سنكون قادرين على تهدئة الحمى.

«سمعت أننا حصلنا على مخزون جديد»، قال صوت من المدخل، فالتفتُ لرؤية نور. يضيء وجهها المستدير بالبهجة. كانت نور جزءًا من طاقم الحراسة لمدة ثلاث سنوات قبل أن تتمّ ترقيتها على الفور إلى ممرضة عندما تمّ نقل الشهداء الأوائل إلى المستشفى. تعلّمتُ من نور لأول مرة كيفية خياطة الجروح، وتصميم الضمادات المؤقتة، وتصريف السوائل من رئتي المرضى. أعصابها من حديد وقلبها أرق من الريش.

ألوّح بصندوق فلوكلوكساسيللين. «ما سمعتِه صحيح!» تزغرد وأنا أضحك. تبدو الفرحة غريبة على أذني، لكني أرحّب بها. يجب أن أتحقّق من مريضٍ، ولكني كنت بحاجة لرؤية هذه المعجزة بنفسي. تضحك. «إذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة، ابحثي عني». «سأفعل». تغادر. وأقوم أنا بتكديس الرفوف الفارغة لبعض الوقت، ثم أنظر إلى الساعة. إنها 10:13 صباحًا.

كنان!

طلبت منه أن يكون هنا في الساعة التاسعة، لكنه لم يحضر بعد. ولتشتيت بعض القلق الذي أشعر به، قرّرتُ أن أقوم بجولة سريعة حول المستشفى. ربما هو هنا لكنه لا يستطيع العثور عليّ. أتنقل عشوائيًا

من غرفة إلى أخرى، لكن لا يمكنني العثور عليه في أي مكان، لذلك أعود إلى المخزن. يستعيد القلق مكانه في داخلي وأحاول ألّا أفكر في كل أسباب عدم وجوده هنا. لا تزال أخته تتعافى، وربما كانت في حاجة إليه. أدعو لها سريعًا من أجل استعادة صحتها. ربما يمكنني المرور على شقتهم مع شريط بانادول بعد مناوبتي. جزء مني -جزء أحمق ومفعم بالأمل والذي نجا بطريقة ما من كل شيء- سعيد لأنني سأتمكن من رؤية كنان مرة أخرى.

أهزّ رأسي. هذا ليس الوقت المناسب لأفكاري الأنانية عن الحياة المحتملة والشاب طويل القامة ذي العينين الخضراوين الدافئتين والحيويتين. «صباح الخير»، يقول كنان من خلفي، وأكاد أقفز من جلدي. وقلبي ينبض مثل الرعد. أستدير ببطء، وأعطي نفسي وقتًا لأبدو هادئة ومتماسكة قبل أن يتمكن من قراءة كل الأفكار المكتوبة على وجهي.

لقد أقنعه برد الصباح بارتداء سترة فوق سترته القديمة. يتكئ على إطار الباب، وذراعاه مطويتان على صدره. شعره أشعث، وأطرافه تتجعّد حول أذنيه، ووجهه محمرّ من البرد. كاميرا «كانون» قديمة معلّقة إلى جانبه، ملطخة باللون الأبيض عند الحواف ومتشقّقة قليلًا.

«صباح الخير» أجبت، وطوعت صوتي ليظل هادئًا وليس متحمسًا للغاية. «أنت متأخر. هل كل شيء على ما يرام؟ كيف حال لمى؟». يبتسم والفراشات ترفرف في معدتي. «نعم، شكرًا لك على السؤال. تراجعت الحمى الحمد لله. يوسف في حالة جيدة أيضًا. لقد ناما في الصباح، ولم أتمكن من المغادرة قبل أن يستيقظا». أعبث بعلبة المضادات الحيوية في يدي. «حسنًا، أنا سعيدة لأنكم بخير». «نحن

بخير». يحدق بي لبضع ثوانٍ وأشعر بلمسته في كل مكان.

في حياتنا المحتملة حيث وُعدنا لبعضنا البعض، كان ليقف أمامي الآن، ممسكًا بمناقيش حلومي طازجة، والجبن الذائب على الخبز الدافئ يتسرّب عبر الغلاف الورقي، بينما يقدّم معها كوبين من شاي الزهورات، تملأ أوراق النعناع الهواء بنضارتها. إفطار سريع قبل أن نواصل يومنا. كان ليمزح معي ويخبرني عن الحلم الذي راوده الليلة الماضية. وقبل أن يغادر، لم يكن ليقبّل يديّ أو خدّيّ لأننا لم نتخذ الخطوة الرسمية للخطوبة بعد، لكنه كان سيرسم ابتسامة على شفتيه. أتساءل عمّا إذا كان يفكر في ذلك.

يتنحنح: «إذن، آه، أين الطبيب الذي أحتاج إلى إذنه؟». أبربش بعينيّ. «حسنًا». وضعت المضاد الحيوي جانبًا وطلبت منه أن يتبعني. ينضم إليّ بخطوات ونمشي عبر الممرات إلى الردهة الرئيسية، حيث يكون الدكتور زياد عادةً في الصباح.

«حسنًا، اسمع» بدأت، وأخذت نَفَسًا عميقًا، ونظر إليّ. «أعلم أنها كانت فكرتي أن تفعل هذا، لكن الأمر لا يأتي من دون مَخاطِر. نحن نعيش في أوقات خطيرة ولا تعرف كيف يمكن أن يؤثر ذلك عليك». يعبس. «تقصدين الواشون؟». أومئ. «الجميع هنا -على حدّ علمي- يشاركونك مُثلك، لكن هذه يمكن أن تكون مجرد كلمات. لذا، إذا كنت لا تريد أن تفعل هذا، فهذا...».

«أريد ذلك»، يقاطعني. «لقد فكّرتُ في الأمر طويلًا، وبحسم. وقلت لك، لا يهم الجيش إذا كنت تقومين بالتصوير أم لا. إذا كنت تشفين الناس أم لا. سنكون جميعًا متضررين، وسنواجه جميعًا نفس

المصير. وأنت تعرّضين نفسك لنفس الخطر الذي أتعرض له».

أرتعد. إنه على حق. باعتباري صيدلانية، سأواجه تمامًا ما واجهه حمزة. من المحتمل أن يكون الدكتور زياد أسوأ منا، لأنه رئيس الجرّاحين. وينهي كنان كلامه قائلًا: «لذا، من الأفضل أن نقاتل. لن أسمح لهم بالتحكم في مخاوفي!». ضربت كلماته على وتر حساس بالنسبة لي، ونظرت بسرعة بعيدًا حتى لا يفهم تعبيري. لن أسمح لهم بالتحكم في مخاوفي.

نعثر على دكتور زياد واقفًا بجانب رجل ملفوف بالضمادات على ذراعيه ورجليه، وعينه اليسرى مغلقة ومنتفخة. إنه مستلقٍ على السرير، وحيدًا، ويحدق أمامه بفارغ الصبر. ننتظر حتى ينتهي الدكتور زياد من فحصه. عندما يلتفت نحونا، يبتسم بحزن.

«ممم، دكتور زياد، ممكن لحظة؟» أسأله، محاوِلةً ألّا أنظر إلى الرجل المصاب. ينقل بصره بيني وبين كنان. «بالتأكيد». يومئ ويقودنا إلى ما هو بمثابة مكتبه وغرفة إضافية للمرضى المعرّضين لمخاطر عالية. يوجد سريران للمرضى مستندان على الحائط، مكتب الدكتور زياد مليء بالأوراق المبعثرة. أشعة الضوء تدخل من النافذة ذات اللون الأصفر. «هل هناك شيء يمكنني المساعدة فيه؟» يسأل بعد إغلاق الباب.

أمسكت بأطراف حجابي. «دكتور زياد، هذا كنان. الشاب الذي كانت أخته بحاجة إلى مساعدتي». «كيف حالها؟» دكتور زياد يسأل كنان. «بخير الحمد لله. شكرًا لمجهود سلامة. إنها رائعة». يبتسم لي فترتفع درجة حرارتي الداخلية بضع درجات. ويوافقه الطبيب قائلًا: «نحن محظوظون جدًا

بوجودها». أتمتم: «هذا لطف كبير منكما أن تقولا ذلك»، وأشعر بذاتي. ثم، بصوت أعلى، أواصل: «دكتور، كنان هنا» -أنظر إليه ويومئ- «إنه يصوّر الاحتجاجات، وكنت أتساءل عمّا إذا كان يمكنه أيضًا تصوير المرضى القادمين، لتوثيق قصصهم حتى يتمكن العالم كله من رؤية ما يحدث». يقول كنان: «وأريد إذنك يا سيدي».

يبدو الدكتور زياد مهتمًا ويحك ذقنه وهو يفكر. أصبحت التجاعيد حول عينيه أكثر وضوحًا، وتحفر بشكل أعمق على أطراف عينيه. يقول: «أنا آذن لك. إذا كنت تكتب قصصًا فردية، فستحتاج إلى موافقتهم أولًا. لكن إذا حدث تفجير كبير وأحضروا الضحايا، أظهِر كل شيء». يبتسم كنان وهو يصافح الدكتور زياد ويشكره. الدكتور زياد يودّعنا قبل أن يغادر لاستكمال جولاته.

«أنا معجب به». يحدّق كنان بالدكتور زياد بإعجاب. «إنه بطل خارق». لا يوجد كلام يصفه غير ذلك. «يلّا. دعني أصطحبك في جولة بالمستشفى».

تومض عينا كنان بقدر متساوٍ من الحزن والسعادة، ويلعب تأثير ذلك على مفاهيمي السخيفة عن الأمل. عن تلك الحياة المحتملة. يستمع باهتمام لكل كلمة أقولها وأنا أشرح الأقسام المختلفة وكيف نقوم بتقسيم المرضى على أساس خطورة حالاتهم. أخبره عن الحالات الأكثر شيوعًا لدينا. أحيانًا تكون صدمة رؤية الجثث الدموية، وخاصة الأطفال الذين أطلق عليهم القناصة الرصاص، كافية لانهياري. لا أخبره عن المرات العديدة التي حدث فيها ذلك. كم مرة اضطررت للخروج من المستشفى وتقيأت.

نمرّ بجناح الولادة في طريق عودتنا إلى القاعة الرئيسية. «هذا هو المكان الذي تقيم فيه النساء

الحوامل. ولا يمكننا إعطاؤهم أي مسكّنات لأنه لن يكون لدينا ما يكفي لإجراء العمليات الجراحية. لقد خسرنا، والبعض لم ينجُ. والأسوأ هو عندما تموت الأم ويعيش الرضيع. الأطفال هناك». أشير نحو الغرفة الأخرى المجاورة للقاعة.

يتجهّم في تعاطفٍ ويستدير ويرى الأطفال الرُّضع في الداخل. «هل هم في الحاضنات؟». «نعم. أنا... لا أحب المجيء إلى هنا. إن رؤيتهم صغارًا جدًا وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم، هذا كثير جدًا عليّ. تم إخراج البعض من أرحام أمهاتهم ويحتاجون إلى الحاضنات للبقاء على قيد الحياة. والبعض الآخر أكبر ببضع أشهر ومريض».

«ماذا يحدث حين تتحسّن صحتهم؟» أعبس. «المحظوظون لديهم عائلة. أما الآخرون فيبقون هنا حتى تتمكّن دار الأيتام من استقبالهم...». أرتعد. «لا أريد دفن الأطفال». قلبي يدق بسرعة شديدة. لوتس. أوراق وردية. استقرار ضغط الدم. شفاء الالتهابات. لوتس. لوتس. لوتس.

عندما لا يقول أي شيء، ألقي نظرة عليه. لا تزال عيناه ملتصقتين بالصناديق المعدنية، تلك التي تُبقي الأطفال على قيد الحياة، ويمر وميض من العاطفة على وجهه. يصر على أسنانه، وينثني الوريد في رقبته.

«تشعرين بالعجز يا سلامة. لكن أنا...». لهجته هادئة لكنها غاضبة. «لا أحد يستحق هذا. هنا يتضوّر الأطفال جوعًا، بينما في مدن مثل دمشق يتخلّص الناس من بقايا طعامهم لأنهم شبعوا».

أستطيع أن أشعر به يهتز دون لمسه. لا أفكر كثيرًا في الناس في دمشق، حيث تم سحق بعض الاحتجاجات بسرعة تحت وطأة الحكومة، وعاد

الناس إلى حياتهم «الطبيعية». إذا سقطت دمشق من براثن الديكتاتور، فإن قبضته ستختفي من كل سوريا. دمشق هي العاصمة. كل قرار يتم اتخاذه هناك له آثار تموج في جميع أنحاء البلاد. فهي معقلهم. إن انتصارات أجدادنا عبر التاريخ راسخة في ترابها. لكنها تنتمي إلى الأشخاص الذين يضحُون بحياتهم من أجل تحريرها.

يذهلني كيف أن المسافة بين حمص ودمشق لا تتعدى ساعتين ونصف بالسيارة. في إحدى المدن، يتم انتشال الناس من أنقاض المباني المدمّرة، وفي الأخرى، يجلس الناس في المقاهي يشربون القهوة ويضحكون. أحاول ألّا أفكر في ذلك. لديّ عائلة بعيدة هناك. كما حال معظم الناس في حمص. في النهاية، نحن جميعًا مرتبطون إلى حدّ ما.

قلت بحزن: «ليس هناك فائدة من الغضب بشأن ذلك. لدينا جميعًا مسارات مختلفة للمضي. مهما كان الأمر يستحق، على الأقل نحن نفعل الشيء الصحيح». ينقر بقبضته على جبهته عدة مرات. «ترين الجيش يضرب الناس في الشوارع ويسحبهم ويقتلهم، وترين إخوتك الصغار وهم يحاولون تدفئة أنفسهم في الليل، وتعتقدين أن الأمر لا يمكن أن يصبح أسوأ من ذلك. لكن هنا يا سلامة، هنا يموت الأمل. حقيقة أنهم لا يعرفون ما يحدث فكيف يمكنهم ذلك؟ إنهم أطفال رضّع. إنهم مجرد أطفال».

أتذكر أحمد، كيف كان جسده مجوّفًا مثل الصّدفة. أنفاسه الشاقة والهدوء الشاسع في عينيه وهو يقبل الموت. لقد كان أيضًا مجرد طفل. كنان لم ينته أيضًا. «سلامة، هذا ليس أسوأ ما في الأمر. كيف يمكنك ضمان عدم سقوط القنابل على المستشفى؟ كيف...».

«لا تفعل...» همست. يواجهني ويلتقط الرعب على وجهي. «لا تقل ذلك». يرتجف، ويومئ. هذه المرة، كلانا نفكر في نفس الأفكار الفظيعة؛ أن أيامنا في المستشفى أصبحت معدودة، وأن الجيش السوري الحر في حمص القديمة هو الوحيد الذي يدافع عنّا ضد الجيش. نحن محاصرون من جميع الزوايا والسماء. في أي يوم الآن يمكن للجيش أن يسقط قنبلة ويمحو ملجأنا الهشّ هذا إلى شظايا. أنه لو -لا سمح الله- أنجبت ليلى هنا بلا مستشفى، فإن فرص بقائها على قيد الحياة ستكون معدومة تقريبًا. أي إذا لم يحدث لها أي شيء آخر أوّلًا.

تدور عيناي في كل مكان، باحثة عن خوف، منتظرة أن يهدّدني أو يضخّم المخاوف عقابًا لي على عدم العثور على آم أول شيء هذا الصباح. لكنه ليس هنا. يتبع كنان نظرتي، فيتحول حزنه إلى ارتباك. «ما الذي تبحثين عنه؟». «لا أحد»، أجيب بسرعة كبيرة. «لا أحد؟» يكرّر وأنا أوبّخ نفسي. «لا شيء»، أعدل كلامي، «أعني لا شيء». قبل أن يتمكن من قول أي شيء، أكمل قائلة: «يجب أن أذهب. أنت تعرف أين هم المرضى». يفتح فمه ليتكلم، لكنه يغيّر رأيه، ثم يطرق برأسه.

أبتعد عن تعبيره المحير، وأمشي بسرعة. لا أعود إلى غرفة التخزين، بل أتوجّه نحو الردهة الرئيسية للبحث عن آم. إنه نفس الوضع الذي تركته، المرضى منتشرون في كل مكان، محاطون بما تبقى من عائلاتهم. أولئك الذين ليس لديهم أحد يكسرون قلبي أكثر. قمت بمسح الوجوه الهزيلة لكن لم يتم العثور على ام في أي مكان.

أتنهد، وأفرك ذراعي، وأفكر في البحث في الغرف الأخرى، لكن عندما تتسرّب أصوات مكتومة عبر

أبواب المدخل المغلقة. يقشعرُ جلدي ويصبح جسدي في حالة تأهُب. انفتحت الأبواب وتدفق سيل من الناس، وبلّلت الدماء ملابسهم وتقطرت على الأرض. ويتم حمل الجثث الضعيفة بين أذرع رجال الإنقاذ، الصراخ والنحيب يرنُ في السقف. أعلم أنهم ضحايا هجوم قنّاص عندما لا أرى أطرافًا ممزقة، بل الدم يتدفق.

وكلهم أطفال.

من بين الحشد، ركض آم حاملًا بين ذراعيه فتاة صغيرة تنزف. وجهه ممزّق من الألم والخوف. «ابنتي!» يصرخ على أي شخص قد يسمعه. «ساعِدني!». يقف خوف بجانبي الآن ويضغط على جبهتي بإصبع لا أشعر بها. فكرة فظيعة تأتي إلى الحياة. «أنقذيها»، يقول، ويومض وجه ليلى الملطّخ بالدموع في ذهني.

12

تتحرك ساقي من تلقاء نفسها، وتتجه نحو أم، الذي لا يزال يصرخ طلبًا للمساعدة. ندرة الطاقم الطبي نقطة لصالحي. يضغط بيد واحدة قميصًا متسخًا على رقبة الفتاة، لكن الدم يتسرب عبر القماش إلى قميص الطفلة الأصفر. يجب أن أتصرف بسرعة قبل أن أفقدها.

«اتبعني»، أصرخ به، وعيناه تركّزان عليّ. ركضنا بين المرضى الصارخين المتناثرين، حتى وجدنا أخيرًا طاولة عمليات قديمة. «ضعها على الطاولة ببطء». أبدو خالية من المشاعر لدرجة أنني لا أتعرّف على صوتي تقريبًا. بسرعة، قمت بنزع الشاش ووضعه على الجرح الكبير في رقبتها أثناء التحقق من النبض. إنها لا تزال بيننا، لكن النبض ضعيف. لا بدّ أن الرصاصة أخطأت شريانها بمليمترات. أستطيع أن أفعل ذلك. أستطيع أن أنقذها. لقد فعلت ذلك من قبل.

لكنّ ذراعيّ لا تتحرّكان، والفكرة الفظيعة التي تدور في ذهني تجعلني ساكنة. أنظر حولي لأرى إذا كان كنان قريبًا، أو إذا كان يصوّر، لكنني لا أراه. إذا لعبت هذا بشكل صحيح، فلن يلاحظ أحد. «ماذا تفعلين؟» أم يتساءل، عمليًا يهسهس، عندما أواصل الضغط على رقبة ابنته. «أنقذها!».

«أعطني قاربًا»، أقول بنفس الصوت الخالي من المشاعر. «ماذا؟». «أعطني قاربًا أو... أو أزيل يدي». لا أستطيع أن أصدق الكلمات التي تخرج من فمي. تتسع عيناه، وارتفع حاجباه لدرجة اختلاطهما بخطّ شعره. ترتعش أطرافه من الغضب، ويتقدم نحوي لكنني لا أتوانى. «أنت...» يتلوى وجهه بالغضب ويتحول إلى اللون الأرجواني. «كيف تجرئين؟ هل

تسمّين نفسك صيدلانية؟ هل ستتركينها تموت؟».

أصبح من الصعب سماع صوت نبضات قلبي. «أنت تضيّع أنفاسها وأنت غاضب. ليس لديها وقت طويل». أخادعه. أعرف ذلك، لكنه لا يفعل. أحتاج إلى المخاطرة بحياتها لفترة أطول لإنقاذ حياة ليلى وطفلتها. ابنة أخي. للحفاظ على وعدي. ابنته تهتزُّ تحت يدي، على وشك الوصول إلى الحد الأقصى لها. تطير عيناي إلى أم ثم إلى الناس من حولنا، لكن لا أحد ينظر إلينا حتى نظرة خاطفة، كل واحد منهمك في عالمه الخاص.

«حسنًا!» يصرخ والدموع تخز عينيه. «حسنًا! من فضلك أنقذيها». أستطيع أن أشعر بابتسامة خوف الراضية على ظهر حجابي. على الفور، أبدأ العمل، والحمد لله أن هذه هي الخياطة الألف التي أضمّد بها جرح رقبة، لذلك أستطيع إجراءها بسرعة ودون إهدار كمية كبيرة من الدم. يمرّر آم يده على شعرها. «أنا هنا يا سمر. لا تقلقي. ستكونين بخير».

تمر نور بجانبي وأصرخ عليها أن تحضر لي جهازًا مؤقتًا للتبرع بالدم. «أكمِلي غَرزها»، أقول لها عندما تعطيني إياها، وتتولى المهمة. أحقن الإبرة الدقيقة في وريدي بينما تدخل الأخرى في وريد سمر. بشرتي شفافة بما يكفي لتظهر الأوردة دون أن تتدلى، وكذلك بشرتها. أشاهد دمي يزحف عبر الأنبوب الرفيع وصولًا إلى سمر، وأدعو الله أن يكون كافيًا لشفائها. للتعويض عن الشيء القبيح الذي فعلته. والشيء القبيح الذي أنا على وشك القيام به.

تقول نور وهي تمسح يديها بمعطفها: «لقد انتهى كل شيء. ستعيش إن شاء الله». أقول: «شكرًا لك»، لكنها لم تسمعني، فقد ذهبت بالفعل لمساعدة طبيب

آخر. بدأ رأسي يشعر بالدوار، لذا أخرجت الإبرة قبل أن أسقط. لقد تعلّمت بالطريقة الصعبة: متى عليّ التوقف.

التفت للتحديق في آم، الذي كان يراقبني بفضول. كراهيته لي لا تزال موجودة، ولكن هناك شيء آخر: امتنان. رغم أنه يبذل قصارى جهده لإخفائه. أشعر بجفاف في فمي، لكنني أجبر نفسي على الكلام. «سوف تعدّ قاربًا من أجلي أنا وليلى. ولن تصل إلى أربعة آلاف دولار». يطلق ضحكة قاسية. «ما الذي يجعلك تعتقدين أنني سأحافظ على كلمتي؟ لقد أنقذت حياتها بالفعل. إلا إذا كنت تفكّرين في شقّ حلقها. ولكن مرة أخرى، لن يفاجئني بعد ما فعلتِه. برأيك ماذا سيقول الدكتور زياد لو علم بالأمر؟».

صدري يؤلمني من الفكرة. أدفع إهانات آم إلى أحلك أركان قلبي. سأكون جبانة إذا كان ذلك يعني أن ليلى ستنجو على قيد الحياة. أشير إلى الغرز الموجودة في رقبة ابنته. شعرها الأسود متعقّد، ملتصق بالدم على جبهتها. «أنتَ بحاجة إلى الأدوية». يطلق ضحكة لا تُصدّق. «ولن تعطيني إيّاها إلا عندما أقوم بتأمين قارب لك».

«سنزوّدك بما يكفي من المضادات الحيوية لإبعاد العدوى، ولكن لا يوجد سوى كمية من البانادول يمكننا تقديمها لك. الجميع هنا في حاجة إليها. أستطيع أن أعطيك أكثر ممّا ستأخذه من المستشفى. وصدّقني، سمر سوف تحتاجها. وهذا الألم لن يختفي بسهولة». كان عليّ أن أضحّي بعلبتي البانادول اللتين كنت أحتفظ بهما لي وليلى. لكن طالما سنصل إلى ألمانيا، فلا يهم. لا شيء يهم.

مدّ شفتيه، وتعبيره لا يزال قاسيًا. «لا يمكنك الحصول على مقعدين مجانيّين فقط. هناك حاجة

إلى المال للرحلة إلى هناك. لقد أخبرتك أننا بحاجة إلى رشوة كل حارس على عشرات الحدود من هنا إلى طرطوس». أستغرق دقيقة للتفكير في الأمر. إنه على حق. الطريق متناثر بالحدود ويمكن للجنود المتمركزين هناك إبعاد أي شخص. أرفع ذقني. «سأعطيك قلادة ذهبية مع ألف دولار. وتبلغ قيمة القلادة حوالي ألف دولار. هل هذا كافٍ؟».

كنت مع ماما عندما اشتريناها كجزء من مهر ليلى. يزمُّ شفتيه وهو يفكر فيها. «نعم». على السرير، تتنفّس سمر ببطء، وتفحُصت نبضات قلبها لأجدها تعود إلى طبيعتها. أقول بصوت منخفض: «دمي يجري في عروقها الآن». الغثيان قريب وثقيل على لساني. أحد الآثار الجانبية للتبرع بدمي. «أنا جزء منها. أنتَ مدين لي». يجلس بثقل على الكرسي البلاستيكي ويمسك بيد سمر الصغيرة بيده الخشنة. «كوني هنا غدًا في الساعة التاسعة صباحًا ومعك المال والذهب». توقَّف لثانية ونظر إليّ، وهو غير مصدّق. «ما كان يجب أن أقلّل من شأنك يا سلامة. أنت أكثر شرًّا ممَّا تبدين عليه».

أضغط بيدي على الثقب الموجود في شقِّ مرفقي. «لا أحد يعرف عن هذا». «أكيد». «ابقَ هنا. سأذهب لأحضر لك المضادات الحيوية». يضحك بخشونة. «لن أترك ابنتي يا سلامة. ليس عندما تكون حياتها بين يديك». أبتعد بسرعة، وأمسح الدموع التي تجمّعت في عيني، وأضع يديّ المرتجفتين على صدري.

ماذا فعلت؟

قبل أن أعود لأحضر الأدوية، أغسل يدي. أفرك، حتى إن اللون الأحمر لا يكون ناتجًا عن الدم؛ بل من الاحمرار الذي يظهر على بشرتي بسبب الاحتكاك

وتعبير جلدي عن الانزعاج. ثم، وحدي في غرفة التخزين الصغيرة، أمسكت بمعدتي وغرقت في الأرض. ارتعاشاتي لا تتوقف، والدموع التي حفّزها شعور بالذنب بحجم جبل، تطمس رؤيتي. ماذا ستقول ماما؟ حمزة؟ أخي... من سيكون مقيمًا في هذا المستشفى؟ لقد استخدمت حياة فتاة صغيرة كضمان. لقد خاطرت بحياتها. يقول خوف خلفي: «لقد فعلت ما كان عليك فعله. وقد نجح الأمر. حمزة سوف يفهم. وحتى لو لم يفعل، فهذه أوقات خطيرة. أنت بحاجة للعيش». «كان من الممكن أن تموت سمر». أقول بشهقة. «كنت سأتحمل جريمة قتل فتاة بريئة على ضميري». ويعترض خوف: «لكنها لم تمت، إنها على قيد الحياة، ولديك قاربك. انهضي الآن وامسحي أنفك وأعطي آم جرعة المضاد الحيوي المخصصة لهذا اليوم. هذا كله من أجل ليلى، أتذكرين؟».

ليلى. هل ستفهم؟ أم أنها ستكون مليئة بالرعب؟ لا أستطيع أن أقول لها أبدًا. خوف ينقر بقدمه. «عليكِ المغادرة. إذا انتشر الخبر، ماذا سيفعل الدكتور زياد برأيك؟ سمعتك ستتلطّخ». عندما أعطي آم حبوب المضاد الحيوي، يهزُّ رأسه في وجهي وكأنه لا يزال غير قادر على تصديق ما حدث، ولا أنا أيضًا. أشعر كأنني متفرّج يحوم خارج جسدي، أشاهد عضلاتي تتحرك من تلقاء نفسها.

أعود مسرعة إلى مخزني، مرورًا بالدكتور زياد، فيبتسم، فيزداد خجلي. لا ينبغي أن يُسمح لي الدخول هنا. لا ينبغي أن يثقوا بي فيما يخصُّ حياة الناس. وحيدة في ملجأ المخزن المتعفّن، أبكي بهدوء بينما أقوم بتجميع بقية الأدوية. «الأقحوان... الأقحوان... حلو... رائحته حلوة...».

انقطع صوتي، وتقطّرت الدموع على الأرض بجانب قدمي، بينما بزغ في ذهني إدراك رهيب.

ربما أهرب من سوريا. وبوسع قدمي أن تمش الشواطئ الأوروبية، وأن أرى أمواج البحر ترتطم بساقيّ المرتعشتين، والهواء المالح يغطي شفتي. سأكون أكثر أمانًا. لكنني لن أتمكن من النجاة.

13

عندما أنتهي من مناوبتي، أجد كنان يقف بجانب الباب الأمامي، يعبث بالكاميرا الخاصة به بنظرة تركيز على وجهه. أتوقّف عن السير معجبة به: تعبير لا يبطّنه القلق أو الألم أو الخجل، يذكّرني بأوقات بعد الظهر في أواخر الربيع. شيء ما في الطريقة التي يقف بها هناك بشكل عرضي مرتديًا سترته الصوفية يخلق ذلك الشعور المؤلم في معدتي بسبب الحياة المحتملة التي شرقت مني. منّا.

في تلك الحياة، كنت لأتدرب هنا وكان لينتظرني على درجات المستشفى، وهو يخربش في كراسة الرسم الخاصة به. كان ليدعوني لتناول البوظة في حلويات الحلبي ويخبرني عن المدينة اليابانية الجذابة التي يريد أن ننتقل إليها. كان ليعلمني بعض الحروف اليابانية، ويضحك من نطقي الغريب. لكنه سيكون صبورًا حتى أنطقها بشكل صحيح، وهو يبتسم لي بفخر. يهتم بامتحان الصيدلة التالي. لكننا سرعان ما نتشتّت وننخرط في محادثة أخرى. كنت سأخبره عن القصص التي في ذهني والمستوحاة من ستوديو جيبلي. أنني أيضًا أجد القليل من السحر في عالمنا وأقوم بتضخيمها في قصصي. «مرحبًا»، أقول، فيقفز، لكنه يبتسم عندما يراني، «هل كل شيء على ما يرام؟ هل تحتاج لأي شيء؟».

«لا، أنا بخير. هل انتهيت من نوبتك؟». «نعم». «جيد». يستقيم، ويجب أن أميل رأسي للخلف قليلًا لأنظر في عينيه. يقول: «ساصطحبك إلى المنزل». يا إلهي! «ليس عليك أن تفعل ذلك». يهزّ رأسه: «لا بأس». «ليس عليك أن تستمر في تقضية واجب ما مقابل إنقاذ لمى. اصطحابي إلى المنزل يعني

أنك تقضي المزيد من الوقت في الخارج. كهدف». بدأت يدي تتعرّق بسبب الطريقة التي يحدق بها بي. يبدو الأمر كما لو أنه قام بطرد الجميع وأنا الوحيدة الباقية هنا. «سلامة». قلبي يخفق بسرعة عندما ينطق اسمي. كل شيء ناعم ودافئ. «أريد فعل هذا». «حسنًا، إذا أراد ذلك»، همس لي الجزء الأحمق مني: «دعيه».

«إلا إذا كنت أزعجك»، قال على عجل، وقد أصاب الذعر وجهه. «أنا آسف، لم أدرك حتى...». أهز رأسي بسرعة: «لا أنت لست... صدّقني...». يبتسم بتردد وكل قلق يطير من رأسي. نسير جنبًا إلى جنب، وتتردد خطواتنا فوق الحصى، وتتضخم الأصوات في أذني. حفيف الأوراق الميتة، وصرخات الطيور الحزينة فوق الأغصان العارية، والجدال الخافت للناس الواقفين خارج منازلهم. أستطيع سماع كل نفس يأخذه، ونبض قلبي يصمُّ الآذان عند طبلة أذني.

ألقي نظرة على يدي وأرى بُقعًا حمراء تصبغ بشرتي. أحمر مثل دم سمر. أكتم صرختي لأنني متأكدة من أنني غسلت يدي. قضيت عشر دقائق في القيام بذلك. عندما أنظر مرة أخرى، اختفى اللون الأحمر، لكن الأصوات من حولي لا تزال تصرخ: «قاتلة». «سلامة». قطع صوت كنان صوت الصرخات، فتوقّفت، بينما ألهث بشدة. أستوعب ما حولي وأدرك أنني جالسة على الأرض وكنان يقف أمامي. شعوره يظهر في التجعد بين عينيه. بالنسبة لي، أدرك ما يمر به. «سلامة، هل أنت بخير؟» يجثم بجانبي. «هل تأذّيت؟».

أنا لا أثق في صوتي، لذلك أهزُّ رأسي. إنه في مستوى عينيّ وقريب جدًا لدرجة أنني أستطيع أن

أشم رائحة الليمون الخافتة الصادرة منه. أو ربما أنا أهلوس ذلك أيضًا. «ماذا حدث إذن؟» أنظر حولي أبحث عن خوف، فأجده على بُعد خطوات قليلة من كنان. ابتسامته حادة، راضٍ عن تطورات اليوم. أغمض عيني وأريده أن يبتعد. وجوده هو مرساة على صدري، يغرقني أعمق فأعمق، وهو تذكير بما فعلته... بكل ما فقدته وما كسوف أخسره.

وتصطفُّ بعض المباني المحطمة على الطريق الهادئ. إننا على بُعد دقائق قليلة من منزلي، والآن أنا وكنان الوحيدان هنا، راكعين بجانب الحطام. لكن خوف ما زال هنا، ولا أفكر في شيء سوى ما فعلته. ينزف الدم من جسدي، وسرعان ما أقول: «قُل لي شيئًا جيدًا». يتراجع كنان قليلًا، ويستقر الارتباك بشكل أعمق. «ماذا...». «كنان، من فضلك» أتوسّل إليه وأعيد النظر إليه. «لو سمحت».

ينظر إلى المكان الذي كنت أحدّق فيه، لكنه لا يستطيع رؤية خوف. أحدّق بكنان وأتأمل ملامحه، وأتمتم من بين أنفاسي: «أقحوان. الأقحوانات ذات الرائحة الحلوة. بتلات بيضاء. قلبها أصفر». خدود كنان جوفاء. إنها علامة على سوء التغذية، لكنني متأكدة من أنه حتى لو كان وزنه صحّيًا، فإن عظام الخد تلك ستبدو وكأنها يمكن أن تجرحني إذا لمستها. نظر إليّ وأستطيع أن أراه يناضل مع نفسه حتى لا يطرح ملايين الأسئلة التي تتأرجح على لسانه.

أخيرًا، أخذ نفسًا عميقًا وقال: «فيلمي المفضّل في ستديو جيبلي هو قلعة في السماء، لقد جعلني أرى العالم بشكل مختلف. هناك الكثير من السحر فيه يا سلامة. صبي يحلم برؤية جزيرة عائمة. الفتاة التي هي اخر شعبها. كيف يستطيع هذان الطفلان

إنقاذ العالم من الطموحات الشريرة لرجل متعطش للسلطة. إنه عن روبوتات وتميمة سحرية وواحدة من أفضل الأغاني الختامية على الإطلاق».

يضحك بهدوء، ويضيع في كلماته. تتباطأ أنفاسي وأستمع إلى ما يقوله. لا أتذكر متى شاهدت قلعة في السماء آخر مرة، لكن لا يزال بإمكاني رؤيته بوضوح في ذهني. يتابع كنان: «هناك هذا المشهد، حيث يقف بازو وشيتا فوق المنطاد، وقد حلّ الليل. حتى الرسوم المتحركة... السماء بلا نهاية. ويتحدثون عن مخاوفهم وكيف أن سلسلة من الأحداث المؤسفة جعلتهما يجتمعان. كنت في العاشرة من عمري فقط عندما شاهدته لأول مرة، لكن هذا المشهد لمسني بشكل لا مثيل له. كانت هذه قصة عن أطفال في نفس عمري، كانوا خائفين، لكنهم ما زالوا يفعلون الشيء الصحيح. لقد جعلني أريد أن أكون شجاعًا أيضًا. جعلني أرغب في سرد قصصي الخاصة. خلق عوالمي الخاصة. واعتقدت أنه ربما -يومًا ما- سأخوض مغامرتي الخاصة وأقابل شيتا».

لقد كان يحدق بي طوال الوقت، لكنني لا أعتقد أنه يراني. اكتسبت عيناه لمعانًا يشبه الحلم، وأنا منبهرة بالسلام الذي رسمته كلماته على ملامحه. لقد صمت العالم من حولنا، والنسيم هو الصوت الوحيد الذي يتأرجح بيننا. وهكذا، يهدأ ذعري وأتمنى أن نبقى هنا، جالسين على الأرض إلى الأبد، محاطين بالملاذ الذي خلقته كلماته. ولكن بعد ذلك أصبحت نظرته حادة، وعندما رآني أخيرًا، أصبحت خدوده وردية مثل القرنفل. إنه أكثر شحوبًا مني ولا يجيد إخفاء تعابير وجهه.

يتنحنح ويبدّد السحر. «هل... هل كان هذا شيئًا

جيدًا؟». أومئ وأتمسك بهذه اللحظة، وأضعها في قلبي لأعود إليها عندما يعود الحزن. يبتسم. «حسنًا». نقف ونواصل المشي. أنا ممتنّة لأنه لم يسأل عمّا حدث، لكن ليس من الصواب أن يبقى صامتًا.

«هل حصلت على ما تحتاجه؟» أشير إلى كاميرته. «نعم بالتأكيد. لقد صوّرت ضحايا القناصة، وكانت هناك عائلة واحدة لا تريد طمس وجوههم. إنهم يريدون أن تكون الحقيقة مشتعلة». معدتي تشعر بأنها جوفاء. لقد قام بالفعل بتصوير ضحايا القناصة. ظننت أنني تأكدت من التحقُّق ممّا إذا كان يعمل في مكان قريبًا مني، ولكن مجددًا، كنت أصارع الأدرينالين وأعصابي المُدمّرة، لذلك لم أستطع رؤيته بسهولة. «أوه» أقول عَرَضًا. «ما نوع اللقطات التي التقطتها؟».

يهزُّ رأسه. «كنت أجري مقابلة مع عائلة في غرفة أخرى عندما وصل ضحايا القنّاصة. وعندما وصلت إلى هناك، لم أستطع التحرك وسط بحر الأجساد المصابة، ولم أرغب في أن أكون في طريق أي شخص. وكان الأقرب إليّ هو الدكتور زياد، فصرت مع مريضه». يتسع صدري بالارتياح، لكن الشعور بالذنب يعكر كل نفس أستنشقه. يقول برهبة: «لكنني رأيتك تنقذين حياة تلك الفتاة. نظرت للأعلى ورأيتك تخيطين رقبتها. لقد مرّت الرصاصة مباشرة، أليس كذلك؟». أحاول ألا أتلعثم: «نعم». منزلي يقع في الزاوية التالية، على بعد عشرة أقدام.

قال: «لقد أنقذت حياة والدها من خلال إنقاذ حياتها»، لحسن الحظ أنه لم يستوعب العار الذي أحاول محوه من تعبيراتي. لكن هناك شيء ما في لهجته يجعلني أنظر إليه، وعندما أفعل ذلك، يبدو

مرعوبًا تقريبًا. يختفي عندما تلتقي أعيننا ويبتسم ابتسامته اللطيفة. «أنت مذهلة». طعم المجاملة مثل السيانيد في فمي، وأبتلع الدموع. يا إلهي، أنا لا أستحق هذا. أنا لا أستحق لطفه أو أحلامه. قال: «لقد وصلنا»، وظهر باب منزلي الأزرق. أخرجت مفاتيحي، ويداي ترتجفان قليلًا.

قال: «هاي، اسمعي»، فنظرت إليه، ثم مسحت وجهي سريعًا. «أتذكّر أنك ذكرت أن ليلى حامل في الشهر السابع، أليس كذلك؟». «نعم» أقول ببطء. مرّر يده على شعره، وبدا فجأة خجولًا. «أعلم أننا التقينا بالأمس. لكني أودّ أن أؤمن بعالم بديل، حيث كان من الممكن أن ينجح هذا»، وهو يشير بيننا، «بشكل مذهل. إذا كان هناك أي شيء تحتاجينه أنتِ أو هي، من فضلك أخبريني». ترفرف رموشي. عندما لا أقول أي شيء، يتابع، وهو أكثر ارتباكًا من أي وقت مضى: «خاصة لأنه، كما تعلمين، قد يكون هناك قنّاصة أو شيء من هذا القبيل، ولا ينبغي أن تنزل ليلى من أجل البقالة في حالتها هذه. ولا ينبغي لكِ...». «شكرًا لك» أقاطعه، وهو يطلق تنهيدة مرتاحة. «لكن ليلى لا تغادر المنزل على أية حال». عبس قائلًا: «هل هي بخير؟».

أومئ وأنا أعبث بالمفاتيح. «كنت على وشك مواجهة الخطر مع قنّاصٍ في أكتوبر الماضي. كانت ليلى في طريق عودتها من السوبر ماركت. في الواقع، هناك...». أشرت إلى نهاية الطريق المترب حيث يقف عمود كهربائي ضخم مكسورًا إلى نصفين، وغلافه المعدني يلمع في ضوء النهار. الصدأ والدم العفن يكسو الرصيف تحته. «بدأ القناصة في إطلاق النار. لم تكن الوحيدة هناك. توفّي ثلاث نساء ورجل في ذلك اليوم. وكانت

ليلى وطفل آخر الناجيين الوحيدين. لقد اختبأت تحت حطام متناثر حتى أصبحت آمنة». أخذت نفسًا عميقًا. الرعب الذي شعرت به في ذلك اليوم عندما سمعت أن هناك قنّاصًا يتبع النظام في حيّنا كان لا مثيل له. لقد ركضت إلى المنزل، دون أي اهتمام بسلامتي. كل ما سمعته هو نداء حمزة الذي يتردد في ذهني مثل شريط كاسيت مكسور. صوته يتوسل إليّ أن أنقذ زوجته. وصلت لأجد آثار الدماء تسيل في الشوارع بين شظايا الزجاج والأنقاض، وقد تمّ نقل الشهداء إلى المقابر، ولم يبق إلا صمت يسحق الروح، وكأن جوهر هذه الزاوية في حمص القديمة في حالة صدمة. بالكاد تمكّنت ساقاي من دفعي إلى الباب الأمامي قبل أن أفتحه بعنف.

وكانت ليلى هناك، تجلس على الأرض وظهرها إلى الحائط المغطّى بورق الجدران الممزق، وهي تبكي بحرقة. كان وجهها ملطّخًا بالدموع، وكانت هناك جروح صغيرة في جبهتها وذراعيها. عندما عانقتها، كانت تفوح منها رائحة الركام والدخان والدم، لكن لم يكن الأمر مهمًا. كانت على قيد الحياة.

«أنتِ على قيد الحياة»، اختنقت من صرخاتي، وضغطت عليها أكثر في حضني. «أنتِ على قيد الحياة». ومنذ ذلك اليوم، أصرّت ليلى على مغادرة سوريا. «يا الله!»، همس كنان. «إنه... لا أستطيع تخيّل ما حدث». «نعم»، أجبت وأحكمت قبضتي على المفاتيح حتى بدأت تؤلمني. «يمكنك أن تتخيل يا كنان. تلك المرة كانت ليلى هي الهدف، ولم تمض دون الإصابة بأذى إلا برحمة الله. اليوم، غدًا، بعد أسبوعين، يمكن أن تكون لمى أو يوسف. لكن ربما لا يكونون محظوظين إلى هذا الحد». يبدو كنان منكوبًا لكنني لم أضغط عليه كثيرًا. أمل

أن يبدأ ضحايا القناص، والعائلة التي تحدث إليها، والآن قصتي الخاصة، في كسر عزيمته ببطء. تحتاج مشاعر الخوف المكتشفة حديثًا إلى وقت لتنمو من الأشكال الغامضة والفوضوية إلى أفكار قوية وصنع قرار. كل ما يمكنني فعله هو محاولة توضيح تلك الأفكار له.

«أعتقد...»، أقول بصوت عالٍ وواضح، ويفرد ظهره. «أعتقد أن مغامرتك لا يجب أن تنتهي هنا». تلين عيناه وأرى حلقة ذهبية تدور حول قزحية عينه. للحظة أخرى، حدّقنا في بعضنا البعض، وأدركت أخيرًا أن هذا الشاب، ذا السترة القديمة والشّعر البني الأشعث الذي يُظهر مشاعره بصدق، جميل، الذي يقف في وسط هذه المدينة المدمرة والممزقة- جميلٌ وحقيقي.

وأتساءل ما الذي يفكر فيه. إذا كان يمكنه إكمال الجملة التي أخجل من ترديدها. أنه يمكن أن يجد شيئا الخاصة به. بطريقة ما ابتسامته تخبرني أنه سيجدها.

«سأراكِ غدًا، تمام؟» سأل بصوت دافئ مثل كوب شاي الزهورات. لم يَعُد هناك لون وردي على خدّيه الآن، فقط هدوء واسع وكأننا لسنا في وقت ضائع، ولكن لدينا أبدية ممتدّة أمامنا. «نعم، بالتأكيد» أجبت مبتسمة.

14

«وافق أم، من طيبة قلبه، على ألف دولار وقلادة ذهبية؟» تتكئ ليلى على باب غرفتي وذراعاها مطويتان. «لكلتينا؟ مثل صفقة اشتر واحدة واحصل على الأخرى مجانًا؟». أتجاهلها. «ماذا أقول؟ أخبرته عن قدميك المتورمتين وكيف أنك تتضوّرين جوعًا. أنت ورقة مساومة ممتازة». «هل يعلم أنني حامل؟» تقول وهي لا تزال تحدّق بريبة. «ألا ينبغي أن يكلف ذلك أكثر أو شيء من هذا؟». أجيب: «نعم، إنه يعلم. ولم يقل أي شيء عن أن تكلفة الحمل أكثر. ولن أكون غبية بشأن هذا يا ليلى. سأعطيه خمسمائة دولار غدًا والنصف الآخر بالإضافة إلى القلادة الذهبية عندما نكون على متن القارب».

تنفخ في الهواء. ينزلق شعرها من كعكته، وتتساقط الخصلات البنية على كتفيها. نمشها يكاد يكون غير مرئي في ضوء الشمس المحتضر في غرفتي. «لا أعرف يا سلامة. أنا قلقة. أعني أننا نعرف قصص اللاجئين على متن القوارب. نحن نعلم أنهم يتعرضون للخداع ويغرقون. تعلمين أن هناك أسماك قرش في البحر الأبيض المتوسط، أليس كذلك؟ هذا يبدو وكأنه فخ». أمضغ لساني. «ليس فخًا». «كيف يمكنك أن تكوني متأكّدة لهذه الدرجة؟ أنت أكثر شخص مرتاب أعرفه».

أجلس على سريري، أرتدي جواربي الدافئة. لقد تسرّب المساء البارد بالفعل من خلال شقوق جدراننا إلى عظامنا. «لقد رأيت دليلًا على الناجين. لديه صور ومقاطع فيديو لهم في أوروبا. إنها ليست عملية احتيال. لو كان الجميع يموتون فلن يأخذ أحد القوارب». هذا ليس صحيحًا وأنا أعلم ذلك،

لكني أفضّل أن تصدق ليلى الكذبة. تقول بقوة: «ما زلت لا أحب ذلك». «ولا أنا يا ليلى، لكن علينا الرحيل». أكرّر بصوت ضعيف. لأنه إذا لم نفعل ذلك، فإن ما فعلته اليوم كان هباءً. لقد حطّمت قسم أبقراط. لقد شوّهت بوصلتي الأخلاقية وقطعت سهمها. يتألق وجه سمر وأحمد في ذهني. لا أستطيع تحمّل رؤية طفل مكسور آخر. بدأت الندوب الموجودة على يدي بالوخز وأنا أفركها. هذا كله في ذهني فقط أنا أعلم ذلك. يتجلّى الذنب في شكل ألم وهمي.

«أريد أن أغادر»، أضيف بهدوء. بصوت منخفض بما يكفي حتى تستطيع ليلى التظاهر بأنها لا تسمعني. لكنها تفعل. انها تأخذ يدي بين يديها. ملمسها ناعم ويختفي الألم. «لا أستطيع إنقاذهم»، واصلت الهمس وأنا أحدق في أيدينا المتشابكة. في غرفتي، أشعر بالأمان عندما أراجع أفكاري. لا يوجد أحد ليحكم عليّ. أختي فقط هنا. «لم أستطع إنقاذ طفل صغير. لم أستطع...». ترتجف أنفاسي، وأتنهّد. «الجميع يموتون. لا شيء أفعله ينجح. عقلي يؤلمني. لم أنم جيدًا منذ أكثر من عام. أشعر وكأنني أصرخ في هاوية تبتلع كل شيء. وسرعان ما سوف تبتلعني أيضًا».

نظرت إلى الأعلى وتركت ليلى يدي لتصفيف شعري للخلف. تهزّ رأسها وهي تبتسم بلطف. «لن يبتلعك». أعطيها ابتسامة خفيفة. «أنت تثقين بي أكثر مني. ليلى، أنا أفتقد عدم القيام بأي شيء. الأيام التي كنت أستلقي فيها على السرير وأشاهد الأفلام. أو عندما نتحدث على الهاتف لساعات. هل تتذكرين تلك الأيام؟. تومئ. «لقد أصابتنا الدكتاتورية بالشيخوخة حتى قبل بدء الثورة. ولكن

الآن أشعر وكأنني في التسعين من عمري تقريبًا».

«أتمنى أن أشعر بالتسعين. أنا أبدو مثل من عاش ألف عام» أسخر. تنظر لي ليلى نظرة حادة: «لا، أنت لست كذلك!» أتجاهل وأعبث بأكمامي. «إذن ما هي القلادة التي تريدين أن تعطيه إياها؟ أنا أفكر في ذات القوس في المنتصف». تُجعّد أنفها. «أنا لا أهتم بالقلادة. اختاري ما تريدين. لا شيء يساوي أكثر منك ومن الطفل يا سلامة». نبرة صوتها تقطر بالحزن. أنا لا أحب ذلك. أريد أن أستعيد بعض السهولة التي نستحقها؛ هروبًا من الكآبة الزاحفة دائمًا. لذلك أقول: «لقد اصطحبني كنان إلى المنزل اليوم». تشهق. «ماذا؟ وأنت لم تذكري هذا!» بينجو! لقد نجحت في تشتيت الحزن.

تمسك وجهي بين يديها وتجبرني على النظر للأعلى. «كنان»، تقول بجدية وهي تحدق في عيني، ويصبح وجهي ساخنًا على الفور. «ها!» صرَخت. «أنتِ معجبة به!». أبتعد عن قبضتها. «معذرة؟ لم يسبق لي أن... في حياتي -واو، أنت- كما لو أنك تعلمين... اخرسي!». تقع على سريري، مبتسمةً. «انظري إلى وجهك! إنه طماطم ناضجة». «الأمر ليس كذلك» أجبث وأنا أركض إلى المرآة رغم ذلك. أنظر إلى نفسي بعبوس، لكن ليس بطريقة تشير إلى أنني على وشك الموت. «لم أشاهدك متوترة هكذا أبدًا». تضحك، وتترك شعرها يتساقط من ربطة الشعر بالكامل وتمرّر يدها من خلاله. «حتى في الجامعة مع ذلك الرجل اللطيف من طب الأسنان».

تأوهت وسقطت على السرير بجانبها. تنظر إليّ مع وميض في عينيها. «لا، انتظري، أتذكر اسمه. سامي». تنقر بإصبعها على ذقنها. «لقد أحبّك»، تقول وهي تضع رأسها على راحة يدها. «ولقد أحببته

تمامًا. لكن ليس هكذا يا سلامة. لا، قلبك كان ينتظر كنان، أليس كذلك؟». أضع وسادتي فوق رأسي وهي تضحك. تغني: «احتوي المشاعر». «حتى لو كنت أملكها»، أقول، وصوتي مكتوم في الوسادة، «لن يحدث شيء. يريد البقاء هنا. وأنا أريد أن أغادر». أشعر بليلى وهي تنهض وتنظر إليّ من تحت الوسادة. إنها لا تبدو مضطربة على الإطلاق. بدلًا من ذلك، هناك نظرة معرفة على وجهها. «يمكن أن يحدث الكثير من الآن وحتى المغادرة». تدور حول الغرفة. «الكثير من ماذا لو... وربما... ومحتمل».

تتوقف وتضع يدها على قلبها. يلقي الغسق ظلالًا من اللون البرتقالي والوردي عليها وتبدو أثيرية في التوهج الناعم. كما لو أن لديها قدمًا واحدة في الحياة الآخرة وقدمًا واحدة هنا. «المشاعر تمنحك الأمل يا سلامة». تقولها وتبتسم. «ألا تعتقدين أنه يمكننا استخدام القليل من ذلك الآن؟». أومئ موافقة. «لذا...»، عيناها الزرقاوان مضيئتان، «هل يعجبك؟». ألعب ببطانة سترتي. «الظروف ليست رومانسية تمامًا يا ليلى!». تنقر أنفي. «آه! لماذا تفعلين ذلك؟».

«ماذا قلت؟» تسأل. «قلت: المشاعر تعطيك الأمل. لا حرج في أن تجدي الراحة وسط ما يحدث يا سلامة». أفرك أنفي. «قُولي إنني أحببته. خياراتنا محدودة. أين نذهب يا ليلى؟ نزهة حول السوق المدمّرة؟ أو ربما الخروج من حمص القديمة، وتفادي الرصاص إلى نهر العاصي، والتنزه على ضفته؟ بالإضافة إلى ذلك، ليس لدينا مرافق! والدي وحمزة ليسا هنا». تعضّ شفتها قبل أن تضحك. «مرافق!» أقول بسخط: «ماذا!». تمسح عينيها وهي لا تزال تضحك. «لا شيء. أنت ساذجة جدًا». تجلس

بجانبي وتضع قدميها تحتها وتقول: «أخبريني المزيد عنه».

أتململ تحت نظرتها. «إنه... أمين... مع كل شيء: أفكاره، تعبيراته. كما أنه لطيف. إنه لطف نادر يا ليلى. أنا متأكدة من أنه لا يزال يحلم. ربما هو الوحيد في هذه المدينة بأكملها الذي لا يزال يحلم في الليل. وعندما ينظر إليّ أشعر... أشعر وكأنني أرى، وهناك... هناك القليل من الأمل». تبتسم وتشبك يدها في يدي. «إنه هناك»، همست. «أريدك أن تتمسّكي بذلك. مهما حدث، تتذكرين أن هذا العالم أكبر من العذاب الذي يحتويه. يمكننا أن نحظى بالسعادة يا سلامة. ربما لا يأتي في شكل قطع الكعكة، لكننا سنأخذ الأجزاء وسنعيد بناءها». قلبي المكسور يرتعش. تتابع: «سلامة»، وتشدّد قبضتها، «أنتِ تستحقين أن تكوني سعيدة. أنت تستحقين أن تكوني سعيدة هنا. لأنك إذا لم تجرّبي ذلك في سوريا، فلن تجرّبي ذلك في ألمانيا. الوصول إلى أوروبا لن يحلّ مشاكلك». أتوقف. لم أفكر في هذا من قبل. «عِديني أنك ستبحثين عن الفرح». تبتسم بحزن. «الذكريات أحلى بهذه الطريقة».

تكمن في كلماتها آلية التكيف التي كانت تستخدمها منذ أُخِذَ حمزة. لقد التقت بحب حياتها عندما كانا طفلين، وعاشت معه العمر. إن ذكرياته هي ما يبقيها ثابتة وإلا انهارت على نفسها من الألم. «أنا... أعدك»، أقول، والكلمات ثقيلة على لساني. عندما تغرب الشمس، أساعد ليلى في الوصول إلى أريكتها، وأحكم البطانية حولها حتى لا يقضمها البرد. خلدت إلى النوم بعد بضع دقائق، وهي تبتسم لي، وتسقط يدي على بطنها المنتفخ. ابنة أخي على الجانب الآخر، وإذا ركّزْتُ بقوة كافية، أستطيع

تخيُّلها وهي تضغط بكفيها الصغيرتين على المشيمة الموجودة أسفل يدي مباشرة. الآن بما أن ليلى في الثلث الثالث من حملها، فإن نمو دماغ الطفلة سلامة وخلاياها العصبية بكامل طاقته، ولكن لا شك أن كليتيها ستتأثران، لأنها تعاني من سوء التغذية ونقص الوزن مثل ليلى. لن تنجو الطفلة سلامة من شتاء حمص القاسي. ألعن نفسي بصمت لمدة ثلاثة أشهر من الشك فيما إذا كان ينبغي لنا أن نغادر أم لا. كيف يمكن أن أكون بهذه الأنانية؟

لا. كيف وصلنا إلى هذا؟ ليلى تشخر بنعومة، وأنا أحزن بصمت. على الرغم من أنني هنا، فهي بمفردها. كأنه بالأمس: ليلى وحمزة عائدان من شهر العسل، وأعينهما تتوهّج كفوانيس رمضان. أسندت ليلى رأسها على كتف حمزة حيث جلسا في شرفة منزلنا. تحوّل وجهه إلى ظلّ عميق من اللون الوردي، لكنه بدا سعيدًا بنفسه. كنت في غرفة المعيشة أشاهد الأسرار الحميمة التي يتبادلونها بينهما والتي لم يتمكن من سماعها سوى زهور الأقحوان في أوانيها. لمحتني ليلى ولوّحَت لي، وشعرها البني يتساقط على كتفيها. قام حمزة بإزاحته إلى الوراء على الفور حتى يتمكن من التحديق بها. قامت مبتسمة وخرجت إلى الشرفة: «لقد تحدّثتما بعمق كثيرًا». كان نسيم الصباح الدافئ موضع ترحيب بعد أشهر من الشتاء. «لم أكن أريد أن أزعجكما». هزّا رأسيهما في انسجام تام. «تزعجيننا!» ضحكت ليلى وسحبتني إليها. «أختي ليست مزعجة أبدًا». فقلت وأنا أحشر نفسي بينهما: «حدّثاني عن البحر الميت إذن». نظر لي حمزة بنظرة غاضبة. انزاح بسرعة حتى طرف الكرسي لكنه استمرّ في الإمساك بيد ليلى، وتشابكت أصابعهما أمامي.

أعلنت ليلى على الفور: «مالح جدًا ومسبّب للحكّة». قال حمزة: «احترقت قليلًا أيضًا»، وضحكت ليلى. «نعم، بقي شخص ما لفترة طويلة في الماء». «كنت أطفو! في الماء! دون أي جهد! بالطبع كان عليّ أن أبقى». همست ليلى في أذني: «كان الجميع يحدقون بنا لأن حمزة كان يتصرف وكأنه لم ير البحر من قبل. كان عليّ أن أتظاهر بأنني لا أعرفه. كان الأمر محرجًا للغاية». ضحكت، وحمزة أدار عينيه. قالت ليلى بصوت عالٍ: «إذا كنت ستتصرف بهذه الطريقة في معارضي الفنية، فأنت لست مدعوًّا!». رفع حمزة يدها إلى شفتيه، وطبع قبلة على مفاصل أصابعها، ونظرت إليه غير مصدّقة. كنت جالسة هناك، لكنّ عينيه كانتا على ليلى فقط. قال بهدوء: «سأكون أسوأ بكثير يا حبيبتي. إذا كنت تعتقدين أنني لن أكون فخورًا جدًّا وأتباهى بك بصوت عالٍ أمام الجميع، ففكّري مرة أخرى». احمرّت ليلى خجلًا، لكنها كانت مبتهجة. «آه يا سلامة»، هزّت رأسها، «ماذا سأفعل معه!».

أتنهّد وأدخل غرفتي، أدفع تلك الفتاة ذات العيون المرصّعة بالنجوم التي لم تنخ من ذهني. الحداد عليها لا يساعدني. لن يدعمني ولن يخرجني من سوريا. خوف متكئ بالفعل على نافذة غرفتي، يدخّن. يدير رأسه بعيدًا عني وأتجاهله، وأركع أمام الخزانة لأفتح الدرج الأخير. يوجد تحت الملابس القديمة في أقصى الزاوية اليمنى ذهب ليلى وبقية الأموال التي لدينا. أخرج خمسمائة دولار واختار قلادة واحدة، وأضعها جانبًا. كان حمزة قد أهداها لها يوم قراءة الفاتحة، إنها حبل سميك ومعقّد وأشعر بثقلها فوق يدي. تشكّلت كتلة في حلقي، فأعدت القلادة إلى مكانها قبل أن تسيل الدموع.

«لقد قمت بعمل جيد اليوم»، يتمتم خوف، وينفخ سحابة من الدخان. «لقد سار الأمر بشكل أفضل بكثير ممّا ظننت. لم يعُد لديك أي سبب للبقاء هنا، وتدعي يديك الملطّختين بالدماء تشفيان المرضى». أمسك بأذني وأهزّ رأسي وأركّز على كلام ليلى لي. الأمل. العثور على الحب والسعادة وراء البؤس. خوف يقلب عينيه: «إذا أوصلك هذا القارب، يمكنك أن تؤمني بوجود 'اليونيكورن' إذا أردت، لكن يا سلامة، أمل! لنكن واقعيين». يلفّ إصبعه، ويستدرجني تجاهه، وأنا أستجيب. «انظري خارج النافذة».

تمّ طلاء المدينة باللون الأسود تحت سماء رمادية متجمعة. ضوء القمر مُحاصَر خلف السحب المُلبّدة، كما نحن محاصرون في حمص القديمة، غير قادرين على المرور. المباني أمام نافذتي أشباح، لا تضيء الأنوار في أي منها. إذا أغمضت عيني وسمحت لسمعي بالتنصّت، فيمكنني التقاط الأصوات المكبوتة للأشخاص الذين يحتجُّون في الأحياء البعيدة. لم يتوقفوا أبدًا، ولا لليلة واحدة، ومع مرور شهر على ذكرى الانتفاضة، فإن معنوياتهم تزداد قوة. يقول خوف وهو يقف بجواري: «الليلة قد لا تموتين من الطائرات. فالسماء مُلبّدة بالغيوم». «الليلك». آخذ نفسًا عميقًا. «ليلك. أرجواني. الليلك».

يتابع: «سلامة»، لكنه لا ينظر إليّ، بل يحدّق في نفس الأفق الذي أنظر إليه. «ما هي السعادة التي يمكنك أن تجديها في هذه الأرض القاحلة؟ ها؟ لا يوجد شيء لك هنا. لقد رحلت عائلتك. ولن يجلب لك كنان إلا وجع القلب إذا واصلت تنمية مشاعرك تجاهه. لن يغادر. ليس هناك سعادة يمكن البحث عنها في الحطام، لكن ألمانيا تحمل الإمكانيات»،

نظر إليّ أخيرًا، تذكّرني عيناه بالبحيرات المتجمدة في الشتاء، «إنها أفضل من البقاء هنا. ليلى على قيد الحياة أفضل من لا شيء. والبعد سيخفّف من ندمك على ما فعلته بسمر. هذا المكان ليس سوى تذكير بإخفاقاتك وحتمية موتك». أعبث بأصابعي. «لكن ليلى قالت...». «ليلى؟» يكرّر، ثم ينقر سيجارته، فيسقط الرماد قبل أن يصطدم بزجاج النافذة. «دعيني أريك ليلى».

ثم ينقر بأصابعه فتختفي مدينتي المنكوبة من أمام النافذة، لتحلّ محلّها ذكرى. لقد دهشت للحظة، لأن هذه ليست الذاكرة التي توقّعتها. إنها ليست مليئة بالألم، لكنها قريب جدًا من قلبي. حفل زفاف ليلى وحمزة.

يبدو الأمر كما لو أنني أشاهد فيلمًا، لكن هذا لا يمنعني من الضغط بيدي على الزجاج البارد. يُقام الحفل في الخارج في مزرعة أجدادي، بين الحدائق تحت أشجار الليمون. لدينا مكان مُغطى بالأضواء الرائعة والموسيقى الصاخبة من مكبرات الصوت. تتوزع الضيفات في كل مكان، يتحدثن فيما بينهن أو يهتفن لليلى وهي ترقص في منتصف قاعة الرقص. وجه ليلى لا يحمل أي معاناة. إنها تتأرجح في فستانها الأبيض الفاتح المُصمّم مثل فساتين الأميرات، يرفرف مع كل حركة تقوم بها. ضحكتها، الصادقة والكاملة، تصل إلى أذني وتملؤني بالدفء. الحياة تلوّنها بشكل رائع. كان شعرها الطويل البني المحمر مجعّدًا تجعيدات ناعمة تتدلى على ظهرها، مع الورود البيضاء التي التقطتها لها مشبوكة بين الخصلات.

تقف ماما بجانبها في عباءة أرجوانية متلألئة، وتلوح بذراعيها فرحًا، وأنا أضغط بقوة على الزجاج،

أريد أن يختفي. أريد أن أركض إلى ماما وألقي بنفسي في حضنها. الحاجة إلى العودة بالزمن إلى الوراء. خوف لم يَرني أمي بهذه الطريقة من قبل؛ بصحة جيدة وعلى قيد الحياة. «ماما» اختنق صوتي. يقول خوف بجانبي: «هذه سعادة ليلى يا سلامة». وفجأة، سارعت جميع النساء إلى لَفّ حجابهن حول أنفسهن بينما أعلن منسّق الأغاني المسجّلة مسبقًا عن وصول حمزة. كتمت أنينًا عندما رأيت أخي الذي يبتسم بخجل وهو يتجه نحو ليلى. نظرته إليها فقط، وعيناه تتلألأ مثل النجوم في السماء. وعندما يصل إليها يتعانقون رغم تنورة فستانها الكاملة، وتتردد ضحكات ليلى المضطربة على زجاج النافذة.

بابا، الذي كان يرتدي أرقى بدلاته، يشبك أصابعه بأصابع ماما، فتضعف ركبتاي من الحنين. أريد أن أحضنهم جميعًا بشدة، وأصرخ. تتجول عيناي في كل مكان، تشرب من هذه الذكرى مثل رجلٍ عطشان في الصحراء. طريقة ماما الرشيقة في تحريك يديها عندما تتحدث، وشعر بابا الرمادي، الذي يواصل دفعه إلى الخلف، وحمزة يتمايل ذهابًا وإيابًا وليلى تمسك بذراعه لإبقائه ثابتًا. وقعت عيني أخيرًا على امرأة مصففة تمامًا من رأسها إلى أخمص قدميها. يبرز القليل من شعرها البني الداكن من أعلى حجابها على جبهتها. وجهها جميل، مع تجاعيد ناعمة حول عينيها. وهي ترتدي عباءة بلون أخضر غامق تناسب لون عينيها. أخضر بلون البندق. أنا ألهث. أنا أعرف تلك العيون. لقد رأيت تلك العيون من قبل، على شاب طويل القامة ذي شعر بني كستنائي فوضوي.

هل هذه هي الطريقة التي بدأ بها كل شيء؟ في

حفل زفاف؟ كم هي سورية جدًا. تقريبًا أبتسم من الفكرة. «سلامة»، يقول خوف، محاولًا لفت نظري إليه، لكنني أرفض أن أترك هذا الوهم الجميل وأواجه نظرته التي لا ترحم. «سلامة، لا يمكنك العيش في الماضي. أنا أذكّرك ما هي السعادة الحقيقية. هذا لم يعد موجودًا. هذا ليس شيئًا ستجدينه هنا». «لا»، تمتمت، متمسّكةً بما قالته لي ليلى. الحياة هنا أكثر من مجرد رعب. «لا». يتنهّد ويفرقع أصابعه مرة أخرى. يتبدّد حفل الزفاف ببطء، جزيئًا بعد جزيء، ويتحوّل إلى ذكرى رهيبة. ذكرى لا أريد العودة إليها أبدًا طوال حياتي.

أشعر وكأن قلبي قد انتزِع من التجويف الصدري وأنا أتأوّه من الألم. ليلى، ممدّدة في مدخل منزلنا في يوليو. فقد فستانها الأصفر الخردلي لونه وانكمش بشكل غير مريح حول جسدها. عيناها الزرقاوان كالمحيط، فارغتان. تتساقط الدموع على خديها بخطّين، وترتعش يداها، لكنها لا تفعل شيئًا حيال ذلك. كان هذا هو اليوم الذي أُخِذ فيه حمزة.

جلست هناك لمدة ثلاثة أيام، لا تأكل، وبالكاد تتنفس، ولم ترد عليّ أبدًا عندما حاولت التحدث معها. كان شعرها ملتصقًا بشكل ضعيف على جانبي خديها، رقيقًا وهشًا مثل القش. جلست هناك وبكت بصمت حتى تورّمت عيناها واحمرّت، وبحلول نهاية اليوم الثالث، كانت تعاني من جفاف خفيف وصدمة، استدارت جانبًا وتقيّأت. أدركنا لاحقًا أنه قد يكون أيضًا بسبب غثيان الحمل.

وأمامي في الردهة ذات الإضاءة الخافتة تجلس ليلى، فتاة مجوّفة. دمية مكسورة. أقرب إلى الموت من الحياة. سيطر عليّ الشعور المقزز المألوف بالعجز، فخدشت زجاج النافذة من الإحباط. «هذا»،

ينقر خوف بإصبعه الطويل على الزجاج، «هذا هو ما لديك في حمص. لقد كانت معجزة أن خرجت ليلى من اكتئابها». أعض ظفري.

لا ينتظر ردي. «أعتقد أن ليلى أدركت أنك آخر أفراد عائلتها، باستثناء الطفلة، فقرّرت أن تنهض بنفسها وتكون قوية من أجل عائلتها. فقط حتى تكونوا آمنين. لقد علمت أن الاستسلام للألم سيؤذيك، لذا قامت بكتمانه». «إنها بخير الآن» قلت وأنا أكزّ على أسناني. خوف يقلب عينيه. «ليلى التي تعرفينها الآن ليست بخير يا سلامة. إنها تختبئ من كل معاناتها. سوف تذبل ليلى حين تصل إلى أوروبا. سواء كنتما سعيدتَين هناك أم لا، لا يهم. ستبقى على قيد الحياة، وقد أوفيتِ بوعدك لحمزة».

تزحف كلماته على جلدي، وتذوب في المسامّ، وأواجهه، وأدرك وجوده ببطء. أعتقد أنني كنت أعلم دائمًا أنه هنا لضمان بقائي على قيد الحياة، ولكن الآن يمكنني رؤية ذلك. إنه لا يَعِدني بالسعادة أو بنهاية لتلك المعاناة. ألمانيا ليست الحلّ لحياة مليئة بالمتعة المضمونة. إنها ليست المنزل. لكنها الأمان. وهذا ما نحتاجه أنا وليلى الآن. يفرقع بأصابعه للمرة الأخيرة. حمص القديمة تحدّق في وجهي بعينيها المؤرّقة. الهواء مُثقل بالنفوس الميتة وثقل خطيئتي.

يهمس خوف: «الرحيل يعني أن تتركي وراءك ما فعلته هنا». قلبي في حلقي. «لبقية حياتك، لن تتمكني أبدًا من تحقيق راحة البال بسبب ما فعلته بسمر. سوف يأكلك هذا من الداخل مثل السرطان. لقد بدأ بالفعل. على الأقل في ألمانيا، ستكونين على بُعد أميال من الذكرى. في هذه المرحلة يا سلامة، كل ما يمكنك أن تأملي فيه هو البقاء على قيد

الحياة. ليست السعادة».

15

«هل توقّفت عن المذاكرة؟» سألت شهد، ونظرت إلى كتاب المصطلحات الطبية الذي كنت أقرؤه. كان ذلك قبل أسبوع من امتحانات الفصل الدراسي الأول في الجامعة، وقررت أنا وشهد وروان وليلى زيارة مقهى في وسط المدينة بعد انتهاء المحاضرات. وكانت الشوارع تعجُّ بالناس. وكانت الطاولات خارج وداخل المطاعم مزدحمة بالعائلات التي كانت تستمتع بعشاء مبكّر من كل طبق سوري يمكن تخيُّله: كبّة مشوية على الفحم، قطع لحم ضأن مشوية إلى درجة الكمال، تبّولة، ورق عنب، برتقال طازج مقطوف من الريف. كان هناك عدد قليل من المارة الذين بدوا وكأن حظهم سيئ. ملابس ممزقة ووجوه هزيلة وأيديهم ممدودة تتوسل. لكن معظم الناس مرُّوا دون أن يلمحوهم.

كنا نتوق للحلويات وطلبنا جميعًا طبقين من كل نوع. تمّت تغطية كل شبر من طاولتنا بالحلوى. طلبت بوظة ورز بحليب. كان لا بُدّ من تناول البوظة بسرعة لأن الآيس كريم بدأ في الذوبان على الرغم من النسيم البارد. ثم يأتي دور الطبق الثاني، وهو عبارة عن أحلى بودنج الأرز مع ماء زهر البرتقال المرشوش فوقه، بمثابة الخاتمة المثالية ليوم طويل في الجامعة. كانت المدرسة الثانوية تتطلّب جهدًا دائمًا، لكنها كانت تعادل تعلُّم الحروف الأبجدية مقارنة بالسنة الأولى لي في الصيدلة. كان الفارق مذهلًا، لكن كل ما يفصل بينهما هو العطلة الصيفية.

«بجد، توقّفي عن المذاكرة!» انضمّت روان إليها، وهزّت ملعقتها في وجهي. «استمتعي بالطقس. بالطعام». عبست: «لا أستطيع، لديّ امتحان صباح الاثنين، وإذا كنت لا أعرف الفرق بين الزند وعظم

العضد، فأنا راسبة». تمتمت شهد: «سوف أكسر عظامك... الزند والعضد». شبكت ذراعي. «الأسماء العلمية لأجزاء الجسم صعبة! سأرسب!». «أنت درامية للغاية، ملكة الدراما». ليلى تدور بعينيها. التقطت عصير الليمون المثلج، وخاتمها الماسي يتلألأ. «أنت تقولين ذلك دائمًا ثم ينتهي بك الأمر بالحصول على أعلى الدرجات». قالت روان: «نعم، توقّف الجميع عن تصديقك منذ كنّا في الثانية عشرة من عمرنا». ثم قلّدت صوتي: «يا إلهي! الامتحان كان صعبًا جدًا. لم أستطع الإجابة على أي شيء. ليس لديّ أي فكرة عمّا إذا كنت سأنجح أم لا...». ابتسمت: «هذا ليس ما أنا عليه... أنا...». قالت شهد أثناء تناول حلاوة الجبن: «إنه أنتِ تمامًا. وبعد ذلك تنجحين وتحصلين على شهادات الشرف، بينما نجلس هنا نفكر في قتلك».

أغلقت كتابي الدراسي وأسقطته على الطاولة بقوة، فقفزت الأوعية الزجاجية. لقد أذهلت أيضًا بعض الأشخاص الذين كانوا يجلسون حولنا. على وجه الخصوص، شاب ذو شعر بني كستنائي فوضوي. نظر للأعلى، ثم رمش. احمررت خجلًا بسبب الضجة التي سبّبتُها، والتقت أعيننا قبل أن أنظر بعيدًا على عجل. كانت تلك العينين الأكثر اخضرارًا التي رأيتهما في حياتي. قلت: «حسنًا. أنا لا أذاكر الآن».

قضيت بقية فترة ما بعد الظهيرة محاولة ألّا أنظر إلى الشاب صاحب العينين الخضراوين، الذي كان مشغولًا باللاب توب الخاص به. كان بمفرده، وكان هناك طبق كبير به أربع قطع من الكنافة على الطاولة. لقد قمت بعمل مزدوج، مندهشة من أن شخصًا ما سيكون قادرًا على تناول كل ذلك وعدم

الوقوع في غيبوبة السكر. حاولت أن امر عقلي بعدم النظر، لكن عيني الخائنة رفضت الاستماع والتقطت صورًا له في المللي ثانية التي لمحته فيها. يبدو في نفس عمري. ربما سنة أكبر. لطيف. أردت أن أرفع الشعر المتساقط فوق عينيه إلى الخلف حتى يتمكن من رؤية شاشة اللاب توب بشكل أفضل.

في النظرة السابعة، رفع رأسه فجأة ونظر إليّ مباشرة، وتلاقت أعيننا للمرة الثانية. احترقت وجنتاي، وفي تلك اللحظة، وُلِد عمر كامل. كانت هناك نظرة رقيقة في عينيه، واهتمام غريب بالطريقة التي تنحني بها شفتاه إلى الأعلى، وأنا...

استيقظت مع ارتعاشة قوية. شعري ملتصق على رقبتي بالعَرَق، وأجفاني ثقيلة من بقايا الدموع. أرتعش عندما أنهض من السرير، هواء الصباح البارد يجمّد عظامي. هل كان ذلك حلمًا أم ذكرى؟ أهزُّ رأسي، غير قادرة على العثور على الطاقة اللازمة لمعرفة الحقيقة. ليس لديّ الوقت. أرتدي ملابسي ولا أتناول الخبز الجاف الذي تمرّره لي ليلى، ولكني أضعه في حقيبتي مع الخمسمائة دولار. وعندما وصلت إلى المستشفى، كان آم يرتدي نفس ملابس الأمس، وكان ظهره منحنيًا وهو يجلس بجانب ابنته النائمة. ولا يزال البهو الرئيسي يعالج الجرحى الذين أصيبوا جراء هجوم القناصة يوم أمس. تفوح رائحة الجروح المتقيحة والدماء الصدئة، لكنني لا أتقيأ. ليس بعد الآن.

«آم»، أقول باختصار، متجنبةً النظر إلى سمر. يستدير لي. هناك ظلال تحت عينيه وهو بحاجة إلى الحلاقة. يبدو كأنه شاخ عشر سنوات في يومين، وأتجاهل الشعور بالذنب خلف عيني.

«كيف حالها؟» أقول بصوت أجش. يحدق بي بنظرة قاسية. «أفضل. لا تستطيع تحريك رقبتها بعد، لكنها ستعود إلى المنزل اليوم. لا يوجد أسرّة كافية هنا». «حسنًا... عليها أن تصمد قليلًا حتى نتمكن من إزالة الغرز». «أنا أعرف. هل أحضرت كل شيء؟». أنظر حولي، ولكني لم أجد الدكتور زياد أو كنان، فأخرجت رزمة النقود وأعطيته إيّاها بسرعة. تتجعد نظرته مع التركيز وهو يعدّ، ثم أصبح قبيحًا. «ماذا تفعلين يا سلامة؟» يقول مع همسة، «هذه خمسمائة دولار فقط. وأين الذهب؟ هل تخدعينني؟». أعدل ظهري وأدخل يدي في جيوبي. «لا. سأعطيك الباقي عندما تأخذنا إلى القارب».

يحدّق في وجهي للحظة قبل أن يضحك. بعض الرؤوس تتجه نحونا، وأمسك بمعدتي لكبح ذعري. إنهم ينظرون بعيدًا، وكل منهم منهمك في مخاوفه الخاصة بحيث لا يهتمُّون برجل ضاحك. «أستمر في التقليل من شأنك. حسنًا، هناك قارب قادم خلال شهر. إنه طريق قياسي، تمّ سلكه عدة مرات. عبر البحر الأبيض المتوسط إلى سيراكوز، حيث ستقودك الحافلة إلى ميونيخ. ستبحر بالقرب من طرطوس. سأقودك إلى هناك بنفسي». يبدو الأمر برمّته بسيطًا بما فيه الكفاية، على الرغم من أنه بعيد عن ذلك. وكانت طرطوس المطِلّة على البحر الأبيض المتوسط تبعد ساعة عن حمص. لكن ذلك كان قبل الحدود الجديدة وقبل احتشاد الجيش على الطريق مثل النمل السام. الآن يستغرق السفر ساعات. كل ما أعرفه عن سيراكوز أنها تقع على ساحل إيطاليا، وأن ميونيخ مدينة في ألمانيا. ليس لديّ أي فكرة عن مدى بعدهم عن بعضهما البعض.

«كيف سنصل إلى طرطوس مع كل الحواجز؟»

أسأل، على أمل ألّا يكشف صوتي عن الرعب الكامن وراءه. يهز كتفيه. «لا تقلقي بشأن الجيش. وهنا يأتي المال. لم يتم اعتقالي من قبل». الصداع، الناتج عن التوتر الذي لا ينتهي، ينشأ في مركز دماغي، وينتج عنه خفقان خفيف. هذه الرحلة تبدو مستحيلة. ألمانيا وإيطاليا تشعرانني بالمستحيل. حتى الآن، هذه مجرد كلمات قرأتها في الكتب وسمعت عنها في الأخبار. لا أستطيع حتى أن أتخيّلهم في ذهني. أتنحنح. «لماذا يحتاج القارب إلى أربعة أسابيع؟ أليس هناك واحد عاجلًا؟ ليلى ستكون في شهرها الثامن».

ينقر لسانه. «ستعود في غضون أيام قليلة، ولكن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن تصل إلى الميناء هنا. سيحتاج الرجال إلى التأكد من أن كل شيء يعمل بشكل جيد. علاوة على ذلك، فأنتِ لست الوحيدة التي ستبحرين عليها. سأعرف المزيد في غضون أسبوع أو نحو ذلك. هذه الأشياء تأخذ وقت».

عاجزة. أشعر بالعجز وأنني مقيدة بأحداث لا أستطيع السيطرة عليها. تلك التي تحدد مصير ليلى. تنفتح أبواب المستشفى، وأنا أقف في حالة تأهُب، مستعدة لرؤية جثة أخرى هامدة، لكنه كنان فقط. عيناه تتلألآن وهو يرتدي كنزة مختلفة تحت الجاكيت البني البالي. تتأرجح كاميرته في جانبه. قلبي التقط لحظة رؤيته. أعلم أنني أستطيع أن أحبه بسهولة. في حياة محتملة مع الأوهام التي نسّقتها لنفسي، سيكون من السهل جدًا الوقوع في حب ابتسامته غير المتوازنة وأحلامه العاطفية. أفكر في كلام ليلى. أتساءل عمّا إذا كان الأمر يستحق أن أجد السعادة في حمص قبل أن أغادر.

أو إذا كانت هذه السعادة ستؤدي إلى حسرة القلب وفقدان شخص قد أرغب في مشاركة حياتي معه.

تستطيع ليلى أن تبشّر بعالم وردي، لكن خوف وتهكّمه هما الواقع. عندما تقع عين كنان عليّ يبتسم، ويشرق وجهه كله كالشمس في يوم ربيعي، ويتسارع نبض قلبي. «انتظري لحظة»، يقول أم وأنا نصف غائبة. «ماذا عن البنادول الخاص بي؟» يحتجّ. «ستحصل عليه، فقط دقيقة واحدة»، أقول دون أن أرفع عيني عن كنان بينما أسرع نحوه. تتعمّق ابتسامته عندما أكون أمامه، ولا يهدأ قلبي. «نحن بحاجة إلى التحدث»، أقول بلا مبالاة. أصبح تعبيره جدّيًا بسبب نبرة قلقي، وتبعني إلى زاوية فارغة على الجانب الآخر من الردهة. إنه يحافظ على مسافة محترمة مني، ولكن ليس بعيدًا لدرجة أنني لن أتمكن من الهمس. قلت بشكل مباشر: «هناك طريقة لك ولإخوتك لمغادرة سوريا». يرمش بعينيه، مندهشًا، وتعقد حاجباه. «أنا... أنا سأغادر»، أقول. كلمتان تكفيان لتحطيم ما بنيناه من وهمٍ واهٍ بيننا. «أوه» هو كل ما يقوله.

مقطع واحد بصوت مكسور هو كل ما يتطلّبه الأمر ليذبل الأمل في روحي. خوف كان على حق. لا توجد سعادة هنا. يتفحّص حذاءه، والقلق مكتوب على تعابير وجهه، لكنني أعلم أنه لا يحكم عليّ. إنه مدرك مدى الرعب. يعيشه كل يوم. أعضّ بطانة خدي. «سيغادر القارب خلال شهر إلى إيطاليا. يمكنني التفاوض على ثلاثة مقاعد لك ولإخوتك. ليس عليك أن تقتل نفسك من أجل هذا السبب».

يبتلع ريقه بصعوبة مرة واحدة. مرتين. ينبض الوريد في رقبته، وتتطاير مجموعة من المشاعر عبر وجهه. الحزن والأذى والشعور بالذنب والراحة.

وأخيرًا قال: «أعلم أن هذا يتطلب الكثير، ولكنني سأشعر بتحشن كبير إذا أرسلت إخوتي بمفردهما إذا كنت هناك معهما. لن يتعيّن عليك فعل أي شيء، فقط تأكّدي من وصولهما إلى إيطاليا. يمكن لعمي مقابلتهما هناك».

«كنان، اسمعني...». يهزُّ رأسه. «سلامة، من فضلك. من فضلك لا تطلبي مني الرحيل. يجب أن أظهر للعالم ما يحدث». كلامه مؤكّد، لكن وجهه استقر على عاطفة واحدة. الخوف. بدا أن تأثير مذبحة الأمس قد ألحق ضررًا أكبر بعزمه. إنه يلتمس حلًّا، بدأ يتحاشى بشكل متعمّد الحقيقة المروعة التي ستكلّفه أكثر من حياته. الصراع يخلق عاصفة في عينيه، وأعتقد أنني يمكنني قراءة الحقيقة المظلمة في مركزها. إنه يريد المغادرة، ولكن الذنب هو ما يعيقه. واجبه تجاه بلاده. أتذكّر هلاوسي التي صوّرت حمزة مكسورًا وأتساءل متى ستصبح واقعًا لكنان.

من فوق كتفه رأيت آم يحدق بي، مهتمًا، فعُدت إلى كنان. كتفاه منحنيتان، وأرى نفس البؤس الذي أشعر به ينعكس فيه. يتمتم، ويبدو أنه موجّه لنفسه أكثر مني: «سأفي بوعدي لبابا بهذه الطريقة». آخُذ نَفَسًا عميقًا. «لا أعرف مَن قال لك إن الرحيل هو شيء جبان، لكنه ليس كذلك. إن إنقاذ نفسك من الأشخاص الذين يريدون قتلك ليس أمرًا جبانًا». يهز رأسه. «كل ذلك يعود إلى حقيقة واحدة يا سلامة. هذه الأرض هي بيتي. ليس لديّ واحدة أخرى. الرحيل موت بحد ذاته». أكوّر يدي على هيئة قبضات. لقد متُّ بالفعل. لقد متُّ في اليوم الذي أخذ فيه بابا وحمزة. لقد متُّ في اليوم الذي قُتلت فيه ماما. أموت كل يوم لا أستطيع فيه إنقاذ مريض،

ومث بالأمس عندما احتجزث حياة فتاة صغيرة كرهينة. ربما في ألمانيا يمكن إحياء جزء مني.

أقول: «يبلغ ثمن القارب ألف دولار للشخص الواحد. حسنًا، عادةً ما يكون المبلغ ألفين، لكن يمكنني المساومة. هل تستطيع تحمّل ذلك؟». «نعم»، يجيب على الفور. أومأ. أقول بصوت منخفض: «أمامك شهر يا كنان. إذا لم تُغيّر رأيك، فسوف أتأكد من وصول إخوتك إلى إيطاليا، لكن اعلم أنني فتاة واحدة والطريق خطير. لا أستطيع ضمان سلامة أي شخص». وبهذا أدرث كعبي، وألقيت نظرة أخيرة على وجهه المصدوم قبل أن أذهب إلى المخزن وأحضر شريط بانادول الخاص بأم من حقيبتي. أقول له: «مقعدان إضافيان». آم يعبس: «ماذا؟». «أحتاج إلى مقعدين إضافيين. ألفي دولار». يطلق ضحكة قصيرة. «لا. لم يكن ذلك جزءًا من الصفقة». «إنه الآن»، أقول بسرعة. «إنهما أطفال. لن يشغلا مساحة كبيرة». يحدّق بي بغلاظة، وأعيد شريط البنادول.

أطوي ذراعي. «القلادة الذهبية تستحق المزيد الآن. ربما ثلاثة أشخاص على الأقل. ستحصل أيضًا على ألفي دولار إضافية. ناهيك عن البنادول. أعتقد أنك تستفيد جيدًا مني». يتجعّد فمه في سخرية. «حسنًا. لكن أقسم بالله يا سلامة، إذا لم تلتزمي بالجزء الخاص بك من الصفقة، سأجعلك تشاهدين القارب وهو يغادر بينما يسحب الجيش أختك بعيدًا». شددث قبضتي على معطفي الطبي. لا أشك في تهديده للحظة، وأريد أن أخدش وجهه لأنه تجرّأ على إدخال ليلى في هذا الأمر. بدلًا من ذلك، أحاول الإجابة بنبرة ثابتة: «أعلم». «جيد. أخبري صديقك أن يحضر نصف المبلغ غدًا».

***

وبعد ساعات فقط، أصابت قنبلة مملوءة بالشظايا مبنى سكنيًا، وتمّ نقل الضحايا إلى المستشفى متناثرين. وسرعان ما أصبحت الأرضيات ملطّخة بالدماء وانتشرت الرائحة المعدنية الطازجة في الهواء القديم. أعمل بثبات، وألتقط قطع الحطام المحشورة بين اللحم والعظم. أضع الضمادات وأخفّف الألم. أغمض العيون البيضاء بأصابع مرتعشة، وأتمتم بالدعاء على أرواح الشهداء. أعمل حتى تحتجّ أطرافي بسبب الإرهاق، ومن ثم أعمل بجهد أكبر. أي شيء لأنسى ما فعلته بالأمس. كل شخص أمامي هو سَمَر، وكل شخص لا أنقذه هو أحمد.

لا أشعر بالوقت يمرّ. ليس قبل أن تصرخ عضلات الذراعين البطنية وألقي مشرطي بعنف في حوض العمليات الطبية. يرنُّ صوته عاليًا، ويتناثر منه بقع الدم على معطفي الطبي. ذراعاي ترتعشان ورقبتي تشعر بالتّصلُّب. عندما أنظر للأعلى، تتشابك عيناي وأتأرجح قليلًا. «قفي!» أسمع أحدهم يصيح، وتمسك يدٌ بذراعي قبل أن أسقط على الأرض.

أرى اثنين يشبهان كنان يترنّحان فوقي. يبرز شعرهم من جميع الجوانب، ويتلألأ العرق على جباههم، ويغطي القلق أعينهم. «سلامة؟» يسألان، صوتاهما بعيدان، ويصنعان صدى. «يا إلهي!».

رمشت بعيني وعاد وجه كنان داخل دائرة التركيز. إنه قريب، قريب جدًا. ينظر للأعلى، باحثًا في الردهة طلبًا للمساعدة، وأدركت فجأة أنه يحاول مساعدتي، وإحدى يديه على ظهري. لقد وجدت قدمي الأرض، وهذا يمنحني الدفعة التي أحتاجها لدفع نفسي بعيدًا عنه. لا تزال حرارة أصابعه

المتبقية تضغط على ظهري، وتحرق خلايا جلدي.
«أنا آسف». يرفع يديه محرجًا ووجهٌ أحمر. «كنت تترنحين وسقطت، وأنا...».

«لا بأس»، أقول، صوتي خشن وحنجرتي خشنة، من سوء الاستخدام، من شدّ عضلاته طوال اليوم، لا أعلم. أنظر حولي وكل ما أراه هو اللون الأحمر والرمادي، والأشكال متداخلة فوق بعضها البعض، وغبار اليأس يتشبث بالهواء. رأسي يشعر بالخفة من قلّة الطعام والإرهاق، وأتأرجح مرة أخرى.

«سلامة!» يمدُ كنان ذراعًا فأمسك بها، معدتي تتلوّى. أصطدم بالدم الذي تبلّلت به يدي فأستدير لأغسله. تلتصق ملابسي بي كجلدٍ ثانٍ، وأحتاج إلى أن يتوقف عقلي عن الصراخ في وجهي. «أحتاج إلى...» أقول، ثم أتوقف، وأشعر وكأنني على وشك التقيؤ. أومأ، وسرعان ما قادني بعيدًا عبر المرضى وفتح الأبواب الأمامية. أواجه رياح الشتاء المتأخرة، التي تُجمّد العَرَق على وجهي.

أسند نفسي على ذراعه، وأمسك به بقوة، وأحاول التّنفُس من أنفي والتركيز على أي شيء سوى صوت العظام المبتورة. الفاوانيا. زهور عطرة. يمكن استخدام منشط من البتلات كمُرخٍ للعضلات. الفاوانيا. الفاوانيا. الفاوانيا. لا تزال قدماي غير قادرتين على حملي وأكاد أتعثر، لكن ذراع كنان تنزلق تحت ذراعي، مساعدًا في رفعي حتى يكون وجهي ملامسًا لسترته. القماش ناعم بسبب كثرة الاستخدام وأستطيع استنشاق رائحته. ليمون. ليس لديّ أي فكرة عن كيفية القيام بذلك، لكن رائحته تشبه رائحة الليمون الطازج؛ وهو ما يريحني من الذعر الذي يجتاحني.

لم يسبق لي أن اقتربت من شاب من قبل،

وبالتأكيد ليس شخصًا قد يعجبني حقًا. ليس الشخص الذي، في حياة محتملة، كنت الان لأكون زوجته. أرفع نظري إليه. يحدّق للأمام مباشرة. هناك لحية باهتة بلون بني فاتح تغطي فكّه وخدّيه، وأشعر فجأة برغبة في لمسها. الفكرة تصدمني، لكنها تجعلني أكثر ثباتًا. أضغط بيدي المرتعشة على صدري.

أوه، سيكون من السهل جدًا الوقوع في الحب، أفكر في ذلك بحزن. سهل جدًا. ينظر إليّ. «هل أنت بخير؟» أنفاسي عالقة في حلقي. أحاول جاهدة أن أجمع أي شيء علمي لتفسير فعل الوقوع في الحب. ما هي المدة التي يبقى فيها في الجسم قبل أن تبدأ الأعراض في الظهور؟ هل هو مُزمِن أم عابر؟ وهل ظروف الحرب عامل في تسريع العملية؟ هل سيهتمُّ قلبي حتى بأنني سأفترق عنه خلال شهر؟ «سلامة؟» يسأل مرة أخرى عندما لم أقل أي شيء خلال دقيقة. «نعم»، همست.

يدرس ملامحي، وتطلق نقاط الاشتباك العصبي الخاصة بي ناقلًا عصبيًا تلو الآخر. قام بتحليل تعابير وجهي، وظهرت بعض المشاعر في عينيه. ألتقطتها قبل أن تختفي ووضعتها في قلبي لأعيد تشغيلها لاحقًا عندما أكون بمفردي.

أسندني على درجات بوابات المستشفى المتشققة المطلّة على الطريق الرئيسي. هناك بضعة أغصان متناثرة على الرصيف المتصدع. نحن بعيدون عن الأبواب الأمامية، لذا لا نستطيع سماع أصوات من بالداخل. يجلس بجانبي، ويترك بضع بوصات بيننا، ويفرك يديه معًا وكأنه يحاول التخلص من البرد. أصابعه طويلة ودقيقة. مثل أصابع فنان. أحدّق فيها وأتخيّل أن هذه قد تكون الحياة: كنا نجلس هنا،

متدثّرين بالأوشحة وبالمعاطف السميكة. كان يضع أصابعه في يدي وأنا أتعجّب من مدى كبر حجم يده. كان يُقبّل مفاصلي وأشعر وكأنني أطفو على سحابة.

«أنا آسف»، قال مرة أخرى وهو يعضّ على شفته السفلى. «أعلم أنه لا ينبغي لي أن المسك... أنا... لم نعُد لبعضنا البعض، و... أنا...» يعبث بشعره، ويبدو أنه يشعر بالذنب، ويسحب يده إلى أسفل وجهه. «لا أريدك أن تعتقدي أنني أستفيد أو أي شيء. سلامة، أنا لست...». «توقّف عن الكلام»، أقول له، فيصمت، وخدوده لا تزال حمراء من الندم. «أنا لست منزعجة». تصطك أسناني وأسحب أطراف أكمام سترتي فوق يدي المتجمّدتين وأحتضن معطفي بقوة. «هل يمكنني أن أعطيك سترتي؟» يسأل وأنا أحدّق فيه. يبدو مصدومًا من سؤاله، لكنه مُصمّم. أومئ موافِقةً. يخلعها ويبدو أنحف بدونها. لا، متضوّر جوعًا.

يلقيها على كتفي، وأنا أغرق في حرارة الجسم التي لا تزال متمسّكة بدواخلها. ليمون. إنه يخفّف من حدّة الندم، ويهدئ صرخات أولئك الذين لم أتمكّن من إنقاذهم، ويطمس صورة سمر وهي تنزف على سرير المستشفى. أسحب طيات سترته ليكون أقرب، مع التركيز على تنفُّسي حتى يهدأ الغثيان.

يقول: «سلامة»، ويستقرّ نظري عليه. كاميرته في يديه وهو يعبث بالأزرار واللقطات قبل أن ينظر إليّ، ويبدو كما لو أنه يستطيع قراءة أفكاري. لكنني أعلم أن مشاعري تظهر على وجهي ليراها الجميع. «أخبريني شيئًا جيدًا». «لماذا؟». أعطاني نصف ابتسامة: «ولم لا؟». يريد أن يشغل تفكيري بشيء آخر غير المستشفى. هذا لن ينتهي بشكل

جيد لقلبي، لكن في هذه اللحظة، لا أهتم. إنه هنا بجانبي، وأريد التظاهر لفترة من الوقت. أريد أن أصدق كلام ليلى.

ألقيت طرف حجابي على كتفي ونظرت إلى السماء، أشاهد الطريقة التي رفضت بها السحب الكثيفة الليلة الماضية أن تتطاير. أنها تبدو وكأنها قشرة جروح تتعافى. هناك طيّات رمادية داكنة بين التّجمُعات، وتضيء شظايا من أشعّة الشمس في وقت متأخر من بعد الظهيرة الكتلة بينهما.

«أنا...» تنحنحت. تهبّ الريح ضدنا، وتتراقص قطعة من الورق المجعّد على طول الطريق. ولا أحد يمشي على الرصيف. هناك سيارة مهجورة في نهاية الشارع وقد احترقت تمامًا، وقد حوّلت النيران المسار بجانبها إلى اللون الأسود. كان كنان يحدّق بي، لكنني لا أستطيع أن أحمل نفسي على النظر إلى نظراته الجاذبة، لذلك وصلت إلى الأسفل والتقطت غُصَينًا. إنه رطب قليلًا من لمسة الشتاء. أمرّر أصابعي على النتوءات والحواف الخشنة.

أقول: «كنت أحلم باللون الأزرق»، وأشعر بدهشته. يقترب أكثر قليلًا، ولا أعتقد أنه يدرك ذلك. ندوب الغُصين تشبه تلك الموجودة على يدي. لم تغد قادرة على الحفاظ على حياة جديدة. «لقد رسمت ليلى ظلًا فريدًا من نوعه، فظننت أنه سينزف في يدي. كانت لوحة لبحر هادئ وسحب رمادية. لم أر مثل هذا اللون من قبل في حياتي. وكلما نظرت إليه أكثر، أردت أن أرى الشيء الحقيقي».

أمضغ لساني، مع التركيز على الغُصين. «في ذلك الوقت، شعرت أن سوريا صغيرة جدًا بالنسبة لي. شعرت أن حمص صغيرة جدًا. وأردت أن أرى العالم وأكتب عن اللون الأزرق في كل بلد لأنني متأكّدة

من أنهم مميزون ومختلفون بطريقتهم الخاصة. أنه لا يوجد ظلّ يشبه الاخر. أردت أن أرى لوحة ليلى على أرض الواقع».

ارتجفت وأنا أعيد فتح توابيت الأحلام التي أغلقتها منذ فترة طويلة. أضحك ضحكة صغيرة، وأدرك. «الشيء الجيد لا يأتي مجانًا يا كنان. والان أصبح ملوّثا بالحزن. لا يوجد لون أزرق هنا، وعلى الأقل ليس اللون الذي يلهم. فقط الذي يؤدي إلى تحلّل جلد الضحايا من قضمة الصقيع وانخفاض حرارة الجسم. كل الألوان باهتة وخافتة، ولا حياة فيها». أقبض على الغُصين بإحكام وألتفت إليه. إنه يبتسم. إنه لطيف ويجعل قلبي يؤلمني. ويقول: «لا يزال هذا حلمًا جميلًا يا سلامة. حلم يمكن تحقيقه». لا أقصد ذلك، لكني أتذمّر. «أين؟ في ألمانيا؟ لست متأكدًا من أنني سأرى الألوان هناك كما اعتدت». وحتى ذلك الحين، فإن الأشخاص مثلي لا يستحقون رؤيتهم. لا يهم كم أريد أن أفعل!

يمدّ كنان كل إصبع، ويثني معصميه. «قد يكون الأمر صعبًا في البداية. قد يكون العالم صاخبًا جدًا أو صامتًا جدًا. قد يكون نيون ساطعًا أو أسود قاتمًا، ولكن ببطء، سيعيد تجميع نفسه مرة أخرى. سيبدو شيئًا طبيعيًا. وحينها سترين الألوان يا سلامة».

تفرّقت شفتاي واستيقظت الرغبة في قلبي. «هل نستحق رؤيتهم يا كنان؟» همست بعد دقيقة، ومن تعابير وجهه عرفت أنه يفهم أنني لا أتحدث عن الألوان. ندم الناجي هو الجلد الثاني الذي نحن ملعونون بارتدائه إلى الأبد. ينظر بعيدًا، وشفتاه مشدودتان بقوة، لأن هذا ليس سؤالًا يسهل الإجابة عليه. الوقت هو أفضل دواء لتحويل جروحنا النازفة إلى ندبات، وقد تنسى أجسادنا الصدمة، وقد

تتعلم أعيننا رؤية الألوان كما ينبغي، لكن هذا العلاج لا يمتدُّ إلى أرواحنا. لا. الزمن لا يغفر ذنوبنا، ولا يعيد الموتى.

أتململ مع الغصين. «ليس عليك الإجابة على ذلك». ينظر إليّ مع شعوره بالذنب. «سلامة...» أهزُّ رأسي. «دعنا نجلس هنا لبعض الوقت، حسنًا؟ قبل أن تضرب العاصفة القادمة». يفرقع مفاصل أصابعه ويومئ، وتتشابك خصلات شعره الضالّة في رموشه. نجلس جنبًا إلى جنب، ونضع أيدينا على الرصيف، وأصابعنا على بُعد بوصات من بعضها البعض. ولا أستطيع أن أتذكر آخر مرة كان فيها ذهني هادئًا جدًا، مرتاحًا في الكلمات غير المنطوقة التي تملأ الصمت. وفي هذا الصمت أعيد النظرة العابرة في عينيه عندما ضمّني.

الشوق.

16

صرخت ليلى وهي تسرع عبر الممر من المطبخ إلى غرفة المعيشة ثم إلى غرفتي ثم تعود مرة أخرى: «سنحتاج بالتأكيد إلى تغيير الملابس».

أنا جالسة على الأريكة وساقاي متشابكتان وأعدُّ أموالنا. ألفان وثلاثون دولارًا. خمسمائة ستذهب إلى آم في نهاية هذا الشهر مع القلادة الذهبية. يدور ذهني في خطة تلو الأخرى حول كيفية البقاء على قيد الحياة في أرض أجنبية مع هذا القليل جدًا. هل سيطلب الرجل الذي يقودنا إلى ميونيخ أيضًا مبلغًا ما؟ قال آم إن المبلغ سيكون شاملًا كل شيء، لكن لا يمكنك أبدًا معرفة ما سيحدث خارج البحر. الجشع مرض، ولن يشفق على الضعفاء واليائسين.

لا يهم. كل ما يهم هو أن نصل إلى هناك. رفعت رأسي لأرى ليلى واقفة أمامي لاهثة الأنفاس، وعيناها تلمعان بالإثارة الجديدة. الآن هناك هدف واضح أمامها. شيء قوي يمكن التمسك به واستثمار كل طاقتها فيه. «سنحزم سترتين وثلاثة سراويل جينز. هل هذا كافٍ؟». أومئ بينما أفكّر. «لا شيء ثقيل. مثل البطانيات أو شيء من هذا. سوف يُثقل كاهلنا». تنظر إليّ بشكل واضح. «وسيكون شهر مارس عندما نغادر. كما هو المعتاد في الطقس سوف يكون متجمدًا. يُسمح لك بشيء واحد يبقيك دافئة». أتنهّد بقوة. «حسنًا. معطف إذن. ونحصل على زي واحد فقط لكلٍّ منّا لموازنة الوزن!».

تعبس، وترمي لي نظرة حزينة. كانت ليلى أيقونة الموضة. لقد كانت قطعة فنية متحركة يمكن تعليقها في متحف اللوفر، تُشعُّ بالإلهام. وهي الآن مجبرة على التخلي عن الهوية التي صاغتها لنفسها. طمأنتها فلمعت عيناها: «سنشتري المزيد في ألمانيا.

جينز وبلوزات جديدة. كل شيء. وسيكون لدينا أيضًا مولدًا لسلامة الصغيرة. احتفال لها». تضيء ابتسامة مبهجة ومذهلة وجهها، لكنها سرعان ما تختفي وتتحول إلى شعور بالذنب. «لا، لا بأس. ليس علينا أن نفعل... وخاصة بعد حمزة...». أهز رأسي. «هذا ما كان يريده. أنت وأنا نحتفل بابنته». أمدّ يدي وهي تأخذها. «أنت أختي وأنا أحبك». أضغط عليها. «أريد أن نكون سعداء من أجل سلامة الصغيرة». ابتسامتها لطيفة. «السعادة تبدأ هنا يا سلامة. في هذا المنزل. في حمص القديمة. تذكرين؟».

أتذكر كنان وطريقة جلوسه معي بالأمس حتى هدأت أنفاسي. أتذكر الشوق المتجمد في عينيه. الشوق لي. أشعر فجأة بالحرارة تحت سترتي وأحاول تشتيت انتباهي. «إذن ما الذي نحتاج أيضًا أن نأخذه معنا؟». تحوّلت شفتا ليلى إلى ابتسامة معرفة، لكنني أحدق بها بتحدٍّ، وأتحداها أن تقول ما يدور في ذهنها. ثم تدعها تخرج وتقول: «جوازات سفرنا وشهادات الثانوية العامة». أومئ. «تلك هي الأساسيات. فكّري يا ليلى، نحن على متن قارب في البحر. نحن نشعر بالبرد لذا لدينا معاطفنا. ماذا بعد؟». تقول: «بانادول»، وأشعر بأن عروقي تتحوّل إلى ثلج. «إذا شعرنا بالصداع أو أي شيء آخر. لا يزال لديك المخبأ، أليس كذلك؟».

«نعم»، أجيب على الفور، مجبرة نبرتي على أن تكون غير رسمية، وأنا ألعب بأطراف سترتي. بالتأكيد أستطيع توفير علبة واحدة لي ولليلى حتى نصل إلى القارب. نأمل ألّا نحتاج أكثر من ذلك، ولن تعرف لماذا اضطررت إلى مقايضة إمداداتنا حتى نصل إلى إيطاليا. ثم يمكنها أن تكرهني كما تريد.

وتنظر إليّ بنفس الطريقة التي أنظر بها إلى نفسي في المرآة.

قاتلة.

معدتي تدور فأقف بسرعة، تذعر ليلى. أركض إلى الحمام، وأقدامي المغطاة بالجورب تضرب على الأرضية المغطاة بالسجاد، قبل أن أصل إلى الحوض وأتقيأ. تتشبث يداي بحوافه بإحكام، ويختفي الدم من الشعيرات الدموية عندما أتقيأ المادة الصفراء.

لم أتناول أي شيء منذ يومين باستثناء قطعة صغيرة من الخبز الجاف. عندما ألقي نظرة على مرآة الحمام، أقاوم الرغبة في الصراخ. الطعم الحامض يحرق حلقي. عيناي محتقنتان بالدم، وشعري ملتصق بجبهتي المتعرقة في كتل. الظلال السوداء تحيط بعيني. أنا أتدهور من الشعور بالذنب.

«سلامة!» يخترق صوت ليلى الهواء الثقيل. أضع يدي في دلو الماء وأرشّ وجهي. تكرر ليلى: «سلامة»، وهي تمسك بكتفي وتدور حولي. لقد التقت بعيون قلقة، وعلى الفور ارتديت وجهي الذي يظهر فيه أن كل شيء على ما يرام. قبضتها قوية على جسدي. «ماذا حدث؟». أهزّ كتفي بنصف قلب. «أعتقد أنني أكلت شيئًا سيئًا». عيناها ضيقتان. «أنت لم تأكلي أي شيء عندما عدت من المستشفى». الطعم الحامض لاذع في فمي. «لقد أكلت في المستشفى»، تمكنت من القول بصوت مقنع.

قبل أن تتمكن من قول أي شيء آخر، تجاوزتها ورجعت إلى غرفة المعيشة، منكومة على الأريكة. تظهر ليلى بعد ثانية واحدة، ذراعاها مطويتان وشفتاها ملتويتان. «هل تخفين شيئًا عني؟».

تأوّهث وانطويت على نفسي، والتقطت السترة واحتضنتها. لها رائحة خزانة عفنة. «لا ليس الأمر كذلك. ليلى، ليس لديّ الطاقة لإخفاء الأشياء عنك».

القطيفة، أفكر. أتذكر الزهرة المجفّفة التي قمت بتسجيلها في سجل القصاصات الخاص بي مع ملاحظاتي المكتوبة بجانبها. بتلات برتقالية زاهية. تستخدم لشفاء الحروق والجروح. لها خصائص ممتازة مضادة للبكتيريا، ومضادة للفيروسات، ومضادة للالتهابات.

ليلى تتنهّد، لكن عندما ألقي نظرة خاطفة عليها، تبدو قلِقة. «أنا بخير»، همست، «أعِذكِ». لكنني لست بخير.

***

سمر لم تكن في المستشفى عندما وصلت في اليوم التالي؛ ممّا يعني أن آم أخذها إلى المنزل أثناء الليل. يتّسِع قلبي سعيدًا لأنه لن ينقبض بشكل مؤلم عند رؤية رقبتها المغطاة بالضمادات. وما زال العار في أوعيتي، ويسمّم دمائي.

يدعوني أحد المرضى، يشكو من ألم في ساقه المبتورة، فأسرع إليه، وأزيل الأفكار المزعجة بسرعة. أعمل كما عملت بالأمس حتى تغشى رؤيتي، وعندما أتوقف عن العمل بلا وقود، أعمل بطاقة الندم. يأتي اليوم موجة من ضحايا قصف طائرة عسكرية أمطرت منطقة سكنية جنوب حمص القديمة. فقط على الجانب الآخر من منزلنا. الآن، ليوم آخر، ليلى آمنة.

يتنوّع المرضى بين المدنيين واثنين من جنود الجيش السوري الحر. بمساعدة نور، أجريت عملية جراحية لمريض كانت ذراعه اليمنى مُعلّقة ببضعة أوتار فقط. وجهه كله ملتوٍ من الألم، ولكن لا يهرب

أنين من شفتيه. وبدلًا من ذلك، من خلال الدموع الصامتة وبركة من الدماء، يغني بهدوء: «ما أحلى الحرية».

عضلات ممزّقة ملطّخة بالدم تلتفّ حول العضد المكسور، والأوتار وردية اللون وممدّدة مثل شريط مطاطي. تعتريني حالة من الغثيان لكني أبتلعها. أرفع ذراعه بحذر، وعندما أنظر إلى الدكتور زياد، الذي يجري عملية جراحية لعلاج التمزق في فخذ الجندي، يهز رأسه. فقد المريض الكثير من الدم. وحتى عمليات نقل الدم اليدوية لن تكون كافية، وسوف يستغرق الأمر الكثير من الوقت والجهد الذي يمكن إنفاقه لإنقاذ حياة أخرى. ناهيك عن ارتفاع خطر العدوى. مستشفانا ليس مؤسّسًا للحفاظ على الأطراف، بل على الحفاظ على الحياة.

توقف الجندي فجأة عن الغناء ونظر إليّ. «سوف تقطعينها، أليس كذلك؟». أومأت ببطء، وعيني تؤلمني بالدموع. تمّ تمزيق زيه العسكري، وتحوّل اللون الأخضر إلى اللون الداكن بسبب الدم. يتسرب إلى علَم الثورة المخيط على صدره، ويلون الخط الأبيض باللون الأحمر. إنه ليس أكبر مني بكثير، وشعره الأشقر المتسخ متلبّد، وعيناه الخضراوان تتلألآن بالدموع. وفي حياة أخرى، لن يعيش مع الموت. سيكون العالم محارته، وسيغامر بالخروج ليجد مكانه فيه، بعينين مرصعتين بالنجوم. كان قد قرأ عن الحروب والثورات في الكتب المدرسية، حيث ظلت محصورة هناك، لم تكن واقعه أبدًا. ولكن حتى مع هذا الواقع، فإن وجهه لا يظهر أي هستيريا. أفترض أنه مزيج من الصدمة والجرعة الدنيا من التخدير التي قدمناها له.

«افعليها»، يصرخ. فجأة أصبحت ذراعه حقيقية

جدًا في يدي. عادة ما يصرخ المرضى متوسّلين إلينا لإنقاذهم. كل ما يعرفونه هو الألم. «ولكن... ولكن كيف ستقاتل؟» أسأل. يبتسم ويحرّك ذراعه اليسرى. «لا يزال لديّ واحدة أخرى، أليس كذلك؟».

هذه المرة يتحول الألم إلى دموعي التي تنساب على خدي. يسند الجندي رأسه إلى سرير المستشفى، ويرفع عينيه إلى السقف، ويعود إلى الغناء. وترسل ذراعه مع بقية الضحايا من اليوم ليدفنوا في المقبرة. أفقد إحساسي بالوقت وأنا أحاول التسابق معه والقبض على الأرواح قبل أن تخرج من أجسادها. فقط عندما يتدخل الدكتور زياد جسديًا ويصادر مشرطي، أتوقّف. «سلامة»، يقول وعيناه مشتعلتان. «هذا يكفي. اذهبي إلى المنزل». أحدّق في يديّ اللزجتين بالدم الجاف.

أضواء الردهة الرئيسية خافتة، وأنين أولئك الذين يعانون من الألم منخفض، والأطباء والعائلات على حد سواء ممددون على الجدران والأرضيات، يلتقطون أنفاسهم. أشعّة الشمس التي تتسلل عبر النوافذ تعطي الألوان مزيجًا قاسيًا. الأحمر الشرير، والرمادي المقفر. هذه هي الظلال التي تظهر عندما يسيطر الشفق على العالم. لم أبق حتى هذا الوقت المتأخر من قبل. خلال النهار، تكون الألوان متوهّجة، وتحثّني على العمل بشكل أسرع قبل أن تنزلق من أصابعي إلى لا شيء. الأحمر نابض بالحياة، يحمل الحياة، والرمادي يبشّر بسقوط المطر.

يبدو جسم المستشفى من الداخل فجأة وكأنه نعش. «حسنًا»، اختنقت. «تمام». أنظّف يدي وأمسك حقيبتي. الدكتور زياد يعطيني إشارة مطمئنة. أتعثر بين المرضى وأجرّ قدمي حتى أفتح أبواب

المستشفى على مصراعيها. يغسلني الهواء البارد من رأسي إلى أخمص قدمي، فآخذ نفسًا عميقًا متوسّلة إياه أن يغسل بقايا الصفراء والدم من فمي. الأقحوان. الأقحوان. الأقحوان.

أقف على حافة غروب الشمس، والصبغة البرتقالية العسلية تسيطر على السماء، والأفق فوقي يتحول إلى اللون الأزرق الداكن الغني. قماش للنجوم. تبدو... مخيفة. يتحرك أحدهم وتنخفض عيني لأرى كنان مستلقيًا على درجات سلم المستشفى وكاميرته فوق صدره. تمتدُّ ساقاه الطويلتان أمامه ويتوهج تحت سماء الشفق. الطريقة التي تتلألأ بها النجوم في عينيه والارتفاع الصغير لشفتيه تجعله يبدو وكأنه شيء خارج من حكاية. ولدقيقة، في نهاية اليوم، يبدو كما لو كان يحلم بصوت عالٍ.

يا إلهي، إنه جميل. أراقبه لبعض الوقت، وأتذكر كم كان قريبًا مني الليلة الماضية عندما اصطحبني إلى المنزل. أشعر بالدفء في كل مكان. تلتفُّ يدي بإحكام في نسيج معطفي الطبي، والإحباط على وشك أن يقسم قلبي إلى نصفين. في الأوقات الهادئة يرفع رأسه ويسخر مني بشأن سنوات مراهقتي الضائعة. نحن صغار جدًا. صغار جدًّا لنعاني هكذا. وأنا أعلم أنني أمنع نفسي من الوقوع في حبه. لكن لُطفه يسبّب الإدمان، ووجدت نفسي أتوق إليه، مستمتعة بالصورة التي رسمها عني. في الكذبة، فتاة متفانية تنقذ الجرحى، بغضِّ النظر عن سلامتها.

في تلك الحياة المحتملة، مع خاتمه المتلألئ في إصبعي، كنا لنخرج لتناول العشاء في ليلة الخميس في مطعم فاخر حيث يمتلئ الشارع بالناس الضاحكين والأزواج الذين يحتفلون بنهاية الشتاء،

ويشربون الشاي الدافئ. ستظل المتاجر مفتوحة حتى وقت متأخر، والأضواء ستبعد الليل، تومض بانتظام إلى انفجارات شمسية صفراء على الجدران الحجرية التي يعود تاريخها إلى قرن من الزمان. سنكون مستغرقين في عالمنا الخاص حيث ستبقى محادثات الآخرين بأصوات هامشية وعقارب الساعة غير واضحة، متحدّية قوانين الزمن حتى يأخذني إلى المنزل. وتحت أشجار الليمون المزهرة خارج مبنى شقتي والقمر الهلالي يكون شاهدًا، سيمسك خدي ويقبّلني.

دون قصد، أطلقت تنهيدةً فاستقرّ ذقنه إلى أسفل، وعيناه تتلألآن عندما تلتقط صورتي. «سلامة»، يقول، صوته دافئ كيوم صيفي. «كنان». أستمتع باسمه. يترك طعمًا حلوًا على لساني. يقفز على قدميه، ويمدُّ ذراعيه فوق رأسه. «دعينا نذهب؟» يسأل، وأومئ محاوِلةً ألّا أبدو مشتاقة للغاية. سار بجانبي وألاحظ أنه يرتدي نفس السترة التي وضعها على كتفي. ارتعشت أصابعي، تريد الركض على طول خط الياقة.

«هل...». أبدأ. «كيف...». يقول. ينظر بعيدًا، ويحمرُّ خجلًا، وأنا أفعل نفس الشيء. فهل هذا من أعراض الوقوع في الحب؟ أو مجرد إعجاب؟ أنا شديدة الوعي بكل نفسٍ يتنفّسه. «آسف. تكلّمي أولًا»، يتمتم. أمسكت بحزام حقيبتي وأخذت نفَسًا عميقًا. إذا كان هذا مرضًا فلا بدّ أن يكون له علاج. «أردت أن أسأل إذا قمت بالتصوير اليوم؟».

يومئ. «لقد حصلت على لقطات جيدة. تحدّثت مع شخصين من حماة. كان من الجيد سماع قصص عن مسقط رأس ماما. حول ما يحدث هناك أيضًا. أفكر في تجميع كل شيء في فيلم وثائقي ونشره على

موقع يوتيوب. ليس طويلًا، على الرغم من ذلك. فقط مباشرة عمّا يحدث».

أعطيه ابتسامة صغيرة. «ذلك رائع». فيحكّ مؤخرة رأسه ثم يقول: «أنا... آه... أيضًا أحضرت المال». بدأنا. لم أتمكن من رؤية آم طوال اليوم، وأعلم أنه لن يفوّت فرصة جمع أمواله. لكن ابنته لا تزال في حالة حرجة، حتى لو لم تتمكن من البقاء في المستشفى. «الرجل الذي كنت تتحدثين معه بالأمس، هو الذي يجهّز القوارب، أليس كذلك؟» يسأل كنان. أومئ. «لا أعتقد أنه جاء اليوم». «وأنا كذلك. لقد صوّرتُ في المستشفى بأكملها، لكنه لم يكن في أي مكان».

«أنا متأكدة من أنه سيكون هناك غدًا». وبعد نبضة قلب أضيف: «هل يعلم لمى ويوسف أنك لن تأتي معهما؟» يسقط ظلٌّ على وجهه، فيمسك بالكاميرا. «نعم... هما... ليسا سعيدين. ولمى ستجزئ، ويوسف ذهب مباشرة إلى السرير ولم ينظر إليّ منذ ذلك الحين». أصبحت السماء الآن بلون زهرة السوسن، وبدأنا نمرّ بأشخاص يسيرون في مجموعات، وكلهم يحملون لافتات مصنوعة يدويًا. والقليل منهم يلفُّ علم الثورة السورية على أعناقهم. احتجاج ليلي. تعرّفت إلى امرأة شابة قمت بخياطة جرحها بعد أن حاولت الهروب من الأسلحة في مظاهرة أخرى. تبتسم عندما تراني وتقول: «مرحبًا»، قبل أن تسرع خلف الاخرين.

«كنان»، أقول وأشعر أن الهالة المحيطة به تتلوّى بالخوف. «لا يزال بإمكانك القدوم معنا». تتبخر الطاقة العصبية منه ويترك الكاميرا. تتأرجح للأسفل وتصطدم بجانبه. يحوّل بصره بعيدًا، كأنه ملتصق بالأمام. هل يخجل من إخباري أنه يريد الرحيل؟

أرى أوجه التشابه بيننا بوضوح. ولكن بما أن ليلى هي نقطة ضعفي، فإن إخوته هما نقاط ضعفه. يهمس: «لا أستطيع. لن أسامح نفسي». «وهل تعتقد أنني سأسامح نفسي؟ هذا ليس خيارًا سهلًا، لكنه ليس خطأً».

توقف عن المشي ويحدق بي لبضع ثوانٍ قبل أن يسحب هاتفه. يفتحه ويضغط على الشاشة ثم يمسكها أمامي. إنه قسم التعليقات في مقطع فيديو على يوتيوب. «انظري إلى التعليقات يا سلامة». أعبس. هناك نحو خمسين، جميعهم يدعون من أجل سلامة سوريا وتحريرها. يتحدث عدد قليل من المستخدمين عن كيفية تغطية القناة لما يحدث بشكل أفضل من أي منفذ إخباري.

«هذا هو الفيديو الخاص بي». يقول كنان: «قناتي. أنا أصنع فزقًا. أقوم بإضافة ترجمة باللغة الإنجليزية وأشرح ما يحدث حتى يتمكن العالم من معرفته. العرب يعرفون لكن بقية العالم لا يعرف. وهم لا يعرفون أنها ثورة. ليس لديهم أدنى فكرة عن أننا نعيش في ظل دكتاتورية منذ خمسين عامًا. تُظهِر الأخبار أن الجيش يقتل الناس. وهم لا يعرفون من هو الجيش السوري الحر. مَن هو جيش النظام. وسوريا مجرد كلمة بالنسبة لهم. لكن بالنسبة لنا، فهي حياتنا. لا أستطيع أن أتركها».

قلبي يدقُّ بشكل مؤلم. ويعيد هاتفه إلى جيبه. «لقد تحدّثت مع عمي أمس. بمجرد أن نعرف متى يغادر القارب، سنخبره، وسيأتي إلى سيراكيوز. سوف يأخذ لمى ويوسف». لا أحب هذا. لا يعجبني كيف أنه لا يشمل نفسه. «كنان...»، «لذلك ليست هناك حاجة لهما للذهاب بالسيارة إلى ميونيخ. وسيساعدك عمي أيضًا بالطبع. لقد أخبرته. سوف

يتأكد من سلامتك أنت وليلى».

«كنان». يتوقف عن الكلام، يتوقف عن المشي، لكنّ هناك يأسًا شديدًا في عينيه. كأنه يبلع الكلمات لأنها تهدد بالانسكاب من شفتيه. إنه يتشبّث بالواجب مثلما لو أنه جمرة مشتعلة. أتجاهل طعنة الندم لتورّطي في هذا الأمر وأركز على الكيفية التي يمكن أن ينقذه هذا.

أقول: «الرحلة إلى سيراكيوز طويلة. نحن ذاهبون بالقارب. هل تفهم ذلك؟ إنها ليست سفينة فاخرة مع وجبة من خمسة أطباق. لقد رأيت صورًا لها على الإنترنت. رأيناهم جميعًا. القوارب قديمة وضعيفة وبعضها... البعض لا ينجح في الوصول حتى. إنها مكتظّة. هناك في البحر الأبيض المتوسط، لا توجد قوانين. ستكون عقلية الجميع هي البقاء على قيد الحياة بغضّ النظر عمّن يتأذى في هذه العملية. وسوف يتأذى الناس. لمى ويوسف مرشّحان مثاليان».

تتدلّى كتفاه كما لو أن العالم والسماوات السبع كلها تقع عليه. إنه متعب وأنا لا أعرفه جيدًا بما يكفي للتأكد مما إذا كان تذمُّري يسبّب ضررًا أكثر من نفعه. لذلك قرّرت أن آخذ صفحة من كتاب ليلى. أذكّره بالسعادة. أو على الأقل بالماضي؛ وبذلك يعلم أن هذا الألم ليس أبديًا.

«أتذكر والدتك»، أقول بصوت لطيف، وينظر إليّ بدهشة. يقف أمام مبنى متفحم باللون الأسود بسبب حريق ما. لا بدّ لي من رفع ذقني حتى أنظر إلى عينيه. تلك العينان الجميلتان الممتلئتان بالألم. أنا أؤنّب نفسي بصمت. لا أستطيع أن أفكر فيه هكذا. قد يكون متمسكًا بالجمرة المشتعلة، لكنه لا ينوي تركها. لقد ظلّ متمسكًا بها منذ ولادته. وفي

غضون شهر، سأبحر بعيدًا، وسيكون عالقًا على الشاطئ، ويزداد بُعدًا كل ثانية. سيكون بمثابة حلم يقظة أزوره عندما أكون وحدي في ألمانيا، حزينة على فقدان حياتي المحتملة، وأشاهد بقلق شديد قناته على يوتيوب بحثًا عن أي تحديثات، متسائلة عمّا إذا كان لا يزال على قيد الحياة، وحزًا.

أمسك بالطرف الفضفاض من حجابي وأعتصره بإحباط. هذا ليس عادلًا. أتابع: «لقد كانت في حفل زفاف أخي وليلى. أتذكر رؤيتها. أنت... أنت أخذت من ملامحها عينيها». تلين تلك العيون، ويقترب مني خطوة. «أتعلمين، لقد أخبرتني أمي عنك في تلك الليلة». معدتي تدور، ويضحك هو بخفّةٍ، وتختفي كل آثار الألم. كيف يمكننا القفز من عاطفة إلى أخرى مثل رقصة منسّقة بشكل جيد، لن أعرف أبدًا. «نعم، لقد عادت إلى المنزل لتتحدث عن هذه الفتاة التي تمثّل فقاعة من الحياة. التي أصابت ثقتها وفرحها كل من حولها».

الحرارة تغلّفني بالكامل. أفتقد تلك الفتاة. «لقد كانت مُصمّمة تمامًا على مقابلتنا». يمرر يده على شعره، ويصبح أكثر فوضوية. «قالت أنا وأنت مثل حبتين من البازلاء في غلافهما. كنت أشعر بالفضول، لكن والدتك أرادت منك التركيز على دراستك قبل أن نلتقي. بصراحة، اعتقدت أنك ستكونين أكثر تكبُّرًا». أتلعثم وهو يبتسم: «معذرة؟». يضحك مرة أخرى، ويبدو الأمر نعيمًا ومليئًا بالحياة. ليست مثل ضحكة خوف. «آسف. لقد حكمت عليك من خلال مظهرك. طالبة في كلية الصيدلة، اسم عائلة جيد، أخ طبيب، الابنة الوحيدة، الأصغر في عائلتك. أعني أن كل العوامل أشارت إلى هذا الانطباع. لم أكن أعتقد أن شخصًا مثلي سيفي بمعاييرك».

أرمش بعيني. يفرقع مفاصل أصابعه، ويبدو أنه يشعر بالذنب. «لقد كنت مخطئًا، من الواضح». يعطيني ابتسامة خجولة. «أنا آسف». «كيف تعرف أنني أصبحت أقلّ تكبّرًا بعد كل ما حدث لي؟» أسأل، وأحتاج إلى معرفة الإجابة، ولكنني أشعر بالقلق بنفس القدر. يهز رأسه. «لا أعتقد ذلك. لقد كنت دائمًا بهذه الطريقة، أنا متأكد. كنت أشعر بالحرج من ترتيب اللقاء، لذلك واصلت تقديم أعذار سخيفة من هذا القبيل». «للعلم»، أقول، دون أن أصدق أنني سأنطق بهذه الكلمات، «كنت أعتقد أنني لن أفي بمعاييرك».

يميل رأسه إلى الجانب في حيرة. «أنت الابن الأكبر، كل المسؤولية تقع على عاتقك. وبدلًا من أن تسلك الطريق الآمن لدراسة الطب، وهو ما كان بإمكانك اتباعه، اتَّبعت قلبك ودرست ما تحب. حتى بعد كل ما مررت به، هناك ضوء في عينيك. ما زلت تضحك. لذلك لا أستطيع إلا أن أتخيَّل كيف كنت من قبل. كنت سأشعر بالخجل من مدى تحررك. كيف ترى العالم بكل ألوانه وظِلال جماله. كنت سأشعر بالقلق من عدم قدرتي على مجاراتك». أتوقف عن الحديث لأن الطريقة التي يحدق بها بي تجعل الفراشات ترفرف بأجنحتها في معدتي. «حسنًا»، يقول بعد فترة. «لم يكن لمخاوفنا أي أساس إذن». «أنا... أعتقد ذلك»، أهمس وترتجف أنفاسي.

«إنه... إنه عار يا كنان». «ما هو؟». صوته خافت، وأعلم أنه يعرف ما سأقوله. «أننا لم تُنح لنا الفرصة أبدًا لمعرفة ما إذا كنّا مثل بازو وشينا لبعضنا البعض». عندما لا يقول أي شيء، أقترب منه كثيرًا حتى أتمكن من عدّ النمش على رقبته. أنفاسه تتقطع في حنجرته ونظراته تسقط على شفتي.

أهمس: «أتمنى لو كان لدينا هذا الوقت... أنا حقًا. أتمنى...». أتوقف. ينظر إلى شفتيّ ويقرأ الكلمات التي أشعر بالخجل من التحدث بها. أتمنى أن تأتي معي. أتمنى أن نقع في الحب.

17

خوف غير سعيد بحديثي مع كنان، لكنني أرفض التحدث معه، وبدلًا من ذلك مستلقية على سريري وفي مواجهة الحائط، أفكّر في عيون كنان وتفاغلنا اليوم. «ألا تشعرين بالقلق لأنك لم تري آم اليوم؟». يمضي ويقف أمامي، فألتفت إلى الجانب الاخر. لقد ظهر هناك أيضًا، وأنا أتأوّه بصوت عالٍ. «ماذا لو هرب بأموالك؟».

«يهرب إلى أين؟ الطريقة الوحيدة التي يكسب بها المال هي عن طريق اصطحاب الناس إلى القوارب، ومع أسعار المواد الغذائية، فإن الأموال التي قدّمتها له لن تدوم إلى الأبد. سوف أراه غدًا. لقد أصيبت ابنته، أتذكر؟ لن يفوّت فرصة الحصول على المزيد من الأدوية». خوف يزمُّ شفتيه، وعيناه تتلألآن مثل رقاقات الثلج في الغرفة المظلمة. «حسنًا»، يقول أخيرًا. «كنان لا يغيّر رأيك، أليس كذلك؟». أنفخ في الهواء. «لا. سأختار ليلى دائمًا قبل أي شخص». يبتسم راضيًا. «ولكن هل تختارين نفسك أيضًا؟». أعبس.

يشير لي: «أنتِ لم تأكلي أي شيء طوال اليوم». أضغط على فكي. كم هو مزعج أن تكون براثن عقلي بهذه الطريقة. في وقت سابق قمت بتحضير عشاء من التونة المُعلّبة المغموسة في زيت الزيتون والملح، فتناولت قضمة واحدة منها قبل أن تهدد معدتي بطرد كل شيء. لا أشعر بالجوع بعد الآن. ليس بعدما فعلته بسمر. ولم تأكل ليلى أيضًا، وعندما سألتها إن كانت أكلت شيئًا، قالت إنها ليست جائعة. إنها تريد توفير أكبر قدر ممكن من الطعام للرحلة. صوت خوف قاتل مثل أوراق ستّ الحسن السامة. «إذا لم تكوني حذرة يا سلامة، فقد

تصبحين أداة تدميرك». «لقد غيّرت رأيي بالفعل بشأن المغادرة»، تذمّرت، «لماذا إذن تعذّبني؟».

شفتاه تتجعّدان في ابتسامة بطيئة. «أنت فعلت. ولكن يمكن أن يحدث الكثير من الآن وحتى رحيل القارب. لا أستطيع التحكم في ذلك. أنت لست مُتّزنة يا سلامة، لكن أنا أكثر اتّزانًا. تذكّري: إذا تمّ اعتقالك، فلن أذهب إلى أي مكان. سأجعلك ترين كل أنواع الأشياء الفظيعة. تعرّض كنان للضرب حتى يقترب من الموت. حمزة، مجرد عباءة فارغة». انحنى إلى الأمام وأنا أقف على الأرض رافضة أن أترك شفتي ترتعش. «المثير للاهتمام يا سلامة أنك أنتِ من سيطرح كل هذه السيناريوهات. أنا جزء من عقلك، أنتِ بحاجة إلى كل هذه الهلوسة الرهيبة. أنتِ في حاجة إليّ». أعبس: «أعلم أن عقلي يحاول حمايتي أنا وليلى. لقد أوضحت ذلك. لكن هذا لا يعني أنني يجب أن أحب ذلك!».

يفرقع بأصابعه وتظهر ليلى ممدّدة على الأرض بجوار سريري. يتسرّب الدم إلى ألواح الأرضية بينما هي ترتعش. يتوقف قلبي في حلقي وأعود بعيني إلى خوف. إنه يدرس ردّة فعلي. «ليست هي»، أقول، وصوتي بالكاد مسموع. يقول: «لا تنسَي أبدًا من هو المسيطر هنا». أغمض عيني وأهمس لنفسي بـ«الأقحوان»، وحين أفتحها تختفي هلوسة ليلى. لكنها لا تزال تعيش في ذهني.

***

ومن دواعي ارتياحي التام، أن أتى آم إلى المستشفى في اليوم التالي. عيناه باهتتان، ولحيته مشعثة. يبدو بائسًا كما أشعر. توقّف عندما رآني، ضاقت عيناه وأنا أمدّ يدي التي تحتوي على قرص بانادول. «هنا». آم يمضغ خده ويفتح كفّه. «كنان

سيأتي في وقت لاحق. سيكون لديه أموالك». يتنهّد. «أريد أن أسألك ما الذي يجب أن نحزمه. ماذا نحتاج للرحلة؟». يقوم بتدليك جبهته. «وثائق مهمة. طعام. المياه الخاصة بك. دواء يساعد في دوار البحر. لا شيء ثقيل جدًا». رأسي يدور. «تمام. تمام. هل هذا كل شيء؟». أعبث بنهاية حجابي وأواصل كلامي متسائلة: «كيف حال سمر؟». نظرته مليئة بالكراهية: «بخير». «وجرح رقبتها؟». «قلت إنها بخير»، ينفجر. «اسمعي، هذه صفقة تجارية، حسنًا؟ تعطينني المال وأُعطيك قاربًا. لا يتعيّن علينا أن نأخذ كل شيء بشكل شخصي!». حلقي جاف، لذلك أومأت.

يتحرك بجانبي لكنه يتوقف للحظة. يقول ويبتعد: «لا تفكري في طلب المغفرة». معدتي تؤلمني بسبب تراكم حمض المعدة فأسرع إلى مخزن الأدوية. أستند على الحائط بينما أمشي، وأنفاسي غير منتظمة وألم خفيف ينبض خلف عيني. يقول خوف: «انسيه»، وأبدأ. يقف على بُعد بضعة أقدام مني، ويتفحّص علبة حمراء من الأريبيبرازول. «انسي ما قاله يا سلامة. إنه ليس الصورة الأكبر. إنها ألمانيا. حياتك الجديدة مع ليلى وطفلها».

الزعرور. التوت الأحمر الذي يمكن استخدامه لخفض ضغط الدم. له خصائص مضادة للأكسدة ممتازة وتقوّي عضلة القلب. الزعرور. الزعرور. الزعرور.

أبقى في المخزن لفترة أطول قليلًا حتى أتمكن من رؤية بتلات الزعرور البيضاء خلف جفنيّ المغلقين. ثم أمشي بالخارج لأواجه أي شيء جديد يدخل من خلال الأبواب. هذه المرة، عندما يصل ضحايا إطلاق نار من قناص في وقت الظهيرة

تقريبًا، أقف بقوة، وأدفع خوفي للأسفل للتعويض عمّا فعلته. وسط الجثث والصراخ، أرى كنان واقفًا على الجانب وكاميرته تغطي نصف وجهه. ومهما حاولت التغلُّب على الموت، فهو لا يزال يفوز. أغمض خمسة أزواج من العيون اليوم. ثلاثة أطفال وشابّة وشاب. وجوههم ملطّخة بالدم، وأفواههم مفتوحة، وتعبير الخيانة محفور على وجوههم إلى الأبد. أقرأ الفاتحة على أرواحهم وأشعر بكنان يقف بجانبي.

«كل شيء على ما يرام؟» يهمهم. أهز رأسي دون أن أرفع عيني عن الجثث. «سلامة»، يقول كنان بلطف. «دعينا نذهب. خذيني إلى آم». لا أتحرّك. أصابعه تمسّ طرف كمي مؤقتًا وأنا أتنفّس بحدّة. «لقد فعلت كل ما بوسعك. هذا ليس خطأك». ترتجف شفتاي وأبتلع صرخاتي. يقول: «يلّا»، وأسمح لنفسي بالابتعاد.

تمتلئ الردهة الرئيسية بالوجوه الجديدة والقديمة. نجد آم واقفًا بجانب الباب الخلفي حيث يُنقل الشهداء إلى المقبرة. لم أسمع حتى ما يتحدث عنه آم وكنان، حيث أصبحت أفكاري مظلمة للغاية وملتوية، وألومني لأنني كنت بطيئة للغاية، ومثيرة للشفقة للغاية بحيث لا أستطيع إنقاذ الأرواح.

«سلامة». صوت كنان يقطع الهواء وأنا أنظر إليه. يبدو مهمومًا، وأنا أراقب آم بفضول. ألقيت نظرة للأسفل ورأيت أنني كنت أحفر أظافري في راحتي بينما كنت أرتجف في كل مكان. «أنا بخير» أقول بصوت أجوف. يصدر آم صوتًا ساخطًا، وقبل أن يتمكن كنان من قول أي شيء، يقول: «سوف نقدم لك سترات النجاة، ولكن هذا كل شيء. أحمل القليل. كل شيء ما عدا حياتك يمكن استبداله».

أقول فجأة: «يجب أن أذهب»، فيستدير كنان نحوي. «تمام». يتحرك نحوي. «دعيني أسير...». أهز رأسي، وأرفع يدي. «لا بأس».

ألتفت وأسرع مبتعدة وأخرج من المستشفى بينما يرعد قلبي في أذني. أنا غير قادرة على تحمُّل ذلك بعد الآن. لا أستطيع أن أحمل جثة أخرى. لا أستطيع تحمُّل هذا الذنب. أنا متعبة ومعدتي تتمزق من الجوع. كفّاي حمراوان من أظافري، وندوبي فظيعة. أحتاج أن أتنفَّس شيئًا ليس الدم والصفراء وأحشاء. أحتاج أن أحتضن ليلى وأذكّر نفسي بأنها على قيد الحياة. أريد الصراخ. أريد ماما. عندما وصلت إلى منزلي، كنت أشعر بضيق في التنفس وأزيز يدور في أذني.

«ليلى!» أنادي وأغلق الباب خلفي. «سلامة؟» صوتها المتفاجئ يجيب من غرفة المعيشة. تظهر بعد ثانية، وشعرها على كتفيها. فستانها الأصفر الخفيف متدلٍّ فوق بطنها المنتفخة، وألقيت بنفسي بين ذراعيها، وعانقتها. «مهلًا، هل كل شيء على ما يرام؟». تحتضنني أكثر. «يا إلهي هل حدث شيء ما؟ هل كنان بخير؟». «لا»، أتلعثم. «أنا بخير. كل شيء على ما يرام. أنا فقط بحاجة لرؤيتك». تحتضنني مرة أخرى، وتبحث في عيني. «الدوائر تحت عينيك أكثر قتامة». تمسك بذراعي. «وجهك أرقّ. أحدث شيء ما يا سلامة؟». «أنا بخير»، أكرّر بصوت ضعيف. لا تصدّقني. «إنها الساعة الرابعة تقريبًا. مناوبتك لن تنتهي قبل الخامسة».

انتزعت نفسي منها واندفعت نحو الأريكة، حيث كنت على وشك الانهيار. خلعت معطفي الطبي وحجابي، وألقيتهم على ذراع الأريكة. «أنا متعبة. من فضلك، هل يمكنك اللعب بشعري؟». تزفر

وتجلس، وأضع رأسي في حجرها. لمستها لطيفة وهي تفك العقد في خصلات شعري. أشعر بأن الدم يتحرك في الأوعية الموجودة في فروة رأسي وأتنهد بارتياح. أغمض عيني وأهمس: «شكرًا لك». «أنتِ تأمرين يا سخيفة».

بقينا صامتتين لبعض الوقت، وأتذكر كم كنت أشعر بالدراما عندما ظهرت بثرة على وجهي. كان رفُّ الكتب الخاص بي مليئًا بخلطات منزلية الصنع قمت بتحضيرها من جميع الأعشاب والزهور التي جمعتها، وتم ترتيبها بدقة بجانب بعضها البعض أبجديًا. برطمانات مربى مليئة بأغصان شجرة الشاي، وبراعم البندق الساحرة، وبتلات الورد المجفَّفة. سأصنع منهم معجونًا. «ضعيه تحت عينيك»، أتذكر أنني قلت ذات مرة لليلى، التي كانت تتطوع دائمًا لتكون فأر التجارب الخاص بي. كانت تجلس على سريري، تشرب القهوة من كوب أزرق ضخم. وضعته على مكتبي وفتحت البرطمان. «ممم». لطّخت الكريم الوردي على عظام وجنتيها وتحت عينيها. «رائحته طيبة للغاية. ما هذا؟». «الياسمين العربي، والأقحوان، وقليل من زيت اللوز». لقد كتبت في ملصق على البرطمان. «من المفترض أن يجعل بشرتك أكثر نعومة ويمحو الهالات السوداء».

ضحكت ليلى متظاهرة بالإهانة: «هل تقولين إنني لا أعتني ببشرتي؟». ضحكت: «ليلى، أنت تدينين لي بنصف جمالك». نفضت شعرها إلى الجانب. «لن أعلّق على ذلك». الآن بشرتي جافة ومتقشرة، وشفتاي متشققتان، والهالات السوداء تحت عيني أصبحت دائمة. سلامة القديمة لن تتعرف إليّ. تقول ليلى: «سلامة»، ففتحت عيناي نصف مفتوحتين.

«تحدثي معي». أفرز المشاكل وأحاول أن أقرر ما الذي سيصرفني بما فيه الكفاية عن ألمي ولن يكون عبئًا على ليلى. همست قائلة: «أعتقد أنني قد أحب كنان». أصابعها ساكنة وأنا أستعد لصرخات الفرح التي لا مفرّ منها، لكنها لا تفعل ذلك. نظرت للأعلى لأرى ابتسامة حزينة على شفتيها.

«ماذا تنوين القيام به؟» تسألني. «أبكي؟» أمزح بشكل ضعيف على الرغم من أنني أبذل قصارى جهدي لخنق الدموع في عينيّ. والآن بعد أن أصبحت الكلمات علنية، فإنها ترفض أن يتم تجاهلها بعد الآن. يبدو أنني سأغادر سوريا متألمة بكل الطرق الممكنة. تقول: «أنا آسفة». «اعتقدت أنك ستصرخين وتقفزين لأعلى ولأسفل». تهزُ رأسها بخفّة. «أعلم أنني كنت متحمسة لليوم الذي تقعين فيه في الحب، لكنني لم أعتقد أبدًا أنه سيكون هكذا». «هل من الممكن أن أكرهه قليلًا لأنه يريد البقاء هنا؟». تطلق ضحكة صغيرة. «نعم، هذا جيد تمامًا».

أتأوه وأنا أفرك رموشي الرطبة. «أعلم أننا سنفترق بعد شهر، لكن يا ليلى، لا أريد أن أتوقف عن مقابلته. أنا أفكر... أي شيء أفضل من لا شيء. أعلم أنني سأتألم كثيرًا في ألمانيا. أعلم أنني سأقضي أيامًا وليالي في الدعاء ليكون آمنًا. أعلم ذلك وما زلت لا أستطيع -لا أريد- أن أتوقف». تحدّق ليلى بي لبعض الوقت. «لا بأس أيضًا يا سلامة. أنا أعرف ما تعنينه. أي شيء أفضل من لا شيء. قلت لك حاولي أن تجدي شيئًا من السعادة في حمص. كنان هو لحظة سعيدة». أبتلع حمضًا كثيفًا.

أذهلنا طرقٌ على بابنا الأمامي وتبادلنا النظرة. أقف، وألفُ حجابي حول رأسي قبل أن أتوجّه ببطء

نحو الباب. من خلال العدسة أرى كنان. وهو يحدّق في الأرض، ويداه في جيبه. «من هذا؟» تسأل ليلى بصوتٍ خافت. «كنان»، أقول. يسقط فمها من الدهشة وتصفق بيديها بصمت، وتبدو متوهّجة. «افتحي الباب»، ردّت، مقلّدةً حركتي. زفرتُ بعمق، وأطلب من نفسي أن أبقى هادئة وافتح الباب، وأتصنّع -ما أمله- ابتسامة عادية تبدو غريبة على وجهي. أقول: «كنان»، وهو ينظر إلى الأعلى. «مرحبًا».

تعبيره مشرق لكنه يخفيه بسرعة. «أنت... ممم... أنا آسف لمجيئي بهذه الطريقة، ولكن... لقد غادرت المستشفى بسرعة كبيرة وأردت التأكد من أنك بخير». ألعب بحاشية سترتي، وأشعر بالدفء بسبب اهتمامه. «نعم. أنا بخير. لقد كان... أنا بخير، أعِدكَ بذلك». «أنا سعيد لأنك بخير». يهرش مؤخرة رأسه، وتضغط الحركة على سترته. يشجّع نفسه أخيرًا على الكلام، ويتأرجح على كعبيه، ويطقطق مفاصل أصابعه. «كنت أتساءل إذا كنت ستذهبين معي إلى مكان ما».

أوه.

أوه!

ليلى تشهق من غرفة المعيشة وأحاول أن أتذكر كيف أتنفس. يصاب كنان بالذعر عندما يراني أحدق به بغباء. «إذًا... لا بأس إذا كنت لا تريدين ذلك». «لا»، أقول بسرعة كبيرة. وأحمرُ خجلًا، أعانق نفسي. «أنا... نعم». يبدو مرتاحًا، وصدره يتّسع بالهواء، وتضيء الابتسامة وجهه. وكأنني أحدّق في الشمس. «لحظة». أسرعت إلى غرفة المعيشة، حيث لا تزال ليلى جاثمة على الأريكة، وفمها مفتوح، وسرعان ما تأخذ يدي بين يديها. «يا إلهي»، صرخت

وهي تهزأني. يبدو هذا وكأنه تلميح من حياتنا القديمة يتسرب من خلال الألم. يكاد يجعلني أشعر بالدوار من الحنين إلى الماضي.

الأفكار القلقة تسيطر. «هل هذه فكرة سيئة؟ هل سيؤذي هذا قلبي؟ هل يجب أن أتظاهر بأنني مرضت فجأة؟». تضحك. «لا يا سخيفة. إنها السعادة. وأنت تستحقين أن تكوني سعيدة». سمر ممددة على سرير المستشفى تومض أمام عيني. تكرر ليلى بحزم: «أنت تستحقين ذلك. اذهبي الآن». أومأت وهي تترك يدي. «لن أتأخّر». هي تضحك. «أنا أعرف».

ألقي نظرة على لوحة البحر، مستمدّة القوة من الشعور الذي تمنحني إياه، ثم أعود نحو الباب. أمرّر انعكاسي في المرآة المعلقة في الممر وأتنهّد. في حياتي المحتملة، كنت سأرتدي بنطالي الجينز الأزرق الداكن المفضل لديّ، وبلوزة ناعمة وردية اللون مع معطف صوف لائق، وحذاء حتى الكاحل. كان حجابي سيكوى وينسكب على كتفي كالشلال. لقد جهزنا أنا وليلى ملابس غير رسمية في حالة حدوث موعد عفوي. لكن في المرآة تحدق فتاة ترتدي بنطال جينز قديمًا وسترة سوداء ذات حواف مهترئة. إنها حزينة وشبيهة بالهيكل العظمي، وعيناها معتمتان من اليأس والجوع. أنظر بعيدًا وأخرج من المنزل مغلقة الباب خلفي. كنان يستند إلى الحائط، وينظر إلى السماء، وعظام فكّه أكثر وضوحًا. «هيا نذهب؟» يسأل. «إلى أين؟» يبتعد عن الحائط وعيناه تلمعان بسرٍّ. لقد تفرّقت الغيوم؛ ممّا سمح لأشعة الشمس اليوسفية الأخيرة بإلقاء نظرة خاطفة من خلال الثقوب الموجودة في المباني المجوفة في مدينتي المروعة. يقول: «إنها

مفاجأة»، ويسير في الاتجاه المعاكس للمستشفى. أسارع وراءه. «مفاجأة؟». يضحك. «أنت لا تحبين المفاجآت؟». «أنا... لا أعرف». توقّف للحظة ورمقني بنظرة مشوشة. «لا تعرفين؟». أهزّ كتفي. «كنت أحبهم. الآن، أعتقد أنهم يجعلونني أشعر بالقلق». أومأ بجدية. «هذا عدل. ستكون هذه فكرة جيدة... أمل ذلك»، ثم يضيف: «ولكن... إذا كنت تريدين، أستطيع أن أقول لك». قلبي يتوهج. «لا، لا بأس».

نمر بمسجدٍ لا يزال صامدًا بعد كل ما حدث. هناك زاوية كبيرة مفقودة بسبب الانفجار، والحصير الأخضر بالداخل متسخ. «فلتسقط الحكومة!» تمّ رشُها على أحد الجدران. برَك مياه الأمطار العكرة متناثرة في كل مكان. يمر بجانبنا طفلان، أحذيتهم مهترئة وخدودهما رفيعة. أريد أن أصرخ بهم لارتداء شيئًا أكثر دفئًا لأننا لا نزال في شهر فبراير.

يقف بعض الرجال أمام متجر كبير على الجانب الآخر من الشارع، وهم يخوضون محادثة عميقة، بينما يتجول أشخاص آخرون حاملين البقالة أو في عجلة من أمرهم للوصول إلى مكان ما. أعرف هذه المنطقة، وإذا سلكنا الشارع الفرعي القادم، فإن منزلي -منزلي القديم- سيكون على بُعد خمس دقائق سيرًا على الأقدام. لقد عدت مرة واحدة فقط، عندما حاولت إنقاذ ما أستطيع من تحت الأنقاض.

لكن كنان لا ينعطف يمينًا. يمشي للأمام بشكل مستقيم ثم يتجه يسارًا إلى زقاق ضيق. الطريق هنا غير مستوٍ، لقد انهارت طوابق أحد المباني فوق بعضها البعض مثل قطع الدومينو المضطربة. «هنا!» يقول أخيرًا، وانزلق داخل المبنى. أبوابه الحمراء المغبرة مهشّمة من مفصلاتها ومتشقّقة على الأرض.

أتردد للحظة قبل المتابعة. إنه يتسلّق مجموعة من السلالم الخزفية. ساقاه أطول من ساقي، وهو يسبقني بخمس خطوات على الأقل. «يلّا!» ينادي، فوقي بطابق كامل. «إلى السطح!» ألقيت نظرة إلى الأعلى وأقدّر أن هناك أكثر من خمسة طوابق متبقية. «أنا أحاول!» أصرخ مرة أخرى.

بعد ما بدا وكأنه عقود من الزمن، وصلت إلى السطح، حيث كان كنان يقف بالفعل في الخارج. على الرغم من البرد، إلا أنني أتصبّب عرقًا وأنفاسي مقطوعة. تعثرت خارج المدخل، وأشعر بقلبي ينبض في حلقي. «ما هذا المكان؟» تمكّنت من الخروج إلى السطح. كنان يبتسم. لا يبدو أنه منزعج على الإطلاق من صعود ثماني مجموعات من السلالم. «هذا هو منزلي القديم. اعتدت أن آتي إلى السطح بعد المدرسة وأقوم بواجباتي المنزلية».

أنظر حولي. إنه سقف مبنى بسيط وعادي، والأرضية خالية باستثناء ثلاثة أقمار صناعية مكسورة انجرفت إلى الجانب. المنظر حمص القديمة وغروب الشمس. ولا توجد أي مبانٍ أخرى تحجبه، ويمكنني أن أشاهد الشمس وهي تبدأ هبوطها في الأفق. كنان يؤرجح ساقيه فوق الحافة وأخنق صرخة التحذير. ببطء، صعدت بجانبه وبحذر شديد بالقرب من الحافة ولكن دون أن أؤرجح ساقي. يستدير نحوي، ابتسامته هادئة. «متى آخر مرة رأيت الغروب يا سلامة؟ رأيته بشكل صحيح». أعبس. «لا أتذكّر». «مع كل الدمار الذي يحدث هناك، من السهل أن ننسى الجمال الموجود هنا. السماء جميلة جدًا بعد هطول المطر».

أجمل غروب للشمس هو دائمًا ذلك الذي يأتي بعد المطر، قلت ذلك لليلى ذات مرة عندما كنّا في منزل

عائلتها الصيفي في الريف. كنا عالقين في الداخل طوال اليوم، نشاهد العاصفة تضرب النوافذ، غير قادرين على السباحة في النهر بجوار الحدائق. كانت ليلى تلعب بشعري بينما كنا نشاهد فيلم قلعة في السماء من كمبيوتر بابا المحمول. لقد كان الفيلم المريح المثالي عندما كانت الغيوم رمادية اللون وقطرات المطر تطارد بعضها البعض على النوافذ.

وكنت على حق. السماء الآن عبارة عن موجة من اللون الأرجواني والوردي تتكسر عبر اللون البرتقالي اليوسفي، وتأخذ السحب مسحة خزامية. «سألتِني إذا كنت تستطيعين رؤية الألوان مرة أخرى يا سلامة». يقول كنان بهدوء: «إذا كنا نستحق رؤيتهم. أعتقد أننا نستحق. أعتقد أنك تستحقين. هناك القليل منه في الموت. في الألم. لكن هذا ليس الشيء الوحيد في العالم. وهذا ليس كل ما تملكه سوريا. كانت سوريا ذات يوم مركز العالم. تمّ إجراء الاختراعات والاكتشافات هنا؛ لقد بنوا العالم. تاريخنا في قصر الزهراوي، في مساجدنا، في أرضنا».

يشير إلى الأرض بالأسفل وأنا ألقي نظرة خاطفة على الحافة، وأعصابي مكهربة من الخوف من السقوط. أغمض عيني نصف إغماضة وأرى ولدين صغيرين وثلاث فتيات يضحكون، ويلعبون نوعًا من الألعاب. يقول كنان: «انظري إليهم. انظري كيف حتى العذاب لم يجرّدهم من براءتهم». ثم يشير إلى شجرة تقع على جانب الشارع. تلتفّ جذوعها الثلاثة السميكة حول بعضهم البعض، وتبدو الفروع هشّة، وتبرز لمحة من الأوراق الخضراء من خلال مسامها. «شجرة الليمون تلك كانت هنا منذ الأزل. اعتدت أن أتسلقها طوال الوقت عندما كنت أصغر سنًا.

أعتقد أن هناك صورة التقطها بابا لي وأنا جالس فوقها، ويوسف معلّق إلى جانبي». أصمت وألقي نظرة عليه. لهجته مليئة بالكآبة، وعيناه تلتقطان الضوء الذهبي. يتنهد، ويطرد الذكريات بعيدًا، وينظر إليّ، ويبتسم. «ما زال هناك جمال يا سلامة. لا تزال الحياة والقوة في حمص». يومئ برأسه نحو الشمس. «هناك لون».

ببطء، ألقيت ساقي على الحافة، مع الحفاظ على بضع بوصات بيننا. إنه يمنحني دفعة من الأدرينالين، والتوازن بين شيء صلب وهواء. نسيم لطيف يدغدغ أنفي فأغمض عيني وأستنشقه بعمق. عندما أفتح عيني، أفاجأ بالسحر الذي ينكشف أمامي. بعض النجوم تتلألأ من خلال خصلات السحب. تزيّنها مثل الياقوت الأزرق، هدايا ثمينة لأولئك الذين ينظرون إلى الأعلى. ثمانية مستويات فوق سطح الأرض تجلب نوعًا فريدًا من السلام. الهدوء الذي يصاحب ليالي الشتاء المتأخرة. يبدو الأمر كما لو أننا نطفو في الكون، منفصلين عن كل ما يثقلنا. إنه فيلم لاستوديو جيبلي.

«هل ترين الألوان يا سلامة؟» يهمس كنان. غروب الشمس رائع، لكنه يتضاءل بالمقارنة به. إنه غارق في وهج نهاري، مشهد من الظلال المتراقصة على وجهه. الوردي، البرتقالي، الأصفر، الأرجواني، الأحمر. وأخيرًا استقرّ في اللون الأزرق السماوي. يذكّرني بلوحة ليلى. لون صارخ لدرجة أنه قد يلطّخ أصابعي إذا لمسته. بينما تغرب الشمس، في تلك اللحظات الثمينة القليلة عندما يكون العالم عالقًا بين النهار والليل، يتغيّر شيء ما بيني وبين كنان.

«نعم»، أتنفّس. «نعم».

18

في مدينة تاريخية مبتلاة بالقنابل، استمرت الحياة. أراه في الكروم الأخضر الذي يستيقظ من سباته الشتوي، يتدحرج عبر الأنقاض. تتفتح أزهار النرجس، وتتفتح بتلاتها بخجل. أرى ذلك في ليلى، التي تبتسم أكثر الآن خاصة بعد أن ابتسمت. عندما أرى علامات الحياة الخفية هذه في طريقي إلى المستشفى، يتسع قلبي.

ولكن هناك أوقات، حيث يتطلب الأمر مني كل شيء، حتى لا أقع في اليأس. ما زال داخلي محطمًا، وتطاردني فتاة صغيرة هددث بقتلها. ومع ذلك، فقد وقعنا أنا وآم في روتين: أعطيه قرصًا واحدًا من بنادول، فيطمئنني بالتحديثات المتعلقة بالقارب. على الرغم من أن التحديثات لا تتغير أبدًا، إلا أنني أتشبث بالأمل.

لكن كنان يفقد خيوط الحياة، خيطًا تلو الآخر، لأنه يقضي وقتًا أطول في المستشفى. ترتجف يداه عندما يحمل كاميرته، وعيناه تمتلئان بالدموع دائمًا. لن أنسى أبدًا كيف كان شكله عندما رأى طفلًا يبلغ من العمر سبعة أشهر وقد اشتعلت فيه النيران نتيجة انفجار قنبلة.

لقد أظهر لي المزيد من التعليقات التي تلقّاها على مقاطع الفيديو الخاصة به على يوتيوب. الجميع في حالة ذهول، يصلّون من أجلنا، ويثنون عليه لأنه خاطر بحياته لتوثيق ما يحدث. خلال تلك اللحظات، هناك توهُّج مُعيّن على وجهه. سكينة لا أراها في أحيان أخرى، لأن ما يفعله يستحق هذا العناء. لكنه لا يتواجد إلا في هذه اللحظات الوجيزة ويختفي تمامًا عندما يسيطر الموت على المستشفى مرة أخرى.

يؤلمني معرفة أنني تسبّبت في هذا الانهيار في روحه القتالية، وأدرك ذلك عندما تذكّرت كلماته لي قبل ثلاثة أسابيع فوق سطح منزله القديم. أيامنا معًا أصبحت معدودة، ولا أستطيع منع نفسي من معرفته والاقتراب منه. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى أصبح مصدر سعادتي وراحتي. وأتساءل عمّا إذا كنت سأتمكن من إخباره عن خوف، أتساءل ماذا سيفعل.

عندما خرجت من المستشفى بعد مناوبة اليوم، كانت سماء المساء عبارة عن لوحة قماشية زرقاء داكنة وكان كنان ينظر إليها. «مرحبًا»، أقول، وهو يبتسم لي.

خارج المستشفى وبعيدًا عن الحقائق المروعة التي يوثّقها يوميًا، يتمكن كنان عادةً من استعادة قواه. على الرغم من أنني أرى الشقوق التي يحاول تغطيتها. وأثناء نزهاتنا، إمّا أن نبقى صامتين، ونفكّ الصدمة التي نسجت عقدة أخرى في أدمغتنا، أو، إذا كان يومًا سيئًا حقًّا ونحتاج إلى إلهاء، فإننا نناقش أشياء أخرى. لقد أخبرني عن برنامج الرسم الخاص به وكيف أنه يحتفظ برواية مصوّرة نصف مكتملة على جهاز اللاب توب ويتمنى أن يتمكن من إنهائها. أخبرته عن سجلات القصاصات والبرطمانات المليئة بالزهور، والطريقة التي نظر بها إليّ بإعجاب جعلتني أتألم من تلك الحياة المحتملة. تمنّيت لو كان بإمكاني أن أريها له شخصيًا في غرفتي، حيث يمكنه ضغط جسدي، وشفتاه فوق شفتي.

خطرت ببالي فكرة أثناء عودتنا إلى المنزل، وقبل أن أتمكن من إعادة التفكير فيها، قلت بصراحة: «تخيّل لو قمت أنا وأنت بتأليف كتاب معًا». توقّف، وهو يحدّق بي باهتمام شديد، وكدت أشعر بلمسته

على بشرتي. «أنت تكتبين؟» يسأل أخيرًا. أومئ، وأعبث بأكمامي قائلة: «أعني أنني أريد ذلك. لديّ فكرتان لكتاب أطفال. كنت أفكر في أنك سترسم، وأنا سأكتب». ينظر إليّ بتعجُب: «أخبريني إحدى قصصك». ألقي نظرة بعيدًا وأجيبه: «لديّ... لم أخبر أحدًا عنهم أبدًا». يومئ، ثم يبتسم بهدوء. «حسنًا. دعينا نتخيل واحدة جديدة». قلبي يقفز، ممتنّة لأنه لا يحاول جعلي أتحدث عنهم. «أفكر في عدة أفكار».

يبتسم ونحن نسير: «تابعي». أقول: «أفكر في محيط، لكن بدلًا من الماء هناك أشجار عملاقة تلامس الغيوم». تتسع ابتسامته. «أستطيع أن أرسم ذلك بالتأكيد. الأوراق زرقاء بدلًا من الخضراء؟ جذوعها وردية اللون؟». خجلي ينحسر ببطء، وأكمل: «كلما ارتفعت إلى أعلى، أصبحت الأوراق أكبر. أوه! الأسماك تطير عبر تيارات الهواء بدلًا من الماء!». «نعم!» يقول بحماس، «قصة عن فتاة تتوق لرؤية المحيطات المليئة بالمياه!» أضيف، تقريبًا بحماس: «إنهم أسطورة في عالمها ولكن لديهم شيء تحتاجه».

ونستمر على هذا المنوال، أفكار فوضوية تتوالى واحدة تلو الأخرى، غير مدركين أننا قد وصلنا إلى منزلي منذ فترة طويلة. نقف أمام الباب نتحدث لمدة عشرين دقيقة إضافية قبل أن يحطّم هدير طائرة حلمنا. نعود إلى الواقع بأيدٍ مرتجفة وأعين متوترة تنظر إلى الأعلى. وعندما أنظر إليه أرى ذلك الألم. لن نتمكّن أنا وهو من تأليف كتاب معًا أبدًا. وأتساءل عمّا إذا كان هذا الألم في قلبي سيختفي يومًا ما. أم سيزداد قوة.

***

في اليوم التالي، حصل أم أخيرًا على معلومات جديدة بخصوص القارب. «سيكون هنا في خلال عشرة أيام. الخامس والعشرون من مارس. نلتقي عند مسجد خالد في العاشرة صباحًا، هل تعرفين مكانه؟». بالطبع أعرفه، كان بابا وحمزة يصليان صلاة الجمعة هناك. إنه على بُعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام من منزل ليلى. «جيد. أحضري المال وإلا لن يكون هناك أي قارب». أطحن أسناني: «أعرف». لكن قبل أن أتمكن من السؤال عن سمر، يهزُّ رأسه ويبتعد. أشعر بالغثيان، وأختبئ في مخزن الأدوية حتى يحتاجني الدكتور زياد.

يهيم ذهني في القارب، ويزداد داخلي شعور الترقب، وتشعر أصابعي بوخز الوعد بالسلامة. وعد بتمكُّن ليلى أخيرًا من الاستلقاء في غرفة نوم لا تُذكِّرها بزوجها المسجون. حيث تخطو الطفلة سلامة خطواتها الأولى في منزل مليء بالزهور ورائحة الفطائر الطازجة. تتطاير أحلام اليقظة مع طرقة سريعة على باب المخزن. كنان يبتسم: «هاي».

أجيبه بابتسامة: «هاي». يقول: «دكتور زياد يبحث عنك». أقفز على قدمي وأذهب إليه، فأجد الدكتور زياد في مكتبه واقفًا. «سلامة». وجهه أبيض، وتعبيره ملتوٍ بألم صامت. أستعدُّ فورًا لأي شيء. «ماذا؟». الدكتور زياد ينظر إلى كنان. «هل يمكنك أن تمنحنا لحظة؟». ينظر كنان إليّ قبل أن يومئ ببطء ويغلق الباب خلفه. يضع الدكتور زياد يديه على المكتب. «لن أحاول تلطيف الأمر يا سلامة، لأن هذا ليس عدلًا لك، ومن حقك أن تعرفي». يأخذ نفسًا عميقًا وأنا أبدأ بالارتعاش. «كان أحد جنود الجيش السوري الحر هنا ومعه معلومات تتعلّق

بالمعتقلين في مرافق الاحتجاز التابعة للجيش. أولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة. أخوك موجود في القائمة». فقدت توازني تمامًا. الدكتور زياد يدلك جبينه وعيناه تتلألآن بالدموع. «إنه حي، لكن والدك مات». أنفصل عن جسدي، وفمي ينطق بصوت لا أعرفه: «أين هو؟» عيون الدكتور زياد لا تلتقي بعيني. «سجن صيدنايا».

الأرض تتداعى، وأتمايل قبل أن أمسك بمقبض الباب. يعتبر سجن صيدنايا من أكثر مراكز الاحتجاز وحشية في سوريا. يقع بالقرب من دمشق، على بُعد ساعتين بالسيارة من حمص. المكان أسوأ من حكم الإعدام. ويتم تكديس سجنائه فوق بعضهم البعض في زنزانات أصغر من أن يتنفّسوا فيها.

يهمس: «أنا آسف يا سلامة. آسف جدًا. من فضلك اعتني...». «أحتاج إلى المغادرة»، أقاطعه، وأفتح الباب وأسرع للخارج. تسارَعَت وتيرة قدمي حتى خرجت وانهرت على درجات سلم المستشفى. أنفاسي تتصاعد. «سلامة!» يناديني صوت، وأنظر إلى الوراء لأرى كنان واقفًا أعلى السلم. «يا إلهي، أنتِ ترتعشين».

خلع سترته ووضعها على كتفي قبل أن يجلس بجانبي. أغمض عيني، وأستنشق رائحة الليمون، وأدعو أن يكون ذلك كافيًا لإعادة الظلام إلى مكانه. تمر دقائق أو ساعات، لا أعلم، لكنه يبقى بجانبي على الدرجات المكسورة، ينتظر. لا يسأل ولكني بحاجة إلى تكوين الكلمات. أحتاج أن أقول لشخص ما. الكلمات يجب أن تنسكب قبل أن تغرقني. «أخي»، أبدأ بصوت أجشّ. «حمزة. عندما تمّ القبض عليه مع بابا... ليلى وأنا... ظننّا أنهما كذلك ماتا. أردنا أن نصدق ذلك. لكن حمزة لا يزال على قيد

الحياة». أسمع شهيق كنان الحاد.

حمزة على قيد الحياة في هذه اللحظة وهو يتعرض للتعذيب وأنا خارج المعتقل وأخطّط للهروب من سوريا. يدي ترتعش وأمسك برأسي محاولة أن أهدأ. «ياسمين»، أتمتم. «الشاي المصنوع من أوراقها يخفّف آلام الجسم ويساعد في علاج القلق. الياسمين. الياسمين. ياسمين». أعلم في أعماق قلبي أنه لا يزال يتعيّن علينا الرحيل وإلا سنواجه أنا وليلى مصيرًا مثل مصير حمزة. وأنا أعلم ذلك. أنا أعرف. ومع ذلك... رفعت ذقني. ليلى. هذا سرٌ كبير جدًا بالنسبة لي لأحتفظ به في قلبي. لا أستطيع أن أضعه فوق برج أكاذيبي. يظهر خوف على الطريق المؤدي إلى سلم المستشفى ويراقبني بتعبير غير عاطفي. هناك نظرة محسوبة في عينيه وهو يقيس ردّة فعلي.

«أريد العودة إلى المنزل»، اختنقت ووقفت ممسكة بسترة كنان قبل أن تسقط. لا أريد إعادتها بعد، أحتاج إلى الشعور بالأمان التي تمنحني إياه لفترة أطول قليلًا. يهمس كنان: «أنا آسف جدًا». عندما أنظر إليه، لا تزال عيناه المتألمتان تنظران إليّ، وتستيقظ فكرة في ذهني. يمكن استخدام حزني لإقناعه. خوف يبتسم. «ألا ترى الحقيقة يا كنان؟» أمنع صوتي من الارتعاش. «تعذيب. موت. هذا يحدث. سيحدث لك ذلك إذا لم تغادر».

«سلامة...» يبدأ في التحدث ويقف. «لا!» أصرخ وأضم يدي في شكل قبضات بدلًا من هزّه. «لماذا لا تفكر في ذلك؟ لن يشفى إخوتك أبدًا. سوف تموت من أجل قضية لا يهتم بها أحد خارج سوريا. تعليقات اليوتيوب هذه رائعة، لكن لا أحد يساعدنا. سوف تتعفّن في السجن وتتعرّض للتعذيب لبقية

حياتك دون أن ينقذك أحد. هل فعلًا ستترك إخوتك للذئاب؟ هل تدرك حتى ما يحدث للاجئين في أوروبا؟». يتنحنح بقسوة. «لقد... سمعت...». الدموع تشوّش رؤيتي، بينما تنفُّسه مرتجف.

«كنان، أتعتقد أنك لست أنانيًا؟» صوتي ينكسر هذه المرة. «ولكنك كذلك. تخيّل أن لمى ويوسف وصلا إلى سيراكيوز ويحدث شيء ما وأنا بعيدة عنهما. لم يجدا عمّك أبدًا. لا أستطيع ضمان سلامتهما. أنا لا أعرف حتى ما أفعله. يمكن اختطافهما وبيعهما بسهولة. تخيّل أن يحدث ذلك وأنت هنا، عالق في مركز احتجاز، وحياتك تُسرق منك قطعة قطعة». أظافري تخدش أكمامي. «هل هذا ما تريد؟». «لا... بالطبع لا!» يقول بصوت عالٍ، ويغمض عينيه ويفرك ذراعه في عينيه الدامعتين. أكمل كلامي: «القارب سيغادر في الخامس والعشرين من مارس»، قلت، وأنا أدعو الله أن بذور الشك تشقُّ طريقها إلى ذهنه. أنها ستنمو كشجيرات الجرجير. «فكّر في حياة الأشخاص الذين تخاطر بهم هنا».

الإشارات العصبية في دماغي تتعطّل، ولا أستطيع التركيز على أي شيء سوى العودة إلى ليلى. أريد أن أكون بعيدًا عن الناس وأصرخ وأبكي وأحزن. أقول: «سأعود إلى المنزل». يومئ. «حقيبتك معي». قبل أن أتمكن من قول أي شيء، ينزل على السلم أمامي، وأشعر بالتيه في دهاليز معاناتي. أعتمد على ذاكرة العضلات لتأخذني إلى المنزل بينما تنهمر الدموع على خدّي. تسري الهزات صعودًا وهبوطًا في جسمي، وتشقق عظامي. حرب تشتعل بداخلي ويبدو أنني ضحيتها الوحيدة. يقول: «وصلنا»، وكدت أصطدم بظهره. «شكرًا لك»، أقول بهدوء،

وأعيد له سترته، وجزء مني يفكر في التساؤل عمّا إذا كان بإمكاني الاحتفاظ به ليوم واحد. صدمتني من تلك الفكرة خفّفت بعض الحزن الذي أشعر به. يأخذ السترة ويسلمني حقيبتي.

يلاحظ آثار الدموع على وجهي، وهو إدراك واضح في عينيه. يقول بحنان: «سلامة»، وترفرف رموشي. الطريقة التي ينطق بها اسمي، ونطق كل حرف متحرك وحرف ساكن، تجعلني أشعر الان وكأن الزهور تنمو في عروقي. «نعم؟» أقول، مطابقة لهجته. يعضّ شفته: «أرجوكِ، اعتني بنفسك». ألفّ ذراعي حول وسطي. «أنا بخير». يبتسم بحزن: «بخير؟». تنحدر نظرته من عظام وجنتي الحادة إلى معصمي النحيلتين. ربما بدأت أرى الألوان، مؤمنة بكلام ليلى وكنان، لكن ليس لذلك سلطان على شعوري بالذنب. يبدو الأمر كما لو أنني أتسمّم ببطء. العثور على السعادة هو مجرد علاج الأعراض وليس سبب المرض الجذري الذي يزداد قوة في كل دقيقة. معدتي لا تستطيع الاحتفاظ بالطعام لفترة كافية، وأقضي الليالي إمّا أتقلب بلا حول ولا قوة أمام الكوابيس أو أعاني من الأرق. والنتيجة هي جسد هشّ يحمل عقلًا هشًا، ينتظر همس الكارثة لينهار.

يقترب كنان خطوة أخرى، ويعبر أي جسر بيننا، ومع سير قوانين الفيزياء، يزداد الضغط. هالة من شمس الظهيرة تستقر على شعره الكستنائي. إنه مشبع بالذهب، وأشعر بأنفاسي تنقطع. يهمس قائلًا: «هناك ما يكفي من الأشخاص الذين يؤذونك. لا تكوني واحدة منهم». يرفع يده، وتمسح أصابعه كمّي. أنفاسه بطيئة، أقرب لي من أي وقت مضى، نظرت إليه، يقطر الشوق من نظراته وأنا على حافة

الهاوية.

«أراك غدًا؟» يسأل، صوته بمزيج من الأمل والقلق. «نعم»، أقول لاهثة، وفي الثانية التالية يدير ظهره لي ويمشي. لا يزال قلبي ينبض بشكل خطير عندما أغلق الباب الأمامي وأسند ظهري فوقه. وفي ثوانٍ قليلة من الهدوء قبل أن تكتشف ليلى وجودي، تتحوّل الصدمة إلى واقع. أبكي دموعًا كبيرة ثقيلة. أبكي كأن الدموع تتراكم خلف عيني منذ أشهر، في انتظار أن تدفعها قطرة أخرى إضافية. الإحباط يشقُّ قلبي. اندفع صوت خطوات عبر الرواق، وظهرت ليلى أمامي. «سلامة!» صرخت، «ماذا حدث؟»، لا أستطيع الكلام، أغطي وجهي بيدي، وأضمُّ ركبتي إلى صدري. تجلس بجانبي، وتسحبني على الفور إلى دفئها. تقترب مني وتحتضن رأسي إلى صدرها. «أخبريني بما حدث».

من خلال انتحاب الدموع، ألهث من كل كلمة. لا أستطيع أن أنظر إليها. تتراخى ذراعيها من حولي ويتصلب جسمها. لفترة طويلة لم تقل أي شيء. أصوات مكتومة تأتي من الخارج عبر الباب. لا أجرؤ على النظر إليها، فقد شعرت بالحرقان داخل صدري. «هل يجب أن نبقى؟» أقول بين الفواق. «سلامة». صوتها هادئ، مهزوم. «انظري إليّ». على مضض، أسحب عيني إليها وأراها، بلون المحيط الأزرق، تسيل الدموع على خديها. قالت بصوت غريب: «نغادر». «لكن...». «لو سمحت. علينا أن نغادر. كان ليودُّ ذلك». صوتها مكسور بسبب الألم الذي تحاول كبحه.

أضرب رأسي بالباب. نعم، كان سيودُّ. لقد وعدته. وتقول: «إذا متنا هنا، فسوف يدمّره ذلك أكثر. سلامة، كنا نأمل أن يكون قد مات. لكنها كانت

مجرد أمنية. جزء منّا يشك دائمًا أنه لا يزال على قيد الحياة». أتنحنح. تهزُ رأسها. «لا أستطيع... لا أستطيع التفكير في ذلك الآن يا سلامة. إذا فعلت...» صوتها يتقطع، «لا أعتقد أنني أستطيع إقناع نفسي بأنني بخير». تمسك بيدي. «لنتحدث عن شيء آخر». هناك يأس في وجهها، تبحث بسرعة عن شيء يصرف انتباهها قبل أن تستسلم للحزن. «أخبريني عن ألمانيا»، أتنفس. «أخبريني ماذا سنفعل في ميونيخ».

تُغمض عينيها لفترة وجيزة وتتنفس بعمق، وتشد قبضتها: «كنت أفكر أنه ينبغي أن يكون لدينا مطعم خاص بنا هناك». المفاجأة تجمّد دموعي: «ماذا؟» أومأت، واكتسبنا القوة من الحلم. «طعامنا لذيذ، وقد قرأت ذات مرة على الفيسبوك عن مطعم سوري في ألمانيا حقّق نجاحًا هناك. يمكننا كسب المال لجامعتك، وبيت، والأشياء التي يحتاجها الطفل. إنها أيضًا وسيلة لنشر المعلومات حول ما يحدث هنا». أنا مندهشة، ومأخوذة من تفاؤلها الذي لا نهاية له. «ونجد السعادة؟» أبتسم بضعف. لا ترتُ الابتسامة، بل تقبَل مفاصلي. «ونجد السعادة».

عيناها محتقنتان بالدماء، لكنها تحدّق في وجهي مباشرة ولا أريد أن تنتهي هذه اللحظة. «لكنك تعلمين أنني سأقوم بإعداد الكنافة، أليس كذلك؟» ضحكة قصيرة تخرج من شفتيها. «بالطبع. ليس جاذبيتك فحسب هي سبب حصولك على موافقة الجدات السوريات». الابتسامات تأتي أسهل الآن. «تعلمين أنني أعتقد أن هذا هو سبب أن كنان...» توقفت. تعقّد حاجبا ليلى. «ماذا؟» أقول ببطء: «أنا... أتذكر أن ماما طلبت مني مرارًا وتكرارًا صنعها عندما يأتون لزيارتنا»، وطفت حولي مقتطفات

من حياتي القديمة بعيدة عن متناولي. «لقد كانت تسألني إذا كان لديّ جميع المكونات. كانت شديدة الإصرار». أطلقت ضحكة كاذبة، «لم أصنعها حتى... رائع! يستغرق الأمر حربًا وعامًا كاملًا حتى أعرف ذلك... أعتقد أن كنان يحب الكنافة حقًّا!» تضغط على يدي. «لقد فاتته حقًّا». الفكرة تجعلني حزينة. نعم، لقد فاتته.

تذهب ليلى إلى النوم مبكرًا، تريد أن تبقى بمفردها، فأحاوطها بالبطانية بإحكام. تدير وجهها بعيدًا عني وتنهار بداخل نفسها، أراقبها لمدة دقيقة قبل أن أذهب إلى غرفتي. أجد خوف يقف في وسطها. منذ أن أراني كنان غروب الشمس، أصبح التعامل مع خوف أسهل. تبدو الرؤى التي يعرضها لي أقلّ شمولًا الآن، ونحن نقضي معظم الوقت في التحدث، والعمل على أسوأ السيناريوهات. لقد ساعدت المحادثات في التغلب على شعوري بالذنب، وأعطت قلبي الدافع الذي يحتاجه للمغادرة.

«لا تقلق»، قلت بتعب، وأنا أسقط على سريري وأهزّ شعري، «ما زلت سأغادر». ينقر بأصابعه على مرفقه، ويبدو متعاطفًا تقريبًا. «جيد. قد لا تتمكّنين من استرداد أموالك. ناهيك عن أنه إذا كنت...». أقاطعه: «اعتُقِلت»، وأسقط فوق غطاء السرير. «عُذِّبت بالماء. صُعقت بالكهرباء. اغتُصبت. انتُزع طفل ليلى من رحمها وتركوها لتموت. نعم، أعرف الفظائع. لقد تجاوزناها». يراقبني بصمت. «من العار أن يحدث ذلك للشاب الذي تحبّينه». التفّت أصابعي حول الأغطية الرقيقة مثل الورق، ثم استدرت إلى الجانب، واستسلمت أخيرًا للخوف الذي انتشر في جسدي. هل سأتمكّن من تقدير كل الألوان في ألمانيا بدونه؟ هل سأريد ذلك؟ بكل ما تبقّى من

قلبي، أحب كنان والأمل الذي أعطاني إياه، ولست مستعدة للتخلي عنه.

أضم وسادتي إلى صدري، وأركز أفكاري على ابتسامته البسيطة وعيناه اللطيفتين. على كلامه. عليه.

لأنني إذا لم أفعل ذلك، إذا فكّرت في حمزة، فلن أتمكّن من التنفُّس. لن أتمكّن من العيش.

19

عندما رأيت كنان في اليوم التالي، كدت أن أسقط كيس حبوب الهالوبيريدول الذي أحمله. يقف بجانب سرير مريض ما. طفل صغير في السادسة من عمره، جانب واحد من رأسه مغطى بضمادات كثيفة، ويغطي عينه اليمنى. ينحني كنان ويتحدث بحيوية، وقد انبهر وجه الصبي الصغير. وكأنه نسي ما حدث له. تتحرك يدا كنان مثل المايسترو، وينسج القصص بين أصابعه.

أضع الكيس في الخزانة، واقترب من كنان، وألمس بلا وعي بإصبعي البنصر. أنبّه نفسي. ربما أكون مغرمة به، لكن هل هذا حقيقي، أم مجرد شوقي للهروب من هذا الرعب؟ لو كان مجرد صبي وكنت مجرد فتاة، أعيش حياة عادية، وقد التقينا في أي مكان آخر، فهل كنا سنظل نحب بعضنا البعض؟

علاوة على ذلك، حتى لو كان هذا حقيقيًا، فلا شيء من ذلك يهم طالما أنه مصمّم على أن يصبح حملًا قربانيًا. الألم لا يقارن بمعرفة ما يمر به حمزة.

قررت هذا الصباح أنني غاضبة من كنان. لديه قلبي وهو يكسره. مع قلبَي لمى ويوسف. إذا لم يفعل الشهر الماضي شيئًا أكثر من خدش درعه، فكم من الوقت يحتاجه حتى ينهار تمامًا؟ ماذا سيكون سبب هزيمته؟

يقول كنان: «وبعد ذلك أنقذ القراصنة الصبي والفتاة». لا يزال الطفل الصغير لا يستطيع أن يرفع عينيه عنه. «لقد أبحروا في جميع البحار السبعة وقاتلوا الوحوش معًا».

«ثم ماذا؟» يسأل الصبي.

اقترب كنان قليلًا، وصوته خافت، وخطوت خطوة أخرى إلى الأمام. «حسنًا، أرادت الفتاة الاحتفاظ بالألماس الذي أعطته إياها والدتها. وأراد الصبي أن يجد جده. كان لدى القراصنة الإجابات على هذين الأمرين، وهكذا...». توقّف واستدار، ورأى نظرة الرهبة على وجهي. «سلامة. صباح الخير».

«صـ.... صباح الخير».

إذا كان لا يزال يفكر في الطريقة التي صرخت به بالأمس، فهو لا يظهر ذلك. «كيف حالك؟».

ألعب بأطراف حجابي. «الحمد لله». ينظر إليّ بهدوء. «هل هناك أي شيء تحتاجينه؟» أنت. أحتاجك أن تغادر معي. «لا»، أجيب بدلًا من ذلك.

يبتسم ويقف ويُخرِج شيئًا من جيبه. يمدُّ يده. إنها قطعة من الورق مطوية بدقة. «افتحيه».

أفعل وألهث بهدوء. لقد رسم غابة المحيط. أشجار ضخمة تحيط بفتاة صغيرة، أوراقها ترفرف في مهبّ الريح. بجانبها سمكة صغيرة بها خطوط على طول جسدها.

يُشير كنان إلى أن «هذه سمكة الملاك الناري. فكّرتُ أن لديها صديقًا بلون النيران. يمكن أن ينير لها الطريق عندما يحل الظلام».

يتسارع نبضي، وأضم الورقة إلى صدري. «شكرًا لك».

يخدش مؤخرة رقبته، وخداه ورديان. «أردت أن أبهجك بعد ما حدث، كما تعلمين».

«سأعتزُّ بهذا إلى الأبد». أبتسم ابتسامة شجاعة.

يبتسم لي كذلك ثم يشير إلى الصبي الصغير. «هل ترغبين في سماع القصة معه؟».

أضحك. «نعم».

أقف بجانب الصبي الصغير المتحمس، أضع الرسم في جيبي وأراقب الطريقة التي يتحمس بها كنان. إنه يأمر الكلمات، ويحقن كلّ واحد منّا بالدهشة، وسرعان ما نصبح محاطين بالناس، كلهم يقتربون منّا، ويريدون أن ينسوا آلامهم ويهربوا إلى عالم آخر. يقف كنان، ويرتفع صوته وهو يستحضر السفن التي تطير والليمون السحري الذي ينعشك من حافة الموت. إنه آسِر، وهو راوي بالفطرة.

لكن مع كل كلمة، كان الثقل يقع على قلبي، فأتراجع ببطء وسط الحشد حتى لا أرى سوى شعره الأشعث وأكتافه العريضة. من المؤلم رؤيته، وهو رجل ميّت يمشي، في حين يمكنه أن يؤثر على العالم.

التفتُ، ولكن قبل أن أخرج من الردهة، ناداني كنان. يتحدث الأشخاص الذين يقفون خلفه فيما بينهم، ويعودون إلى أسِرّتهم وعائلاتهم، وأعينهم تشرق أكثر قليلًا. شخصان يصفقان لكنان وهما واقفان في ظهره، فيبتسم لهما. يقترب مني، مقطبًا حاجبيه، وأنا راسخة في مكاني، وكل خلية تريده بالقرب مني.

«هل كل شيء على ما يرام؟» يسأل.

هناك وجع كليل يتردد خلف عيني، ويهدد بذرف الدموع.

«ما رأيك يا كنان؟» أهمس. كل شيء مكتوب بحرية على وجهي ليقرأه.

يغمض عينيه للحظات، ويلتقط أفكاري. «سلامة»، يبدأ. لهجته منخفضة، ويكاد يختنق. «أنا... عليك أن تدركي أن هذا أمر صعب».

أشعر وكأنني أقف على أرض تهتز. «هل تعتقد أنه من السهل بالنسبة لي أن أغادر؟ ماما مدفونة هنا!

والدي أيضًا. أخي...» توقّفت، وغطيت وجهي بيدي، وأجبرت نفسي على أخذ نفس عميق.

أرجوك يا الله أن يموت. دعه يجد هذا السلام.

لا يزال كنان يحدق بي بألم عندما أنظر إليه مرة أخرى.

«لقد تم تجريدنا من خياراتنا، لذلك نتمسك بما يضمن بقاءنا». أدفع بعيدًا كل مشاعري. صوتي يخرج محسوبًا وباردًا. «العالم ليس حلوًا أو لطيفًا. الذين في الخارج ينتظرون أن يأكلونا ويطحنوا عظامنا بأسنانهم. هذا ما سيفعلونه بإخوتك، لذلك نحن نفعل كل شيء للتأكد من أننا وأحباءنا على قيد الحياة. مهما كلّفنا الأمر».

يندلع الخوف خلف قزحية عينيه، لكن كل ما سيقوله بعد ذلك يختفي عندما ينظر خلفي، وتتسع عيناه من الرعب.

التفتُ لأرى يوسف يحمل لمى بين ذراعيه الشبيهتين بالهيكل العظمي، وأتساءل كيف تمكّن من قطع هذه المسافة من منزلهم. يركض كنان نحوهما، وقد أصابني رعبه. عيون لمى نصف مغلقة، وشفتاها الجافتان مفتوحتان. يأخذها كنان من يوسف، ويضع رأسها على كتفه، وينظر إليّ بعنف.

«أحضرها إلى هنا». أشرت إلى سرير أصفر فارغ، فأجلسها بلطف، وهو يتمتم بكلمات الحب بينما يمشّط شعرها للخلف قبل أن يأخذ يديها في يديه ويضغطهما على شفتيه، ويدعو. ويوسف يقف بجانبه، وجهه أبيض من الرعب، وترتجف شفته السفلى.

«ماذا حدث؟» يسأل كنان يوسف، فيهز رأسه ويشير بيديه.

أتحقق من الجرح في بطنها، لكنه شُفي في الغالب، والجلد وردي، دون أي علامة على وجود صديد أو عدوى.

«لمى، يا حبيبتي...». أضغط سماعة الطبيب على قلبها. إنه يدقّ في قفصها الصدري. «كيف تشعرين؟ أين الألم؟».

تتحرك، والجفون ترفرف. «أشعر... إنني مريضة. ورأسي يؤلمني».

أضع يدي على جبهتها. إنها باردة. بشرتها ملتهبة.

تشقّق الشفتين. صداع. كل شيء يأتي معًا. «تعاني من الجفاف».

ينظر كنان إليّ بصدمة، والدموع الصامتة تنساب على خديه. «ماذا؟».

أقول: «أعطني يدها»، فيفعل. قمت بقرص أظافرها لبضع ثوان حتى يتحوّل لونها إلى اللون الأبيض وتتحرك لمى بشكل غير مريح. عندما أخفّف الضغط، يستغرق الأمر بعض الوقت حتى يستعيد لونه الوردي. «نعم. جفاف».

أسرعت إلى المتجر الطبي، وأحضرت أحد أكياس الحقن الوريدي، وأسرعت عائدة لأعلّقه في وريدها. إنها حتى لا تحتجّ عندما أدفع طرف الإبرة إلى جلدها.

«كنان، اذهب وأحضر لها كوبًا من الماء»، أخبرته، فينظر إليّ مشوّشًا. «سوف تكون بخير إن شاء الله. لكنها بحاجة للشرب».

أومأ برأسه وعاد بالماء بعد قليل ليساعدها.

خُذ رشفات صغيرة. سمعت نور بما حدث وأحضرت ليوسف كرسيًا ليجلس عليه. تربّت على ظهره بينما ينظر إليها. لا ينبغي لأحد أن يعيش مثل

هذا القلق إذا ماتت أختهما بسبب نقص الماء.

«سوف يحلُّ الجهاز الوريدي محلّ ما فقدته». أعضُّ شفتي. «الحمد لله لم يكن الأمر أسوأ».

فكُّ كنان مشدود، وكتفاه ترتجفان بصمت. ينهض ويمشي نحو الأبواب الأمامية. أرمش، متفاجئة، قبل أن أتبعه. ينزل مسرعًا على الدرج ويمرّر يديه في شعره.

«كنان»، أقول بتردد.

يستدير، ويبدو وكأنه يعاني من ألم جسدي.

يبدو صوته مكسورًا. هُزم. «بالأمس، بعد أن ذكرت ما يحدث للاجئين في أوروبا، غدثُ إلى بلدي وأجريت المزيد من الأبحاث حول هذا الموضوع». يتوقف، وينفخ الهواء بقوة. «يتعرّض الناس للخداع والسرقة، ويُتركون بمفردهم في مكان مجهول. الفتيات... يتمُّ الاتجار بهنّ أو الزواج بالإكراه. ويُجبر الأولاد على عمالة الأطفال».

يهبط على الأرض وكأنّ رجليه لم تعودا قادرتين على حمله، فأسرع إليه.

«كنان!». ركعت بجانبه.

ويخرج صوت مختنق من حنجرته. «أنتِ على حق. لقد وعدت بابا بأنني سأعتني بهما. بأن أحملهما في عيني. لا أستطيع أن أضمن أنهما سيجدان عمي عندما يصلان إلى إيطاليا. لا أستطيع حتى أن أضمن أن لمى ستنجو من الجفاف. ولكن... لديّ أيضًا واجب تجاه بلدي». يمرّر يديه في التراب، فيلطّخهما اللون البني المحمر الباهت، ويلطّخ أظافره والشقوق الموجودة في جلده. «سلامة، عليك على الأقل أن تعترفي بأن هذا ليس صحيحًا».

«بالطبع ليس كذلك!» أنا أصرخ. «هذا ليس عادلًا

وليس صحيحًا. لكن لا يمكنك التخلي عن لمى ويوسف».

«الجميع يغادرون واحدًا تلو الآخر»، يهمس ويفرك عينيه، ويخطُّ سوريا على جبهته، ويلطِّخ نفسه بأرض أجدادنا. «قريبًا لن يكون هناك من يدافع عن سوريا».

«غير صحيح. أنت، أكثر من أي شخص آخر، تستطيع تغيير العالم. هل لديك أي فكرة عمّا يمكن أن يفعله خيالك؟ ألم تر كيف نظر الناس إليك هناك؟». يلمع بريق من خلال عينيه الخضراء الداكنة. «المعركة لم تنتهِ بعدُ، وهي ليست هنا فقط. لقد أصبح تاريخ سوريا بأكمله باهتًا في ذاكرة الناس. إنهم لا يعرفون كم هي جوهرة. وهم لا يعرفون مدى حب هذا البلد. أنت مدين لهم بذلك. أنت مدين لنا بذلك»، أقول بشراسة.

يمرر يده على وجهه، ثم يتنحنح. «وماذا عن الذنب؟».

«حبك لسوريا سوف يدفعك. الذنب هو مجرد أثر جانبي». أبتسم بحزن. «بدون هذا الحب، ستفقد قصصك معناها».

يرمش ببعض الدموع قبل أن يمسحها بكمّه. يهمس قائلًا: «لا أستطيع أن أصدق أنني سأفعل هذا».

قلبي يلين، ينكسر. «كنان. سوريا ليست فقط ما نقف عليه. إنها لمى وهي تكبر، وتصل إلى سنّ المراهقة مع شقيقيها الكبيرين معها. إنه يوسف يحصل على أعلى الدرجات ويخبر الجميع عن أشجار الليمون في حمص. إنه أنت، الذي يتأكّد من أننا لن ننسى أبدًا سبب القتال. إنه أنت و...» توقّفت، وأتماسك قبل أن أقول شيئًا غبيًا. شيء عن حياة

محتملة.

وأخيرًا استقرّت ابتسامة صغيرة على شفتيه، وأشعر أنني أحمرُّ خجلًا.

«أنتِ على حق»، يهمس. أتنهد بارتياح.

نبقى راكعين على ترابنا، والركام يحفر في ركبنا، والطين يلطخ بناطيل الجينز. وفي تلك اللحظة، محاطان بالحقائق القاسية التي يتعين علينا أن نتعايش معها، بطريقة ما، لم يغدُ المستقبل يبدو قاتمًا بعد الآن. الألوان نابضة بالحياة.

أقول: «سأجد آم غدًا. لقد غادر مبكرًا».

يعضُّ شفته. «ماذا لو فات الأوان؟ ماذا لو تم شُغِلَت جميع المقاعد؟».

أهزُّ رأسي. «المال يشتري كل شيء يا كنان. وإذا لم يحدث ذلك، فسوف أقوم بتهريبك على متن القارب إذا كان هذا آخر شيء أفعله».

يحدق بي، وأتساءل عمّا إذا كنت قد قلت الكثير. إذا كانت مشاعري تجاهه مكشوفة على وجهي بهذه الحرية، فلن أحتاج إلى قول الكلمات.

وفي عينيه يتغير شيء. لا يهذب تعبيره. لقد سمح لي بإلقاء نظرة على كل فكرة كانت لديه عني منذ اليوم الذي التقينا فيه. إنهم في الثنية بين حاجبيه، في رفع شفتيه اللطيف، في الشوق في عينيه.

أتنحنح. «يجب أن تعود إلى لمى».

اعتقدت أن ذلك سيكون كافيًا لتبديد السحر بيننا، لكن كنان ابتسم وهو يقترب أكثر، وأحبس أنفاسي ورائحة الليمون تغلّف أنفي. «هل من المقبول إذا لم أوصلك إلى المنزل اليوم؟».

اومئ.

«ولكن هل يمكنني ذلك غدًا؟».

«نعم»، أتنفس.

راضيًا عن إجابتي، يقف ويتجه نحو المستشفى، لكن قبل أن يختفي في الداخل، أسأل دون تفكير: «كيف تكون رائحتك كالليمون طوال الوقت؟».

يتوقّف مؤقتًا ويستدير ببطء، مندهشًا. «إنها كولونيا بابا».

20

إنها فكرة ليلى أن تستخدم الليمون لمحاربة دوار البحر عندما نكون على متن القارب.

«بالطبع»، أقول. «لماذا لم أفكر في ذلك؟».

تضحك وهي تنظر إلى مجموعات الملابس الثلاث التي تختار من بينهم. «هذا لأنني لست الشخص الذي يختبر تبشم الحب. ويبدو أنه الآن أكثر من أي وقت مضى، مع انضمام كنان إلينا».

أتجاهلها وأراجع القائمة، مدركة ضخامة جيبي حيث توجد رسمة كنان. معطف ثقيل. جواز السفر والشهادة المدرسية. في بداية الانتفاضة، بدأت أحمل جواز سفري في كل مكان تحسّبًا لحدوث أي شيء أو اضطرارنا للفرار في اللحظة الأخيرة.

وأحسب الضروريات الأخرى. ثماني علب تونة وثلاث علب فاصوليا. شريط واحد من بنادول. زوج من الضمادات. أربع زجاجات ماء.

«ليس عليك أن تقولي أي شيء لكي أعرف». تتخبّط ليلى على الأريكة بعد أن اختارت أخيرًا فستان أزرق داكن وجوارب صوفية سميكة. «لم تكوني قادرة أبدًا على إخفاء الأسرار عني. امتيازات معرفتك طوال حياتي».

شددت أصابعي على الدولارات الملفوفة بإحكام بينما يومض جسد سمر الهزيل الملطّخ بالدماء أمام عيني. وأوصي نفسي بعدم التقيؤ، مع أنني لم أتناول أكثر من خمس ملاعق من حساء العدس. «هل هناك أي شيء آخر لا نتذكره؟» أسأل، وأركز على حقيقة أن كنان سيكون معي على هذا القارب.

تطلق تنهيدة وتومئ برأسها نحو الـ USB الموجود بجانبي على الأرض.

ألتقطه.

«به صور عائلتنا. سيكون معنا حمزة هناك. ووالدانا أيضًا».

غصّة تستقر في حلقي. «متى فعلت هذا؟».

تهزُّ رأسها. «حمزة من فعل. الأسبوع الأول من الثورة».

أضع يدي على فمي وأنظر بعيدًا، والدموع تحرق عيني.

ماذا يفعلون بك يا حمزة؟

تهمس ليلى: «كان يعلم أن هذا سيحدث. أو على الأقل كان يشك».

«لقد كان دائمًا الشخص الذكي»، همستُ بدوري.

ألقي نظرة على ليلى. الدموع تزيّن عينيها مثل الياقوت.

تمدُّ يديها وأنا آخذهما.

وتقول: «الحمد لله. مهما حدث لنا، له، سأتمسّك بإيماننا».

أومئ، وحنجرتي مليئة بالأسرار والندم.

***

في صباح اليوم التالي، بمجرد دخولي إلى المستشفى، توجّهتُ مباشرة نحو أم. إنه متمركز في الردهة الرئيسية، وينظر من النافذة.

«أم»، أقول، وتوجّهتْ نظراته نحوي. «سلامة».

أخرجت قرص بانادول وأسقطته في يده. «أحتاج إلى مكان لشخص آخر».

يحدّق بي غير مصدّق. «والأسبوع المقبل سيكون هناك واحد آخر. وآخر وآخر».

«لا» أقول في تصميم. «واحد فقط».

يلوّح بالكمبيوتر اللوحي أمامي. «ليس لديك سوى الكثير من النفوذ يا سلامة. البنادول لن يكون كافيًا للحصول على خصم».

«لقد حصلت بالفعل على الذهب الخاص بي!».

يهزُّ كتفيه هزّةً بسيطة وينقر بعقب السيجارة على الأرض قبل أن يطحنها تحت كعب حذائه. «ليس كافيًا. ما هو الأهم؟ الذهب أم حياة الإنسان؟».

أريد أن أسخر منه، وأضربه على وجهه بسبب النفاق الذي يغطي لسانه. بدلًا من ذلك، تمتمت: «خاتم».

يفكر في الأمر. «حسنًا».

صوت الاصطدام البعيد يجعلنا نقفز، لكن اللحظة تمرُّ، وخارج النافذة تنطلق بعض الطيور إلى السماء المليئة بالغيوم.

آم يعبث بسيجارة. وعندما ينظر إليّ مرة أخرى، يبدو وكأنه يراني للمرة الأولى.

«ماذا؟» أقول بشكل دفاعي وأنا أطوي ذراعي.

«هل كنت كذلك دائمًا» -وأشار إليّ- «جوفاء؟».

بشكل واعٍ، أعدل حجابي، وأسحبه عبر كتفي الآخر. أنا متأكدة من أنه سيسعده أن يعرف أن الذنب لما فعلته قد حوّلني إلى جلد وعظم. لكن قبل أن أتمكّن من الإجابة، نادى الدكتور زياد على اسمي، فالتفتُّ لأراه يلوّح لي، ونظرة محمومة في عينيه.

أسرعت إليه، وقلبي ينبض بعنف في حلقي. «يا دكتور ما الأمر؟» أسأل، وهو ينظر حوله بسرعة، قبل أن يقودني إلى زاوية الردهة.

«هل سمعت ما حدث بالأمس في كرم الزيتون؟» صوته خافت، خُنق من الألم.

يجفُّ فمي وأهز رأسي.

«الجيش... إنهم يتجمّعون...». توقّف، والألم يلمع في عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يتابع. «نساء وأطفال مذبوحون من الحلق. لم يبق أحد على قيد الحياة. ولا طلقة نارية واحدة. الأطفال... لقد كانوا...». فقد رباطة جأشه مرة أخرى، وتلمع عيناه، وتحترق عيناي بالدموع.

«لقد تعرّضوا للضرب بأدوات حادة، وتعرّضت فتاة لتشويه شديد. وسمعت الأحياء المجاورة لهم الصراخ. لقد أكّد لي الجيش السوري الحر ذلك للتو».

معدتي تتأرجح وتمكنت من الهمس: «ماذا... نحن التالون، أليس كذلك؟».

يمرّر يده عبر شعره ويعدل ظهره، وتتلاشى كل آثار الرعب من تعابير وجهه. إنه طبيبنا الرئيسي، ومنه نستمدُ قوتنا. إذا انهار، سنسقط جميعًا. «تمكن الجيش السوري الحر من الحصول على معلومات حيوية حول هجوم مخطط له في مكان قريب هذا الصباح، وقاموا بتحذير جميع المستشفيات. إنه أسوأ من أي شيء كان لدينا».

«أسوأ من الصواريخ؟» أسأل، غير قادرة على تخيل ماذا أيضًا يمكنهم استخدامه.

أومأ، ولاحظت أن الأوعية الدموية في عينيه أصبحت أكثر وضوحًا- أكثر احمرارًا.

«مثل ماذا؟».

يأخذ نفسًا عميقًا يضيع في مكان ما في رئتيه. «الهجمات التي تنتهك اتفاقية جنيف».

أعبس. «إذن كل ما فعلوه حتى الآن قانوني؟».

«لا- بالطبع لا!» صاح وهو يفرك عينيه وترتعش يداه. «لكن هذا من المحرّمات». العرق يلمع على

جبهته.

«عن ماذا تتحدث؟» صوتي يخرج مخنوقًا.

يقول: «قد لا يحدث ذلك»، لكني أستطيع سماع الكذب في لهجته.

«يا دكتور، هذا هو النظام الذي نتحدث عنه. إذا أرادوا، يمكنهم إسقاط قنبلة نووية علينا». أضحك بلا روح دعابة وأضع يدي على جبهتي.

الجاردينيا. التخفيف من الاكتئاب والقلق والتوتر. جاردينيا. الجاردينيا. الجاردينيا.

عيناه تطيران من الأبواب نحوي وتعود مرة أخرى. «سلامة، أنا أعتبرك ابنتي. لذا من فضلك لا تهربي من المستشفى إذا حدث هذا. لا أحد منّا مستعدٌ للتعامل مع هذا الأمر، لكننا سنكون بخير».

«إذًا ماذا يحدث؟» أكاد أصرخ. «ماذا قال لك الجيش السوري الحر؟».

لكن ليس عليه أن يخبرني. صرخة تمزّق الهواء، فأستدير مصدومة. لم أسمع صرخة كهذه في حياتي. تفتح الأبواب أمام حشد من الضحايا يتدفّقون، لكنني لا أرى أي إصابات.

«ماذا يحدث؟» أنا أصرخ، وأحاول أن أفهم.

عشرات المصابين على النقالات أو على الأرض يتشنّجون وكأن أحدهم صعقهم بالكهرباء.

المراهقون مع رؤوسهم ممتدّة إلى الخلف، وأذرعهم وأرجلهم تهتزُّ بشكل لا يمكن السيطرة عليه.

أطفال صغار مع رغوة في أفواههم، ينظرون إلى الأعلى، ويحاولون فهم ما يحدث لهم.

قدمي متجذّرة في الأرض. لا أعرف ماذا يحدث. لا أفهم.

●

«هجوم كيميائي»، أسمع الدكتور زياد يقول. «لقد استخدموا السارين أخيرًا».

21

يدي تطير إلى فمي في رعب. كان ذهني يتسارع في قائمة الأدوية، قائمة بأي شيء لمكافحة السارين، لكنني لم أتوصل إلى نتيجة. لا أحد مستعدٌ على الإطلاق لهجوم كيميائي.

«كيف... كيف أتعامل مع هذا بحق الجحيم؟» أسأل، مع المسامير في حلقي.

يصرخ «أتروبين» حتى يتمكن بقية الموظفين من سماعه وهم يتحركون نحو الضحايا. «ديازيبام للتشنُّجات».

ينظر إلى الوراء ويراني متجذِّرة في المكان.

«سلامة!» يقول بحدّة. «علينا أن نتحرك الآن! سوف يموتون في غضون دقائق، هل تفهمين؟ كمية صغيرة جدًا من غاز السارين تكفي لقتل رجل بالغ. هؤلاء أطفال. تحرَّكي!».

ينشط عقلي ويتوقف كل الخوف إلا ما يدفع قدمي إلى الجري ويدي إلى العمل. علقت نور حفنة من محاقن الأتروبين على ذراعي، لكنني أتوقَّف. ليس لدينا أي شيء لحماية أنفسنا من غازات الأعصاب المتغلغة في أجسام المرضى، لذلك يجب استخدام القفازات.

أقوم بتقييم من يجب أن يتم الاعتناء به أوَّلًا. كلما تنفسوا أكثر، قلَّ الوقت المتاح لهم. أقترب من صبي مُلقى على الأرض، يرتجف بعنف، وأدفع أمه المنتحبة إلى الجانب. ليس لديّ الوقت لشرح أي شيء لأنني أدخل الإبرة في الوريد، وأدعو طوال الوقت. لا أتحقّق حتى لمعرفة ما إذا كان يستجيب. الوقت ترف لا نستطيع تحمُّله الآن. بمجرد أن أتوجّه لمريض آخر، تأخذ نور مكاني وتجري الإنعاش

القلبي الرئوي.

فتاة أخرى، الدموع تنهمر على وجهها والرغوة في فمها تحدق بي دون أن تنظر، وأخشى أن أكون قد فقدتها. الحقن في الوريد تعمل بسرعة، وأظل أردد في ذهني. نبضها ضعيف وعيناها مشدودتان. أنفاسي عالقة في حلقي. أحاول ألا أنظر إلى عينيها بينما أمسك بمرفقها وأغرز إبرة الحقنة في الوريد المرفقي. أنتقل إلى الضحية التالية. كلمات أحمد الصغير الأخيرة ترنّ في أذني طوال الوقت، وأشعر بشبحه يراقبني. أتحرك ببطء شديد لا يساعد على إنقاذ أي شخص. عيناه تحترقان مثل العملات المعدنية الساخنة في مؤخرة رأسي، وقد نفد صبره من يدي الراكدة التي لا تحقن الترياق بالسرعة الكافية.

سأخبر الله بكل شيء.

لا أستطيع حساب عدد الأشخاص الذين لا أستطيع إنقاذهم. عيونهم سوداء، مثل ليلة بلا نجوم، وتعبير متجمّد من الخوف والارتباك محفور على وجوههم إلى الأبد. أدركت أنني أرتجف عندما تمسك يدي بلا حول ولا قوة بأكتاف امرأة شابة ضعيفة، في محاولة لإعادة الحياة إليها.

«لا»، أقول من خلال الأسنان المضغوطة. «من فضلك لا تموتي!». أنفاسها لا تضبّب قناع التنفس الخاص بها، وهي تحدّق بي بلا حياة. رائحة المبيض تحرق أنفي.

الكلور.

لم يستخدموا السارين فقط.

اللعنة... اللعنة... اللعنة...

الأجساد التالية التي تلمسها يدي ميتة. لا أحد على

قيد الحياة. لقد تأخّرت جدًا. لقد كانوا هناك، ولم أتمكن من الوصول إليهم في الوقت المناسب. أنهض ببطء وساقاي ترتجفان، وأنظر إلى الكارثة في كل مكان.

تحيط بي أجساد فوق أجساد، وأقف في المنتصف، أشاهدهم وهم يحكمون عليّ. يدي باردة وحمراء من الغاز الذي يغطي الضحايا. تتكرر نفس القصة بشخصيات مختلفة، لكن النهاية هي نفسها دائمًا. ومع ذلك، على الرغم من معرفة ذلك، فإن الألم عظيم. أعظم مما أستطيع أن أتحمله.

كل شيء ينفتح أمامي بحركة بطيئة.

أشاهد أطفالًا صغارًا يمسكون بجوانب أقنعتهم، وهم يصرخون من الألم. أرى عائلات بأكملها مستلقية بجانب بعضها البعض، ممسكين بأيديهم، على أمل أن يظلوا متشابكين عندما يصعدون إلى السماء. أمشي ببطء، وأركّز عيني على باب الخروج. أحتاج إلى هواء. أحتاج إلى تنفس شيء غير الكلور.

«سلامة!». نور تمسك بذراعي قبل أن أفتح الباب الأمامي. «ماذا تفعلين؟».

«إلى الخارج»، أقول بصوت خشن. امتصّ جلدي غاز السارين الناتج عن علاج المرضى وبدأ في إغلاق حلقي. يا إلهي... إنه يحترق!

«ليس بدون هذا... لن تخرجي». تدفع قناعًا جراحيًا في يدي. «لن يفعل الكثير، لكنه سيساعد».

لن يفعل أي شيء. ولكن كيف لنا أن نعرف؟ لم نكن مستعدّين لهجوم كيميائي. هل الأطباء العاديون مستعدون لذلك؟

انهرت على درجات سلم المستشفى، أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي. لقد مرّت ساعات بالفعل

دون أن ألاحظ، والآن حلّ وقت الظهيرة. الموت يسرق منا الثواني. يتسلل الأكسجين ببطء إلى رئتي، وأبدأ أخيرًا في تذكر عائلتي.

«ليلى!». نهضت، ونظرت في اتجاه منزلنا. إنها آمنة. أنا أعلم أنها كذلك. لم يكن أي من الضحايا من الحي الذي نعيش فيه، والذي يقع على بُعد خمس عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام من المستشفى. ولم يصل السارين إلى المستشفى؛ ممّا يعني أنه لم يصل إلى منزلي أيضًا.

فكرتي التالية تتعلق بكنان وإخوته. معدتي تتلوى على نفسها من الرعب. ليس لديّ أي فكرة عمّا إذا كان قد جاء اليوم. اللهم لا تجعل حيّه يتأثر.

أخلع القناع وأعبث به وأتجول محاولة استحضار أفكار عقلانية.

لو تأثروا، لكانوا قد تمّ إحضارهم إلى هنا. لكن.. وماذا لو ماتوا بمجرد استنشاق الغاز؟ يا إلهي. يا إلهي! تنفّست بعمق وقررت أن أغادر الآن وأطمئن على ليلى ثم أتوجه فورًا إلى منزل كنان للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

«سلامة!» يصرخ صوت من خلفي، فألتفت لأرى كنان واقفًا أمام أبواب المستشفى، وهو يحمل قطعة قماش مؤقتة على وجهه. على قيد الحياة. إنه يطلق نفَسًا عميقًا أشعر به داخل روحي.

ضعفت ركبتاي بسبب الراحة وانهرت على السلم. «سلامة!» يصرخ مرة أخرى، مسرعًا نحوي. «هل أنت بخير؟ يا إلهي، من فضلك أخبريني أنك كذلك».

يجثم بجانبي، ويزيل القماش من فوق فمه، وأملأ عيني به. عيناه الخضراوان اللامعتان، ووجهه الجميل الصادق.

«أنا بخير»، همست. «أنت؟ لمى؟ يوسف؟».

أومأ بسرعة، ويداه تحومان بجانب رأسي، ويصلّب نفسه قبل أن يعيدهما. ومع ذلك، أستطيع أن أشعر بدفئهما، والدم يتدفق في عروقه.

«الهجوم لم يكن... لم يكن قريبًا من مكاننا، ولكن كان عليّ أن آتي إلى هنا للتأكد من أنك على قيد الحياة»، كما لو أن الطاقة قد استنزفت منه فجأة، فهو ينهار بجانبي. تفوح منه رائحة الدخان وبقايا الغاز والليمون. ساقاي ترتجفان من التعب، وذراعاي تؤلمانني، وكل ما أريده هو الاستلقاء هنا على هذه السلالم المتكسرة والنوم إلى الأبد.

تتسرّب أصوات الجرحى الخافتة من شقوق جدران المستشفى وأغمض عيني غير قادرة على حبس آلامهم في قلبي دون أن أنطوي على نفسي وأبكي حتى الموت. لماذا؟ لماذا لا أحد يساعدنا؟ لماذا نُترك للموت؟ كيف يمكن للعالم أن يكون بهذه القسوة؟

أحتضن ركبتي، وأضع رأسي بين ذراعي. «أنا مرهقة»، همست.

يجيب كنان: «وأنا أيضًا».

أهزّ رأسي. «لا. لقد استُنفدت من كل هذا. أنا مرهقة، نحن نختنق ولا أحد يبالي على الإطلاق. لقد استنفدت أننا لسنا حتى فكرة لاحقة. أنا منهكة لأننا لا نستطيع حتى الحصول على حقوق الإنسان الأساسية. أنا منهكة يا كنان».

أشعر بعينيه عليّ، لكن عندما أرفع رأسي، أحدق في أفق السماء المطل من خلال المباني المهدمة بدلًا من ذلك. باللون الأزرق والرمادي.

«أنا غاضبة أيضًا»، أواصل.

وأدرك أن الغضب كان موجودًا دائمًا، وينمو ببطء وثبات. بدأ الأمر منذ فترة طويلة عندما وُلدت تحت سيطرة دكتاتورية استمرّت في ممارسة الضغط حتى كُسرت عظامي. اشتعلت النيران وتحوّلت إلى لهب صغير عندما أمسكنا أنا وماما بأيدي بعضنا ودعونا بينما ارتدت أصوات المتظاهرين من جدران مطبخنا. اندمج الغضب مع عظامي، ولعق لهيبه عضلة القلب، تاركًا وراءه خلايا متحللة، عندما أُخذ بابا وحمزة. لقد بُني وبُني وبُني مع كل جسد كان أمامي. والآن، إنه نار مشتعلة تسري في جهازي العصبي.

أقول: «غدًا ذكرى الثورة»، يلتفت كنان إليّ. «أريد أن أذهب».

سقطت تلك الكلمات الثلاث من شفتي، وأنا أنتظر أن يمزقني الشعور المألوف بالرعب، ويفسد رغبتي. لكن هذا لا يحدث. لا، هذا يكفي.

يظهر خوف في زاوية عيني، لكني أرفض أن أنظر في اتجاهه، مع العلم أنني لن أجد هناك سندًا. هذا خياري، وهو ليس حاكمًا. بدلًا من ذلك، ألقيت نظرة على كنان، الذي كانت عيناه مثقلتين بالعاطفة.

«هل أنتِ متأكدة؟» يسأل، وأنا أبتسم تقريبًا.

أومئ. هذا القرار ينقّي ذهني. أريد أن ينضم صوتي إلى شعبي. أريد أن أطلق أحزاني بعيدًا. أريد أن أنعي شهدائنا. قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أشعر فيها وكأنني جزء من سوريا قبل أن يأخذني القارب بعيدًا. لا أريد هذا الخوف بعد الآن.

يقف كنان وينظر بعيدًا، ثم يقول بلهجة خشنة نوعًا ما: «لقد سمّيتموها ثورة».

ألقي نظرة على حذائي الرياضي. «حسنًا... هذا ما هي عليه».

يتململ بأكمام سترته قبل أن يلتفت نحوي. «دعيني أخذك إلى المنزل».

أنظر إليه. «إخوتك؟».

«ثقي بي». يقول: «لن أعرض إذا لم أكن متأكدًا من أنهم بخير».

«إن شاء الله».

«دعني أحضر حقيبتي إذن». نهضت وتوجهت نحو الأبواب، لكن يدي قبضت على المقبض بقوة، فجمدت عضلاتي. الغضب موجود، لكنه لم يمح الثقل الذي تركه الموتى على كتفي.

«سأحضرها. إنها في المخزن، أليس كذلك؟» يقول كنان بهدوء. أومئ. عندما يفتح الباب ليدخل، سعال المصابين وصرخاتهم الخفيفة تجعل حنجرتي تنقبض قبل أن يغلق الباب ويغيّبهم مرة أخرى.

كانت مسيرتنا نحو المنزل مليئة بالصمت، وسمحت لنفسي بالتحديق فيه، ملاحظة الطريقة التي تراجعت بها كتفاه. أشعر بعاصفة تشتعل في ذهنه أيضًا. ما رآه اليوم شتَّت عزمه على المغادرة. لكن عليه أن يعلم أنه لا توجد إجابة صحيحة في هذه المعادلة. الرحيل هو أهون الشرَّين. العالم الخارجي ليس آمنًا لإخوته ليغامِرا به بمفردهما، وسيتدمّر كنان إذا حدث أي شيء لهما. لكني بحاجة إلى أن أعرف... بحاجة إلى سماع الكلمات مرة أخرى.

عندما وصلنا إلى الباب الأمامي لمنزلي، أسند رأسه إلى الجدار المثقوب بالرصاص.

«أنت ستأتي معنا، أليس كذلك؟» أنا أهمس وهو ينظر إليّ.

«نعم» يقول بهدوء.

يدفع نفسه بعيدًا، ويمرر يده من خلال شعره. هناك نظرة زجاجية في عينيه، وهو يركل حصاة طائشة. ترتد بعيدًا، وتصطدم ببعض الحطام بشكل مثير للشفقة. «أنا فقط...» بدأ بالنفخ بقوة. «سلامة، أشعر بالعجز الشديد. سأتركهم ورائي. وبعد ما حدث اليوم؟» الألم يحرق عينيه. «سوريا تحتاجني وأنا أتخلّى عنها».

أهزُّ رأسي. «لا... أنت لا تتخلّى عنها. ماذا يفعل شعبنا هنا... الاحتجاجات؟ هذا جميل ومطلوب بشدة، ولكن مَن الذي تغيّر رأيه هنا؟ يمكنك أن تفعل الكثير من الخارج. يمكنك الوصول فعليًا إلى الأشخاص الذين يتركون تعليقاتهم على مقاطع الفيديو الخاصة بك. بفضل موهبتك في نسج القصص، نحتاج إلى صوتك لتنشر الموجود هنا. هذه هي الطريقة التي تقاتل بها».

يحدّق بي، وأحمر خدود وردي باهت ينتشر على خديه. «وسوف نعود»، قلت بصوت يرتجف.

«إن شاء الله، سوف نعود إلى المنزل. سنقوم بزراعة أشجار ليمون جديدة. سنعيد بناء مدننا، وسنكون أحرارًا».

التفتُ لأنظر إلى غروب الشمس المحتضر ثم إلى اللون الأزرق الشفقي الذي يلتهم الضوء. يقترب الليل سريعًا، لكنني أعلم أنه ليس أبديًا. غطاء الظلام هذا لن يدوم إلى الأبد. شرُّهم ليس إلى الأبد. ليس ما دام إيماننا وتاريخ سوريا يجري في عروقنا.

«سلامة»، همس كنان.

الطريقة التي ينظر بها إليّ تجعل الهواء يختفي من الحويصلات الهوائية. إنها نظرة قرأت عنها فقط في الكتب وشاهدتها في الأفلام. لم أظن أنني سأواجه أي تجربة مماثلة في الحياة الواقعية،

وبالتأكيد ليس في هذه الظروف.

يقترب أكثر، وتلامس أصابعه حافة معطف المختبر الخاص بي، ويظل كل شيء ساكنًا. أوراق الشجر الميتة تتراقص بجانب أقدامنا، النسيم البارد، الطيور المغردة. كل شيء. حتى ذهني.

يهاجر قلبي من موضعه في التجويف الصدري حتى المريء، وأنا أحدق في أصابعه الطويلة التي تمسك بأعلى جيبي.

«أنتِ على حق». همس قائلًا: «سوف نعود»، وتجرأت على النظر إلى الأعلى. أنا في حالة شكر من الطريقة التي يحدق بها بي. قريب جدًا، لطيف جدًا، جميل جدًّا.

ظهرت في داخلي حاجة جديدة للمس خديه، لتقريبه منه وتحشس لحيته تحت يدي. لكي أنسى كل هذا الألم.

سقطت عيناه الزمرديتان على شفتي لبضع ثوان، ثم نظر بعيدًا.

همس قائلا: «سلام»، ثم رحل.

تعود الحياة إلى العالم، حفيف الأوراق. وبقيت أتوق للمزيد.

***

«إذن أنت ذاهبة؟» تسأل ليلى بهدوء، وأسند رأسي على كتفها، وذراعي متشابكة بين ذراعيها. لم نتحرك من هذا المكان على الأريكة منذ عودتي إلى المنزل، وأطرافنا لا تزال مرتجفة قليلًا من رعب اليوم.

«هل تعتقدين أنني لا ينبغي؟».

تهزُ رأسها. «مطلقًا. هذا هو طريقك في الحياة يا سلامة. علاوة على ذلك، أنت أخت حمزة، أنا لست

مندهشة. لكن ما الذي جعلك تقرّرين الذهاب؟».

أضغط على ذراعها، وأعضّ شفتي. «لقد كنت خائفة لفترة طويلة. بالطبع أنا أكره النظام، لكنّ جزءًا مني... جزءًا جبانًا... اعتقد أنه ربما إذا لم أذهب إلى الاحتجاجات وانتصر النظام -لا سمح الله- قبل أن نصعد على متن القارب، فلن أتعرض للتعذيب... لأنهم سيسمحون لبابا وحمزة بالخروج. لكن الآن... بابا مات، وحمزة...». أتوقف. «جزء مني أراد أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه. العودة إلى العيش في خوف. وأنا أكره تلك الأفكار». أرفع رأسي لأرى التعاطف في عيني ليلى. «أشعر وكأنني منافقة».

«سلامة، من الطبيعي أن يشعر الإنسان بالخوف. وأنتِ لست منافقة».

«آمل ذلك»، همست. «أودُّ أن أشقَّ الوريد من أجل سوريا. إذا كان دمي يمكن أن ينقذها. إذا كان موتي سيحقق لشعبنا العدالة، فلن... ليس هناك شك في ذلك».

«أنا أعرف».

أغمض عيني. «هذا هو أقرب ما سأشعر به، إنها طريقتي في طلب الصفح عن الرحيل».

تضع ليلى خدها فوق رأسي. «أنا أعرف».

وبعد لحظات من الصمت قلت: «لا أعرف ماذا سيحدث غدًا. ولكن إذا لم... لو... أرجوك، اعثري على آم. اركبي هذا القارب. عيشي لي ولحمزة. وربّي الطفلة سلامة». أتّكئ للخلف وأمسك بكلتا يديها بقوة. «عديني».

تأخذ نفسًا عميقًا، وتصلب نفسها. «فقط إذا وعدت أنك ستفعلين كل شيء حتى لا تموتي. ستعودين

إليّ إن شاء الله». أصبح صوتها ناعمًا... ناعمًا جدًا. «سلامة، من فضلك. لا تكوني شهيدة. كافحي من أجل البقاء على قيد الحياة».

كلماتها تسقط مثل الحجارة الصغيرة في قاع البحيرة، ويحترق الجزء الخلفي من عيني. «أعذك».

ارتخت يداها في قبضتي. «وأنا أيضا أعذك».

***

خوف ينتظرني عند النافذة عندما أغلق باب غرفة نومي.

ويقول: «هذا خطأ». يبدو غاضبًا مني. «أنت قريبة جدًا من المغادرة. لماذا تعرّضين نفسك للخطر؟».

أتنهد وأجلس على سريري. «أعلم أنك تريد مني أن أبقى بعيدة عن المشاكل. لكن لا يوجد مكان آمِنٌ في سوريا. من الممكن أن أتعرض للقصف الآن».

يقف أمامي، ذراعاه مطويتان. «أنت حمقاء إذا كنت تعتقدين أنهم لن يركّزوا كل ما لديهم على الاحتجاجات غدًا».

أوافقه. «أنت على حق. ولن تمنحني السلام طوال الوقت. لذلك دعنا نعقد صفقة».

يعدل ظهره. إنه لا ينضح بهالة مرعبة، بل الاهتمام فقط.

أرفع ذقني. «أرني السيناريو الأسوأ». يضحك. «أستأتين مرة أخرى؟».

«أرني أسوأ نتيجة ممكنة. لقد أظهرت لي الماضي. أرني المستقبل. أرني ألم ليلى. إذا كنت قادرة على التعامل مع الأمر، فسوف تتركني وحدي طوال الليل. لن تهدّدني».

يميل رأسه إلى الجانب، وعيناه لامعتان. «أظهر لك اعتقالك. تعذيب كنان. قتل إخوته. كل ما يمنعك من

الذهاب غدًا؟».

العرق البارد ينفجر على جبهتي. «نعم».

يدرسني لمدة دقيقة، ثم يرفع أصابعه. «لا تلوميني إذا تركك هذا محطّمة. ربما هي هلاوس الآن يا سلامة». ينحني ليقرب وجهه مني. «لكنها احتمالات حقيقية للغاية».

ترتعش يدي وأطويها في قبضة. «افعل ذلك»، أقول، صوتي يرتجف.

يبتسم ويفرقع أصابعه.

22

مرّ اليوم التالي بسرعة كبيرة، وحنجرتي تحترق بطعم أحماض معدتي. لم أنم قطّ، وأشعر أن رأسي ثقيل بعد ما فعله خوف بالأمس. أفرك عيني، وأحجب الصرخات المعذبة التي لا تزال ترنّ في ذهني. تؤلمني عضلات عيني من كثرة البكاء بالأمس، لكنني أقف بثبات.

«هل حزمتِ كل شيء؟» يسألني آم عندما أعطيه قرص بانادول. «لا شيء ثقيل للغاية. إنه قارب لاجئين، وليس سفينة سياحية».

«أنا أعلم»، أضغط شفتيّ. أنظر إلى مرضاي المتناثرين في كل مكان، أرى عيونهم الحمراء، وأسمع سعالهم الذي يضرب الضلوع. «كيف سنعبر الحدود العسكرية؟».

ينظر جانبًا، ويتأكد من أننا بعيدون عن نطاق السمع. «أنا أعرف الحراس المتمركزين هناك. البعض يريد كسب المال. ليس هناك مشكلة في السماح لك بالمرور مقابل السعر المناسب».

الاشمئزاز يترك طعمًا أسوأ من أحماض المعدة على لساني.

يهزّ آم كتفيه. «إنه بيزنس يا سلامة».

أنفخ. «سمّها كما تريد، ولكن لا تكذب عليّ».

أثناء استراحتي، أعود إلى المخزن، وأقرأ الملصقات الموجودة على الأدوية لمساعدتي على الهدوء.

«مرحبًا»، سمعت كنان يقول من المدخل.

ينبض قلبي بسرعة وأزيل صورته وهو مضروب والدم يتدفق من محجر عينيه. «مرحبًا».

«هل يمكنني الانضمام إليك؟» يلعب بحافة سترته.

وجهه مجهد، وشعره متناثر، ويبدو أنه لم ينم أيضًا. لا بدّ أن ثقل قراره بالمغادرة أثّر عليه.

«بالتأكيد»، أقول، وألوّح بيدي إلى المساحة الفارغة أمامي. «كيف حال لمى؟».

يجلس ويتّكئ بظهره على إحدى الخزانات. «إنها أفضل بكثير. الحمد لله. نبض قلبها طبيعي، لقد سمعته بنفسي. نحن نتأكد من أنها تشرب الكثير من الماء. يوسف يتنفس بسهولة الآن بعد تحسّنها». يمدّ أصابعه ويقول بعد نبضة قلب: «عمّا سيحدث الليلة. عليك أن تعديني بشيء».

«ماذا؟».

«سوف نكون معًا. ولكن إذا حدث أي شيء لي، عليك أن تنقذي نفسك. إذا رأيتني أسحَب بعيدًا، فستهربين. هل فهمتِ؟».

لا، أنا لا أحب هذا. «كنان...».

تعبيره حاد. «سلامة، ستعدينني بهذا». عندما لا أقول أي شيء، يكرر بحزم أكبر. «سلامة!».

«حسنًا»، همست، وأنا أكره حتى التفكير في الأمر. «سوف... سأتأكد من أن إخوتك سيجدون عمّك إذا...». أصمت. لا أستطيع حتى أن أقول ذلك. «وإذا حدث لي أي شيء، أرجوك اعتنِ بليلى...».

«أعِدكِ بذلك» يفرقع مفاصل أصابعه. «لقد أخبرت يوسف أين تعيش ليلى، في حالة أن كلينا...» وكلماته لا تكتمل كذلك.

«حسنًا».

عيناه تدرسانني، وأنا أقاوم الرغبة في تغطية وجهي.

بدلًا من ذلك، تنحنحت وأخذت علبة الدواء. «ما هذا؟» يسأل.

أجبته: «الدواء المفضّل لديّ»، وأنا سعيدة بالتركيز على شيء أخر غير الطريقة التي يحدّق بها بي. «إبينفرين. الدواء السحري للقلب. إنه ينقذ الكثير من الأرواح».

«كيف يتم تناوله؟» يسأل بصوت منخفض، وأشعر أنني قد أحتاج إلى بعض منه لنفسي.

«مباشرة إلى القلب. ولكن لا يهمُّ حقًا. إنه يتم حقنه في الوريد ويعمل على الفور».

أومأ، لكنه لم يتوقف عن التحديق، وبدأت أتساءل عمّا إذا كان هناك شيء ما على وجهي. «مممم، هل...».

«كيف تتألق عيناك دائمًا بهذا السطوع؟» يقاطعني.

«ماذا؟» أضحك.

«عندما التقيت بك لأول مرة، اعتقدت أنها كانت خدعة من الضوء. لكن هذا ليس هو الحال. فإضاءة غرفة التخزين هذه سيئة للغاية، ولا تزال عيناك تبدو مثل العسل المذاب».

أنفاسي تتوقّف. يتحول وجهه إلى اللون الأحمر، ويتوقف عن التحديق بي، وينظر نحو الباب.

«أنا آسف»، يتلعثم. «لم أقصد أن أكون أسبق الأحداث هكذا».

«لا بأس»، همست وأنا أعبث بعلبة إبينفرين. أنا؟ عيون جميلة؟ لم أسمع ذلك منذ فترة.

الأصوات تنجرف عبر الباب المفتوح. «قتلوه. الرجل ذا الورود».

«غياث مطر؟» تقول امرأة عجوز مصدومة.

«نعم. كل ما فعله هو تقديم الزهور للعسكر. وزوجته حامل بابنهما. إنه هنا على الفيسبوك. لقد تعرض للتعذيب حتى الموت».

تنزلق علبة إبينفرين من أصابعي وتسقط على الأرض محدثًا ضربة قوية. يغمض كنان عينيه وتتألم ملامحه من الحزن. وعندما فتحهما أخيرًا، وقف وتوقف عند الباب. «سنتقابل عند مخبز الأمير، حسنًا؟».

أومئ بينما يمشي مبتعدًا. يعود قلبي إلى النبض الطبيعي، لكن الحزن ينفجر بالبكاء. أميل رأسي إلى الخلف وآخذ نفسًا عميقًا.

«هل تفكرين في التراجع؟» يسأل خوف وهو يظهر أمامي.

«لا»، همستُ، وصوتي يرتجف. ليس من الأهوال هذه المرة. «أنا أكرههم».

يجيب خوف بلطف: «أعرف. ويجب أن أقول، إنها طريقة تفكير رائعة»، يتوقّف. «ما أظهرته لك الليلة الماضية يا سلامة... كل هذه السيناريوهات يمكن أن تتحقق».

من المؤلم أن أبلع، لكن رغبتي في أن أكون أقوى من الأهوال التي أواجهها تفوق بكثير أي شيء آخر. ويساعدني في استقرار قلبي. «لا أستطيع القول إنني سأشعر بسعادة غامرة إذا ذهبتِ اليوم. لذلك، هل أنتِ على استعداد تام لمواجهة تلك العواقب؟».

أومِئ ببطء. «هذا هو ثمن مستقبل مليء بالحرية يا خوف. إنه الثمن الذي يدفعه حمزة كل يوم. لكني سورية. هذه أرضي، وكما هي الحال مع أشجار الليمون التي تنمو هنا منذ قرون، فإن الدماء المراق لن يوقفنا. لديّ ثقتي في الله. سوف يحميني. لقد تمّ إرغامي على الانغماس في القمع، لكنني لن أتعايش مع واقعه المرّ مرة أخرى. بغضّ النظر عمّا يحدث».

23

تقف الشعيرات الصغيرة الموجودة في مؤخرة رأسي تحسّبًا بينما أشقُّ طريقي بين الناس الذين يندفعون نحو مكان احتجاج اليوم.

ساحة الحرية.

يحوم القمر في الأعلى، ليظهر لنا طريقنا بلمسته اللطيفة. وباستخدام مصابيح مزودة ببطاريات يدوية ضعيفة والكشافات اليدوية، أصبح بإمكاني رؤية كل شيء. يمرُّ بي شباب مسرعين، بعضهم يحمل لافتات كبيرة مطلية باللون الأحمر.

أجزاء المحادثة التي تصل إلى أذني مليئة بالأمل والتصميم. الناس ممتلئون بالفخر بأنهم ما زالوا أقوياء بعد مرور عام. أتساءل كم عدد الوفيات، وكم من الصدمات، حتى تتحطّم معنوياتهم حقًا. إيمانهم قوي. في كل من الله والثورة. والآن، بعد أن ذاقوا الحرية الحقيقية، لا يمكنهم العودة إلى الأيام المظلمة.

من المفترض أن تكون الساحة تحت سيطرة الجيش السوري الحر، لذا سنكون آمنين لجزء من الليل، لكن جيش النظام يأتي دائمًا. أسحب غطاء رأسي الملحق بملابسي فوق رأسي بإحكام حتى لا يتمكن أحد من رؤية وجهي. على الرغم من أن الظلام يجعل من الصعب تمييز ملامح أي شخص، فمن الأفضل أن تكون آمنًا. في النهاية لا يهم حقًا، لا يوجد أبرياء في نظر الجيش. سيقتلوننا جميعًا، متظاهرين أم لا. بالنسبة لهم، تعتبر فكرة الحرية مُعدية، ويجب عليهم التخلص منها قبل أن تنتشر.

أحاول ألّا أفكر في ليلى وفي وداعنا. لم أكن أعتقد أنها سوف تتركني. لكن مهما حدث الليلة، فلن

أندم عليه.

يقف خوف بجانبي شامخًا، وكأنه نذير الموت.

قلت: «تذكّر اتفاقنا»، فأدار عينيه.

«لن أتحدث معك في وجود الشاب هنا. لكنه ليس غافلًا كما تظن. إنه يشك بالفعل في شيء ما».

وصلنا أخيرًا إلى الساحة وأسمع بداية الاحتجاج. الأصوات مبحوحة، قادمة من أعماق النفوس المكدومة، كل منها يجد موطئ قدمه قبل أن يختلط ببعضه البعض، قويًا ومتحدًا. يعلم كل شخص جيدًا أن كل كلمة قد تكون الأخيرة.

«نحن لا نعرف ذلك. حتى لو أنه يشكّ في شيء، فهذا مجرد شك»، أجبته وأنا أشق طريقي بحذر بين المتظاهرين حتى أجد المكان الذي طلب مني كنان أن أقابله فيه. إنه منعزل، وقريب من الحدث، ولكنه بعيد بما يكفي إذا أردنا الهرب. أتكئ على الحائط حيث دمّرَت قذيفةٌ جزءًا كبيرًا من الخرسانة. شظايا الزجاج تحطّمت تحت حذائي الرياضي.

«حسنًا. فقط تأكد من أن غطاء رأسك يغطي وجهك». خوف ينظر حوله. «دعينا نكون آمنين، ولا ننسحب».

أرفع رقبتي وأشاهد الناس يتجمعون وكأنهم روح واحدة، وحياة واحدة تمر عبر الجميع. أرى أطفالًا على أعتاب سنوات المراهقة، وقد تجرّد الخوف من تعابير وجوههم. لا يوجد مجال لذلك هنا. صبية، نشؤوا في ظلال رعب آبائهم، وقرروا أن يجعلوا هذا البلد ملكًا لهم. كبار السن الذين سئموا من الدكتاتورية التي تطوِّهم، ينتظرون حياتهم كلّها شرارةً واحدة لإشعال النار التي تحرق هذا الطغيان.

الخوف يموت هنا.

يمر بجانبي شاب في مثل عمري أو أصغر. تومض المصابيح الكاشفة فوق صدره العاري. تبرز أضلاعه حيث يلتقي الجلد بالعظم. الحرية مكتوبة على صدره بالفحم.

«مرحبًا!» أناديه متفاجئة. يتجه نحوي.

«ألست خائفًا؟» أسأل بصوت عالٍ.

ينظر إليّ للحظة قبل أن يبتسم. «دائمًا. لكن ليس لدي ما أخسره».

يستدير ويغوص وسط الحشد، متجهًا إلى مركز الاحتجاج. يعمل هذا المكان على مستوى مختلف عن المستشفى حيث يلتصق الموت بالأرضيات المبلطة. هنا، تشرق الحياة بقوة لدرجة أنها تزيل الشك. أشعر بالسلام.

تبتهج رئتاي بنفحة من الهواء. يرتفع الضغط عن صدري، وأشعر بخفة. يدور رأسي، وأشعر بحكة في لساني عندما أبدأ في الترديد وراءهم والغناء معاهم. خوف يتسكع بجانبي دون أن ينطق بكلمة واحدة، يراقب الجماهير باهتمام.

أحد الرجال وسط نبض الحشد ينقر على ميكروفونه. يرتفع صوته ويبدأ الناس في الهتاف بشكل هيستيري. تكاد كلماته تغرق وسط الهتاف، لكنني أستطيع أن أفهم جوهرها، إنه يروي ما حدث في العام الماضي. من غير الواقعي الاعتقاد بأن هذا قد استمر لمدة 365 يومًا. الوقت يتحرك بشكل مختلف هنا. الحزن يفعل ذلك. كل يوم، يمر كأنه عام، وكل يوم يمر نأمل أن يكون الغد أفضل.

ألاحظ أن العديد من الأشخاص يخرجون هواتفهم ويصورون. ويخرج بعضهم قطعًا من الورق تحمل التاريخ والمكان من تحت ستراتهم، ومكتوب عليهم بضع جمل: «اذهب إلى الجحيم يا الأسد»، و«نحن

قادمون إليك»، و«لا نخاف إلا الله»، و«الأسد قاتل».

لافتة منهم تلفت انتباهي. بأحرف مثالية مرصّعة باللون الأحمر، مكتوب قصيدة قديمة.

«كل ليمونة تلد طفلًا، والليمونة لن تموت أبدًا».

وما زال الليمون ينمو ويزهر ويغذي الثورة. أتذكر عصير الليمون الذي كانت ماما تحضره لي خلال فصل الصيف. أكاد أتذوق نكهته الباردة والحلوة والحامضة، ويسيل لعابي من الفكرة. يشتاق قلبي إلى ذلك الليمون المقطوف حديثًا ونظرة ماما المحِبّة وهي تعطيني عصير الليمون. أهزّ رأسي رافضًا ذلك الشوق بعيدًا.

ليس هنا.

الآن أعصابي تتوتر وكأنني حقنت نفسي بالأدرينالين. لا تتوقف يداي عن الارتعاش، لذلك أفركهما معًا. أشعر بالارتياح من لوح الخرسانة الصلب الذي يسندني، لكن عندما أنظر إلى الأسفل، أرى آثارًا من اللون الأحمر محفورة في اللون الرمادي. أشهق بحدة وأجبر نفسي على التطلع إلى الأمام. علم الثورة يرفرف عاليًا فوق رؤوسنا، ويجعلني أحلم بيوم نرفعه في مدارسنا، ونردد النشيد الوطني بكل فخر. عندما سيمثلنا في جميع أنحاء العالم. في الوقت الحالي، هذا العلم هو درعنا ضد برد الشتاء، والقنابل المتساقطة من السماء، والرصاص الذي يمزق أجسادنا. في الموت، هو كفننا، ملفوفة به جثثنا عندما نعود إلى الأرض التي أقسمنا على حمايتها.

الأصوات الفردية واحدة وأعلى من الحياة. «ما أحلى الحرية» تحلّق في الهواء، تلتقطها الكاميرات بجودة منخفضة لتنقلها إلى العالم أجمع. لقد سمعت

هذه الأغنية مرات أكثر ممّا أستطيع عدها. انها في كل مكان. إنها أبجدية ثورتنا. سيتم تعليمها لأطفالنا بمجرد أن يتعلموا التحدث. أصوات المرضى المرهقة تهز جدران مستشفانا. إنه مرهم جراحهم. لقد كان لديّ الكثير على طاولة العمليات وهم يدندنون بها دون وعي لأنفسهم. لقد ترسّخت في خلايا أدمغتهم، ولا يمكن لأي شيء محوها.

أغني بهدوء، صوتي يتناقض مع الأصوات العميقة المدوية في السماء فوقنا. دعاء في أغنية.

«سلامة».

صوته يغسلني مثل ضوء الشمس. التفتُ، محاوِلةً قمع الابتسامة. ملابسه مطابقة لملابسي. جينز قديم وسترة سوداء. كان شعره مرتّبًا إلى الخلف ومتشقّقًا بقطرات مُبللة كما لو أنه غمس رأسه في وعاء من الماء.

«مرحبًا». أومأت بلا مبالاة، متذكّرةً الطريقة التي نظرت بها عيناه لي في المخزن، وكيف أن الكلمات التي قالها انطوت بين أضلعي، لتخفف من وطأة قلبي المكسور. القلب الذي يحبه.

«كيف حالك؟» نظرته تطير بخجل مني إلى الأرض. ربما يفكر في تلك اللحظة أيضًا.

«بخير»، همستُ.

«كيف حال ليلى؟».

اهتمامه يجعل قلبي الذابل يُزهر. «خائفة عليّ، لكنها بخير». أتوقّف مؤقتًا، وأبحث عن موضوع من شأنه أن يجلب قطرة من السيروتونين. «كم كان فرح لمى ويوسف عندما أخبرتهما أنك قادم؟».

هو يبتسم. «أسعد مما كانوا عليه منذ وقت طويل. انفجرت لمى في البكاء ويوسف حاول أن يثنيني

عن القدوم».

«لا يزال يوسف لا... أعني أنه...». لا أعرف كيف أقول الكلمات دون أن أسبّب حرجًا. «لا» يقول بحزن. «ما زال لا يتحدث».

في بعض النواحي، يذكّرني يوسف بنفسي. أتساءل عمّا إذا كانت هناك أعاصير في ذهنه لا يعرف كيف يعبر عنها. الخوف عبء لا أعرف كيف أتقاسمه مع أحد. أريد بشدة. الوحدة تجعل حنجرتي مغلقة والدموع تنهمر في عيني. إنه ضغط يتراكم ويتراكم حتى يتشقق في جلدي وعظامي.

أؤكد لكنان: «سنجد ما يساعده في ألمانيا». يهرش الجزء الخلفي من رأسه. «نحن؟».

أذناي تشتعلان وأخذت نفسًا عميقًا. لماذا نلتف حول هذا؟ أعرف بالضبط ما أشعر به تجاهه، وتعبيراته لا تكذب. أعلم أنه يشعر بنفس الشيء. «لن ننفصل هناك، أليس كذلك؟».

يستدير نحوي بالكامل وتنزلق يده في جيبه. يبدو متفائلًا. «سلامة، لا أريد أبدًا أن...» يبدأ بهدوء.

وفجأة، دوّى هتاف بين الحشد وقفزنا، واحمرّ خجلًا بشدّة. يبدأ الرجل الذي يحمل الميكروفون أغنية جديدة بصوته العميق الحزين. لاحظت أن كنان لم يحضر كاميرته.

نقف في صمت، ونشاهد المشاعر تتأجّج في الحشد. وبين الأناشيد ندعو لأرواح الشهداء وللّذين يعانون في المعتقلات. أمسح دمعة فرّت من عيني. كم يعاني حمزة من الوحدة.

وبعد فترة يسأل كنان: «هل ترين الألوان؟».

تتحوّل شفتي إلى ابتسامة حزينة. «نعم». ألقي نظرة على الأشجار التي تصطف على جانب واحد

من الشارع. تتشكل الأوراق على الجذوع، وتلتف في دوائر إلى الأعلى. «هناك حياة في أصغر وأبسط الأشياء. أرى لماذا يحدث هذا. لم تكن الحرية أبدًا ثمنًا سهلًا، لقد تمّ الدفع بـ...».

«بالدم. أكثر ممّا كنّا نظن أنه قد يحدث» أنهى كلامه بمرارة.

«نعم»، أردد.

«لكنك كنت تعلم ذلك طوال الوقت». يحدّق في الأمام. «هل تعتقد أن الأمر يستحق كل ذلك؟».

يغنون جزءًا آخر من الأغنية.

أتذكر الجندي الأشقر في الجيش السوري الحر الذي كان في سلام رغم بتر ذراعه اليمنى. وقال: «لا يزال لديّ واحدة أخرى، أليس كذلك؟» «لا أعرف. أريد أن يكون يستحق كل هذا العناء. أريد أن أعرف أن العشب الذي ينمو فوق قبور الشهداء سيعطي الحياة لجيل يمكن أن يكون كما يريد. لكننا لا نعرف متى سيحدث ذلك. قد يكون ذلك غدًا أو بعد عقود من الآن».

«لهذا السبب لدينا إيماننا يا سلامة. ومن واجبنا أن نقاتل ونعيش ونمهّد الطريق».

أنا معجبة بالطريقة التي يقولها بثقة.

«ما هي أغنيتك المفضّلة؟» يسأل فجأة.

لقد فاجأني. «ممم... كم هي حلوة الحرية».

«وأنا أيضًا».

«هذا ما كان بابا يغنيه طوال الوقت قبل أن يأخذوه. كان يعبر بطريقة مختلفة كل مرة يغنيها، ولم يكن مؤلمًا أن صوته كان مثل الكناري».

«كان إبراهيم قاشوش ذكيًا جدًا في ابتكاره».

«جميع أغانيه رائعة».

إبراهيم قاشوش كان أحد جذور ثورتنا. رجل بسيط من حماة، كتب معظم الأغاني الشعبية التي تمنحنا القوة للمواصلة.

صوت كنان هادئ. «رحم الله روحه».

قلبي ينعى فقدانه وكأنني تلقيت الخبر للتو. قبض عليه الجيش. لقد قطعوا حنجرة صوته من زوره بعنف لدرجة أن رأسه بالكامل كاد أن يُقطع. ثم ألقي به في نهر العاصي لكي نكتشفه.

«آمين،» همستْ.

«نريد الحرية! نريد الحرية! نريد الحرية!».

يبدأ الجمهور في ترديد كل كلمة بالقوة التي غرسوها منذ خمسين عامًا. ينضمُّ إليهم كنان، وهو يغني بصوت ثابت وقوي، ويرفع هاتف الأيفون عاليًا لالتقاط كل ثانية. اقترب منه، منبهرة بصوته الجميل.

بطرف عيني أرى خوف عاقدًا ذراعيه. يلاحظني أحدق ويغمز.

أعبس.

قلت لكنان: «سيستمر هذا لفترة أطول مما كنت أعتقد». أوقف تسجيله مؤقتًا وانحنى ليسمعني. «متى من المفترض أن نهرب للنجاة بحياتنا؟ كم من الوقت حتى يأتوا؟».

«نحن تحت حماية الجيش السوري الحر. إذا جاء الجيش، فسيكون الجيش السوري الحر هو خط الدفاع الأول، وثقي بي، سنعرف ما إذا كان ذلك سيحدث».

أومئ، لكن أذني تجهد في التقاط ترددات طائرات الموت. لا أستطيع أن أكذب على نفسي وأتظاهر بالثقة بأنني سأتمكن من رؤية شروق الشمس غدًا.

أرفع يدي إلى حلقي، وأشعر بالطريقة التي تنقبض بها العضلات عندما أبلع. هذا الفعل يجعلني أشعر أنني على قيد الحياة وأكثر وعيًا بما يحيط بي. كان بإمكاني سماع أجنحة الفراشة إذا أردت ذلك.

«هل أنت بخير؟» يتردّد صدى صوت كنان في كل مكان. أطمئنه. والحمد لله أنه لا يضغط على هذه المسألة.

«هذا ملهم»، أقول قبل أن يتاح له الوقت لفضح كذبتي البيضاء. «بصراحة لم أتوقع أن أشعر بالتشجيع إلى هذا الحد».

«نعم، في كل مرة أنشر فيها مقطع فيديو لاحتجاج على يوتيوب وأقرأ جميع التعليقات، أشعر وكأنني جزء من تغيير كبير. أنا لست سياسيًا كبيرًا أو ناشطًا معروفًا أو أي شيء من هذا القبيل. إذا مت، أشك في أن أي شخص في العالم سيعرف. سأكون مجرد رقم، لكني أشعر وكأنني أغير أفكار الناس. وأجعلهم يرون الحقيقة. حتى لو كان ذلك من وجهة نظر واحدة. هل هذا منطقي؟». ينظر إليّ بخجل. «نعم، هو كذلك». أبتسم. «في كل مرة أقوم بخياطة جرح شخص وأخفّف آلامه -حتى لو كان مؤقتًا- أشعر وكأنني فعلت شيئًا ما. إن هؤلاء الأشخاص ليسوا أرقامًا. لديهم حياة وأحباء، وربما ساعدتهم في الاتجاه الصحيح. إذا كان هناك شيء واحد يخاف منه الناس، فهو أن يكونوا منسيين. إنه خوف غير عقلاني، ألا تعتقد ذلك؟».

يهرش مؤخرة رأسه ويبتسم نصف ابتسامة يمكن أن تلهم الكتب، فتتقلّب معدتي. عندما تنزلق عيناه إلى يدي المجروحتين، لا أغطيهما بأكمامي. لم أفكر بهما منذ أسابيع. في السابق، كنت أكره كيف أنها كانت بمثابة تذكير لما فقدته، لكنها الآن شهادة على

قوتي.

أتنفّس بعمق، مستمتعة بحقيقة أن الهواء ليس ملطّخًا بالدم. هبّ علينا نسيم نقي، وألقيت نظرة على العالم الذي يراه كنان. أرى ذلك وأحبه. حقًا. لكنه مثل حب المحيط. إنه أمر لا يمكن التنبؤ به، حيث تتحوّل المياه الزرقاء المتلألئة من الرائعة إلى المروعة في ثانية واحدة.

«أعتقد...» أبدأ، لكن ليس لديّ الفرصة لإنهاء جملتي. أشعر بالتحذير قبل أن تسجّل أذناي الضجيج. الموت له نبرة فريدة.

«نحن بحاجة إلى...» حاولت مرة أخرى، لكنني لا أستطيع حتى إنهاء كلماتي.

24

أولًا: تسقط قنبلة على بُعد شارعين من المكان الذي نقف فيه، والأرض تهتز وتتكسر.

ثانيًا: يتوقف الغناء، كما لو أن شخصًا ما أغلق جهاز التلفزيون، ويحدث الذعر.

ثالثًا: تمر الذكريات أمام عيني، حيث يرفض جسدي أن يصدق أنني أعيش أحداث العام الماضي مرة أخرى. على الرغم من أنني كنت أتوقع ذلك، فإن جسدي لا يساعدني.

أهزّ رأسي بسرعة. لا أستطيع أن أوقف ما أشعر به أو سأموت.

التردد هو حكم الإعدام الخاص بي.

«علينا أن نخرج من هنا الآن!» أسمع كنان يصرخ، لكن العديد من الأشكال تندفع أمام عيني، وتبدأ في التشويش. تمسك يدٌ بذراعي وتسحبني في الاتجاه المعاكس للمكان الذي سقطت فيه القنبلة. أتعثّر خلف كنان، وأدعو الله ألّا يتركني. تتدفق الأجساد من أمامنا، محاوِلةً التفريق بيننا بسبب إلحاحها، لكن قبضته لا تضعف. أبذل قصارى جهدي حتى لا تتعثّر قدمي لأن الإلحاح يتحول إلى يأس.

«سلامة!» يرتفع صوت كنان فوق ضجيج الفوضى. لا يستطيع أن يدير رأسه في اتجاهي وإلا سنتعثر معًا.

«اركض!» أنا أصرخ قبل أن يتوقف.

«يجب أن أخرج من هنا»، يستمر أحد الرجال في الصراخ، وهو يتحرك ضد التيار. «يجب أن أذهب، من فضلك. سقطت القنبلة على منزلي!».

أواصل المضيّ قُدمًا على الرغم من الهستيريا التي تخنقني. وتسقط قنبلة أخرى، فتضيء السماء.

أقرب هذه المرة.

الصراخ يمزق الليل، وتلتوى ركبتاي.

«سلامة!» تشدُّ يد كنان حول معصمي، ويتوقف وسط التدافع لمساعدتي. الناس يلتفون حولنا الان، وهم يركضون. يمسكني كنان من كتفي ويرفعني. عيناه تزيدني تصميمًا.

«سلامة»، يقول كنان بهدوء مخيف. «لا داعي للذعر، ولا تتركي يدي».

أومئ له. انزلقت يده في يدي، وقمنا بالركض مع الجمهور مرة أخرى. أسمع أصوات إطلاق نار وسقوط قنبلة أخرى. يجب أن يكون هناك اشتباك شامل مع الجيش السوري الحر الآن. ينعطف كنان إلى اليمين، ليفصلنا عن الجمع، ويتجه نحو الأزِقّة. الصراخ لا يتوقف، ولا يأتي فقط من الاحتجاجات. لقد انهارت المباني على الأطفال النائمين، والأمهات يبكين بشدة طالبين مَن يسحب أطفالهن الرُّضَّع إلى الخارج. الشعور بالذنب يمزق أحشائي لعدم العودة وتقديم المساعدة، لكنني أعلم أنني سأكون ميتة إذا فعلت ذلك.

أعرف أين نحن. لا تزال ليلى بعيدة بعض الشيء عن هنا، ولكن هناك مكان آخر يمكننا اللجوء إليه.

«انتظرا!» أصرخ، فيتوقف كنان للحظة. أندفع أمامه، وآخذ بيده الأخرى، وركضنا ثانية. «أنا أعرف إلى أين أذهب».

«أين؟» يصرخ بصوت أعلى من الضجيج. «بيتي القديم».

«نحن بحاجة إلى الركض بشكل أسرع. ربما يكون الجيش الحر قد خسر أرضه هنا».

«القنّاصة». حفرة تُحفر في معدتي. «أو الجيش».

ألقي نظرة إلى الوراء. «عليك أن تتخلص من هاتفك».

لا سمح الله إذا تمّ القبض علينا ووجدوا مقاطع الفيديو على هاتفه، سيقومون بجلده.

يده تنثني في يدي. صدى خطواتنا يتردد على الرصيف المكسور. «لا أستطيع أن أفعل ذلك».

«لكن...».

«لا تقلقي. إذا تمّ القبض علينا، فلن أسمح لهم بإيذائك».

أضغط شفتيّ لأمنع نفسي من الرد. إنه يقول ذلك فقط ليجعل نفسه يشعر بالتحسن. ليس هناك أبرياء في عيون الشر. لحسن الحظ، لم نواجه أحدًا في الشوارع، لكني أشعر بالقنابل تقترب. أسحبه بشكل أسرع وتحتجّ رئتاي. كل شهيق يشبه النار. أعضّ شفتي لأثبّت نفسي وأضغط بقوة أكبر.

بدأ الناس يخرجون من المباني وأعينهم واسعة من الخوف. الطرق لا تصلح للسير عليها، ولكن لا يوجد مكان يذهب إليه الناس. أسمع بكاء الأطفال والناس يدعون من أجل الرحمة. رجل يحمل رضيعًا بين ذراعيه بينما تندفع زوجته معه للخارج. لقد افترقوا عنّا، ولا أنظر إلى الوراء لأرى ماذا يفعلون. أدعو الله أن يكون لديهم الحس الصحيح للفرار.

«يا الله، من فضلك، أنقذنا!» أهمس.

تسقط قذيفة في مكان أقرب. يرسل انفجارها شظايا زجاجية تخدش ملابسنا وجلدنا بينما نجري. إنهم يلسعون بما يكفي ليجعلونا نتنفس بصوت خشن، لكننا تعاملنا مع ألم أسوأ من ذلك.

لقد فجّرت القنبلة الحيّ الذي كنت أذهب إليه لتناول الكنافة. تعثرت مرة أخرى، وأنا أسعل من

بين الركام، فيرفعني كنان، ويداه قويتان وثابتتان. أنا أسحبه مرة أخرى ونركض. أحاول ألّا أفكر في الأشخاص الذين كانوا يتنفسون قبل خمس عشرة دقيقة فقط. كيف يمكن لخمس عشرة دقيقة أن تُحدِث فرقًا كبيرًا في العالم. أحجب أصوات طفل يبكي وأعلم أنها من نسج مُخيّلتي.

نحن أخيرًا بعيدون بما يكفي لإبطاء سرعتنا والتقاط أنفاسنا. لقد تركت يد كنان على مضض ويسير بجانبي. أنفاسنا قاسية، وأضلاعنا تحت وطأة الصرير بينما يحاول دمنا المصاب بفقر الدم إمدادنا بالأكسجين. أنا أرتجف وأتعرق وأحاول التركيز على تثبيت أنفاسي.

كنان لا يقول شيئًا، ولا أجد عزاءً في الكلام أيضًا. نسمع القنابل من بعيد، وكل منها يطعن ثقبًا جديدًا في قلبي. لا أريد أن أرى التعبير على وجهه. لا أريد أن أعرف إذا كان هذا حزنًا أم غضبًا أم يأسًا. مهما كان الأمر، فإنه سوف يخيفني أو يكسرني، وأنا لا أريد ذلك أيضًا. ظهره مُنحَنٍ، وفي كل مرة تصل إلينا صرخة، يتقلص أكثر.

سرنا عبر الحي القديم الذي كنت أسكن فيه، حيث كان المبنى السكني الذي كنت أعيش فيه قائمًا منذ زمن بعيد. المتاجر المحلية المكدسة بجانب بعضها البعض أصبحت باهتة، ويكاد يكون من المستحيل قراءة اللافتات. لا يوجد أحد هنا يحاول إنقاذ أعمال عائلته. لا وجود لروح تتجوّل في الشوارع، وهذا يجلب القشعريرة إلى جسدي. هذا المكان مسكون بأشباح أولئك الذين عاشوا هنا، ويصرخون من أجل العدالة التي لم تتحقق.

تعرّضت المحلات التجارية للنهب، وتناثرت المعدات، وتحطّمت النوافذ. لقد انتهت الصيدلية

التي تدرّبت فيها.

يقع مبناي القديم في الزاوية اليمنى التالية، ويخفق قلبي كلما اقتربنا.

لم أكن هنا منذ يوليو.

خطواتي محفورة في كل أنحاء هذا المكان. تمر أمامي نفسي وأنا طفلة في العاشرة من عمري وهي تضحك، وتخرج من حافلة المدرسة مع أصدقائها، وتركض إلى المنزل، وحقيبة الظهر تتمايل مع كل خطوة.

تتعثّر أنا البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، وعيناها ملتصقتان بالكتاب الذي تقرؤه، متأخّرة عن دروسها. سلامة البالغة من العمر سبعة عشر عامًا تسير جنبًا إلى جنب مع ليلى وشهد وروان. سعيدة بفورة تسوّق اليوم، حيث تحمل كل منهن الشاورما اللذيذة من المطعم الذي يبعد بضعة أقدام. كل هذه الحياة تندفع أمامي. أستطيع أن أرى الضوء ينعكس من وجهي المفعم بالأمل والصحة. أستطيع أن أرى خطواتي الواثقة وعيوني الواضحة. تدبُّ الحياة في الشارع كله، تتفتح الزهور على جوانب الرصيف، والتجار يتغنون ببضائعهم، وبتلات السوسن تتراقص في الريح، وتحمل رائحة ياسمين الشام.

«سلامة!» صوت يقطع أحلام اليقظة مثل الماء البارد.

أرمش بينما يحلُّ الظلام محلّ هلوستي وأستنشق بحدة.

«سلامة»، يقول كنان مرة أخرى، والتفتُ إليه. «كل شيء بخير؟».

إنه قلق. السخام يغطي ملابسه. هناك ندوب تغطي ذراعيه وجروح على وجهه. يبدو متوترًا، وينظر

حوله ليرى ما كنت أنظر إليه.

«نعم»، أقول، وينقطع صوتي. أتنحنح، وأحاول مرة أخرى. «أنا بخير. إنه أمر شاق أن أكون هنا. العودة إلى المنزل».

يتردد قبل أن يبتسم بتعاطف. «لا أستطيع أن أتخيّل مدى صعوبة الأمر».

بالطبع يستطيع أن يتخيل، لكن نكرانه للذات يطغى على أي شيء آخر.

«دعنا نذهب». أمشي بجانبه.

أشعر بخوف يسير بجانبي ويتمتم: «هذا المكان مشبع بصدمتك. هل ترين لماذا عليك الرحيل يا سلامة؟».

أومأت سريعًا، وأخفيت دموعي بعناية وأنا أحاول ألّا أفكر أنه على بُعد خطوات قليلة من هنا مكان جثة ماما المشوهة.

25

أرى أطلال بنايتي أمامي وأتعجب من المفارقة. اللجوء إلى المكان الذي قتل ماما. أحاول ألّا أتعثر بالحطام والصخور المتناثرة بلا مبالاة على الأرض. لا يسعني إلا أن أدوس على الأثاث المكسور وذكريات الأشخاص الذين عاشوا معي هنا. لا يوجد مكان آمن للمشي.

«هنا». أشير إلى قمة تلّةٍ صغيرة من الخرسانة والطوب. يصعد كنان إلى الداخل وأتبعه، وأشعر بحواف الحجارة الحادة تحفر في حذائي الرياضي. أتعب جسمي للوصول إليه، محاولة ألّا أجرح نفسي بالزجاج الملقى في كل مكان. في الأسفل والمخفي عن الأنظار هو مكان اختبائنا. خزانة ضخمة تحجبها. إنها مثل عين العاصفة، مركز النجاة من الكارثة. وكأن المبنى بأكمله، بذكريات الأجيال التي عاشت فيه، قرّر أن يجعل لنا هذه الليلة بيتًا.

نقفز ونهبط بشدة.

القمر يشرق، نعمة، حتى نعرف أين نجلس دون أن يطعننا شيء في الجوانب. كنان يمسح الأرض قليلًا بحذائه ويجلس متكئًا على جدار مكسور وأنفاسه متقطعة. أستطيع ركل نفسي. لقد كنت مشغولة جدًّا بمشاكلي الخاصة لدرجة أنني لم أتوقف عن التفكير فيما قد يفعله. يتصبّب العرق من جبهته، ويسند رأسه على الحجر وعيناه مغمضتان.

«مرحبًا»، أبدأ الحديث. «كل شيء على ما يرام؟».

يمسح بيده على وجهه ويبتسم ابتسامة لا تبدو مشرقة كالمعتاد.

«نعم»، يتمتم. «لا تقلقي بشأن هذا. فقط ألتقط أنفاسي».

أنتقل إليه. «هل يمكنني الحصول على هاتفك؟».

يومئ ويسلّمه لي، فأفتح نوره وأشرقه على وجهه.

«ماذا؟» يسأل.

«أتأكّد من أنك بخير».

يومئ ويحدّق مباشرة في الضوء. تنقبض حدقتا عينيه؛ ممّا يؤكّد لي أنه لم يحدث موت خلوي في دماغه.

أقول بعد بضع ثوانٍ: «كل شيء يبدو جيدًا». تنزلق نظرتي من عينيه إلى شفتيه وتعود مرة أخرى بنفس السرعة. يفعل الشيء نفسه، على الرغم من أنه يتأخر أكثر مني بكثير، وقلبي يرتعد في أذني.

سلامة، لا أريد أن...

وأتساءل كيف ستنتهي جملته.

يتحرك قليلًا، ويرفع يده، وهي على بُعد سنتيمترات من خدي قبل أن تسقط بجانبه.

«آسف»، يهمس. «لم أقصد أن...».

«لا بأس» همست وأعطيته الهاتف. أنتقل للجلوس على جانبه الآخر.

يسند كنان رأسه على الحجر مرة أخرى. أفرك رقبتي وأنظر إلى السماء. لو لم نكن في مثل هذا الوضع المزري لكان هذا المكان جميلًا. يمتدُّ السواد أمامنا، والقمر يلقي بريقه الفضي، معتمدًا ضوء النجوم القريبة. إنها نفس السماء التي يراها الآخرون في بلدانهم. لكن بينما نشاهدها هنا، مختبئين، ولا نعرف ما إذا كان أنفاسنا التالية هي الأخيرة، ينام آخرون بأمان في أسرّتهم، ويطلبون من القمر ليلة سعيدة هادئة.

خوف يخرج من الظل.

يبتسم. «هنا فقط للمشاهدة». يقلّد المفتاح الذي يقفل شفتيه ويتكئ على الحائط. «رغم أن الصمت مملّ».

آخذ نفسًا عميقًا وأتوجه نحو كنان. أقول: «أريد أن أصدق أن الأمر يستحق ذلك. الثورة أعني. لكن أنا خائفة».

«أعتقد أنها تستحق»، كنان يبتسم بهدوء. «لقد انهارت الإمبراطوريات عبر التاريخ. ينهضون، ويبنون، ويسقطون. لا شيء يدوم إلى الأبد. ولا حتى آلامنا».

«الآن هذا هو الجانب المشرق»، همست.

ينظر بعيدًا فأرى الخجل في ملامحه. «هل ما زلت تُحمّل مقاطع الفيديو على يوتيوب؟».

«نعم». يفتح هاتفه، الضوء القاسي ينير نصف وجهه.

«أعتقد»، بدأت أتحرك بحذر. «الآن بعد أن قرّرت المغادرة، هل ستتصرّف بطريقة أكثر أمانًا وربما لن تسجل الاحتجاجات بعد الآن؟»

خوف يتجهم. «في صلب الموضوع، أليس كذلك يا سلامة؟» يضع كنان هاتفه جانبًا وينظر إليّ. «ماذا؟». «أعني...».

«سلامة، لقد اتّخذت قرار المغادرة بالفعل. ألا يمكنني على الأقل الحصول على شيء يجعلني أشعر أقل بالذنب حتى ذلك الحين؟».

«ليس إذا كان ذلك سيزيد من فرص اعتقالك».

«لماذا لا يمكنك دعمي في هذا الشيء الوحيد؟» يسأل، غاضبًا.

«لأن الأمر لا يتعلق بك فقط. أنت تجرّ إخوتك إلى هذا. أنت أناني».

«لا أعتقد أن هذا من شأنك». صوته يصبح أكثر برودة في الثانية.

«حسنًا، إنها دولة حرة الان، أليس كذلك يا كنان؟ أستطيع أن أقول ما يعجبني بحق الجحيم!» أنفجر.

يتذمّر وعيناه تومضان من الانزعاج. «لماذا تهتمّين؟ هذه حياتي وعائلتي وعملي يا سلامة. لماذا لا تشيدين بحقيقة أنني أحاول إحداث فرق، حتى لو كان صغيرًا؟».

أحدّق فيه، والصدمة تتدفق على عمودي الفقري مثل الماء المثلج.

«حياتك»، أكرّر بهدوء. أريد أن أخنقه. «حياتك؟».

أقف ويداي ترتجفان. أضربهما على صدري، فتتحول الصدمة إلى إحباط ناري. لقد اكتفيت من هذا. كل مَن أحبهم إمّا ماتوا، أو تعرّضوا للتعذيب، أو في طريقهم إلى أحد هذه المواقف.

«سلامة»، يبدأ بحذر. أريد أن أضحك. «حياتـ... ك».

أسحب يدي إلى أسفل وجهي، وأمشي في دائرة، وأترك الكلمات تتراكم في حلقي قبل أن أتجه نحوه. «كيف تجرؤ؟» همست وأنا أرتجف الآن من الغضب. «هل ستجلس بجدية هناك وتتظاهر بأن إذا شيء حدث لك فلن يؤثر عليّ؟».

شفتاه تنفرجان. «الجيش لن يتتبع أفعالي و...».

لقد أطلقت ضحكة قصيرة. «هل تعتقد أن هذا ما يهمني؟».

يبدو محيرًا، وخائفًا حتى.

«لا يمكنك فعل هذا». تتدفق الكلمات مني كالسد المكسور، يتعثر كل منها بالاخر. «لا يمكنك تصوير الاحتجاجات بعد الان لأنني أقسم بالله يا كنان، إذا تمّ القبض عليك، إذا متّ، فلن أسامحك أبدًا!».

وعيناه ممتلئتان بالدموع. «لا تقولي ذلك».

أسقط على ركبتي أمامه. أتنفس شهقات، واليأس يعيق رئتي. «لن أسامحك يا كنان. لا يمكنك أن تدخل حياتي وتريني الألوان وتخبرني عن أحلامك وتخاطر بكل شيء عندما يتبقى لنا ستة أيام من المغادرة!».

«لأنه قد يتمُّ القبض عليّ؟» صوته ينقطع. «لأنك جعلتني أقع في حبِّك!» أجيب، وقلبي ينبض بشدة.

تحترق عيناي بالدموع التي تنهمر على خدودي الساخنة. وفيضه أيضًا مثل نهرين يقطران من ذقنه، ويغطيهما بذراعه، وترتعش شفته السفلى.

أرفض أن أنظر بعيدًا، لأحصل على أي إجابة منه ليست ما أحتاج إلى سماعه.

همست: «لا يمكنك أن تفعل هذا بي. قلبي لن يتحمّل».

يخفض ذراعه وعيناه مشرقتان. «أحبك أيضًا».

يخرج صوته ناعمًا وهادئًا، لكنه كل ما أسمعه. حتى لو كان هناك إعصار يضرب حمص، فسيكون هو كل ما أسمعه. تسترخي كل عضلة وخلية عصبية مشدودة بداخلي، وأغوص في الأرض، وأشعر بأن شفرات العشب الصغيرة تدفعني.

«إذن افعل هذا من أجلي»، أرجوه. «لو سمحت. افعل ذلك من أجلي».

أريد أن أصل إليه، أن أحتضنه، لكنني لن أفعل. لا يوجد خاتم في إصبعي، ولم نصبح لبعضنا بعد.

وهو لا يحاول لمسي أيضًا، على الرغم من أنه من الواضح من تعبيره أنه لا يريد شيئًا أكثر من ذلك. لكنه يميل إلى الأمام حتى لا يكون هناك مكان لسقوط زهرة بيننا.

يتنفس «سلامة»، فيخفق قلبي، ويلتقط نفسه، ويتعثر مرة أخرى. تحت ضوء القمر الفضي، يبدو ساحرًا، معزّزًا بلطفه وروحه الجميلة. إنه لا يستحق القسوة التي يقدّمها هذا العالم. «لن أصوّرا».

أضع يدي على فمي وأمسح الدموع المخفّفة. «شكرًا لك».

يبتسم. «لا تبكي». «أنت تبكي أيضًا!».

أفلتت منه ضحكة وتمكّنت من الابتسام، وتمدّدت عضلات وجهي بقوة. لكن اللحظة تمر سريعًا عندما أنظر إلى خوف لأتأكد من وفائه بوعده. يبدو مستمتعًا.

«حسنًا، لقد نجح الأمر»، ضحك.

تقع نظرة كنان على أصابعي المضطربة. «سلامة، هل لي أن أسألك شيئًا؟».

أجفل قليلًا، قَلِقةً. «بالتأكيد».

«لقد لاحظت مدى توتُّرِكِ في بعض الأحيان»، يبدأ ببطء. «عيناك تدوران في كل مكان، كما لو كنت تنظرين إلى شخص ما. وكان هناك أيضًا... آه، ما حدث سابقًا. هل... أنتِ على ما يرام؟».

هذا هو. كان سيحدث في نهاية المطاف. عضضت لساني وخوف يضحك هذه المرة.

«هل ستخبرينه يا سلامة؟» هو يقول. «أم أنك خائفة من أنه لن يحبك بعد الآن؟».

أرتجف، ويستقرّ ثقلٌ ثقيل على أضلاعي، فيفقعُرها. معدتي جوفاء وأعصابها مشدودة. كيف أخبره عن خوف؟ أريد أن أفعل. بدأت تلك الرغبة عندما أراني غروب الشمس لأول مرة. مثل الهمس في مؤخرة راسي.

أحدّق في الندوب الموجودة على يدي، وأتتبع

الجروح الفضية. «سلامة؟» يقول كنان. القلق ملفوف على كل كلمة يقولها.

أنظر إليه وأحاول أن أحافظ على تنفُسي ثابتًا. أنا لا أخجل مني ومن الصراعات التي أواجهها. خوف هو جزء لا يتجزأ من حياتي، وقد ساهم في تشكيل الكثير مما أصبحت عليه خلال الأشهر الماضية. لن أنكر أن الأمر سيكون بمثابة لكمة في حدسي إذا ابتعد كنان عني بعد أن أخبره بذلك. لكن إذا أردنا أن نحصل على نسختنا من الحياة الحقيقية معًا، فلا أريد أن أبدأها بكذبة.

«أنا، ممم...»، أبدأ، ثم أتنحنح. «لا. أنا لست على ما يرام».

«ماذا تقولين؟» لهجته خائفة عليّ.

جلست في مكاني وأمدُّ يدي إلى نبات صغير ينمو بين الخرسانة المتشقِّقة، وأديره بين أصابعي. أقول الكلمات بسرعة، كما لو كنت أمزِّق ضمادة طبية، وأكشف سرّي. «منذ يوليو الماضي، كنت أعاني... رؤى. هلوسة، على ما أعتقد».

أتوقف وأحدّق في أوراق النبات الصغيرة، لكن الصوت الوحيد الذي أسمعه هو تصفيق خوف البطيء. يبدو منبهرًا وفي عينيه بريق فخر.

ألقيت نظرة خاطفة على كنان من أسفل رموش عيني وأدركت المفاجأة في تعبيراته.

«رؤى؟» يسأل، ويلقي نظرة على بُعد بضعة أقدام من المكان الذي يقف فيه خوف. «تقصدين أنك ترين الأشياء التي...». يتعثر.

«ليست حقيقية»، أكملت كلامه. «في الغالب أرى شخصًا واحدًا». خوف يعدل ظهره وينفض الغبار عن بدلته. «يا إلهي، هل ستعرِّفينه إليّ؟».

أتجاهل خوف وأكمل. «خوف. دخل حياتي منذ وفاة ماما. لقد سقطتُ بشدة على رأسي في ذلك اليوم، ولا أعلم، ربما أثّرت إصابة في الرأس مقترنة باضطراب ما بعد الصدمة على العلاقة بين الفصّ الأمامي لدماغي والقشرة الحسية، لكنني لن أكون متأكدة حتى أتمكن من إجراء فحص».

يبدو كنان مذهولًا. «خوف؟».

أومأت، وألقيت النبات بعيدًا، وأجبرت لهجتي أن تكون هادئة. «إنه يظهر لي الذكريات. يظهر أسفي». أتجاهل درجة الصدمة التي أشعر بها بعد كل صدمة. ليس من الضروري أن يعرف كل التفاصيل. آخذ نفَسًا عميقًا. «لقد تعلّمتُ أن أعيش معه». أزفر. «الآن أنت تعرف».

أضمُّ ركبتيّ إلى صدري، وأدفن رأسي بين ذراعي لأخفي دموع عيني، وقلبي يرتعش ممّا سيقوله. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا لقبول خوف، وليس لديّ أي فكرة عمّا إذا كان كنان سيتمكن من التصالح مع الأمر. إذا كان سيراني شخصًا تطارده أخطاؤه.

لم يقُل كنان أي شيء لبعض الوقت، وسمحت له بذلك. إنه بحاجة إلى التفكر في الكلمات التي قلتها للتوّ، وفهم ما تعنيه بالنسبة له. لي. لنا.

أخيرًا تحدث كنان بلطف: «سلامة، انظُري إليّ». على مضض، نظرت من خلال ثنيات أكمامي.

«لن أذهب إلى أي مكان». يبتسم. «أنت شيتا».

الفرح يستعيد قلبي وأشعر بالحماقة، لكنني أقول ذلك على أي حال: «أنت بازو».

ينظر كنان بعيدًا، وقد سقط الظل على خديه، ويضغط بيده على جبهته. ثم يلتفت نحوي. يبدو متوترًا، لكنه توتُّر من نوع مختلف. «سلامة، أريد

أن أفعل هذا بشكل صحيح. حتى لو لم يكن لدينا عائلاتنا تهتمّ بنا، وترافق مواعيدنا وما إلى ذلك. حتى لو كان خوف موجودًا. ولا أريد الانتظار حتى نصل إلى ميونيخ للقيام بذلك. لا أريد أن أفعل ذلك على متن قارب. أريد أن نفعل ذلك هنا. في بيتنا».

ترتفع درجة حرارتي الداخلية. «نفعل ماذا؟» أنا أتلعثم.

يبتلع بقوة ويدخل يده في جيبه. وعندما يفتح كفّه يتلألأ عليها خاتم. «أريد أن أتزوّجك. إذا كنت ستوافقين».

«ماذا؟» خوف ينفجر.

«ماذا؟» أصرخ، الهواء يختفي من رئتي. يحارب بابتسامة. «هل هذا جيد أم سيئ؟».

فمي يسقط مفتوحًا. «أنا... لم أكن أعتقد أنك ستفعل ذلك هنا!».

«تتقدّم للزواج بي في ذكرى الثورة؟» وميض عينيه. «لقد كنت أخطط لهذا لمدة أسبوع».

«أنت مستحيل»، أتنفّس، وأضع يدي على خدي.

ضمّ كنان شفتيه وقال: «ظننت أنك ستقول شيئًا كهذا. سلامة، أنا وأنت نعيش حياتنا ثانية بثانية. قد نعيش لنركب هذا القارب إلى سيراكيوز. قد نستقر في ميونيخ. قد نتعلم اللغة الألمانية، ونطلي شقتنا بألوان نابضة بالحياة لم نشاهدها في حمص منذ فترة طويلة، ونبني حياة. حياة مذهلة. لقد أصبحت صيدلانية، وكل المستشفيات تتسابق لتوظيفك، وأنا أرسم قصصنا. سيكون لدينا مغامراتنا الخاصة». ينظر بعيدًا بخجل، ويتعثر في كلماته. «سنكتب كتابًا. معًا. لكن... نحن أيضًا قد لا نعيش هذه الأيام الستة. من الممكن أن ندفن هنا، أي شيء يمكن أن

يحدث، ولا أريد الانتظار بعد الان. لا أحد يعرف المستقبل. لكني أعرف ما أشعر به. وأعرف كيف تشعرين. فلنجد سعادتنا هنا في حمص. دعينا نتزوج في بلدنا. دعينا نبني منزلًا هنا قبل أن نبني منزلًا في مكان آخر».

توضّح كلماته عالمًا ممّا لو كان ممكنًا أو ربما كان ممكنًا. أريد هذا العالم بشدة لدرجة أنني أشعر بنيرانه تشتعل في داخلي.

يرفع الخاتم ويسأل بعينين متردّدتين وخدود محمرّتين: «سلامة، هل تقبلين الزواج بي؟».

أحدّق به. مع كل موقف آخر في حياتي، أقوم بتشريح جميع النتائج حتى النخاع قبل اتخاذ القرار. ولكن مع هذا؟ القرار سهل مثل التّنفُس. أشعر تمامًا ما هو الإحساس بالسلام.

ولكن حتى التنفس قد يكون مؤلمًا في بعض الأحيان، وإذا قلت نعم، فإن كنان وإخوته سيكونون جزءًا من قلبي إلى الأبد.

وسوف يصبح كل شيء حقيقيًا.

أحدّق في الخاتم وأجد أنني لا أهتم بأي شكوك تكمن في مستقبلنا. كل ما أعرفه هو أنني أحبه، وأنه حتى في الظلام المحيط بنا، كان مصدر سعادتي. وفي وسط كل الموت، جعلني أريد أن أعيش.

الجواب ينزلق بسهولة من شفتي.

«نعم»، همست، وأنا أمسح دموعي، وأشعر أن قلبي يتوهّج. «نعم»

26

أيقظتني أشعّة الشمس على وجهي، واستغرق الأمر مني ثانية لأدرك أنني لست في المنزل. طائر يطير فوقي، وصورة ظلّيّة تسري عبر السماء الزرقاء الشاحبة. نظري يتبعه.

صحيح. أنا بالمنزل.

بجانبي، كنان يتحرك في نومه، وألقي نظرة عليه. صدره يرتفع وينخفض بثبات؛ ممّا يريحني. يتجهّم، وآمل أن يكون ذلك لأن الأرض قاسية على ظهره وليس بسبب الكوابيس. أصبح شعره أطول ممّا كان عليه عندما التقيته، كما أن قفاه أصبح أكثر وضوحًا. أتساءل كيف سيكون الإحساس عندما أمر بأصابعي بين خصلات شعره.

تشتعل أعصابي عندما أتذكر الليلة الماضية. أخرِج الخاتم من جيبي وأرفعه عاليًا، وأعجب به في الضوء. لم أكن أرغب في ارتدائه في الظلام حيث لا أستطيع أن أرى كيف يلمع على إصبعي. إنه من الذهب الوردي، مرصّع في المنتصف بخطّ من الذهب الأبيض، مُصمّم بشكل مثالي ليشبه قطع الماس الصغيرة. إنه جميل وبسيط وكنت سأختاره لو كنت في المتجر.

قال كنان: «لقد كان خاتم ماما»، فقفزت.

يجلس كذلك. عيناه مشرقة ويزهر أحمر الخدود الصباحي على خديه.

فجأة شعرت أن الخاتم ثقيل في راحة يدي. همست قائلة: «إنه جميل جدًا. أنا... لا أعرف ماذا أقول».

يبتسم بحزن. «ليس عليك أن تقولي أي شيء».

أهزّ رأسي. «أنا اسفة جدًا بشأن والديك. أنا... كنت

أودُّ لو أعرف والدتك».

يعبث بأصابعه. «لم تفهم أبدًا سبب قراري بأن أصبح رسّامًا للرسوم المتحركة بدلًا من دراسة الطب، لكنها دعمتني على أي حال. وحتى ذلك الحين، كانت تعرفني جيدًا. فقط من رؤيتك في حفل زفاف أخيك، عرفت أننا سنكون مثاليّين لبعضنا البعض». لمعت عيناه للحظة، ثم هزّ رأسه. «كانت ستحب أن تحصلي على خاتمها».

«يشرّفني أن أرتديه». أحاول أن أضعه على إصبعي، على أمل أن يكون مقاسي. لكن هذا لا يحدث. أصابعي مجرّد جلد وعظام، وهو يتدلى منه بشكل غير محكَم.

«كبير جدًّا؟».

«نعم». تنهّدتُ ثم تذكّرت قلادتي. أسحبها من تحت ياقتي. «لديّ هذه. لقد أعطاني إيّاها والداي عندما تخرّجت».

نظر لها بإمعان. «تتناسب تمامًا مع الخاتم».

أقوم بتمرير القلادة من خلال الخاتم وهي تتلألأ بشكل جميل. «ما رأيك؟».

«جميل». لكنه لا ينظر إلى القلادة. أحمرّ خجلًا، وأرجعها تحت سترتي.

يهرش الجزء الخلفي من رقبته. «أمامنا أسبوع، وأعلم أنني قلت إنني أرغب في الزواج في سوريا، لكنني لم أسأل إذا كنت...».

«أريد...» قاطعته. «أريد أن يكون هذا هو أحد أفعالي الأخيرة في سوريا. شيء جيد».

أشعر به يُشعّ.

«ما هو القول؟ (سارعوا بالخيرات)؟». أبتسم. أشعر برأسي خفيفًا بعض الشيء بسبب الإثارة لقرار

لم أفكر فيه مرتين، ولكنني اتّكأت على مشاعري تجاهه. «دعنا نتزوج اليوم».

يضحك ويقف. «لماذا لا تخبرين ليلى أوّلًا؟».

أشهق، وأقف على قدمي. «يا إلهي. يجب أن تكون قلقة للغاية!».

يومئ موافقًا. «دعينا نذهب».

لا أستطيع سماع أي شيء سوى تنفُسنا، والذي آمل أن يعني أنه لا يوجد شيء خطير خارج أنقاض منزلي. تحركت لتسلُق الأنقاض ومدّ كنان يده وساعدني.

يقول: «تسمحين لي؟».

أوافقه. كنان يرفع نفسه فوق الحطام. وبينما كان ينظر من جانب إلى آخر، تحرّك ببطء بعيدًا عن نظري. ثم سمعته يسقط على قدميه على الجانب الآخر وهو يتألّم من الألم. تمرُّ دقائق معدودة دون صوت سوى صوت العصافير.

«حسنًا، الوضع آمن»، ينادي كنان، وبعد ثوانٍ قليلة قفزت بجانبه.

في النهار، يظهر المزيد من كارثة الليلة الماضية: من الدخان الخافت المتصاعد إلى السماء إلى صمت المقبرة الذي سيطر على المكان. نحن نتجهّم ونحن نسير للأمام، والواقع يخدش درع نعيمنا.

أنظر إلى منزلي القديم، وأشعر بقلبي يضيق. أتساءل عمّا إذا كنت سأعود أم أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأراه فيها.

عندما وصلنا إلى منزل ليلى، أصرّ كنان على أنه سيكون بخير عندما يعود إلى منزله بمفرده.

«يجب أن أطمئن على إخوتي. لمى لا تزال تتعافى». أنا أمضغ لساني.

يضحك: «سأكون بخير يا سلامة». «أنت ستتزوجينني اليوم. أنا أكثر من بخير».

أخفضت رأسي لأخفي وجهي الأحمر. «نعم، فقط... سأخبر ليلى بالأخبار، وبعد ذلك يمكننا العمل على ذلك».

يغمز. «سوف أراك في المستشفى؟».

أومئ، ثم ترفرف فكرة في ذهني. «لماذا لا تحضر يوسف ولمى؟ أعني، إذا كانت لمى تشعر بالقدرة على ذلك. كما أنه قد يصرف انتباه يوسف عن... حسنًا، كل شيء. أنا متأكّد من أنهم يريدون أن يكونوا هناك».

ابتسامة كنان دافئة جدًا وأشعر بها حتى أطرافي.

«حسنًا»، يقول بهدوء. «سوف أسألهم».

أفتح الباب وأغلقه خلفي لأجد ليلى جالسة في الردهة، ساقاها ممدودتان أمامها، وبطنها لا يزال منتفخًا. يتدلّى رأسها إلى الجانب، وجفونها مغلقة.

أقرفص بجانبها. «ليلى»، همست، بدأت تفيق.

«ماذا...» قالت بترنُّح، ورمشت بسرعة قبل أن تركز نظرها عليّ. «سلامة! أوه الحمد لله!».

عانقتُها بسرعة وأنا أستنشق رائحة الأقحوان. «ماذا حدث البارحة؟» تسأل.

«سأخبركِ، لكن لا يمكنك مقاطعتي حتى النهاية».

أصبح تعبيرها فضوليًا، ولاحظت أنها تبدو منهكة بعض الشيء. «حسنًا».

أخبرها بكل شيء. يُحسب لها أنها لم تنطق بصوت واحد ولكن بمجرد أن أنتهي، تمسك بذراعي وتطلق صيحة يا إلهي! أريها الخاتم وهي تصرخ.

«متى؟» تسأل لاهثة. لا يسعني إلا أن ابتسم. «الان».

تنهار في نوبة أخرى يا إلهي! وتستطيع إيقافها مؤقتًا لتقول: «لقد أخبرتك أن شخصًا ما سوف يختطفك بعيدًا عني!».

أضحك. «ستكونين دائمًا أولويتي».

تقهقه، على الرغم من أنها لا تبدو مليئة بالحياة كما تفعل عادة. «جيد. إذن أعطيك مباركتي. من سيزوِّجك؟».

أتململ مع حجابي. «كنت أفكر في دكتور زياد. في المستشفى. وبهذه الطريقة سيكون هناك شهود».

تتنهّد. «ممتاز».

آخذ نفسًا عميقًا. «كنت أتساءل عمّا إذا كان بإمكان كنان وإخوته الانتقال للعيش معنا. أنا... لا أريده أن يكون بعيدًا عني».

ليلى تشعُّ. «بالطبع! من الأفضل أن نبقى معًا حتى نغادر».

أتنفّس، وثِقل ينزلق من فوق كتفي. «حسنًا إذن، أنت تعلمين أنني أريدك أن تكوني هناك. هل تستطيعين المجيء؟».

تضحك بخفة وتمسح فوق بطنها. «أتمنى! لكن الطفلة سلامة صعبة. أشعر بالتعب بعض الشيء».

أضغط بكفي على جبهتها. إنها ليست دافئة جدًا. تقول: «أنا بخير. فقط مرهقة».

«حسنًا، بالطبع أنت متعبة. لقد كنت تنامين في الردهة!» أوبّخها، وأساعدها على الأريكة.

استقرّت بشكل مريح تحت الأغطية قبل أن تلاحظ نظرة خيبة الأمل على وجهي.

«سلامة، أريد حقًّا أن آتي». تضغط على يدي. «كنت سأحبو إذا استطعت، ولكن لا أستطيع حتى أن أفعل ذلك الآن».

الذنب يغسلني. لا أستطيع أن أكون أنانية. «أنا أعرف. كل ما في الأمر أنني لم أكن أعتقد أنني سأتزوج بدونك في حفل الزفاف. هذا غريب».

تعبس.

«يمكنني أن أطلب من كنان تأجيل ذلك حتى نصل إلى ألمانيا. أو غدًا. أنا بخير مع ذلك».

تهزُّ رأسها. «لا. اليوم. ستتزوجين اليوم. أنت لا تعرفين أبدًا...». توقّفت. «لا تؤجّلي سعادتك بسببي. بالإضافة إلى ذلك، نحن بالتأكيد سنقيم حفلًا... وحفل زفاف آخر في ألمانيا. وبالطبع سأكون مركز الاهتمام حينها، حتى لو كنتِ أنتِ العروس».

أضحك، وحزني يتصاعد من الصورة الجميلة التي يخلقها في ذهني. إن الاقتراب إلى هذا الحد من الرحيل يسمح للأحلام المكبوتة أن تستيقظ وتنمو مثل اللبلاب بين الشقوق. أنا وليلى نختار فساتيننا وأخرى مطابقة لسلامة الصغيرة، التي ستكون لها عينا والدتها وشعر والدها. إن حملها بين ذراعي سيجعلني أشعر بالقرب من حمزة. يدها السمينة تمسك بإبهامي بقوة، وأنفها الصغير يتنفس هواءً غير ملوث بالدخان والموت.

سيكون الوقت الذي قضته في سوريا بمثابة حلم حلمت به في الرحم. قصة موجودة فقط في القصص التي نرويها لها أنا ووالدتها. حتى تتمكن في يوم من الأيام من العودة إلى بلدها وزراعة أشجار الليمون.

أقوم بتدليك أكتاف ليلى قليلًا. إنها قاسية وعظمية تحت يدي، وهي بمثابة دلو من الماء المثلج على أحلامي.

«شكرًا لك»، تمتمت، وعيناها نصف مغمضتين. «اذهبي الآن». وعندما لا أتحرك، تكرّر: «اذهبي!

سأنتظرك هنا».

تأخذ يدي بين يديها، وتحدّق في وجهي عبر رموشها. «أنا سعيدة جدًّا من أجلك. فخورة جدًا. سيكون والداك وحمزة فخورين بك أيضًا. انظري كيف تغيّرت».

أعطيتها حضنًا أخيرًا قبل أن آخذ معطف المختبر الخاص بي. اليوم، هذا هو فستان زفافي، لكن في ألمانيا، سأرتدي فستانًا حقيقيًّا. مع ليلى. سالمة ومعافاة.

27

عندما يصل كنان إلى المستشفى، يكون إخوته إلى جانبه. اتسعت عيون لمى من الدهشة، بينما كان تعبير يوسف فضوليًا وخاليًا من الحزن؛ ممّا أعطاني لمحة عن مدى صغر سنّه حقًا.

«مرحبًا»، قال كنان وقد أشرقت عيناه عندما رآني.

«مرحبا» ابتسمت وأشعر بالدوار.

«مرحبًا»، تقول لمى، ثم أبعد نظري عن كنان لأنظر إلى الفتاة الصغيرة التي تتشبّث به.

تبدو أقوى، والحياة تنحت ملامحها. «كيف حالك يا لمى؟» أسأل.

أجابت: «بخير»، ثم نظرت إلى كنان الذي أومأ لها مشجّعًا. «شكرًا لإنقاذ حياتي».

أوه يا قلبي. قلبي.

أمدّ يدي وهي تأخذها بهدوء قبل أن أسحبها إلى عناق. «شكرًا لكونك قوية».

وجهها وردي من الخجل، وتتركني لتخفي وجهها في جنب كنان. يكبت ضحكته، ولكن هناك نجوم عالقة في قزحيّتي عينيه، ولا أستطيع أن أصدّق السلام المطلق الذي أشعر به هنا، في المستشفى تحديدًا من بين جميع الأماكن.

ألقيت نظرة خاطفة على يوسف، الذي كان يحدق في الأرض، ويبدو أنه مصمم على تجاهلي.

«أهلًا يا يوسف»، أقول وأنا ألوّح بيدي. نظر إليّ لفترة وجيزة قبل أن ينظر بعيدًا، ويداه في جيوبه ويعبس قليلًا.

أنظر إلى كنان، خائفة من أن أكون قد فعلت شيئًا خاطئًا، لكنه هزّ رأسه.

«إنه غيور بعض الشيء». يتنهّد. «يعتقد أن الأمور على وشك التغيير وأنك تسرقينني منه». ثم يقول بصوت أعلى: «لكنني أخبرته أن الأمور تتغير نحو الأفضل، لدينا الآن ثلاثة أشخاص إضافيون كعائلة لنا».

يهزّ يوسف كتفيه، ولا يزال غير قادر على التواصل بالعين. تنهّد كنان مرة أخرى. «سيفهم».

«لا بأس. هو وأنا سوف نصبح أفضل الأصدقاء قريبًا بما فيه الكفاية».

أسمع الدكتور زياد يتحدث مع مريض على الجانب الأيمن من الردهة.

«دعينا نتزوّج...» يبتسم كنان.

أخجل. «ليس لديّ أي خطط لهذا اليوم، لذلك هيا بنا».

ذهبنا إلى الدكتور زياد، الذي كان على وشك الانتهاء من علاج المريض. شعره مقصف، وكتفاه محدّبتان من الإرهاق. ولكن عندما يستدير ويلاحظني، يبتسم.

«سلامة!» يقول. «صباح الخير».

أجبت: «صباح الخير يا دكتور»، وألقيت نظرة على كنان الذي يبدو خجولًا بقدر ما أشعر به.

الدكتور زياد ينظر بيننا. «هل كل شيء بخير؟».

تعرّقت راحتا يدي، والعصبية تسري في معدتي. «نعم. أنا... دكتور زياد، أريد أن أطلب منك خدمة».

يستقيم. «بالطبع. أي شيء».

«أنا... أعني... ما حدث...»، تلعثمت، وتدخّل كنان.

يقول بصوت واضح: «طلبت من سلامة الزواج، وكنا نتساءل إن كنت أنت من سيتولّى المهمة»، لكن وجهه أحمر، وكذلك أذناه.

دكتور زياد ينظر بيننا قبل أن يضحك فرحًا.

الصوت يلفت رؤوس الكثيرين في طريقنا، وأنا مشتعلة خجلًا. «أنا... أنا...» يتلعثم، وقد تفاجأ بسعادة.

لم أر الدكتور زياد بهذه الطريقة من قبل. يفرك عينيه ويضحك مرة أخرى. «هذه أخبار رائعة! سلامة، متى كنتما...؟».

أعبث بأطراف حجابي. «إنها قصة طويلة، ولكن...»، نظرت إلى كنان، «إنه القدر».

كنان يبتسم.

«هل تريدان أن تفعلا هذا هنا؟ الآن؟» يسأل الدكتور زياد. ابتسامته واسعة مثل الهلال.

أومِئ موافِقةً. «لحظاتنا القادمة ليست موعودة. وكنت دائمًا بمثابة الأب بالنسبة لي».

يختفي إرهاقه ويبدو أصغر بعشر سنوات. «سيكون شرفًا لي أن أتولى المهمّة».

لا أستطيع منع الابتسامة التي ترفع شفتي إلى الأعلى. أشعر وكأنني في حلم. تبدأ براعم الأمل تتفتح ببطء في قلبي، وتتفتح بتلاتها لتلتقي بالشمس. أتمنى لو كانت ليلى هنا، ممسكة بيدي. لكنني أشعر بالارتياح لأن لمى ويوسف قادران على الحضور، ومشاهدة شيء آخر غير الصدمة في هذه المستشفى.

يبدأ حشد من الناس بالتشكل من حولنا، والوجوه الشاحبة تشعر بالفضول إزاء ما يحدث. يقدم المرضى التهاني، ويحني كنان رأسه. عادةً لا أحب هذا الغزو للخصوصية، لكن رؤية أي شيء آخر غير الألم والمعاناة على وجوه الناس أمر يستحق العناء. رأيت أم يتلصّص على حافة الحشد، ونظرته تقيّمنا.

أنظر بعيدًا.

نقف أمام الدكتور زياد الذي تمالك نفسه أخيرًا. يبدأ بخطاب صغير عن العثور على السعادة من خلال المصاعب، ويهدأ الجميع. بعد ذلك نقرأ جميعًا الفاتحة معًا ويقرأ كنان نذور الزواج بعد الدكتور زياد. أعطي موافقتي بصوت خافت.

والآن نحن متزوجان.

تزوّجث وأنا أرتدي معطف المختبر الخاص بي، وسترة أكبر من اللازم بثلاثة مقاسات، مع وجود غبار على حجابي وعلامات أوساخ على بنطالي الجينز. ليس لدينا كعكة، أو فستان زفاف مناسب، أو حتى ملابس نظيفة. لكن لا يهمُّ. يبدو الأمر وكأن كل شيء يحدث في لقطات. أحاول حفظ كل كلمة تقال، وكل فعل وكل نظرة، لكني أجد صعوبة في مواكبة ذلك. يبدو كنان في حالة ذهول، وكأنه يسير في حلم يقظة. نحن ننظر بخجل إلى بعضنا البعض.

لا شيء سوف يفسد هذه اللحظة بالنسبة لي. أريد أن أستمتع، وأن أحب، وأن أكون سعيدة.

الجميع يصفق والبعض يهتف. وجه لمى يشبه القمر في ليلة كاملة، وهي تقفز على قدميها، بينما يبتسم يوسف ابتسامة صغيرة وكأنه لا يستطيع تمالك نفسه.

تضغط نور نفسها بين الحشود لتصل إليّ، وتمسك بيدي وتقبّل خدّي، وعيناها تتلألآن.

شيئًا فشيئًا، يتبدّد الجمهور، وينادي الدكتور زياد جميع الموظفين لبدء العمل، لكن الطاقة التي تغذي المستشفى مختلفة الآن. إن الأمل الذي زرعته بعناية لم يعد في قلبي فقط.

«مكتبي فارغ»، يقول الدكتور زياد لي ولكنان

بصوت منخفض. «أنا متأكد من أن لديكما أشياء للحديث عنها على انفراد».

«شكرًا لك يا دكتور»، تلعثمت من الخجل.

«أنتِ تستحقين كل سعادة الدنيا يا سلامة». يبتسم لي بحرارة، ويذكّرني ببابا. «مبروك عليكما، وملأ الله حياتكما بالفرح والبركة».

يصافح كنان قبل أن يسرع إلى مهامّه. تقول نور: «سوف أعتني بالأطفال لفترة قصيرة». تبتسم إلى لمى ويوسف، وترد لمى الابتسامة.

يسقط يوسف على أحد الكراسي البلاستيكية، لكنه يبدو أقلّ توترًا ممّا كان عليه عندما دخل.

ولحسن الحظ، الجميع مشغولون جدًا عن ملاحظة دخولنا إلى مكتب الدكتور زياد. يغلق كنان الباب بهدوء؛ ممّا يزعج ذرّات الغبار.

أشعر بالدفء داخل سترتي. هل يجب أن أقول شيئًا؟ أين يذهب ذراعاي؟ أرجحتهم بشكل غريب لبضع ثوان، ثم أتوقف.

«سلامة؟» يقول وأنا أستدير ببطء. اقترب بضع خطوات نحوي، وفجأة أصبح أقرب من أي وقت مضى.

نظرت إليه متوترة، وتفاجأت عندما رأيت أن تعبيراته لا تحمل أي توتُّر. أستطيع أن أرى حبّات البندق في عينيه، وإذا ركزت أستطيع عدّها. شعره أشعث من الليلة الماضية ومن عدد المرات التي هاجمته فيها أصابعه طوال الصباح. أرى ندبة باهتة تقسم حاجبه الأيسر إلى نصفين، وأتساءل كيف لم ألاحظها من قبل.

يبدو الأمر وكأنني أراه للمرة الأولى. لم يقل شيئًا، فقط ابتسم لي بحرارة، وقبل أن أتمكن من التحدث،

انحنى إلى الأمام، ووضع ذراعيه تحت ذراعي، وسحبني بالقرب. أتنفّس بصعوبة، وبعد لحظات قليلة من التردد، وضعت يدي حول كتفيه. يدفن رأسه في زاوية حجابي، ويضمّني بقوة. أعصابي ترتعش، مليون فكرة تتسابق إليّ، وتزاحم ذهني.

وفجأة يعمُ علينا السكون، ويتبدّد كل فكر وشعور عصبي. أشعر بالسلام. أستطيع أن أتنفس، وأستنشق رائحته. رائحته تشبه رائحة سوريا في الأيام الخوالي. قليل من الليمون المقطوف من الحدائق، ممزوج بالتربة والطين. رائحته مثل المنزل. يتمتم بشيء لا أسمعه، كلماته عالقة في قماش حجابي.

«ماذا؟» أهمس.

«لا شيء»، يقول بصوت أعلى، ولكن هناك خشونة في الأمر، وكأنه يحاول حبس دموعه. ثم، بعد لحظات قليلة، يقول: «أنا آسف لأنني لم أتمكن من توفير حفل زفاف مناسب لك».

انتزعت نفسي من حضنه ونظرت إليه بفضول. «هل تعتقد أنني مستاءة؟».

قال بخجل وهو يضع يده خلف رقبته: «لا أعرف، أعلم أن حظنا سيئ الآن، ولا أستطيع توفير ما يكفي لكلينا. لكني أقسم أنني سأفعل. لدى عائلتي بعض المال المدّخر، ولدينا أرض هنا أيضًا. لا أستطيع استخدام أي من ذلك الآن، رغم ذلك. اللعنة، كان يجب عليّ أن أعطيك شيئًا. ربما فستانًا؟ كان يجب أن يكون لديك على الأقل فستان زفاف. أنا...».

أقاطعه عندما أقف على أطراف أصابعي وأضم خديه بين كفّيّ. يحدق في وجهي.

«أريد الزواج. ليس حفل زفاف». أبتسم. «وإلى

جانب ذلك، هذه طريقة أكثر رومانسية».

«حقًا؟» يسأل بشكل غير مؤكد.

«أوه، بالتأكيد! عرس وسط الثورة. أليست هذه مقدمة جيدة للقصة؟».

يبتسم مرة أخرى. «إنها تبدو وكأنها مؤامرة رائعة».

«بالضبط. أنا صيدلانية ذات خبرة يا كنان. يمكنني الاعتناء بكلينا بينما أنت الأب الذي يمكث في البيت ليرسم»، قلت بابتسامة مرحة.

«هاهاها».

أنزل على كعبيّ، وآخذ يديّ معي قبل أن يبدأ في التّعرّق.

«كنت أتساءل...»، قلت وأنا ألعب بحاشية معطف المختبر الخاص بي. «إذا كنت ترغب في الانتقال للعيش معي ومع ليلى».

هناك ثانية حيث نحبس أنفاسنا.

«لديك تلك الفجوة الضخمة في شرفتك، ولا أستطيع أن أتخيّل أنها دافئة جدًا»، أوضحت.

يبتسم ويمسك يدي ويفرك عليهما دوائر ناعمة. «ما هو السبب الحقيقي؟».

أخجل. «هذا واحد من العديد».

«حسنًا إذن». لا يزال يبتسم. «سآخذ إخوتي إلى المنزل، وسنحزم أمتعتنا ونلتقي بك في نهاية مناوبتك».

«تمام».

باستدعاء كل ذرّة من الشجاعة بداخلي، رفعت رأسي وقبّلت خدّه. يتجمّد، يلتقط أنفاسه. يتلعثم في الوداع ويتجه نحو الباب قبل أن ينظر إليّ.

«أراك لاحقًا».

«أراك لاحقًا».

***

خوف ينتظرني في المخزن، وأقفز عندما أراه.

«ألم تتوقعيني في هذا اليوم البهيج؟» شفتاه ملتويتان من الاستياء.

أغلق الباب متنهدة. «ولماذا أنت منزعج الآن؟ كون كنان زوجي يمنحني المزيد من الحافز للمغادرة معه».

يومئ. «هذا صحيح، لكنه لا يأتي دون مخاطر».

«ماذا تقصد؟».

يقترب أكثر. «إذا -لا سمح الله بالطبع- قُتل كنان أو إخوته، أو الأسوأ من ذلك، تمّ اعتقالهم؛ هل ما زلت ستغادرين؟».

الرعب ينزلق في معدتي.

«قد يحدث الكثير في خمسة أيام»، يتابع خوف بكل سهولة. «من ستختارين؟ ليلى أم كنان؟» عيناه تتلألآن. «أم نفسك؟».

أتنحنح. «سأترك أخي، أليس كذلك؟».

ينقر على ذقنه. «صحيح. لكن هل يمكن لمأساة أخرى أن تجعلك تخالفين وعدك؟ هل تريدين أن تموتي هنا بدلًا من المخاطرة بالحياة؟ ».

«لا»، أجيب.

يخطو نحوي. أنفاسه باردة، ولكن هناك قلق في عينيه. «أمل -من أجلك- ألّا تفعلي ذلك. سيكون من العار دفنك هنا».

28

كلمات خوف تثقل كاهلي طوال اليوم. قلبي في صراع، يحاول التمسك بخصلات من السعادة. الأمل شبح يتجول في جسدي.

يهنئني شخص عابر بينما أواصل جولاتي. تنطلق نوادر الفرح لفترة وجيزة، لكنها تشبه محاولة التمسك بالضباب. تعانقني نور بقوة مرة أخرى، وأحاول استيعاب سعادتها.

«كنت أعلم أنه معجب بكِ!» صاحت نور وهي تمشي بجانبي. «فعلًا؟».

«نعم. ينظر إليك دائمًا أثناء عملك. ليس بطريقة غريبة.. لا أعرف»، تقول بتأنٍّ. «كما لو أنك الشخص الوحيد الموجود».

أحمرُ خجلًا. «أوه. لم أكن أعتقد أن أحدًا رأى ذلك».

«لقد كان بمثابة إلهاء لطيف عن جميع المرضى الذين يأتون باستمرار. أعني أنها معجزة أنه لا يزال لدينا فطنتنا».

«كما تعلمين، في الغرب وأماكن أخرى حيث يعيش الناس حياة طبيعية، يمكن للطاقم الطبي الحصول على معالجة نفسية لما يرونه أثناء التعامل مع مرضاهم».

«يا لها من كلمة غريبة! كيف تنطقينها؟ معا-لجة نـفـفـف-سية؟» تسأل بسخرية.

أبتسم بصدق. «الحمد لله روح الدعابة لدينا حاضرة وبصحة جيدة. سيستغرق الأمر أكثر من ذلك لكسرنا». تغمز قبل أن تسرع نحو طفل يبكي.

أشاهدها وهي تنطلق، وكلماتها تضرب على وترٍ حساس. عندما أنظر إلى قلبي، أتوقع أن أجده في

حالة من الفوضى بسبب كلمات خوف وأفعال جيش النظام، لكنني لا أجد ذلك. ربما كان هذا هو الحال في البداية، لكن الآن هناك شمعة مضاءة في الظلام، تنير طريقي. وتعدني بالحياة.

«مبروك يا سلامة»، يقول أم من خلفي، فقفزت. إنه يرتدي سترة بنية بالية، وهناك ظل لحية خفيفة على وجهه.

أقول: «شكرًا لك»، لكن طعمها مثل نشارة الخشب في فمي.

«هل يعلم العريس السعيد عن بوصلتك الأخلاقية المكسورة؟» ابتسامته لطيفة.

ما زلت قادرة على التحدث معه. «هل تهدّدنى؟».

يرفع يديه. «لا سمح الله! لدينا اتفاق. لكنني أعتقد أنه من حقي إخافتك بعد أن دمّرتِ حياتي تقريبًا».

يمدُ يده، وأبحث عن قرص البانادول الموجود في جيبي، ثم أسقِطه في كفّه. ولكن قبل أن يرحل، وجدت الشجاعة لأقول: «كيف حال سمر؟».

توقّف، وظهره متصلّب، ودار نحوي. تحوّلَت عيناه إلى اللون البني الداكن من الاستياء.

«أعتقد أنني أخبرتك أن هذا مجرد عمل...».

«لا يهمُني»، أقاطعه. يفور الحمض في معدتي، لكني أتمكّن من الكلام. «ربما فعلت شيئًا فظيعًا، لكن لا يزال لديّ ضمير».

ينبض الوريد في جبهته، ثم يجيب ببطء: «إنها بخير. تتمُ إزالة الغرز. لا عدوى».

أطلقت تنهيدة مرتاحة من أعماق أمعائي، وقد تضاءلت قوة الحمض.

يقول أم: «لديها ندبة. وبهذه الطريقة ستتذكرك دائمًا، وضميرك...».

يبتعد، وتستأنف معدتي هضم نفسها قبل أن أهرع إلى المرحاض.

***

كنان وإخوته يقفون أمام سلالم المستشفى عندما خرجت في نهاية نوبة عملي. يحمل يوسف حقيبة ظهر سبايدرمان مهترئة وهو يفرك الحصى بحذائه، بينما يمسك كنان يد لمى، وحقيبة ظهرها الوردية من باربي مهترئة عند الحواف. حقيبة كنان سوداء.

يتّسع قلبي عندما أراهم، وأسرع في نزول السلم.

«مرحبًا»، أقول، فيبتسم لي كنان. «مرّ وقت طويل دون رؤيتكم».

خطوت إلى جانبه لتمشيط شعر لمى البني الفاتح. «أفتقدكِ».

يشرق وجهها وتتورجح اليد التي تمسك بيد كنان.

التفتُ إلى يوسف، الذي لا يزال يحدّق في الأرض. «واشتقت لك أيضًا يا يوسف».

يرفض أن ينظر إليّ، فتصطدم حصاة أخرى بالسلم. أنظر إلى كنان في حيرة. لقد كان يوسف في مزاج جيد بعد الحفل الصغير، لقد ظننت أنه سيشعر به طوال اليوم.

يهزُّ كنان رأسه بحزن ويقول بصوت منخفض: «هو فقط متضايق من خروجنا من شقتنا. هناك الكثير من التغيير الذي يحدث اليوم».

«أوه».

يمدُّ كنان يده الحرة ويعبث بشعر أخيه. يضرب يوسف على يده، لكن لا يمكن أن يخطئ البهجة المخفية في عينيه، فهو سعيد لأن شقيقه الأكبر يعطيه الاهتمام.

«أنت بخير؟» يسأل، ويوسف يهز كتفيه.

يتنهد كنان، ويستدير نحوي، ويحمل لمى. «لا أستطيع أن أخبرك كم أقدّر هذا. لقد أصبح حيئنا من أصعب المناطق التي يصعب الدفاع عنها بعد الهجوم الكيميائي. لا أعتقد أنه كان بإمكاننا البقاء لفترة أطول».

أضع يدي على فمي، في حالة صدمة. تحلّق عيناي إلى السماء البرتقالية الشاحبة وأبحث عن الطائرات.

«دعونا نذهب».

ثرثرة لمى تملأ الصمت ونحن في طريق عودتنا، يبدو أنها تغلّبت على خجلها. أمشي إلى جانبها وهي تنظر إليّ. على الرغم من كونها أغمق من عين كنان، إلا أن عينيها تتمتعان بنفس حدّة عينيه.

«كم عمركِ؟» تسأل فجأة.

ابتسامة لطيفة تنحدر على شفتي. «ثمانية عشرة».

عبست وهي تحاول حساب فرق السن بينها وبيني. أخيرًا قالت: «كنان في التاسعة عشرة من عمره».

«أعلم ذلك».

تقول بنبرة عالِمة بالأمور: «ولقد تزوّجتِه». «نعم».

«لماذا؟ إنه دائمًا على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به. أحيانًا أضطرّ إلى الصراخ ثلاث مرات قبل أن يسمعني».

قالتها بنبرة جادّة، فانفجرت ضحكتي، واهتزت أكتاف كنان بضحكته المكبوتة. يندفع يوسف إلى الأمام ويمسك بطرف سترة كنان.

«لماذا تضحكين؟» لمى تتساءل.

أمدّ يدي وأفرك خدّها. «اسفة. أنت لطيفة جدًا».

يتجعّد أنفها وهي تناقش مع نفسها ما إذا

كان ينبغي عليها تحليل هذا الأمر أكثر أو قبول المجاملة. حتى تقرّر قبولها.

أنظر إلى يوسف وأبتسم. «أنا أحب حقيبتك، سبايدرمان رائع حقًا. هل هو بطلك الخارق المفضّل؟».

للمرة الأولى منذ أن التقيته، أشرقت عينا يوسف وأومأ مرة واحدة قبل أن يضغط شفتيه معًا ويمسك بالأشرطة. إنه يكسر قلبي. من الواضح أنه أجبر على النموّ فجأة لدرجة أنه متمسك بأي شيء يشبه البراءة التي فقدها. في العادة، عندما يبلغ الثالثة عشرة سيكون قد تخلّص من حقيبة ظهر سبايدرمان ليلعب بألعاب الفيديو ويقابل أصدقاءه لحضور مباراة كرة قدم في أحد الأزِقّة. نموّه العاطفي مثل نبات نسي الناس سقيَه، لذلك فهو يحاول التقاط أي رطوبة يستطيع الحصول عليها.

حشد يخرج من الحي الذي أعيش فيه. شبان ونساء ومراهقون، كلهم يحملون لافتات وشعارات مختلفة للاحتجاج، وعينا كنان تلاحقهم. انقبض فكّه ولمست مرفقه على الفور، محاولة بيأس أن أرجعه إليّ. العودة إلى الوعد الذي قطعه.

تختفي النظرة النارية عندما ينظر إليّ، ويمكنني التنفس مرة أخرى. أضغط بيدي على الخاتم. تقع عيناه على حركتي ونظرته تتبع ندوبي.

منزلي يلوح في الأفق من بعيد، فأخرجت مفاتيحي. فجأة عادت أعصابي إلى الحياة عندما فتحت الباب وأدركت أنني وكنان سنعيش تحت نفس السقف.

معًا.

أين سينام؟ ستسمح لي ليلى باستخدام غرفة نومها للمى ويوسف. ربما سنبقى معي في غرفتي،

ويستطيع كنان أن يأخذ الأريكة.

سيكون على بُعد خطوات مني. مجرد مدخل واحد. «ليلى»، أنادي عندما دخلت، وأنا أهدهد رفرفة الفراشة من معدتي. «أنا في المنزل وكنان وإخوته هنا!».

يجيبني الصمت ويقف الشعر في مؤخَرة رقبتي. إنها بخير. أنا مجرد شخص يعاني من الوساوس والقلق ويتعامل مع كل فترة صمت على أنها خطر.

«تعال»، أقول لكنان. «ربما لا تزال ليلى نائمة».

دخلوا وأغلق كنان الباب خلفهم. كل شيء يبدو حقيقيًا للغاية. يملأ طول كنان الردهة الضيقة وينظر يوسف من خلف أخيه بفضول. يضع كنان لمى على قدميها ويطلب منهما خلع أحذيتهم بينما أذهب للبحث عن ليلى.

عندما دخلت إلى غرفة المعيشة، رأيتها تجلس على الأريكة ونظرة بعيدة على وجهها. إنها تحدّق في لوحتها البحرية وكأنها تحاول الفصل بين كل ضربة فرشاة. يتدلّى شعرها على شكل أمواج فوق كتفيها، وتستقر إحدى يديها على بطنها.

«ليلى!» أقول بصوت عالٍ، وهي تقفز. «سلامة! لقد أخفتني!».

«كنت أناديك حالًا. كل شيء على ما يرام؟». تبتسم، ولكن يبدو الأمر مؤلمًا. «أنا بخير».

أقترب خطوة. «هل أنت متأكدة؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟».

وهي تدش شعرها خلف أذنها. «الحنين إلى الأيام الجميلة. هل تتذكرين عندما رسمت هذه اللوحة؟» أومأت برأسها إلى لوحة البحر.

«بالطبع».

تبتسم بخفة. «هل تتذكرين كم كرهت الأمر عندما انتهيت؟».

«الألوان كلها خاطئة!» صرخت، وخطوط زرقاء داكنة على جبهتها وخديها. كانت ترسم لمدة سبع ساعات متواصلة، ولم تتحرّك من مقعدها لتشرب أو تأكل. تمّ تلطيخ مئزرها المطبوع بأزهار الأقحوان بمجموعة متنوعة من الألوان الزرقاء والرمادية. لقد نادتني في حالة من الذعر، وبالكاد تمكنت من الحصول على كلمتين عبر الهاتف. «الظلال! قرف. إنها سيئة!».

ضحكت وأنا أنظر حولي في غرفة المعيشة. كان الطّلاء قد وقع فوق اللاتكس الموضوع لحماية الأرضيات. تمّ تكديس باقي الأثاث بجوار الحائط لإفساح المجال لإبداع ليلى. وقفت في وسط الإعصار، وهي تمسك اللوحة باكية، وشعرها مربوط في كعكة فوضوية.

«هل تمزحين معي؟» صرخت وأنا أتقدّم نحوها، حريصة على عدم ركل مجموعة طلاء الأكريليك المفتوحة. «انظري إليّ!».

«أنا أنظر إليكِ بالفعل!» بكت. «لقد استغرقت سبع ساعات من عمري يا سلامة!».

أمسكت باللوحة منها ووضعتها فوق رفّ المدفأة. لقد جعلتها تقف في المنتصف، في مواجهتها. «لم تضيّعي عمرك. أغلقي عينيك».

أغلقتهما.

«فكّري في عاصفة تقرّر ما إذا كانت ستثور في البحر. في مكان ضائع. لا سفينة في الأفق. لا يوجد إنسان. تخيّلي الألوان التي لن يراها أي إنسان على الإطلاق. سوف تعلو العاصفة وتمزق الأمواج ولن يكون هناك أحد ليشهدها. أو ربما لن يحدث ذلك.

ربما تتكسر الغيوم وتشرق الشمس».
أخذت نفسًا عميقًا. «الآن افتحي عينيك».
ابتسمتُ. «لقد التقطت شيئًا لم يره أحد من قبل. خيالك هو من فعل ذلك».
التفتت نحوي، مبتهجة. «شكرًا لك».
«هل تتذكرين ذلك؟» تسأل ليلى مرة أخرى من على الأريكة، فتتشكّل كتلة غريبة في حلقي.
«نعم».
«لقد جعلتيها واحدة من لوحاتي المفضّلة». هناك شيء ما في صوتها لا أستطيع فكّ شفرته. شيء حزين.
«إذن لماذا تبدو حزينة جدًا؟».
تهزّ رأسها. «أنا لست حزينة. أريدك أن تعرفي كم أنتِ مذهلة. كيف تمسين أرواح الناس».
«سلامة؟» يقول كنان من خلفي، فأقفز على الفور أمام ليلى وأخفيها عنه. حواجبه مجعّدة وعيناه ملتصقتان بوجهي.
«كنان!» أوبّخه. «ماذا تفعل؟ ليلى لا ترتدي حجابها!».
«ليلى؟» يردّد.
«نعم!» أنا ألوّح له لينظر بعيدًا. «ليلى، ارتدي وشاحًا أو شيئًا من هذا القبيل».
أجابت بحزن: «ليس لديّ أي شيء». «جدي شيئا!» أقول، غاضبة.
يتعمّق ارتباك كنان، ثم تفترق شفتاه. «سلامة».
ألقيت نظرة خاطفة على كتفي لأتحقّق ممّا إذا كانت ليلى قد عثرت على شال أو مفرش طاولة. إنها تنقّب في الوسائد، عابسة.

«سلامة». يخرج صوت كنان أكثر حزمًا، وأنا أنظر إليه.

«ماذا؟» أزمجر. «لماذا لا تزال هنا؟».

يتردّد. «لقد جئت لأنني سمعتك تتحدثين ولم يكن أحد يجيب. اعتقدت أن شيئًا ما قد حدث».

الآن أنا في حيرة من أمري. «ماذا؟ أنا أتحدث مع ليلى».

يخطو نحوي بلطف كما لو كان يقترب من غزال جريح. «لا، أنتِ لا تتحدثين مع أحد».

ذراعاي تسقطان بشدة على جانبي. «معذرة؟».

يمدّ كنان يده إلى يدي ويغلّفهما بيديه الدافئتين. «سلامة، لا أحد هنا. ليس هناك ليلى. لا أستطيع رؤيتها».

29

أضحك.

تعبير كنان مزيج من الحزن والذعر.

أقول: «بالطبع لا يمكنك رؤيتها. أنا أقف أمامك أيها السخيف».

يمرّر يده من خلال شعره. «الوقوف أمامي لا يخفي الأريكة حقًّا».

ألتفت لأرى ليلى جالسة على الأريكة المذكورة، ويداها تعانقان بطنها الحامل. شعرها بني محمرٌّ وعيناها زرقاوان محيطيتان، ويمكنني رؤيتها. أستطيع أن أشمها وألمسها.

«ليلى؟» أقول بصوت مذعور. تبتسم بحزن. «أنا آسفة يا سلامة».

خوف جديد يجرّ قلبي عبر هاوية سوداء، فأتعثر، وأنهار على ركبتي أمامها.

«كنان»، أقول بصوت أجوف. «أتوسل إليك. من فضلك قل لي إنك تراها. من فضلك أخبرني أنك ترى وجهها والفستان الأزرق الذي ترتديه».

كنان يتحرك ورائي. يقول بهدوء: «لا أراها. إنها مجرد أريكة».

ليلى تمسّد خدي. «أنا حقيقية في قلبك».

ويهرب مني صوت مختنق. «لا. لا أنت حقيقية».

تعضّ على شفتها، والدموع تتدفق. «هل تتذكرين حادثة إطلاق النار في أكتوبر؟».

أنا فارغة تمامًا. شجرة محترقة.

مع استمرارها، كل كلمة تقولها تسحب خيطًا، وآخر وآخر حتى ينكشف الأمر بالكامل. «ذهبت إلى البقالة في نهاية الطريق. كان هناك قنّاص. لم

أنج. كنت أنزف، ولكنني كنت أتنفس، فحملوني إلى المنزل أثناء لحظاتي الأخيرة. لقد فارقت الحياة خارج الباب الأمامي».

ارتعشت يدي، وتناثر الألم في نظامي الهيكلي، وأطلقت صرخة مخنوقة.

لقد كنت في المستشفى عندما حدث ذلك. ماتت ليلى دون أن أكون هناك لأمسك بيدها. تتطاير شظايا من ذكرياتي، وتتسرّب من خلال تلك التي اختلقتها لنفسي. لقد غدت إلى المنزل ولكن كل شيء كان انتهى. وكانت عائدة من السوبر ماركت عندما اخترقت رصاصة قناص عسكري رأسها. والآخر في رحمها. أثر الدم في الخارج على الرصيف المتصدع هو دمها. كان كثيفًا، وغير راغب في الذوبان في التربة. تمامًا مثل ذلك، تمّ أخذها بعيدًا عني. وتمّ أخذ ابنة أخي بعيدًا. وكنت وحدي تمامًا.

وتمّ التعجيل بدفن ليلى، في نفس اليوم. ساعدني بعض جيراني في غسلها ولفّها بثوب أبيض، ودُفِنت بجوار والديها.

لكنني نسيت كل ذلك.

استيقظت في اليوم التالي لأجدها جالسة على سريري مع ابتسامتها الفاتنة وأنا... نسيت.

لا، لقد غيّرث الواقع.

يدا ليلى على خدي وأنا أرتعش. أستطيع أن أشعر بيديها. «لم يكن خطأك، هل تفهمينني؟ أنت لم تُخلفي وعدك لحمزة».

تنهُداتي جافة، تتدفق بشكل مؤلم في صدري، ولا أستطيع تكوين كلمات متماسكة. أعيش وحدي منذ أكتوبر. لمدة خمسة أشهر ظلّ عقلي ينسج قصة

خيالية لإبقاء معاناتي مخفية.

أراقب وجهها، محاولة حفظه في الذاكرة. كنت بحاجة لها في حياتي. كنت بحاجة لتلك الراحة والأمان بعد أن فقدت عالمي كله. كانت لحظات السعادة الصغيرة التي عشتها معها بمثابة شريان الحياة. أعلم أنني مدينة بالكثير، لذلك قمت بتشكيل حياتي المحتملة بكل عزم. لقد سمحت لي بالشفاء شيئًا فشيئًا. إنها حقيقية بالنسبة لي مثل أي شيء آخر.

مسحت إبهامها على وجنتي وهي تبتسم، وعيونها زرقاء أكثر إشراقًا من النجمة. «أنتِ تعلمين أنني في الجنة. أنتِ تعلمين أنني آمنة وسعيدة. وكذلك الطفلة سلامة». إنها تضغط بيدها على صدري. «لديك إيمانك هنا. ستعيشين لي ولوالديك ولحمزة. ستفين بوعدك له بإنقاذ نفسك».

«لا تذهبي»، أتوسّل. «لو سمحتِ».

تأخذ يدي في يديها وتقبّل مفاصلي. «لديكِ عائلة الآن يا سلامة. أنتِ لست وحدك».

يد ثقيلة وصلبة تقع على كتفي. مختلفة تمامًا عن لمسة ليلى التي تبدو أشبه بسحابة تهمس على يدي. أغمض عينيّ الملطّختين بالدموع وأستدير وأرى نظرة كنان الحزينة.

يهمس: «سلامة. لا بأس. أنت بخير».

أنظر حولي. غرفة المعيشة مملّة، والألوان غامضة. السجادة العربية بجانب الأريكة عليها طبقة سميكة من الغبار. هالة باردة معلّقة في الهواء. فهو يعطي المكان شعورًا بالهجر. هذا يذكّرني بما كان عليه الحال عندما اصطحبني كنان إلى المنزل بعد العملية الجراحية التي أجريتها للمى. هذا لا يشبه البيت الذي وضعت فيه ليلى وحمزة أجزاء من

روحهما. هذه ليست الطريقة التي كنت أراه بها خلال الأشهر الماضية. كان ذلك المكان أنعم وأكثر إشراقًا بلمسة ليلى.

وأدركت أنني لم أقل شيئًا لبعض الوقت. لقد أجبرتني الصدمة على التراجع إلى حيث توجد ليلى. في ذهني.

يجذبني كنان إليه، وأتركه يلفُّ ذراعيه حول كتفي، وظهري إلى صدره. يصبح جداري الصلب الذي أتكئ عليه، وترتخي عضلاتي.

تقول ليلى بهدوء: «سلامة»، ويصبح العالم أكثر إشراقًا من جديد.

تقف أمامي، تحتضن خدي، لكن لمستها بالكاد موجودة. لا أستطيع أن أشعر بها الآن.

«هذا ليس خطأكِ»، تقول. أتنفس بصعوبة.

«حمزة لا يريدك أن تلومي نفسك أبدًا. أنا لا ألومك. لا أحد يفعل». تعبيرها حاسم.

أومئ لها.

بعد أن اقتنعت بإجابتها، أخذت نَفَسًا عميقًا، وعندما رمشت، اختفت.

تراخت قبضة كنان، لكني أمسكت بيديه على الفور قبل أن أندفع نحو حضنه، أحتضنه بقوة. أدفن وجهي في سترته، وأستنشق رائحة الليمون التي تنبعث منه.

«أنت حقيقي، أليس كذلك؟» أهمس أخيرًا. «من فضلك كُن حقيقيًا». يرفع رأسي والنجوم لا تزال في عينيه. يقول بحزم: «أنا حقيقي». يأخذ يدي ويضغطها على صدره. تضغط نبضات قلبه على أضلاعه وتقفز الاهتزازات إلى جلدي. أغمض عيني لبضع ثوان، مستمتعة بهذا الشعور. لا أعتقد أنني

أستطيع السماح له بالرحيل أبدًا.

أومأت له وضممت شفتي معًا لأمنع نفسي من البكاء عندما أرى لمى ويوسف يختلسان النظر من خلف الجدار.

لاحظهما كنان أيضًا وتغيّر وجهه. يشير إليهما بالتّقدّم قبل أن يجثو على ركبتيه ليعانقهما. طوال الوقت لم يفلت يدي؛ ممّا يجعل العناق غير مريح، لكنه مُصمِّم على عدم ترك يدي.

«أين ليلى؟» تسأل لمى وهي تنظر حولها بفضول يتحوّل إلى خوف عندما ترى عينيّ الدامعتين.

كنان يتجهّم وهو ينظر إليّ. أومأ مرة واحدة. يقول كنان بلطف: «ليلى في الجنة».

لمى تعبس. «لكنك قلت إننا سنعيش مع سلامة وليلى».

ينظر كنان بعيدًا، ولا يعرف كيف يجد الكلمات الدقيقة التي تشرح لها الأمر. لكن عيون يوسف اتّسعت فجأة عندما أدرك ذلك، وتوجّهَت نظراته إليّ. تومض العواطف على وجهه.

في المساحة الهادئة بيننا، يراني. ليس كالفتاة ذات الأعصاب الفولاذية التي أنقذت أخته. أو الفتاة التي وقعت في حب أخيه وأخذته بعيدًا. يرى نفسه فيّ كما رأيت نفسي فيه.

يجد كنان الكلمات بعناية ولمى تستمع، أمّا أنا فلا.

أنظر إلى النافذة حيث ترفرف الستائر مع نسيم خفيف ويمر عبرها شعاع واحد من ضوء الشمس يسقط على البساط العربي.

30

استلقيت على الأريكة، في مكان ليلى، معظم الأمسية. سألني كنان إذا كنت أريد الخصوصية، لكنني لا أريد ذلك. ليس الآن. لقد كنت وحدي طوال الأشهر الخمسة الماضية، والتفكير في ذلك يجعل الشّعر الموجود في مؤخرة رقبتي يقف من الرعب. وحيدة. لقد تحدّثت إلى الهواء الرقيق. ضحكت مع الهواء الرقيق. بكيت مع الهواء الرقيق. الآن أملأ عيني وأذني بأشخاص حقيقيين يتنفسون.

تناول لمى ويوسف عشاءً بسيطًا من التونة المعلبة، وكدت ألوم نفسي على سذاجتي. لم تأكل ليلى معي قطُّ، كنت أفترض دائمًا أنها تأكل عندما أكون في المستشفى. كان ينبغي أن يكون ذلك واضحًا لي. كل لمساتها وتصرفاتها كانت أصداء لتلك الموجودة في أقوى ذكرياتي عنها. كل شيء عنها كان ذكرياتي تتضخّم حتى أصبحت صلبة.

قلبي مرتاح، أعلم أنها في الجنة. يؤسفني أنني لم أكن هناك في لحظاتها الأخيرة.

أتذكر آخر يوم قضيته معها. مع ليلى الحقيقية.

كنا نجلس على السجادة العربية في غرفة المعيشة أمام الأريكة مباشرة، وكانت تضحك بسخافة عندما علقت سيارتنا في الرمال في الضواحي.

ضحكت وهي تمسك بطنها: «ظننت أن حمزة سيقتلك لأنك خرّبت سيارته». كانت في الشهر الثالث من حملها وكان بطنها صغيرًا.

ابتسمت. «لقد بالغت في تقدير عمق الرمال».

أردنا أنا وليلى أن نكون عفويّين ونقود خارج المدينة نحو منزل جدي الصيفي. ظننت أنني

سأسلك طريقًا مختصرة، لكن انتهى بنا الأمر عالقين في خندق مع اقتراب المساء بسرعة.

ومضت عيناها. «لقد أحببت ذلك اليوم. بالتأكيد كان علينا أن نتحمّل صراخ حمزة علينا لمدة نصف ساعة قبل أن يسحب السيارة، لكن هل تتذكرين كيف كانت النجوم؟».

لقد كانوا معلّقين في السماء المظلمة كالليمون، ناضجة للتناول، وقريبة جدًا. «أتذكر».

«أمل أن نتمكن من رؤيتها هكذا مرة أخرى». ربتت ليلى على بطنها فوق البطانية التي طويتها حولها. «إن لم يكن في سوريا، ففي مكان آخر».

أرادت المغادرة، لكنها كانت خائفة جدًا من تكوين الكلمات. أفرك جبهتي بإرهاق وأغوص في الوسادة التي لا تزال تحمل رائحة الأقحوان بطريقة ما. حجابي يتدلّى بشكل غير محكم من رأسي، ويلتف حول رقبتي. أنا خجولة جدًّا لخلعه حتى الآن. لكنني أسحب قلادتي وأدير خاتم زواجي لأعلى ولأسفل السلسلة.

«مرحبًا»، يقول كنان بصوت منخفض. إنه يقف عند باب غرفة المعيشة.

«مرحبًا».

«لمى ويوسف نائمان على سريرك». يبدو مرتبكًا، وهذا بدوره يجعلني مرتبكة أيضًا. لقد كان داخل غرفتي، ولا أستطيع أن أتذكر طوال حياتي ما إذا كنت قد تركتها في حالة من الفوضى أم لا. أتمنى أن تكون منظمة.

ركع أمامي وأنا أمسك البطانيات بشكل غريزي. يهمس: «أنا آسف جدًّا بشأن ليلى».

تتشكّل كتلة في حلقي فأمدّ يدي. أمسك يده على

الفور، وأضعها على خدي، مستمتعة بملمسها الصلب. أصابعه قاسية، دليل على الحياة الصعبة، لكنها دافئة مع الدم الذي يجري في عروقه. «أنا بخير. ربما هي الصدمة، ولكن... أعتقد أنه القبول. إنها بخير، وهذا كل ما أردته لها».

يمسح على خدي، ويبتسم بخفّة، وأذوب في لمسته. لكن الفكرة صدمتني.

«لماذا سأغادر الآن؟» أهمس، وهو يتوقف. «كان سببي كله هو احترام رغبات حمزة. والآن... لقد فقدت ماما وليلى. ولم أفِ بوعدي».

يُمرّر كنان أصابعه في يدي، ويضع يدي على شفتيه، ويقبّلهما. «سلامة، لا يمكنك البقاء».

عيناه مليئتان بالرعب.

«تعلمين أنكِ اختلَقتِ خوف، ولكنك كنت تعتقدين أن ليلى لا زالت على قيد الحياة». يتمتم. «أنا قَلِق عليك. البقاء هنا، في المكان الذي ماتت فيه، سيجعل الأمور أسوأ. لن تتمكني من مساعدة أي شخص إذا لم تساعدي نفسك أولًا».

أغمض عيني لثواني معدودات، أتذكر هلاوسي بجانب حطام منزلي. عندما أعاد عقلي بناء حيي إلى الحياة.

يتابع كنان: «لن أغادر سوريا بدونك. لقد قلت ذلك بنفسك، المعركة ليست هنا فقط. هناك حاجة إليك في الخارج بقدر ما هناك حاجة إليّ. ولا أستطيع الجلوس ومشاهدتك تتألمين هكذا ولا أعرف كيف أساعدك».

لهجته متوسّلة، وتعبيره يائس. عكس موقفي عندما طلبت منه التوقف عن التصوير. لا أستطيع أن أفعل هذا معه. البقاء لن يفيد أحدًا منّا. وهذا

يعني أنني سأستمر في الإخلال بوعدي لحمزة. ما زلت على قيد الحياة، ويريدني أن أبقى على هذا النحو.

«حسنًا»، همست.

يرتخي وجهه بالارتياح. ولكن هناك نظرة في عينيه تجعلني أعتقد أن لديه الكثير ليقوله. انتظرت، لكنه بدلًا من ذلك أخرج شيئًا من جيبه وأعطاني قطعة مطوية من الورق. «لقد رسمت لك شيئًا آخر».

قلبي يُحلّق، لكني لا أفتحه. شعور غير مريح يخِزُ أعصابي ويقلب معدتي. كان كنان أكثر من متفهّم لأمر خوف، ولم يتزعزع أبدًا. ولكني حذّرته من خوف. ليلى قصة أخرى.

«كنان، فيمَ تفكّر؟» أسأل بهدوء. راحتاي متعرّقتان.

ينظر إليّ فتسقط تفاحة آدم. «ما مررت به مع ليلى، أفهمه. لقد تمنّيت كل يوم أن أتمكن من رؤية والديّ مرة أخرى. وقد رأيت ما فعله اضطراب ما بعد الصدمة بي وبلُمى، وخاصة بيوسف. يمكنني التعامل مع ما أعرفه، وقد علمت نفسي كيفية المساعدة. جراح لمى، صدمة يوسف، كوابيسي. لكن يا سلامة أنا خائف ممّا لا أعرفه». يطلق نفَسًا هشًّا. «لا أعرف كيفية إصلاح هذا. لا أعرف ماذا أقول أو أفعل لمساعدتك. لقد وصلت إلى الحد الأقصى لما يمكنني القيام به».

أمشّط شعره للخلف وترفرف رموشه. إنه صغير جدًا ومُشتت جدًا بين ثلاثة أشخاص ودولة بأكملها. «وجودك هنا يكفي». أبتسم. «أعذك. لقد ساعدتني في اتخاذ القرار».

يبتسم مرة أخرى. مبدئيًا في البداية، ثم تصبح

ابتسامة حقيقية. «عندما نصل إلى ألمانيا، سنجد المساعدة».

يعتقد مرة أخرى أن ذلك يمكن أن يحدث. وهو قد يحدث. لذلك أومأت. أقول: «دعني أرى ما رسمته»، ثم أفتحه لأرى رسمًا تخطيطيًا لـ... أنا. لقد رسمني على شكل شيتا مع بلوزتها الصفراء وسروالها الوردي. حجابي وردي شاحب وأنا جالسة فوق جناح طائرة. وبجانبي...

«يا إلهي، هل هذا أنت؟» أنا أصرخ. يبتسم بخجل. «نعم. مثل بازو».

يأخذ قطعة أخرى من الورق. «هذا رسم آخر لقصتنا. قمت بتصميم المنزل الذي سيعيش فيه بطل الرواية. كنت أفكر أن المجتمع سيبنيه على الأشجار. مثل قرية بأكملها معلقة في الهواء».

«زراعة المحاصيل والزهور على أغصان الشجرة. لذا فإن الشجرة ستوفر العناصر الغذائية الخاصة بها للنباتات النامية!».

يشعُّ. «هذه فكرة رائعة».

نقضي بقية المساء في بناء قصتنا ببطء، وإضافة العناصر.

***

يغفو كنان أمامي، رأسه يتأرجح، حتى أنهض من الأريكة حتى يتمكن من التّمدُد بشكل صحيح. يحتجُ قليلًا، لكن النوم في النهاية يثقل جفنيه. ألفُّ البطانية حوله، وأشعر بالحنين إلى ذلك عندما كنت أفعله مع ليلى عندما كانت على قيد الحياة -وفي هلوساتي- يجعل الدموع تخز عيني.

يبدو هادئًا في نومه، وقد تلاشت خطوط القلق حول عينيه. رموشه طويلة جدًا، لدرجة أنها تصل

لعظام وجنتيه.

أحدّق فيه لبضع دقائق أخرى، وقلبي يتسع حبًا له.

«سنكون بخير»، أنا أهمس، وتركت الليل يجسد رغبتي. نحن نستحقُّ ذلك على الأقل. حياة لا نفحص فيها أسطح المنازل، ولا تشعر بالارتياح لعدم انهيار السقف علينا أثناء الليل.

أنا وهو نستحق قصة حب لا تنتهي بمأساة.

مع سريري والأريكة المشغولين، المكان الوحيد المتبقي هو غرفة ليلى وحمزة. أتوقف أمام الباب، وأضع أصابعي على المقبض. آخذ نَفَسًا عميقًا وأفتحه بنقرة واحدة.

موجة من الهواء البارد تستقبلني. لا تزال الغرفة تحمل لمحات من رائحة الأقحوان الخاصة بليلى وكولونيا حمزة. أو ربما هي هلوسة.

لا أشعل الأضواء، بل أترك قرنياتي وعدساتي تتكيّف مع الظلام. أمشي بإصبعي على الأثاث المنسي. طبقة سميكة من الغبار تغطي غطاء السرير، والكومودينو، والدولاب، والمنضدة. لم تطأ قدمي إلى الداخل منذ خمسة أشهر. لقد أصبحت الغرفة حطامًا، تنتمي إلى الذكريات، ولا تريد أن تُعاد إحياؤها أبدًا. أو ربما يكون من المستحيل إحياؤها. تمامًا مثل ليلى. مثل حمزة.

أجلس على سريرهما، وأشعر براحة غريبة. وكأن أصداءهما موجودة هنا. أغمض عيني للحظة وأعلم أنه عندما أفتحهما سيكون واقفًا أمامي.

وقد كان.

النقاط الحمراء على أكتاف خوف تشبه نبات الخشخاش في ظلالها وشكلها، وعيناه رقاقتا ثلج زرقاوان تتلألآن في الظلام. يميل إليّ بابتسامة غير

متوازنة.

«كنت تعلم»، أهمس. دون أي صدمات داخلي. لقد خلقت ندبةُ رأسي وكلُّ ما تمثله من حزن، واضطرابُ ما بعد الصدمة، طبقاتٍ في عقلي الباطن لم أعتقد أنها ممكنة أبدًا.

يهزُّ كتفيه. «كان من الممتع للغاية رؤية إلى أي درجة ستصطحبك أوهامك».

لا أقول أي شيء. أنظر إلى النافذة على الجانب. الستائر ليست مشدودة بإحكام؛ ممّا يسمح لقليل من ضوء القمر بالتسلل من خلالها. قريبًا بما فيه الكفاية سنكون آمنين. ولن أضطر إلى النظر من النوافذ والتظاهر بأن العالم ليس مشتعلًا.

يخطو خوف نحوي، وأعيد نظري إليه.

«بماذا تؤمنين يا سلامة؟» يسأل بهدوء. ظلٌّ يرفرف على وجهه، وابتسامة سرية تتراقص على شفتيه.

فمي يجفُّ. «ماذا تقصد؟».

يُخرج سيجارة. يومض الأنبوب الأبيض، ويصبح شبه شفاف قبل أن يعود إلى العتمة. «أنت تؤمنين بإيمانك. تؤمنين بنفسك. بكنان. بليلى عندما كانت على قيد الحياة. أنت تعتقدين أن هذه الثورة ستنجح عندما يضحي الناس بقلوبهم».

«نعم».

يسحب نفَسًا من سيجارته. «هل آمنت بليلى أثناء الهلوسة؟».

أومئ.

«هل تؤمنين بي؟» تتسع ابتسامته.

أجعِّد حاجبيَّ. «أنت واقف أمامي مباشرة. بالطبع أفعل».

ينقر على السيجارة، فيتساقط الرماد، لكنه يختفي في منتصف الطريق. نظرته بعيدة. ينظر إليّ، لكنه يبدو وكأنه يرى أبعد مني. «أنا هنا نعم. لكنني لن أكون كذلك دائمًا».

أستقيم في جلستي. أعلم أنه لن يكون دائمًا في حياتي. لكن سماعه يقول ذلك يحزنني ويفرحني في الوقت نفسه. «كيف؟» أسأل. يرمي السيجارة بعيدًا ويتحرك نحو النافذة. «الخوف والرعب يتصاعدان في سوريا. لقد تمّ تعزيزهما فيك، ولهذا السبب تراني. من الآمن أن نفترض أنك لن تواجهي نفس هذه الفظائع في ألمانيا. فلماذا أتبعك هناك؟».

أقف وأجمع نفسي معًا. «أنت تعني... عندما أصعد على ذلك القارب، عندما أغادر...».

«أغادر...»، أنهى كلامه من أجلي. يستدير ونحدّق في بعضنا البعض لبضع دقائق.

في هذه اللحظة، يبدو صلبًا جدًا، كما لو أنه قُطع من الليل وتحول إلى لحم وعظام.

«أين تودّ الذهاب؟» أجد نفسي أطرح أسخف الأسئلة، لكن خوف لا يضحك. وجهه مهيب، وعيناه قديمتان.

يسدّ الفجوة بيننا، وأرفع ذقني لأنظر إليه.

يجيب: «في كل مكان»، ثم يختفي عندما أرمش.

31

يأخذني كنان إلى المستشفى في صباح اليوم التالي. لمى ويوسف يظلان في المنزل. تأكّدت من أن لمى لديها زجاجة ماء بجانبها لتبقى رطبة. يبقى كنان بجانبي ويتحدث مع المرضى ويساعد الأطباء عند الحاجة. ما زلنا نتعافى من الهجوم الكيميائي وفقدنا بعض المرضى في منتصف الليل، لكن وجود كنان بالقرب مني يجعلني أتنفس بسهولة.

يشطح ذهني تلقائيًا لبعض الوقت بينما أعيد تشغيل المحادثة التي أجريتها مع خوف الليلة الماضية. في أقل من أسبوع سأتحرّر منه. وفي غضون أسبوعين سأكون في أوروبا، في مدينة جديدة، محاطة بأشخاص لا يتحدثون لغتي. سأشعر بأن حمص تبعد عني سنوات ضوئية. لكنني سأشعر بكل جرح يحدث هنا، بكل قنبلة تسقط، بكل حياة فُقِدت. سأشعر بمعاناة حمزة، فلا أعلم أبدًا إن كان قد مات أم لا. وسيستمر هذا في إذابتي حتى أصبح عظمًا. وعندما يصل إلى العظم، سيحفر في النسيج العظمي الداخلي ويصل إلى النخاع.

ومع ذلك، فإن القتال هنا مستمر.

وانتشرت الاحتجاجات على نطاق واسع في العديد من المدن السورية: حماة، دوما، الغوطة، دير الزور. كل محتجٍّ منهم غاضب من القصف المتصاعد الذي نواجهه في حمص. كفرنبل لديها أجمل وأكثر اللافتات الاحتجاجية إبداعًا. أتساءل عن حال العالم الخارجي، وكيف ينامون في الليل وهم يعلمون أننا نُذبح أثناء نومنا. كيف يسمحون لهذا أن يحدث؟

انزلقت يد كنان في يدي عندما عدنا إلى المنزل، فأفرغت ذهني من كل شيء باستثنائه. أسرق النظرات إليه خلسة. لم يرَ شعري بعد رغم أننا

متزوجان. لم يطلب مني ذلك، ولم نتحدث أبدًا عن درجة المودة الجسدية التي نشعر بالراحة في إظهارها لبعضنا البعض هنا. قد تكون قصة حبنا غير تقليدية نظرًا للظروف، ولكن لماذا لا نستطيع استغلال لحظات السعادة الصغيرة؟ أريد أن أبني بيتًا وأجد الفرح في حمص قبل أن نغادر. ذكرياتي الأخيرة لا يجب أن تكون مليئة بالألم والخسارة.

كنا جميعًا نجلس، نتناول عشاءً بسيطًا معًا في المطبخ ونراجع قائمة ما سنحضره، عندما نظر إليّ كنان وكأنه تذكّر للتوّ شيئًا ما.

«سلامة، كنت ستدفعين لـ'آم' ثمن مقعد ليلى في القارب، أليس كذلك؟».

تصطدم ملعقتي بالتونة التي كنت أدفعها حول طبقي طوال الدقائق الخمس الماضية. «صحيح. ليس عليّ أن أفعل ذلك بعد الآن».

هذه خمسمائة دولار تُضاف إلى مدخراتي. أشكّ في أن آم سيرغب في الحصول عليهم بدلًا من الخاتم الذهبي الأكثر قيمة الذي وعدته به مقابل مقعد كنان. أحدّق بحزن إلى الطاولة، وأتمنى أن أعانق ليلى الآن.

كنان يتنحنح. «ما الذي ينقصنا أيضًا؟».

أنا ممتنّة لهذا الإلهاء. «شيء لمحاربة دوار البحر. واقترحت ليلى أن نستخدم الليمون».

يقول كنان بلطف: «تبدو هذه فكرة عظيمة. سأمر على البقالة غدًا وأرى ما إذا كان هناك أي شيء. لا يزال الطقس باردًا جدًا، لذا سيستمر الليمون حتى نغادر».

بعد تناول العشاء، نصلّي جميعنا العشاء معًا. لمى ويوسف يسهران قليلًا قبل النوم، وأنا أذهب إلى

الحمام لأغسل وجهي.

أحاول في المرآة أن أجد الفتاة التي يراها كنان، تلك ذات العيون الجميلة، لكن كل ما أراه هو خدّيّ الغائرين وذقني المدبّب. اعتدت أن أكون جميلة. كانت بشرتي ذات اللون الزيتوني، المتوهجة بالحياة، ناعمةً. شعري البني، الأعمق من لحاء شجرة برية، كان يناسب عيني، وكان ذلك شيئًا كنت فخورة به إلى حدٍّ ما. أشد حجابي. ينساب على رقبتي ويتفكك شعري من كعكته. لقد تلاشى الظل البني. يبدو باهتًا عندما يسقط على كتفي. في تلك الحياة المحتملة، كنت سأغمز إلى نفسي، معجبة بالطريقة التي يتباين بها كحل العيون الأزرق مع عيني البنيتين بلون الشوكولاتة، وكيف تظهر عظام الترقوة الحادة من خلال فستاني المكشوف عن الكتفين. كنان سيحمرُّ خجلًا عندما يراني، غير قادر على النظر بعيدًا.

حسنًا، على الأقل هذه هي سترتي المفضلة، أفكر بكآبة. بلون ماورنيٍّ ناعم. أتنهد بعمق، وأضبط وضع قلادتي حتى يستقر الخاتم الذهبي بشكل مشرق فوق النسيج القطني وأجبر نفسي على الخروج، تاركة حجابي خلفي.

تتسرّب الأضواء الوامضة من غرفة المعيشة إلى الردهة، وتتراقص الظلال على الأرض. لا بدّ أن كنان أشعل الشموع، وأنا أنظر من خلف الجدار، وأشعر فجأة بالخجل.

يجلس كنان على الأريكة، ويسند أحد مرفقيه على ذراعها، ويحدّق في لوحة البحر. يضيء ضوء الشموع وجهه بطريقة سحرية ويغسله بالذهب. فجأة أصبحت سترتي ساخنة جدًا.

يشعر بي واقفًا هناك ويتجه بصره نحوي، ويتكسر

وجهه بابتسامة.

«ماذا تفعلين؟» يقول، تلميح من الإثارة في صوته. الليل وضوء الشموع الخافت يخفيني عن عينيه.

«هل تحدّقين بي؟».

«ربما». أتمسك بحواف الجدار.

يُكشّر. «يجب أن أخبرك، أنا رجل متزوج الآن. زوجتي لن تحب أن تغازلني فتيات عشوائيات».

تنتشر الحرارة على وجهي حتى جذور شعري. زوجة.

«ولكن إذا كنت تصرّين على القيام بذلك، فما رأيك أن تفعلي ذلك عن قُرب؟» يربّت على المقعد بجانبه.

أتنحنح، ووضعت شعري خلف أذني، وخرجت ببطء.

تتلاشى ابتسامته، ويحلُّ محلّها شهيق حاد، ويفتح فمه.

أنفاسنا الهادئة تملأ الصمت. أجد صعوبة في النظر إليه، لذا أحدق في السجادة، متتبعةً التفافاتها. وتمضي دقيقة كاملة قبل أن يقول: «سلامة».

صوته لاهث، ويثير الرعشات على طول عمودي الفقري. أحتضن نفسي، وهو يقف، ويعبر نحوي حتى يصبح على بُعد شبر. يسيطر عطره الليموني على المساحة الصغيرة بيننا ويرفع ذقني للتحديق في عيني. قلبي أكثر حرارة من الشمس، وأفرعها النارية تنتشر على طول جهازي الوعائي.

«جميلة»، يتمتم. هناك تقديس ورهبة في لهجته. في لمسته. في عينيه. «جميلة جدًا».

أطلق ضحكة عصبية. «ليس عليك أن تمزح معي».

يبدو مرتبكًا. «أنا لا أمزح». يصل إلى أعلى ليمرر أصابعه من خلال تجعيدات شعري، وترفرف

رموشي. «أتمنى أن تري نفسك بالطريقة التي أراك بها».

يحمل خصلة من شعري. «شعرك جميل». أصابعه تتسلل إلى خدّي. «وجهك جميل».

يضغط بيده على صدري، فوق خاتم زواجي. «قلبك جميل».

ترتجف ركبتاي وأتعثر حتى يصطدم عمودي الفقري بالحائط. يتحرك معي، ويمسك خصري.

يهمس قائلًا: «لكن يمكنني أن أكون محدّدًا إذا أردت». «أنا لا أمانع»، أتلعثم.

يتلألأ الحماس في عينيه الخضراء الزمردية ويطبع قبلة على جبهتي. «تعجبني جبهتك».

هذا يجعلني أضحك ويخفّف من توتري.

«تعجبني ضحكتك». يبتسم. «لا، الصح أني أحب ضحكتك».

مع تنهيدة ناعمة، وضعت يدي على كتفيه، وسحبته أقرب. مسرورًا يقبّل أنفي. «أحب أنفك». ثم خدودي. «أحبُ خدّيكِ». ثم فوق النبض في حلقي. «أحبُ رقبتك».

ترتعش شفتاي عندما يحوم فوقهما، وأعدُ الثواني حتى تلمسهما، لكنه يظل ثابتًا.

«ماذا تحب أيضًا؟» أهمس أخيرًا وعيني نصف مغلقة.

كنان يبتسم. «شفتاك».

ويُقبّلني. إنها قبلة ناعمة حذرة تغري مشهدًا من الألوان بالدوران داخل جفني. أحتضن وجهه وتخز شعيراته كفي، لكني بالكاد أشعر بذلك مع التأثير المسكر الذي تركته قبلته عليّ. أعيش في هذه المظلة حيث يتوقف الزمن ويغسل كل همومي.

كلهم ما عدا واحد.

ينتزعني الندم من اللحظة فأضع يدي على صدره.

يتوقف كنان، ويترك الأمر على الفور، والقلق يخيّم على عينيه. يرفع يديه. «أنا آسف. لقد أخذت الأمر بعيدًا جدًا».

أهزّ رأسي، ونبضات قلبي مدوية. «لم تفعل». أرتجف من أنفاسي المرتعشة، محاولة تنظيم نشاطي الرئوي. لا أستطيع أن أحتفظ بسرّ سمر بداخلي ولو لثانية واحدة. وسيستمر في الزحف في كل لحظة سعيدة.

«يجب أن أخبرك بشيء» قلت وتحرّكت للجلوس على الأريكة.

يجلس بجانبي، يطرقع مفاصله بعصبية. «لقد قلت إنني قوية. وإن لديّ قلبًا جميلًا».

ركّزت على يدي اللتين ضغطتا على جلده منذ ثوانٍ. «لكنني لست كذلك. فعلت... شيئًا ما. لقد كان قرارًا متسرعًا، وأنا نادمة عليه كثيرًا».

يقترب كنان. «ماذا؟».

آخذ نفسًا عميقًا آخر وأخبره بكل شيء. بدءًا من عدم قدرتي على تحمّل تكاليف القارب وحتى تعريض حياة سمر للخطر من أجله. لم أترك أي تفاصيل. وفي النهاية، كانت عيناي مغلقتين، والدموع الساخنة تخترق حوافها.

أهمس: «إذا كان بإمكاني التراجع عمّا فعلت، سأفعل ذلك».

وجدت يد كنان يدي، فضغط عليها بقوة؛ ممّا دفعني إلى النظر إليه. هناك ألم في عينيه، ولكن هناك أيضًا تفهم.

«هل هذا هو السبب في أنك فقدت الكثير من

الوزن؟ وفي كل المرات التي تقيّأت فيها؟» يسأل.

تتشكّل كتلة في حلقي. بالطبع لاحظ ذلك. «نعم»، أقول لاهثة.

يسحبني إليه، فأسقط على صدره. «لقد سدّدت ديونك»، يهمس وهو يلف ذراعه حولي ويقبل جبهتي. «سمر على قيد الحياة، لقد تأكدت من ذلك، وهذا كل ما يهم».

«لكن...».

يهزُّ رأسه بشدة. «نحن بشر يا سلامة. لقد خشرنا في الزاوية، وأجبرنا على اتخاذ قرارات لا نتخذها عادة. كنت تفكرين في ليلى عندما فعلتِ ذلك. أنا لا أقول إنه كان صحيحًا، ولكنك عانيتِ بما فيه الكفاية من جرّاء ذلك. لقد أنقذت حياتها وأنقذت الكثير والكثير بعدها».

أبتلع تنهيدة وأدفن وجهي في القماش البالي لسترته، وأستنشق رائحته بعمق.

يرفع رأسي إلى أعلى، ويعيد شعري إلى الخلف، ولمساته توقظ الفراشات في معدتي. يبدو مهيبًا. «لا بأس».

أضغط جبهتي على صدره وتهرب مني تنهيدة مريحة.

«أنا أحبّك»، أغمغم.

32

«سأتحدث مع عمي اليوم لأرى متى سيأتي إلى سيراكيوز»، قال كنان وأنا أهز معطف المختبر الخاص بي. «سوف أتحقق من البقالة في نهاية الشارع، وإذا لم يكن لديهم أي ليمون، سأذهب إلى البقالة بجانب المستشفى».

«حسنًا. كُنْ حذِرًا». أكبح التثاؤب. لقد غفونا على الأريكة في الساعات الأولى من الصباح عندما لم تغدُ أجسادنا المستنزفة قادرة على مقاومة النوم بعد الآن. لكنني تمكّنت من تناول شطيرة التونة الصغيرة التي أعدّها لي كنان وقت الإفطار. وهذا وحده أعطاني دفعة من الطاقة.

يقبّل خدي. «سوف أراك بعد مناوبتك».

عندما وصلت إلى المستشفى، طلب مني الدكتور زياد التحقق من بعض المرضى الذين تضرَّرَت أنظمتهم التنفسية بشدة من السارين. ومرَّ عدد قليل آخر أثناء الليل، معظمهم من الأطفال، وكانت وجوههم لا تزال متجمِّدة في تعابير متحجرة. أبتلع وجبة الإفطار مهدّدة بالرجوع مرة أخرى من معدتي. أقوم بتوزيع المياه وإعطاء المضادات الحيوية والأدوية المسكّنة حتى الظهر.

عندما تعثّرت أخيرًا في الردهة الرئيسية، وجدت د. زياد وحيدًا، وهذا غريب بالنسبة لي.

«يا دكتور هل كل شيء على ما يرام؟» أسأله. لم أخبره أنني سأرحل، ولا أعرف كيف أعبّر عن ذلك بالكلمات، والذنب يمزق روحي.

ملامحه عابسة. «قد أضعف الهجوم الكيميائي دفاعات الجيش السوري الحر بشكل كبير. ويجدون صعوبة في الصمود أمام دبابات الجيش».

يختفي الهواء من رئتي. «ماذا يعني ذلك؟».

«هذا يعني أننا بحاجة للصلاة. الجيش السوري الحر يبذل كل ما في وسعه، لكن ليس لدينا أحد سوى الله الآن».

أغمض عيني، وشفتاي تتضرعان بالدعاء.

الدكتور زياد يبتسم بحزن. «إذا متنا يا سلامة، على الأقل نموت ونحن نفعل الصواب. نموت شهداء».

وسأرى ليلى والطفلة سلامة وماما وبابا مرة أخرى. وآمل أن يكون حمزة هناك كذلك.

أهمس: «الموت لا يخيفني يا دكتور. ما يخيفني أن نُعتقل ونحن على قيد الحياة».

يرتجف، ويومئ برأسه. «إن شاء الله لا يصل الأمر إلى ذلك».

ينادي عليه مريض فيبتعد، ويتركني غارقة في أفكاري. من الواضح أن الدكتور زياد يعتقد أنه ليس لدينا سوى أيام، إن لم تكن لحظات، من الأمان الهشّ قبل أن تنهار الجدران.

لا بدّ لي من العثور على آم. أفتّش جميع غرف المرضى قبل أن أجده عند الباب الخلفي وهو يمضغ عود أسنان.

«آم» أقول، يستقيم. «ماذا؟».

تنفّست الصعداء. «هل سمعت ما يقوله الناس؟».

لا بدّ أنه سمع كلامهم. أعضاء من الجيش السوري الحر يعيشون بيننا. أعطاني نصف هزّة. «لقد سمعت ما يكفي».

«ماذا لو حُرق الجيش قبل الخامس والعشرين؟» أسأل بصوت منخفض خوفًا من أن أفتح الباب لهم بنفسي.

يتنهّد. «سلامة، أنا الشخص الذي يوفّر القارب. أنا لست رجلًا عسكريًا أو شخصًا له نفوذ. سأخسر الكثير من المال إذا حدث ذلك، لكن بعض الأشياء خارجة عن إرادتي. هذا واحد منهم».

«ألا يمكننا المغادرة مبكرًا؟» أسأل. «مثل اليوم؟».

يهزُّ رأسه. «أعرف الحراس المتمركزين على الحدود. أعرف توقيتاتهم ونوباتهم. أولئك الذين يسمحون لنا بالمرور سيكونون هناك في الخامس والعشرين. نحن نخاطر بحياتنا كلها إذا رآهنا على حراس لا أعرفهم. هناك مَن سيأخذك أنت وأموالك. ولا يوجد قانون يحاسبهم». ومضات من الرعب الذي أظهره خوف لي في اليوم السابق للاحتجاج تظهر أمام عيني وأكتم شهقة مذعورة.

تقدّم آم نحوي، ويدهشني أن أرى وجهه مليئًا بالشفقة. «سلامة، لقد فعلتِ كل شيء. والباقي على الله. القدر. إذا كان من المفترض أن تكوني في ميونيخ، فسوف تكونين كذلك، حتى لو قام الجيش بأكمله بتمزيق هذا المكان. وإذا لم يكن كذلك، فلن تفعل ذلك حتى طائرة خاصة تهبط في وسط ميدان الحرية لتأخذك بعيدًا».

لقد فوجئت. هذه كلمات أؤمن بها في أعماقي، كما يفعل كل مسلم. القدر له خيوطه، لكننا نحن من نلفُّها معًا بأفعالنا. إيماني بما هو مفترض لا يجعلني لاعبًا سلبيًا. لا، أنا أقاتل وأقاتل من أجل حياتي. حاربت ليلى من أجلها. كنان يقاتل من أجله. ومهما حدث، فإننا نتقبل النتيجة، ونعلم أننا فعلنا كل شيء. لم أسمع هذه الكلمات منذ فترة، ويهز شيئًا ما بداخلي عندما أسمعها من ام من بين جميع الناس.

«شكرًا لك»، أهمس. فكرت في إخباره أنه سيكون

هناك أربعة أشخاص فقط على هذا القارب، لكن بطريقة ما لا يمكن للكلمات أن تتجاوز ضباب الحزن.

يذكّرني قائلًا: «مسجد خالد، العاشرة صباحًا. إنها ثلاثة أيام فقط».

أومأت، وشعرت بأن عزمي يقوى. كلمات آم تدعمني لبقية اليوم حتى تضعف ركبتاي من الإرهاق.

***

عندما تصبح السماء برتقالية زاهية، أجلس على درجات المستشفى المكسورة، أترك لأفكاري أن تجد بعضها البعض. هناك صفاء في هذا الصمت. ولحسن الحظ، لم يقع ضحايا من القنابل أو الهجمات العسكرية اليوم. يثير ذلك اضطرابي لبضع ثوانٍ، حيث لم نعِش توقُّفًا أبدًا عن الهجمات من قبل. تهمس لي فكرة فظيعة مفادها أن الجيش ربما يخطط لشيء ما، لكنني أبعدتها عندما أرى كنان يخرج من المستشفى.

يضيء عندما يراني، ولا أستطيع إيقاف الابتسامة على وجهي. يجلس بجانبي، ويمد ساقيه الطويلتين أمامه، وأسند رأسي على كتفه.

«يوم طويل؟» يسأل. «نعم».

يشبك أصابعه في أصابعي ويرفع يدي إلى شفتيه. أنفاسه دافئة فوقها، ويقبل ندباتي.

«شكرًا لعملك الشاق. شكرًا لك على إنقاذ الأرواح»، يهمس، وعيناي تذرفان بالدموع. لقد شكرني الناس من قبل، ولكن كان ذلك دائمًا عندما كان الرعب مرتفعًا، ولم تكن لديّ القدرة أبدًا على استيعاب كلماتهم. لم يقل لي أحد ذلك قطّ خلال لحظات

الهدوء. لا أحد يعرف الفظائع التي أمرّ بها، والمعركة التي أخوضها كل يوم، رآني حقًا وقال تلك الكلمات.

روحي تتّسع بحبه.

يلاحظ الدموع وينزعج. «ماذا حدث؟ هل قلت شيئًا خاطئًا؟».

أهزّ رأسي، وأفرك عيني. «لا. أنا بخير».

لا يزال يبدو قلقًا، لذا أضع ذراعي حول كتفيه وأعانقه. «أنا حقًّا بخير. لكنك جعلتني أفكر في شيء ما».

«ماذا؟» يجيب وصوته مكتوم في كتفي.

«أعتقد أنني أريد البقاء في المستشفى خلال الأيام الثلاثة الباقية. لأساعد أكبر عدد ممكن من الناس قبل أن أغادر».

يميل إلى الخلف. «هل تعنين البقاء هنا في الليل؟».

أومئ. «ليس عليك البقاء معي. لمى ويوسف سوف يحتاجان إليك».

يطرقع أصابعه. «أنت تعلمين أن الجيش يقترب. إذا تمكّنوا من الوصول إلى الجزء الخاص بنا من المدينة، فسوف يأتون إلى هنا على الفور، و...»، يتلعثم ويصمت.

أبتسم وألمس خده وأتذكّر ما قاله لي الدكتور زياد هذا الصباح. «كنان، سوف يذهبون أيضًا إلى كل منزل، ويكسرون الباب، ويسرقون، ويدمّرون، ويغتصبون، ويقتلون. أو سوف يعتقلوننا. أنت تعرف هذا. لذا، إذا كان من الممكن أن نموت، أريد أن أموت في المستشفى وأقوم بشيء للمساعدة. لا أختبئ في منزلي».

أعرف أن ليلى ستكون فخورة بي. أتمنى أن

أخبرها.

ينظر كنان بعيدًا وترفرف رموشه. أعلم أنه يحبس الدموع من ضيق شفتيه.

«حسنًا»، قال أخيرًا وأخذ يدي بين يديه. «لكننا لن ننفصل. سأحضر لمى ويوسف هنا وسنبقى معًا حتى وصول القارب».

أنا أقع في حبه أكثر. كنت خجولة جدًا من أن أطلب منه البقاء معي. لم أكن أريده أن يختار بيني وبين إخوته. وإخوته جزء منه. إنها مسؤوليته، وأنا وافد جديد إلى عالمه، وأحاول العثور على مساحة تناسبني. لكنه وفّر لي مساحة أكثر من كافية.

«نبقى معًا»، أوافق.

طبع قبلة سريعة على جبهتي قبل أن يقفز على قدميه. «سأعود خلال ساعة».

أنا أمسك بيده وأضغط عليها. «كُن حَذِرًا».

يبتسم. أفتقد يده بمجرد أن تفارق يدي، وأراقبه حتى يعبر البوابة ويستدير ليلوّح لي قبل أن يختفي خلف الحطام.

أتنفس الصعداء. أنظر إلى السماء وأرسل له دعاء سريعًا. تمتمت: «ليلى»، وأنا أشاهد النجوم الأولى تبدأ في الوميض. «ماما. بابا. أتمنى أن يكون حمزة معكما. أتخيل أنكم تجلسون بجانب بعضكم البعض وتضحكون وتأكلون وتشربون. أنا أحبكم وأفتقدكم كثيرًا. لكني... لا أريد أن أنضمّ إليكم بعد. أريدكم أن تقابلوا كنان لاحقًا. عندما نكبر أنا وهو ونقضي العمر معًا. لا يزال لديّ المزيد في داخلي. لا يزال بإمكاني الاستمرار. أعلم أنني أستطيع. لأنني أعلم أن هذا ما تريدون مني فعله».

أخذ نفسًا عميقًا وأشعر بالسكينة تستقر في قلبي.

كوني على بُعد شعرة من الموت يملؤني بالهدوء الذي لم أكن أعلم أنه ممكن. لقد قمت بدوري. سأواصل النضال من أجل ما أستحقه، ومهما حدث، فأنا موافقة عليه.

يداعب النسيم براعم أوراق الأشجار، وأشعر بخوف يجلس بجانبي.

هو لا يقول شيئًا، ولا أنا أيضًا.

بعد بضع دقائق، نهضت ورجعت إلى المستشفى.

33

احتجّ لمى ويوسف على اضطرارهما إلى الانتقال مرة أخرى، حتى وعدهما كنان بكل الحلوى التي يريدانها عندما نصل إلى ألمانيا. والآن يستقرّان في إحدى الغرف التي تمّ تخصيصها للأطفال الذين يتماثل أهاليهم إلى الشفاء في المستشفى.

الأطفال هناك نائمون بالفعل، بعضهم يصرخ من حين لآخر، وآخرون يركلون أرجلهم بلا هوادة. يجد كنان مساحة في الزاوية للمى ويوسف. تغفو لمى بمجرد أن يضعها كنان على البطانية. يرقد يوسف بجانبها وعيناه كبيرتان مثل عين البومة.

ينظر إليّ وأنا أبتسم. فينظر بعيدًا، وحتى في الضوء الخافت الذي يتسلل عبر الباب المفتوح أستطيع أن أرى احمرار وجهه.

يتأكد كنان من تغطيتهما ودفئهما قبل أن يغلق الباب خلفه.

«ألا تشعر بالنعاس؟» أسأله وأنا ألقي نظرة خاطفة على ساعة الردهة.

الساعة تقترب من العاشرة مساءً.

يهزّ رأسه. «لا أستطيع النوم بينما زوجتي تعمل».

يردّد تلك الكلمة مرة أخرى. زوجة.

لقد لاحظ تعابير وجهي المرتبكة وابتساماتي. يكرر «زوجتي».

أتوقّف، أغطي وجهي بيدي، غير قادرة على النظر إليه دون أن تشتعل فيه النيران. يمسك معصميّ، ويسحبهما بعيدًا.

يهمس قائلا: «انظري إليّ».

«إذا فعلت ذلك، قد يتوقّف قلبي»، أجبته وأنا

أحدق في الأرض، ثم أنظر من فوق كتفه ومن حولنا. «لا يمكننا أن نفعل هذا هنا. يمكن لأي شخص أن يمر بجوارنا».

يستجيب بأخذ يدي والسير بنا عبر الردهة. أشعر وكأنني من المفترض أن أشعر بما كنت سأشعر به في حياتنا المحتملة. مراهقة تتسلّل مع الصبي الذي تحبه، وقلبها يتسارع. نصل إلى مخزن الأدوية ويغلق الباب خلفنا، ويسندني إليه.

لا يلمسني، ولا يرفع ذقني، لكنه يبعد عني قليلًا.

«هل تنظرين إليّ الآن؟» يسأل. صوته منخفض وقوي، يرقص على بشرتي. أنظر إليه والتقط الحماس في عينيه. نظرة خاطفة على شخصيته عندما لا تجبره الثورة على بناء درع وإخفاء أجزاء من نفسه. هذا الإدراك يجعلني أضحك، ويرفع حاجبيه. «لم يكن هذا هو الرد الذي كنت أتوقعه».

«أنت تغازلني، أليس كذلك؟» أضحك ضحكة مكتومة.

يهزّ رأسه وهو يضحك. «هل أدركتِ هذا الآن؟».

أعطيه نظرة فضولية.

يقول: «سلامة، أنا أتغزّل بك منذ أن التقينا. أعتقد أنه كان خفيًا بعض الشيء».

«حسنًا، ماذا لديك أيضًا في جعبتك؟» أسأل، وأنا أشعر بالجرأة في خصوصية هذه الغرفة. هذا المكان الصغير موجود خارج الواقع. كما نفعل في كل أوقاتنا معًا.

تلعب ابتسامة سرية على شفتيه، ويخفض رأسه. أغمض عيني بشكل غريزي، في انتظار أن تلمس شفتاه شفتيّ، لكنه لا يقبّلني. وبدلًا من ذلك، وضع جبهته على الباب بجوار أذني مباشرة وجسده

ملامس لجسدي.

بطريقة ما يبدو هذا أكثر حميمية.

كان الجو حارًا للغاية تحت سترتي، ضغطت نفسي بقوة إلى الباب حتى أتأكد من أنني على وشك التوحد معه.

يهمس، وأكاد أتنهّد: «لقد فكرت كثيرًا في الوقت المسروق منا». صوته قريب جدًا. «إذا لم تكن الأمور كما هي، لكنّا متزوّجين منذ فترة طويلة. كنت سآخذك إلى جميع أنحاء سوريا في رحلة برية. سنقوم بزيارة كل مدينة وقرية. نشاهد التاريخ الذي يعيش في بلادنا. كنت سأقبّلك على شواطئ اللاذقية، وأقطف لك الزهور في دير الزور، وآخذك إلى منزل عائلتي في حماة، ونتنزّه تحت أنقاض تدمر. كان الناس سينظرون إلينا ويفكرون أنهم لم يروا شخصين واقعين في الحب هكذا في أي وقت مضى».

لا أستطيع التحرك. لا أستطيع التنفس. آمل ألّا يتوقّف أبدًا عن الحديث.

قال وهو يضع جبهته على كتفي: «أردت أشياء كثيرة». تقطر الكآبة من لهجته. «ولكن مقابلتك، وحبك... لقد جعلتني أدرك كيف يمكن إنقاذ الحياة. أننا نستحق أن نحظى بالسعادة في هذه الليلة الطويلة».

أخيرًا، انحنى للخلف وحدّق بي بحنان لدرجة أنني قد أبدأ في البكاء.

يهمس قائلًا: «شكرًا لك لكونك نوري».

وهذه المرة، لا أنتظر منه أن يقبّلني.

أشبك ذراعي حول رقبته، وأسحبه إليّ. القبلة حلوة، وتملؤني بالأمل في مستقبل حيث سأستيقظ

بين ذراعيه، ولا توجد كوابيس تسحبنا إلى الأسفل. نحن فقط في منزل حوّلناه إلى بيت به حديقة مزهرة ودفاتر رسم نصف مملوءة.

يرفع ذقني إلى الأعلى، ويحدّق بعمق في عيني، ويقول: «سنكون بخير».

أهمس: «إن شاء الله».

نمرّ بالدكتور زياد عندما ندخل إلى الردهة ممسكين بأيدي بعضنا البعض. لم يقل أي شيء، فقط ابتسم لنا وهرع للاطمئنان على المريض. أعتقد أن رؤيتي أعتمد على شخص ما للحصول على الدعم هو ما يجعله يشعر بالارتياح.

في تلك الليلة، أصبح كنان مساعدًا لي في المستشفى. إنه سريع التعلم، وبعد أن أوضحت له كيفية تغيير الضمادات دون إهدار الشاش؛ أصبح قادرًا على القيام بذلك بنفسه.

نلقي نظرة خاطفة على بعضنا البعض، ونبتسم بحماقة قبل أن نعود إلى عملنا، وهذا هو الشعور الأغرب.

عندما يتباطأ الإيقاع في المستشفى، نجلس أنا وكنان على الأرض مقابل أحد الجدران، وقد تغلب علينا الإرهاق أخيرًا. تم شغل كل الأسِرَّة، فأومأ لي بأن أضع رأسي على حجره، وأنا أشعر بالتعب الشديد بحيث لا أشعر بالارتباك. أقع في حالة من الانفصال عن الواقع، لست نائمة تمامًا ولا مستيقظة. في مكان ما بينهما. يبدو الأمر كما لو أن عقلي وجسدي غير قادرين على الراحة الكاملة.

في الساعات الأولى من الصباح، يهزُّنا جميعًا صوت اصطدام قوي ليس ببعيد. مثل سقوط الشظايا. مثل بندقية دبابة تخترق المبنى. أقفز على قدمي، وقلبي في حلقي، واستيقظ كنان وهو يلهث.

«ماذا يحدث؟» يسأل بعنف. «لا أعرف».

تحطّم آخر. هذه المرة أقرب، والمرضى الذين يستطيعون التحرك يتدافعون ويهربون إلى الجدران ويتعمقون في أروقة المستشفى. أطفال يبكون، وأصوات مذعورة تتردد في السقف.

«كنان، انهض»، أقول بصوت أجوف. الإلحاح يتضخّم في قلبي. «الآن! علينا أن نجلب لمى ويوسف».

أيًا كان ما يحدث في الخارج، سيأتي إلى هنا، وعندما يحدث سيترك المستشفى في حالة خراب.

34

أمسك كنان بيدي، ولكن قبل أن نتمكن من اتخاذ خطوة، انفتحت أبواب المستشفى ودخل خمسة جنود. تفوح من زيّهم العسكري الأخضر رائحة القتل، وبنادقهم معلّقة على صدورهم العارية من علم الجيش السوري الحر. يقوم واحد منهم بإخراج مسدس ويطلق النار على المريض بطريقة الإعدام. فتاة صغيرة ذات رقعة عين وربطتي شعر غير متطابقتين.

توقّفت في مكاني وأمسكت بذراع كنان. نحدّق بينما تنهار الفتاة الصغيرة، وقد ابتلعت بركةٌ من الدم جسدها الصغير، وصبغت شعرها الأسود القصير.

امرأة تصرخ، وصوتها يمزق أحشائي. تسقط على ركبتيها بجانب الفتاة وتعانقها بقوة، بينما تتوسّل إليها أن تظل على قيد الحياة.

«تؤبوريني!». إنها تنتحب.

طلقة أخرى، ويسقط جسد الفتاة على الأرض بصوت ارتطام منخفض بينما تنضم إليها والدتها.

«هل يريد أي شخص آخر أن يقول شيئًا؟» يصرخ الجندي. يتمُّ كتم النحيب المذعور على الفور، ويملأ الأنين المكتوم الفضاء. بالكاد أستطيع التركيز على خفقان قلبي وإجبار نفسي على التفكير. أين بقية مجموعته؟ لن يرسل الجيش النظامي أبدًا خمسة جنود فقط إلى أراضٍ تحت سيطرة الجيش السوري الحر. هل هم خلفهم مباشرة؟

ينتشر الجنود ويتبخترون بين المرضى، ويضربون بعضهم على وجوههم من حين لاخر، أو يغرسون أعقاب بنادقهم في جروحهم.

«هل هذا يؤلم؟» يسخرون. أدعو الله أن يصل الجيش السوري الحر إلى هنا قبل أن ينضمّ إليهم بقية الجنود.

تشتدُّ ذراع كنان تحت يدي وأعلم أنه يفكر في لمى ويوسف. إنهم في أسفل القاعة ومن المؤكد أنهم استيقظوا مع الأطفال الاخرين.

إنه يقترب مني ببطء. «اخلعي معطف المختبر الخاص بك»، همس بهدوء لدرجة أنني بالكاد أتمكن من التقاط الكلمات.

الرعب يجمّد دمي. كوني فتاة وصيدلانية يجعلني هدفًا من نوع خاص. سأتُّهم بمساعدة المتمردين وعلاجهم. سأتعرّض للتعذيب بنفس الأدوات التي أستخدمها لإنقاذ الناس. سأتعرض للاغتصاب.

يتحرك كنان عمدًا حتى أقف خلفه، وظهره يغطيني. أمسك بأكمامي وأسحبها للأسفل قليلًا.

لكن بينما أفعل ذلك، لمحت عيني فتاة صغيرة في السابعة من عمرها تقريبًا تتّكئ على الحائط بينما يتقدم أحد الجنود نحوها. ذراعها موضوعة في حمّالة، ومجموعة من الضمادات القديمة ملفوفة حول رأسها، وعيناها منتفختان من الخوف. في وجهها أرى أحمد. أرى سمر. أرى كيف سيحدث هذا مع لمى ويوسف. أرى فتاة كانت آخر قطعة صغيرة من براءتها على وشك أن تتمزّق إلى أشلاء.

وبدون تفكير أتحرك.

أمسك بحوض مهمل وألقيه على ظهر الجندي.

يصيبه على الفور ويسقط على الأرض. يخيم الصمت على الردهة، ولا يكسره إلا نخر ألم الجندي. ذراعي ترتجف عندما يستدير الجندي ببطء.

أفضل لي من الفتاة الصغيرة.

تدور نظرته فوقي وتنتشر الرعشة في جميع أنحاء جسدي.

«هل رميت ذلك للتوّ؟» ينبح.

عند سماع صوته، يضع كنان يده على يدي على الفور ويسحبني إلى الخلف، لكن الجندي أسرع. أمسك بذراعي الأخرى، وانتزعني من قبضة كنان، والتفتُ لألقي نظرة على الصدمة والرعب في عيني كنان عندما ارتطمت فجأة بالحائط.

يضغط ساعد الجندي على حلقي ويثبتني بقوة في مكاني، حتى لا أختنق.

«هل تعتقدين أنك شجاعة حقًا، هاه؟» يقول وهو يبصق الكلمات.

من طرف عيني أرى كنان مُقيدًا بين جنديين. يتلوّى وجهه بالغضب، وتتدفق اللعنات من فمه. يضرب أحدهم وجه كنان بعقب بندقيته، فيتفجر الدم من خده. أحاول الوصول إليه، لكن الجندي يدفعني نحو الحائط. من الصعب بما فيه الكفاية أنني لا أستطيع التّنفُّس قليلًا.

«أنتِ تعملين هنا؟ هل تعالجين هؤلاء المتمردين؟ كل هؤلاء الخونة؟» يسخر.

«ابتعِد عني» أزمجر، دون أن أعرف من أين تأتي الشجاعة. لكنني لا أخاف الموت. لقد أظهر لي خوف أسوأ النتائج. وما يقف أمامي ليس إنسانًا، بل حيوان في جلد إنسان.

يضحك الجندي ويتركني. قبل أن أفهم تمامًا ما يحدث، أشعر بألم حاد في جانب رأسي وضدمت بالحائط مرة أخرى. أتـأوّه، وأغمض عيني، محاولة أن أتمكن من التغلب على الضربات التي تصيب عقلي. استغرق الأمر مني بضع ثوانٍ لأدرك أنه

ضربني بالجزء المعدني من بندقيته. أمسح ذراعي على شفتي فأجدهما ملطختين بالدم. كان التنفس مؤلمًا، والهواء يدخل ويخرج بأزيز. يؤلمني أكثر أن أنظر إلى كنان وأرى الخوف الخالص في عينيه.

«لا تخبريني ماذا أفعل»، سمعت الجندي ينفجر. «سأقتلك!» كنان ينفخ والدماء تقطر على الأرض.

يستدير الجندي نحوه، ويرفع بندقيته نحو صدغ كنان، وأنا أصرخ.

«لا!».

يتوقف، والمسدس لا يزال مضغوطًا على جبين كنان. وجه كنان لا يظهر أي خوف. ليس على نفسه. لكن عليّ أنا فقط. الجندي ينظر إليّ. «لا؟».

أحدّق فيه بعينين مليئتين بالكراهية، تقطران بالدموع.

«ثم ماذا عن هذا؟» تلمع نظراته. «أن أترك صديقك يعيش حتى يتمكن من مشاهدة هذا، أليس كذلك؟».

الغضب يخنق حلقي.

«ليس لدينا وقت لهذا»، يقول صديقه بصوت منخفض، وهو يسحب كنان إلى الخلف وهو يكافح. يسبّ كنان فيضربه الجندي على وجهه. «قد يكون المتمردون قريبين. الجيش لن يصل إلى هنا نحن بحاجة ألّا نضيع الوقت حتى...».

«لدينا وقت»، يقاطعه الجندي ويمسك بي. ذهني ينفجر بمجرد أن يلمسني، وألتف نحوه، وأركله.

ويشاهد المرضى الذين يقفون خلفنا هذا المشهد المروع بأعين مرعوبة، ولا يجرؤ أحد منهم على التحرك. لقول أي شيء. وأنا لا ألومهم.

يدفع ماسورة البندقية تحت ذقني. تفوح منها رائحة الدم والدخان. أسعل.

«اذهب إلى الجحيم» أزمجر رافضة أن أمنحه الرضا برؤيتي أرتعش.

يبتسم، ويدخل فم البندقية إلى عمق أكبر، حتى كادت أن تثقب جلدي.

قبل أن أتمكن من رمش، سقطت البندقية على الأرض، وأمسك بذراعي في قبضة الموت. إنه أكبر حجمًا، ويتغذى بشكل جيد، بينما أنا أعيش على الأبخرة. يدفعني على سرير فارغ وأصرخ وأخدش وجهه. يمسك معصميّ بيد واحدة، ويشلّ حركتي، واتكأ نصفه على أعلى جسدي، في مواجهتي. تفوح منه رائحة السجائر والعرق.

«دعها تذهب!» يصرخ كنان رغم توجيه البندقية نحو رأسه. يأتي جندي ثانٍ من خلفه ويضرب بندقيته على ظهر كنان.

أبصق في وجه الجندي. لعابي لونه أحمر وهو يسيل على خده، ولا يؤدي إلا إلى ضحكه، يمسحه بينما يده الأخرى تشد حول معصمي.

يقول: «اضربه مرة أخرى»، فيتقدم كنان للأمام بقوة ضربة أخرى، وهو يلهث من رئتيه المتألمتين.

«لا تستسلمي يا سلامة». صوت خوف يقطع ذهني. لا أستطيع رؤيته، لكن لهجته حادة، مما دفعني إلى جرعة من الأدرينالين لإزالة الذعر الضبابي. «إياكِ!».

«لقد مرّ وقت طويل منذ أن خاض شخص ما معركة. أنا أحب ذلك»، سخر الجندي. يسرح بيده الحرة على طول جسدي. يفسد الاشمئزاز دمي، فأرفع ركبتي بيننا، لكنه يتوقع ذلك، ويضغط بركبته على فخذي حتى تتفجر النجوم في عيني من الألم. يتشقق فخذي من الألم وأنا متأكدة أن الجلد مصاب بكدمات.

أسمع رنينًا معدنيًا على طول الحزام، وسحابًا ينسحب للأسفل، ويبدأ الواقع في الظهور. التفت في مكاني، وأصرخ حتى تجمّد حلقي. يتجاهلني، وعيناه ممتلئتان بالبهجة الخبيثة وفمه مغلق، ويدخل يده تحت سترتي، ويلمس بشرتي العارية. ابتلعت صرخة، وكردّ فعلٍ على غريزتي، ضربت رأسي برأسه. لا مجال للصدمة... أن تشل أطرافي عندما يشتعل الغضب في داخلي. الغضب يغذيني. الأمان على بُعد يومين. لقد فقدت ماما وبابا وحمزة وليلى وبيبي سلامة. لقد تعلّمتُ رؤية الألوان ووجدت نسختي الخاصة من السعادة. أنا مدينة لنفسي.

إمّا أن أموت أو أذهب إلى ألمانيا، لكن هذا الحيوان لن يمسّني.

يتعثر للخلف، يعوي من الألم ويمسك جبهته بينما أنا أسقط على السرير، ورأسي يسبح. هل هذا يكفي؟ أفكار ضبابية تتساقط مثل العسل، سميكة ومشوشة. يرعد دمي على جمجمتي، ويضرب العظام. كل ذَرّة من الطاقة تتخلى عني. لا أستطيع التفكير أو التحرك، وأخشى أن يُطلق النار على كنان إذا حاولت أي شيء. صرخات كنان وصياح الجنود تخف ببطء وتغيّب رؤيتي.

ولكن بمجرد أن استقر الوضع، رأيت الجندي يغلي، وقد اختفت كل التلميحات عن روح الدعابة لديه. كدمة غاضبة تتضخم على جبهته. أضحك تقريبًا. أخرج سكينًا من جرابه وهزّني من كتفي قبل أن يضغط على حافته الحادة تحت النبض في رقبتي.

«يجب أن تتم إهانتك مثل العاهرة»، زمجر وسحبها على طول حلقي.

الوقت يتباطأ. ينهار شيئًا فشيئًا عند الخيوط

الحمراء، ومع كل خيط أتذكر كرم الزيتون. كيف قبل أيام فقط، تم ذبح الأطفال بهذه الطريقة بالضبط. كيف يجب أن يكونوا قد توسّلوا وصرخوا من أجل حياتهم. أطفال بريئون.

أفكر في بابا وحمزة وكيف أنهما يفضّلان الموت ألف مرة على رؤيتي وأنا أعذّب بهذه الطريقة.

أفكر في ماما ويديها الناعمتين وهما تمشّطان شعري للخلف، وتناديني بعينيها وقلبها.

أفكر في ليلى وضحكتها الأكبر من الحياة، وعينيها المحيطيتين.

وأعتقد أن هذا هو الأمر. هذه هي الطريقة التي أموت بها. أخيرًا سأشم رائحة الإقحوانات.

لكنّ يديه ارتختا وسقطت مرة أخرى على السرير.

كل شيء يصبح أسود.

***

أستيقظ وأنا أشعر بهزة، شيء ثقيل على حلقي، وأحاول بيأس إزالته.

«توقّفي!» يقول صوت منزعج، ويمسك أحدهم بذراعي. «احذري يا سلامة!».

أحدق في المشهد حولي، ويتبلور محيطي أمامي. ظهر وجه كنان القلِق.

«أنت بخير يا عزيزتي»، يتمتم «أنت بخير».

أتنفّس بطريقة لاهثة. هناك نسيج خشن حول حنجرتي. إنه شاش. تنقبض معدتي عندما أتذكر مدى السهولة التي قطع بها نصل الجندي جلدي. يشقّني. أهز رأسي راغبة في اختفاء الصورة.

يدي تطير إلى رأسي العاري، والصدمة تسري في داخلي.

«حجابي»، ألهث وأنا أرتجف.

يتردد كنان قبل أن يأخذ يدي بلطف. «دكتور زياد ضمّد جرحك. كانت بحاجة إلى غرز صغيرة. أنت في مكتبه ولا يوجد سوانا، لا تقلقي. لن يدخل أحد». يزفر بصوت عالٍ. «الحمد لله أنك بخير».

أنفاسي مستقرة. أدير رأسي ببطء وأنا أتفحص الغرفة، التي كانت فارغة إلا مني ومن كنان. مكتب الدكتور زياد، الذي لا يزال مليئًا بالأوراق الصفراء وبعض الحقن، مدفوع إلى الحائط، والسرير الذي أستلقي عليه في المنتصف. الباب مغلق وكذلك الستائر. الوقت ليل.

يجلس كنان على الكرسي البلاستيكي بجانبي، وقد بدا على ملامحه الارتياح والإرهاق. محجر عينه اليسرى قرمزي عميق. وهناك جرح في شفته السفلية تمّت خياطته، وتتناثر بقع من الكدمات الناشئة بلا مبالاة على وجهه. عيناه زجاجيتان من بقايا الأدرينالين، وهو يرتدي سترة خضراء خالية من أي دماء.

«ماذا حدث؟» أهمس، خائفة من التحدث بصوت أعلى. لا أستطيع التوقف عن التحديق في وجهه. لقد آذوه. «هل... أنت مجروح».

يتحول في مقعده. «دكتور زياد فحصني. أعاني من ارتجاج بسيط، هذا كل شيء».

صوته عادي. إنه يحاول تخفيف ما يقوله. «بسيط؟» أكرّر بصوت عالٍ. «لقد ضربوا ظهرك. صدرك. هل أنت بخير؟».

لا يجيب، بل يأخذ نفسًا عميقًا. الاحظ أن يديه ترتجفان. «هل أنت عطشان؟» يسأل.

أسعل، وأدرك فجأة مدى عطشي. أومئ.

يقف ويحضر بحذر شديد زجاجة ماء من على مكتب دكتور زياد، ثم يساعدني على الشرب.

«لقد كنت نائمة طوال اليوم تقريبًا». يحمل الزجاجة. «بعد ذلك الجندي... كانت الدماء في كل مكان. اعتقدت... اعتقدت أنك رحلت. لكن الدكتور زياد اقتحم في تلك اللحظة ومعه نحو عشرة جنود من الجيش السوري الحر. لقد تسلّل من الباب الخلفي واتّصل بهم. ثلاثة استسلموا، لكن الذي آذاك والآخر لم يستسلما. ولكنهم كانوا يفوقونهم عددًا». نبرة باردة وراضية تسيطر على صوته. «لقد ماتا».

يصل إليّ ويضغط على أصابعي. «دكتور زياد هرع إليك واستطاع أن يوقف النزيف. لقد استيقظت وقتها، هل تتذكّرين؟»، لا أجيب، لذلك يستمر. «دكتور زياد أعطاك منوّمًا. لم يكن جرحك عميقًا. لم يقطع الشريان، الحمد لله، لكنك كنت بحاجة إلى الدم. لقد تمكّن أحد جنود سوريا الحرة من التّبرُّع لك».

أرتعد. لقد كنت على بُعد شعرة من أن أكون سِتَّة أقدام تحت الأرض. «لماذا كانوا هنا؟».

«لقد تمكنوا من إيجاد طريق عبر نقطة ضعيفة على الحدود مع الجيش السوري الحر. انطلقوا في عملية قتل سهلة في المستشفى قبل انضمام بقية الجنود إليهم».

«إذن المعركة تقترب؟» أسأل.

أومأ بحزن. «الجيش السوري الحر لديه آمال كبيرة. إيمانهم قوي ولديهم أسلحتهم، ولكن... أنا قلق».

«أنا أيضًا». ثم ألهث. «لمى؟ يوسف؟».

يضع يده على كتفي، يهدئني. «إنهما بخير. ولم

يتمكن الجنود من الوصول إلى غرفتهما، إنهما نائمان الآن و...»، توقف، وصوته متقطع، والدموع تتساقط على خديه.

«ماذا؟» أقول مذعورة، ويقفز عقلي إلى أسوأ الاستنتاجات.

يجلس على حافة سريري ويضع ذراعيه خلف ظهري قبل أن يسحبني إلى صدره.

«لقد فقدتك تقريبًا». تخرج الكلمات مخنوقة وتنهدات جافة تهزُّ كتفيه. «يا إلهي، لقد شعرت بالعجز الشديد. عندما جرحك، أنا... لا أستطيع دفنك يا سلامة. لا أستطيع».

أحكم قبضته فوقي، وأغوص بداخله، وعيني ممتلئة بالدموع. «لقد نجونا».

يطبع قبلة على خدي، وجبهتي، وقبلة ناعمة على شفتي.

ويهمس في دعاء: «ادفنيني قبل أن أدفنك. لو سمحت».

أضمُّ وجهه بين يدي، وأمسح قطرات الدموع. «أنا...».

«أنا أحبُك»، يقول قبل أن أتمكن من ذلك. أبتسم. لا يستغرق الأمر سوى بضع كلمات منه ليفك تشابك الأشواك التي تضغط قلبي. كنان ساحر بهذه الطريقة. سأكون بخير. سنكون بخير. أحتاج إلى تصديق ذلك. أحتاج أن أنظر إلى الألوان بدلًا من أن أغمض عيني عن الجمال والأمل.

حتى عندما يكون من الصعب القيام بذلك.

«أخبرني بشيء جيد»، أهمس وأتحرك لأفسح مكانًا له. يستلقي ببطء على جانبه وأنا أواجهه وأرجلنا متشابكة.

يمرر أصابعه من خلال أصابعي ويقبّل مفاصلي. «أردت أن أرسمك حتى قبل أن أقابلك».

«ماذا تقصد؟».

«يعيش عمي في برلين. أتذكّر رؤية صور لها على جوجل قبل بضع سنوات. الهندسة المعمارية تحبس الأنفاس. لديهم هذا النصب التذكاري المسمّى بوابة براندنبورج. لقد حلمت دائمًا بأخذ زوجتي إلى هناك. أجعلها تجلس في المنتصف بينما أرسمها. كما لو أن المكان كله بُني من أجلها فقط».

وفي عين العاصفة هذه، تنبض كلماته بالحياة في ذهني. أرانا نتجول في برلين، يدًا بيد، بينما يوازن أدواته الفنية على كتفه. كنت أقوم بقطف القرنفل من بائع الزهور المحلي وأقوم بتشكيله على شكل تاج. في أيام معيّنة، عندما تشرق الشمس من خلال السحب، وتنتشر أشعتها فوق الحقول، تذكرنا بحمص. بالوطن.

تمتمت: «كنت سأحب ذلك».

ترك كنان يدي ليلف خصلة من شعري حول إصبعه. «أشعر وكأنني أعرفك طوال حياتي يا سلامة».

أبتسم. «الجميع يعرف الجميع في حمص. من المحتمل أننا التقينا من قبل».

«كأطفال؟ قضيت معظم وقتي في الملعب، ألعب كرة القدم وأُحدث الفوضى في حفرة الرمل».

«أوه، إذن لم نلتق. كما ترى، كنت إمّا أمارس أعمال البستنة في شرفتنا أو ألعب باربي مع ليلى».

ارتسمت ابتسامة على وجهه. «قد يبدو الأمر مبالغًا فيه، لكنني متأكد من أن أرواحنا التقت قبل أن تجد طريقها إلى أجسادنا. أعتقد أن هذا هو المكان الذي نعرف فيه بعضنا البعض».

الحرارة تندفع إلى وجهي. وما يقوله هو جزء من إيماننا. النفوس الموجودة خارج الأجساد الفانية. ومع ذلك فإن سماعه يقوله يجعل أذني ووجهي يحترقان.

يضحك. «قُل لي شيئًا جيدًا إذن».

أمسك بكمِّه، مقدِّرةً كيف يصرفني عن الشعور بالارتباك. «لقد ألهمني ستوديو جيبلي بالكتابة»، أبدأ، وهو ينظر إليّ برهبة. «بعد مشاهدة فيلم سبيريتد أواي عندما كنت في العاشرة من عمري، أصبح عقلي مفرط النشاط. ذات يوم فكرت، لماذا لا أكتب قصصي؟».

«هل فعلت؟».

أهزُّ رأسي. «ليست قصصًا كاملة أبدًا، لا. بدأت المدرسة. لكنني لم أنسها أبدًا. خاصة عندما وقعت في حب علم النبات».

إنه يقترب أكثر. «احكي لي واحدة منهم! لا بأس إذا كنت لا تريدين ذلك».

لا بدّ أن دمي قد تعافى إلى حدّ ما لأنه يندفع إلى وجهي.

قلبي يدقُّ. «إنها قصص سخيفة».

يبدو مستاءً. «سخيفة! كيف تجرئين على وصف قصص زوجتي بالسخيفة؟».

أمنع ضحكة. أعلم أن لحظة السعادة هذه سوف تمر مثل الرمل في الساعة الرملية، لكني أريد أن أجعل كل ثانية ذات قيمة. أريد أن أبقي الألم بعيدًا لفترة أطول قليلًا.

«حسنًا».

35

ثغرد الطيور عندما أستيقظ فجأة، ملتصقة بصدر كنان، وذراعه ملفوفة حول كتفي لحمايتي. تنزلق الرهبة على جلدي، بشكل غير مرحّب به وغير مدعوّ، ويتسارع نبض قلبي.

كابوس؟

أجلس وأفصل نفسي عن كنان، وأدعو الله ألّا يتقلّب. يتمتم بشيء غير مفهوم أثناء نومه.

لا أستطيع أن أتذكر إذا كانت أحلامي مضطربة، لكن قلقي لم يختفي. إذا كان هناك أي شيء، فهو يتصاعد. يحترق الجرح الموجود في رقبتي قليلًا عندما ألوي رأسي. أقف أبحث عن معطف المختبر الخاص بي، فأجده ملفوفًا على كرسي الدكتور زياد. بلّلت زاوية منه، ثم فركتُ البقعة التي لمسها الجندي في بطني. أضغط بقوة أكبر، محاولة التخلص من الخلايا، حتى تحترق وتحتجّ بشرتي.

«صباح الخير»، يتمتم أحدهم من زاوية الغرفة. تتكيّف عيناي مع الضوء المبكر النادر الذي يتسرب عبر الستائر، وأرى صورة ظل خوف.

«صباح الخير»، أهمس، وتركت معطف المختبر الخاص بي يسقط على الأرض.

يخرج من الظل، وبدلته الداكنة تتمايل مثل البحر في ليلة بلا قمر.

وهذا ما يفسر الرهبة.

خوف يبدو حذرًا. «هل هذا هو؟»... «ماذا تقصد؟».

يلتفُّ حول مكتب الدكتور زياد ويتقدم نحوي فجأة. صوته عاجل، مختلف تمامًا عن لهجته المعتادة. «إذا تمكّن خمسة جنود من الجيش من اختراق دفاعات الجيش السوري الحر، فماذا يعني

ذلك؟».

الخوف شيء قاسٍ. الطريقة التي تشوّه بها الأفكار، وتحوّلها من تلال صغيرة إلى جبال.

يتابع خوف: «استمعي إليّ بعناية شديدة». إذا لم أكن أعرفه أفضل، كنت سأقول إنه يبدو قلقًا. «هذا يعني أن هذا المستشفى لم يغد آمنًا بعد الآن. سيكون المستشفى هو المكان الأول الذي يهاجمونه. إما بالجنود المشاة أو بالقنابل. أنت تعلمين أن المستشفيات مستهدفة دائمًا، وقد نفد الوقت من مستشفاكم».

تنقبض الأوردة والشعيرات الدموية في يدي.

«هذا يعني أنك بحاجة إلى المغادرة الآن، وإلا...». توقّف مؤقتًا وهو يتساءل عن ردّة فعلي، لكني لم أتحرك. قلبي يتسارع وأنا أحاول أن أفهم سبب تصرفه بهذه الطريقة. هناك شيء ما فيه، وفي لهجته والطريقة التي ينظر بها إلي، يبدو مختلفًا. يبدو الأمر كما لو أنني أتحدث إلى شخص لم تُستخرَج روحه من روحي.

تأوّه، وفكّه يرتعش. «أنت لا تتعلمين أبدًا. حسنًا». ويفرقع أصابعه.

يتغير مكتب الدكتور زياد ويتحول إلى مقبرة. أمامي أربعة حجارة متشققة تتوج أربعة قبور بُنِيَت على عجل؛ لي وكنان ولمى ويوسف. الخلفية هي المستشفى الخاص بي، مسوّى بالأرض.

يتغيّر المشهد بشكل حاد قبل أن أتمكن من فهمه. أنا أقف على الشاطئ، وسماء رمادية تصطف في الأفق، أشاهد قاربًا مملوءًا باللاجئين وهو يبحر بعيدًا. تحطمت الأمواج فوق الرمال، فتبلل حذائي الرياضي، وهواء البحر المالح يحرق أنفي. ورائي صوت سقوط الصواريخ يرعد طبلة أذني، وتتوهج

السماء باللون الأحمر البرتقالي اللامع، وتبتلع الكآبة. تشتعل النيران في الأشجار وترتفع صرخات المصابين مع الدخان.

مستقبلي على البحر، يختفي.

«انتظرا» أصرخ في القارب، مندفعة للأمام عبر مياه الشتاء الباردة. البرودة تجعلني أشهق.

تسقط قنبلة، وتطمس قوتها كل شيء في طريقها؛ ممّا يخلق تيارًا ساخنًا من الرياح يدفعني إلى الماء، غارقة في البحر الأبيض المتوسط. ألقيت نظرة مرتجفة على كتفي لأرى الخطوط العريضة لصاروخ آخر يسقط.

إنه على بعد ثوانٍ. أفتح فمي لأصرخ مرة أخرى و... تعثَّرث وظهري يصطدم بحائط مكتب الدكتور زياد، وانزلقت على الأرض وأنا أبكي بهدوء في كمي. أعض على القماش بينما صدري يرتفع. خوف يجثم أمامي.

يهمس قائلًا: «سيسيطر الموت على هذا المستشفى. هل تتذكرين ما قاله الجندي؟ فكّري يا سلامة! فكّري!». الجيش قد يصل إلى هنا. نحتاج إلى كسب الوقت حتى... أعلم أن قلبي على وشك الانفجار. ينفجر وجه خوف بابتسامة مرتاحة ويومئ برأسه. هناك كلمات مخفية في عينيه يرفض أن يقولها لكنه يتوقع مني أن أعرف.

عندما أرمش، يرحل. أقف على قدمي وأمسك بحجابي.

أقول بصوت أجش: «كنان، استيقظ». لا يزال بإمكاني تذوق حموضة الدخان في حلقي.

يجلس، عيناه حاذتان. «ماذا... ماذا حدث؟». «لا شيء». أسحب معطف المختبر الخاص بي بقوة

فوقي. «نحن نحتاج للخروج من المستشفى».

يفرك عينيه. «ماذا؟».

أرفع حقيبتي. «لا وقت للتفسير. أحضر لمى ويوسف وقابلني في الخارج. نحن بحاجة إلى المغادرة الآن».

أفتح الباب وأرى الأطباء والمرضى يبدؤون يومهم. أسرعت للبحث عن الدكتور زياد. لحسن الحظ أن كنان لا يجادلني ويتبعني.

قلبي ينبض بشكل مؤلم، ومع كل ثانية تمر أنا متأكدة من أننا أقرب إلى موتنا. وبعد البحث بشكل محموم في بضع غرف وفي الردهة، وجدته في غرفة التخزين.

«دكتورا» أنا ألهث. «نحن بحاجة لإخلاء المستشفى». يبدأ. «سلامة! هل أنتِ بخير؟ كيف حالك...».

اقتربت منه وانتزعت علبتين من البنادول والأموكسيسيلين من الرفوف، ثم أدخلتهما في جيبي. «دكتورا احصل على أي أدوية يمكنك حملها ودعنا نغادرا».

يتعمق ارتباكه.

يأسي يجعل من الصعب عليّ أن أقوم بربط أفكاري في جملة متماسكة. «يجب علينا... ومن المحتمل أن يكون هناك... جميع المستشفيات الأخرى...».

يرفع يديه في محاولة لتهدئتي. «سلامة، اهدئي».

أتنهّد بعمق، وأحبس الهواء في رئتيّ، وأقول بصوت هادئ مجبر: «إذا كان الجيش قادرًا على دخول المستشفى، فهذا يعني أنهم على عتبة بابنا بالفعل. قال أحد الجنود بالأمس شيئًا عن شراء

الوقت حتى يفعل الجيش... لا أعرف ماذا. قد تكون قنبلة. قد يكون شيئًا آخر. ولكن علينا الرحيل».

لا أستطيع أن أشرح ذلك. هناك شيء على وشك الحدوث. خوف صحيح.

أين تودين الذهاب؟ في كل مكان.

وجه الدكتور زياد مصدوم لكنه لا يتحرك. ليس لدينا الوقت.

ويقول: «لم أتمكن من الاتصال بالجيش السوري الحر خلال الساعات الثلاث الماضية».

معدتي تقع. «يجب أن نذهب».

أومأ برأسه، وأمسك بصندوق من الورق المقوّى وجرف الأدوية بداخله. «سلامة، اطلبي من الجميع الإخلاء الآن».

لن أضيع ثانية أخرى وأركض عبر الممرات إلى الردهة.

«الجميع!» أصرخ، فتتجه كل الوجوه نحوي، ويومض التّعرّف في بعضها. «اتركوا المستشفى الآن! ليست آمِنةً!».

لبضع ثوانٍ ثمينة، نظروا إلى بعضهم البعض بعدم الارتياح.

الإحباط يتراكم بداخلي؛ ذلك لأنني مرهقة. إنهم أكثر تردّدًا في الاستماع. ليس من السهل على بعضهم أن يتحركوا، لأنهم فقدوا أطرافهم، والبعض الاخر مرتبطون بالحقن الوريدي. والعديد منهم أطفال وشيوخ.

«الجيش سوف يقصف المستشفى! علينا أن نغادر!».

صرخ كنان وتوقّف خلفي، ممسكًا بيدي لمى ويوسف. إنه مرعوب.

«قنبلة؟» يقول لاهثًا. مع الإضاءة، أستطيع أن أرى أخيرًا أن عينه اليسرى منتفخة، بالكاد مفتوحة، والكدمة أصبحت أكثر قتامة في وضح النهار.

«أين الدكتور زياد؟» مريض واحد يئنُّ من سريره. «سوف يعرف...».

«دكتور زياد يقول علينا أن نغادر!» أجيبه. لن أبقى منتظرة أن يستمعوا، لذلك أمسكت بذراع كنان وبدأت في سحبه خلفي. لمى ويوسف يتابعان في صدمة من خلفه.

يؤدّي الإجراء إلى إحداث تأثير في بقية الغرفة. الأمهات أول مَن يستجيب؛ يُمسِكن بأطفالهنّ ويفتحن الأبواب ثم يركضن.

الفوضى تتكشّف. الحشود تتدافع ضد بعضها البعض. الأطباء يساعدون طريحي الفراش على الوقوف على أقدامهم. تشتدُّ قبضتي على كنان. أنا أرفض أن أترك قبضتي تتأرجح.

بمجرد أن وصلنا إلى الباب، سمعت صوت الدكتور زياد يدوي بين الجماهير. «ارحلوا الآن!».

أثارت لهجته اندفاعًا عاجلًا آخر، ووقعت خطوات على طول الأرضيات. ركضنا جميعًا على الدرج وخرجنا من بوابات المستشفى. تنطلق عيناي إلى السماء وأبحث في اللون الأزرق عن طائرات ونحن نعبر الشارع. هاجمني الهاربون، وكادت قوتهم المذعورة أن تجعل قبضتي على سترة كنان تنزلق. وخز الدبابيس والإبر في ذراعي، لكنني لا أهتم. من زاوية عيني، أرى أم يشقُّ طريقه، وأشعر بموجة من الارتياح. بعد أن تجاوزنا المبنى الأول، قمت بسحب كنان إلى الجانب، وتحركت عكس التيار للاحتماء خلف جدار متهدم، ثم أفلته.

أنفاسنا ثقيلة ونحن نحدّق في بعضنا البعض.

أشرقت الشمس اليوم، والأشعة ساخنة على حجابي. لمى ويوسف مرتبكان وخائفان، وأعينهما ملتصقة بكنان. ويمنحهم ابتسامة مطمئنة.

ألقي نظرة خاطفة على المستشفى، وقلبي يرتعد عندما لا أتمكن من رؤية الدكتور زياد بين الناس الذين يتدفقون. وبعد ذلك صدمني الإدراك.

الأطفال في الحاضنات ما زالوا بالداخل.

تنقبض معدتي وأمسك بالحائط للحصول على الدعم. أحتاج إلى العودة. أنا بحاجة لإنقاذ الأطفال. لكنّ ساقيّ مثقلتان بالخوف، ونصفي يصرخ ليظل في مكانه، ليظل آمنًا. ويعيد الآخر عرض وجه سمر الشاحب والبارد بينما كنت أحتفظ بحياتها كرهينة.

أصرُّ على أسناني، وأبعد الخوف، وقبل أن أتمكن من إعادة التفكير في قراري، ألقيت بنفسي من خلف الجدار وركضت نحو المستشفى.

«سلامة!» يصرخ كنان.

اندفعت عبر الطريق، مندفعة عبر الحشود، عبر الفناء، ثم أصعد السلالم.

الردهة فارغة، وهو مشهد لم أظن أنني سأراه أبدًا. وتناثرت البياضات على الأرض، وانقلبت بعض الأسرّة بسبب الذعر. يظهر شخصان من الردهة. يوازن الدكتور زياد صندوقًا ضخمًا من الورق المقوى تحت إحدى ذراعيه ويحمل شكلين صغيرين باليد الأخرى. يرفرف حجاب نور الأبيض وهي تركض بجانبي، وهي تحتضن طفلين بالقرب منها.

يتوقف الدكتور زياد ويسلّمني الأطفال. وهم ملفوفون في بطانيات بيضاء رقيقة، كلٌّ منها بحجم رغيف خبز صغير. بشرتهم حمراء، وأفواههم صغيرة، وأصابعهم بالكاد مرئية.

يقول الدكتور زياد وهو يلهث بشدة ويضع الصندوق جانبًا: «هناك ثالث هنا». التجاعيد حول عينيه تتعمّق. ألقي نظرة داخل الصندوق وأرى طفلًا يستريح فوق كومة صغيرة من عبوات الأدوية. «هل يمكنك حمل الصندوق؟ أحتاج...».

«أعطني إياه». وصل كنان بجانبي، أنفاسه ضحلة. يضع الصندوق تحت ذراعه، ويلتفُّ على كعبيه، ويهرب. يستدير الدكتور زياد ويتجه مباشرة نحو الحاضنات.

«دكتورا» أنا أصرخ، متجذّرة في المكان. «دكتورا».

لا ينظر إلى الوراء.

«سلامة! تعالي!» يصرخ كنان من الأمام.

تنفجر الدموع من عيني، وأبكي وأنا أعانق الأطفال وأركض خلفه.

بمجرد أن نعبر الطريق، نسمع ذلك. الطائرة.

وصلنا إلى الجدار حيث كان شقيقا كنان يحتميان، خائفين للغاية.

«لا»، أختنق، وأنظر إلى المستشفى وأعانق الأطفال. «من فضلك اخرج!».

لا يزال المرضى وعمّال الإنقاذ والموظفون يتدفقون من الأبواب الأمامية. وفي اللحظة الأخيرة أراه. ويكاد يتعثر ويحمل طفلين آخرين أثناء جريه. معطف المختبر الخاص به نصف ممزق وتبدو المسافة كبيرة بشكل مستحيل.

«يلّا»، أتوسّل. «لطفًا يا رب!».

صوت القنبلة الثاقب يقطع الهواء أثناء سقوطها.

«لا!» أصرخ وذراعاي ترتجفان. «يا دكتور بسرعة!».

يمسكني كنان ويخفض رأسي بينما تُحطّم القنبلة المكان الوحيد في حمص الذي كان يحمل الأمل.

تهتز الأرض وتتشقّق كما لو أن زلزالًا وقع. طنين طبلة أذني يدوّي من القوة والدخان المليء بالحطام يعمي ويخنقني. أطرافي ترتعش وأنا أنحني محاولة حماية الأطفال الرضع.

بعد بضع دقات قلب، حيث الصوت الوحيد هو انهيار أعمدة المستشفى، تهزُّ صراخ الحزن السماء المليئة بالغبار. صرخات ودعوات تؤلم القلب وتهزه.

«هل أنت بخير؟» أتوجه إلى كنان. استقرّ الغبار بما يكفي لأتمكن من رؤية شكله.

«نعم»، يقول وهو يسعل بصوت أجش، ويجفل. يلجأ إلى أخويه ليتأكد من أنهم بخير.

«كنان، خُذ الأطفال»، آمُره. «أحتاج إلى العثور على دكتور زياد».

يهزُّ رأسه بشدة. «أنا...».

تقول نور: «سلامة، أعطِني إيَّاهم»، وأنظر إليها، وقلبي يحلق للحظة. إنها سالمة. «لا يمكنهم البقاء هنا. إنهم بحاجة إلى الهواء النقي. ويعاني البعض بالفعل من دون حاضناتهم». يقف خلفها متطوعان، وأسلِّم الأطفال إلى أحدهما بينما يلتقط الآخر الصندوق الكرتوني.

«إذا وجدتِ الدكتور زياد...». تتوقّف نور وصوتها يرتجف. «أخبريه... أخبريه أننا سنكون في منزله».

أومئ برأسي وأقف على الرغم من ركبتي المتذبذبة. الحطام يلقي بي في دوامة أخرى من اليأس. لقد انتهت المستشفى الذي قضيت كل أيامي فيها.

إنها مقبرة.

لقد تحوّل المبنى إلى صخور. وتناثر المتطوعون فوق البقايا، في محاولة يائسة لإزالة الأنقاض.

عندما أقترب، أسمع الصراخ الخافت لأولئك الذين ما زالوا محاصرين في الداخل. إنه يمزّق قلبي إلى نصفين. معاناتهم تجعلني أنسى سبب مغادرتي.

ومن الدخان يخرج خوف مرفوع الحاجبين، ولا تمسه ذرّة من الدمار.

يقول ببرود: «سلامة، ليس هناك ما يمكنك فعله. لا تجرئين على إعادة التفكير في قرارك. لقد سقط المستشفى. تمّ تدمير مكان عملك. لم يبق لك شيء هنا. عائلتك ماتت أو ألقي القبض عليها. أعلم أنك لا تريد أن تكوني التالية».

أشيح بنظري بعيدًا عنه، والدموع تنهمر على وجهي، وأتقدم للأمام رغم ارتعاش أطرافي من الخوف.

«دكتور... زياد!» أناديه بصوت أعلى من الأنين. «دكتور!».

ببطء، يستقر الغبار. تعمل أشعة الشمس على إحداث ثقوب من خلال أعمدة الدخان. يقِلّ الرنين في أذني، وعندما أصرخ باسمه للمرة الرابعة أسمع ردًا خافتًا.

«سلامة!».

أنظر حولي بجنون، وأتجه نحو البوابات الرئيسية، لأجد الدكتور زياد جالسًا على الرصيف. هناك جرح في جبهته، والدم يسيل على خده. وجهه رمادي شاحب، وأطراف شعره ومعطف المختبر محروقان.

«دكتور!» صرخت، وسقطت على ركبتي أمامه. «هل تأذيت؟».

يرتجف وهو يمدّ ذراعيه ببطء ليكشف عن رضيعين في حضنه. «كان عليّ أن أختار». يصمت، وجهه أبيض وعيناه خاليتان من العاطفة. «لقد

ركضت مع الأشخاص الذين اخترتهم. لكن... لم أستطع سماع نبضات قلوبهم».

أبتلع ريقي بألم.

يهمس قائلًا: «لقد حاولت إنقاذهم». الدموع تتدحرج على خديه. «كان عليّ أن أختار. والباقون لا يزالون في الداخل. لقد قتلوا الرُّضَّع».

أمسح عيني. «إنهم في الجنة يا دكتور. إنهم لا يعانون بعد الآن».

يرفعهم ويطبع قُبلةً على كل واحد من جباههم. يهمس لهم: «سامحونا». «سامحونا على تقصيرنا».

أجلس هناك معه، في حداد. لقد كانوا سابقين لأوانهم، وكانت فرصهم في البقاء على قيد الحياة بدون حاضناتهم ضئيلة. سكون... سكون.

وبعد دقائق قليلة قلت: «نور أخذت الأطفال الآخرين إلى منزلك. أعتقد أنهم على قيد الحياة».

ينظر للأعلى. «شكرًا لك».

أهزُّ رأسي. «نحن نفعل ما هو صحيح. نحن لا نفعل ذلك لكي نُشكَر».

أعطاني طفلًا واحدًا. إنها فتاة مقمطة ببطانية وردية اللون. أحضنها. هل كانت الطفلة سلامة صغيرة إلى هذا الحد؟ أرتجف وأتمكن من الوقوف بحذر. وجه الطفلة ساكن، وإذا أغمضت عيني، أستطيع أن أتظاهر بأنها نائمة.

«سلامة»، يقول الدكتور زياد وأنا أنظر إليه. يمدُّ ذراعًا واحدة وأعيد الطفل إليه بلطف.

وقال بعد فترة من الصمت: «لقد أنقذت الكثير من الناس اليوم. لولا تفكيرك السريع -شعورك الغريزي- لم أكن لأكون أمامك الآن». يزفر. «كان يجب أن أعرف أن هناك خطأ ما عندما لم تتمّ مكالماتي مع

الجيش السوري الحر، لكن ذهني كان مشوّشًا بعد هجوم الأمس».

«نحن بشر فقط. لا يمكن لأحد أن يتوقع منك توقع كل شيء».

تتحول ابتسامته إلى حزن. «إذا كان ضميري المذنب يمكن أن يوافق فقط».

«ماذا تنوي فعله؟» ألتفت إلى المستشفى. «أين سيذهب الناس؟».

ظهره منحنٍ، وتلحق به السنون، وفي عينيه أرى الخراب. ينظر حوله إلى المستشفى المدمر، ويستوعب كل شيء فيه.

يهمس قائلًا: «سوف نبني واحدة جديدة». ثم يقيم ظهره... «مدن أخرى، مثل الغوطة، تقوم بإنشاء مستشفيات تحت الأرض. سنبني أنفاقًا ومتاهات في عمق الأرض. يمكنهم قصفنا كما يريدون، ولن ننحني أبدًا».

صموده يذلني.

تمتمت: «فليحفظك الله». أشعر أنه لا ينبغي لي مغادرة سوريا دون إخباره. سيكون قَلِقًا جدًا إذا لم أحضر مرة أخرى أبدًا. «دكتور، سأغادر. غدًا».

المفاجأة تنتقل إلى الحزن، ولكن ليس هناك حُكم في عينيه. «لقد كان شرفًا وامتيازًا العمل معك يا سلامة. أدام الله عمرك وعافيتك. من فضلك لا تنسونا في دعواتكم».

الجزء الخلفي من عيني يحترق، وتمكّنت من الإيماءة. يبتعد وهو لا يزال يحمل الجثتين كما لو كانا طفليه.

***

منزل ليلى مرعب. يبدو الأمر كما لو أنه يعلم أنني

سأغادر غدًا.

كنان يعرج على الأريكة بمجرد دخولنا. لم نغادر موقع المستشفى إلا عندما لم نتمكن من الوقوف. ظلّ كنان يحمل الحطام حتى ارتجفت ذراعاه. لقد كان ضعيفًا بالفعل من الضرب الذي تعرض له بالأمس، وكان يقمع الألم حتى أخذه الإرهاق.

لمى ويوسف يتزاحمان بجواره، وجوههما خائفة. أشعل الشموع بسرعة.

«أنا بخير»، يقول كنان وهو يغمض عينيه ويتنفس بسرعة. «أنا فقط بحاجة إلى دقيقة واحدة».

«هل يمكن لأحد أن يجلب لي كوبًا من الماء؟» أفتح حقيبتي وأبحث في محتوياتها عن البنادول. هناك شريط في مكان ما.

يهرع يوسف إلى المطبخ، حيث يغرف الماء من دلو المطر في كوب، ويعود مسرعًا.

همس قائلًا: «ها هو...»، فتجمّدنا جميعًا.

يتفاعل كنان أوّلًا، وتُخفّف الصدمة من حدّة التوتر في تعبيراته. بيد مرتجفة، يضع الكوب على الطاولة أمامه قبل أن يمدّ يده. يوسف يأخذها. يقرّبه كنان منه دون أن يجفل من الألم، ويعانق شقيقه بقوة. انفجرت لمى في البكاء، وذرفتُ أنا بعض الدموع السعيدة أيضًا.

ثم تقفز لمى على يوسف وتقرّبه منها بينما تنهداتها تختمر على كتفه.

أهمس: «كنان، خُذ البنادول الخاص بك»، وأعطيه القرص، فيبتلعه مع الماء.

لمى ويوسف يبتعدان عن الطريق، ولكن ليس بعيدًا عن كنان حيث أساعده على الاستلقاء. يمسك كنان بيد أخيه ويبتسم. «ربما يجب أن أتأذى كثيرًا».

يحمرّ يوسف خجلًا، وينطلق كنان في حكاية مبالغ فيها عن الطرق السخيفة التي سيصاب بها بينما يضحكان. أدرك الجهد المبذول في كلماته والسهولة المُجبرة في لهجته. إنه يحاول صرف انتباههم عن الدمار الذي شهدوه اليوم. من ملجأ تحول إلى رماد.

«أو ربما سأدع الحوت يلتقطني!» هو يقول.

لمى تضحك ويوسف لا يستطيع مقاومة الابتسامة على شفتيه. «غير واقعي للغاية؟» يقول كنان بعد تفكير. «حسنًا، سأنزلق على موزة كما في تلك الرسوم المتحركة! ما الذي قد تقوله لهذا؟».

يوسف يلكم ذراعه بخفّة. «أنت غريب». تلمع عينا كنان بالفرح. «أنا أحب الأشياء الغريبة».

يبقون على هذا الحال لفترة من الوقت قبل أن يقنع كنان إخوته أخيرًا بمحاولة النوم. مع الأمل الجديد في عيونهم، انتقلوا إلى غرفتي. أساعدهما، وأسحب الأغطية فوق جسديهما الصغيرين، وأتأكد من عدم تسرب البرد عبر الشقوق. أقبّل خدّ لمى وأبتسم ليوسف. يتردّد للحظة قبل أن يبتسم. قلبي ينبض وأنا أهمس: «تصبحان على خير. ناما جيدًا... غدًا يوم عظيم».

أغلق الباب برفق، وأسير على رؤوس أصابعي في الردهة، وأتوقف عندما أصل إلى غرفة ليلى وحمزة. تتراقص أصابعي على المقبض النحاسي. لست بحاجة للدخول. مرة واحدة كانت أكثر من كافية.

أضع رأسي على الباب وأقول: «وداعًا».

أخذت الحقيبتين اللتين حزمتهما مع ليلى وتوجّهت إلى غرفة المعيشة. كانت عينا كنان مغمضتين، لكنهما انفتحتا عندما دخلت وجلست على السجادة أمام الأريكة. أخلع حجابي، وأمرّر أصابعي في شعري، وأجفل من الألم في فروة

رأسي. الجرح الموجود في حلقي يؤلمني، لكنني لا أجرؤ على لمسه تحت الضمادات.

«كيف حالك؟» يهمس.

«أحاول النجاة»، أهمس بدوري. «هل تشعرين بالألم؟» يتجه لي بجسده ببطء. «البانادول يساعد. الخبر السار هو أننا سنلتقي بأم مبكرًا».

يقول: «عندما تحدثت مع عمي قبل بضعة أيام، قال لي إنه سيسافر بالطائرة إلى سيراكيوز اليوم». «سوف يقابلنا على الشاطئ. السيناريو الأسوأ، أننا سنتصل به».

الأمان قريب جدًا لدرجة أنني أكاد أتذوّقه. أخرجت شريحة USB من حقيبة ليلى، ومررت إبهامي على غلافها المعدني، وأنا أبتسم.

شكرًا يا حمزة.

«كما هو متّفق عليه، سندفع له فقط خمسمائة دولار والقلادة الذهبية بعد أن أصبحت ليلى...» توقّفت وأنا أتنفس بعمق.

مرّر كنان أصابعه على خدي ونظرت للأعلى. لمسته مريحة.

ابتسمت له ابتسامة سريعة قبل أن أفتّش في حقيبة ليلى وأخرِج الذهب. أخبئها في الجيب الداخلي لحقيبتي وأحكِم إغلاق السّحّاب. أحسب محتويات الداخل مرة أخرى. ثماني علب تونة، وثلاث علب فاصوليا، وعلبة بانادول واحدة، وشهادة الثانوية العامة وجواز السفر، وجوارب، ومجموعة واحدة من الملابس.

يقول كنان: «لقد حصلت على الليمون». يشير برأسه نحو المطبخ. «في الثلاجة».

«شكرًا لك». أقفز على قدمي وأسرع للحصول

عليهم. «أين الكاميرا الخاصة بك؟» أسأل وأنا أضع الليمون في الحقيبة.

يتذمّر. «لقد دمّرتها ليلة الهجوم الكيميائي».

فمي يسقط مفتوحًا.

يهمس: «لا بأس. لقد قمت بتحميل جميع مقاطع الفيديو على يوتيوب أوّلًا».

أمسك يده بإحكام. «أوه، كنان». ابتسامته حزينة. «إنها مجرد كاميرا». أقول له «سأحضر لك واحدة جديدة».

يضحك بخفة ويقبّل مفاصل أصابعي. عندما يمسح خدي، ترفرف رموشي.

«أنا آسف» يتمتم، والشعور بالذنب يملأ صوته. «لماذا؟» قول عابسة.

فكُّه يرتجف. «لما حدث في المستشفى عندما كنتِ... عندما حدث ذلك».

أهزّ رأسي. ذكّرني رعب تلك الفتاة الصغيرة بسَمَر. بخطيئتي. «لم أستطع السماح له... أن يذهب إلى تلك الفتاة الصغيرة».

«أعلم»، يهمس كنان. «لا بأس. لقد فعلت ما يجب عليك فعله. أنا سعيد لأنك آمِنة». أصابعه تمسح الضمادة على حلقي. «قد تكون ندبة».

أومئ برأسي وأنا أعبث بأكمامي، أحتاج إلى الراحة، فأسأل: «هل تقبل ذلك؟».

يطلق ضحكة لا تُصدّق. «زوجتي لديها ندبة معركة. إنها بلطجية».

أهزّ رأسي مبتسمة. «إنها ليست الندبة الوحيدة التي لديّ».

يرفع حاجبيه. «تقصدين ما على يديك. أنا أحبّهم».

ابتسامتي تتعمق.

«هنا». أمسك بيده وأضعها عند قاعدة جمجمتي، تحت شعري. «هل تشعر بها؟».

«نعم». يتتبع تضاريس رأسي بخفة؛ لمسته لطيفة. عيناه واسعتان من العجب. «هل تؤلمك؟».

«لا. حدثت لي عندما قتلت تلك القنبلة ماما. بعدها بدأت أرى خوف».

أعبس. عندما حذّرني خوف من تعرّض المستشفى للقصف، شعرت وكأن العصابة التي لم أكن أعلم أنني أرتديها قد سقطت من عيني. الآن، أستطيع أن أرى بوضوح أكثر من ذي قبل، لكنني لا أعرف ما الذي أراه.

«هل أنتِ بخير؟» كنان يسأل وأنا أغمض. تنزلق أصابعه للأسفل، ويمرّر إحداها عبر خاتم زواجي.

«نعم». أبتسم فيبدد القلق على وجهه. «هل أنت بخير مع هذا؟» يشير إلى شفتيه المكسورتين. «قد تكون ندبة أيضًا. أعلم أنك وقعت في حب وجهي الجميل».

أضحك وأمرّر إبهامي بدقة على الغرز الموجودة على حافة شفته السفلية. رموشه ترفرف. «أعتقد أنني سأحبها أيضًا». ثم يتحول تعبيره إلى الجدية ويجلس ويصل إلى يدي. «مهما حدث غدًا، سنكون بخير. حتى لو...»، يأخذ نفَسًا عميقًا ويضغط جبهته على جبهتي. «اعلمي أنه حتى في الموت، أنت حياتي».

قلبي يقفز بنبضه. ليس لديّ كلمات لأحولها إلى وعد أبدي يتحدى العالم. لذلك أطبع قبلة هادئة على شفتيه.

يتنهد وبعد ثوانٍ قليلة يقول: «أخبريني شيئًا جيدًا يا شيتا».

أخجل. «هل تحاول صرف انتباهي عن اليوم؟» هو يضحك. «وألهي نفسي أيضًا».

أتنفّس الصعداء. «سوف تحب هذا. في اليوم الذي كان من المفترض أن تأتي فيه، كنت سأقوم بنفسي بعمل الكنافة كاملة».

عاد بظهره إلى الخلف، وظهر بصيص مختلف في عينيه، حتى إني ظننت أن ضوء الشموع محصور فيهما. «هل تعرفين كيف تُصنع الكنافة؟».

«من عجينة السميد إلى الجبن إلى ماء زهر البرتقال المرشوش فوق الفستق واللوز»، أتمتم وأربت على جبهتي. «كل شيء محفوظ هنا».

هناك سعادة حقيقية في تعبيره، وقد اختفت كل آثار الألم. «أنتِ مثالية»، يقول.

أضحك وأنا أضع أصابعي في يده. «وأنت لست بهذا القدر من السوء».

وفي تلك الساعات الأخيرة من تواجدنا في حمص، يُشفى قلبي المكسور بهدوء. خلية تلو الأخرى.

36

عادة ما يكون الحي الذي أعيش فيه في حالة من عدم اليقين المتكرر. تحمل الريح ضحكات الأطفال المترددة والبكاء عبر الأطلال اليائسة. يلوّن الأمل أحاديث المتظاهرين المارّين قرب باب منزلي، ويتردّد صدى خطواتهم فوق الحصى. أبٌ يواسي ابنته ويمرّر لها نصيبه من الطعام. تتفتّح بتلات أزهار الياسمين نحو الشمس. تُزهر على أرض مشبعة بدماء الشهداء. لبعض الوقت، ونحن نعيش.

وبعد ذلك، عندما تزأر الطائرات عبر السحب، ترتعش الحصى الموجودة على الرصيف. ونتوقف عن العيش ونبدأ في محاولات النجاة.

اليوم لا يختلف. ولكن اليوم أقول وداعًا لنفسي.

نفسي القديمة.

كنان وإخوته موجودون بالفعل عند الباب الأمامي، ووجوههم جدية. سنلتقي آم بعد ثلاثين دقيقة. بينما أقف عند مدخل غرفة نومي، تمر عبري موجة من الحنين. بائسة وفارغة كما يبدو، كان هذا منزلي. لفترة وجيزة. لن يبقى فارغًا لفترة طويلة. قد تلجأ إليه عائلة فقدت منزلها، أو إذا اجتاح الجيش حمص القديمة أخيرًا، فسوف ينهبون المكان. أحاول ألّا أفكر في ذلك.

أتبع الممر إلى غرفة المعيشة وأهيم في المدخل، وألقي نظرة طويلة أخيرة على لوحة ليلى. معلّقة في الظل، تبدو الأمواج حية، وتلعق حواف الإطار، وتستيقظ قصة في ذهني.

«دعونا نذهب»، أقول، وأنا أنقلب على عقبي قبل أن تخونني شجاعتي.

نخرج من مكاننا، وحقائب الظهر مليئة بكل ما

نملكه في العالم، وأغلق الباب خلفي.

«وداعًا»، أهمس وأطبع قبلة على الخشب الأزرق. يد كنان تنزلق في يدي. «سنعود».

أومئ.

لمى بين يوسف وكنان، ونسير معًا، والعصافير تغني لحن الوداع العذب.

يقع مسجد خالد على بُعد عشر دقائق. نسلك المفترق الثاني من الطريق المؤدي إلى المستشفى، وبينما نسير، أحاول أن أحفظ كل شجرة مُزهرة وكل مبنى مهجور نمرُّ به. بين الحين والآخر ألمح علم الثورة المرسوم فوق الأعمدة المعدنية لجراج أو جدار. هدوء هذه اللحظات الأخيرة الهشّة لا يكسره إلا الحشود الواقفة خارج محل البقالة وجنود الجيش السوري الحر وهم يتجولون. وجودهم يهدّئني، وأدعو لهم سريعًا بألّا ترتعش أيديهم، وأن يقودهم حبهم لهذه الأرض وشعبها إلى النصر.

يقع مسجد خالد وسط منطقة واسعة من المباني السكنية نصف المنهارة. نحن نخطو بحذر فوق الأسفلت المتصدع والأسلاك الكهربائية الفاصلة. ومن مسافة قريبة، جدران المسجد مخدوشة، والنوافذ المتربة متشققة، وكذلك الدرجات المؤدية إلى الباب الأمامي. إنه مفتوح قليلًا، ويكشف عن حطام يغطي السجادة الخضراء الداكنة التي يجلس عليها عدد قليل من الرجال في أوضاع مختلفة للصلاة.

«كم مرّ من الوقت؟» يسأل كنان. يوسف ولمى يجلسان وأرجلهما معلقة فوق السُلّم. يهمس لها يوسف بشيء فتقترب لتسمعه قبل أن تومئ برأسها.

أجيب: «بقيت خمس عشرة دقيقة أخرى»، وأعصابي تنتفض، وأركّز على وجه كنان، وأحصي الكدمات التي تزيّن جلده. هناك حوالي سبعٍ في المجموع، وقد اتّخذت عينه المصابة بالصدمة ظِلًا خوخيًا. كتفاه متهالكتان، لكن نظراته تطير في كل مكان، محتفظًا بزرقة السماء في ذاكرته.

«كنان». أمسك بيده وأقرّبه.

يبدو يائسًا، وحسرة القلب مكتوبة على وجهه. ليس لديّ أدنى فكرة عمّا ينبغي قوله لتخفيف حزنه. إنه نفس الحزن الذي يمزّقني، لذلك ألتفُّ حوله بذراعي وأضع رأسي تحت ذقنه.

أهمس قائلة: «سوريا تعيش في قلوبنا. وستكون دائمًا». يعانقني، ويطبع قبلة على الجزء العلوي من حجابي.

نبقى هكذا، نتمايل ونحدّق في مدينتنا. الخمس عشرة دقيقة تمر. الناس يدخلون ويخرجون من المسجد ومع كل دقيقة إضافية يزداد قلقي. ماذا لو لم يظهر آم؟ ماذا لو حدث له شيء؟

إذا لم يأتِ، فمن الأفضل لنا نحن الأربعة أن نحفر قبورنا هنا.

لكن الهيستيريا التي أصابتني تهدأ عندما أسمع صوتًا خافتًا لسيارة تقترب على الطريق. إنها سيارة تويوتا رمادية قديمة، جوانبها ملطّخة بالطين، وزجاجها الأمامي يحتاج إلى الغسيل. حتى من هذه المسافة، أستطيع أن أرى آم جالسًا خلف عجلة القيادة. ينزلق أمامنا ويتوقف.

«ادخُل». سيجارة تتدلى من شفتيه. «نحن نسير على جدول زمني ضيق، وقد تأخّرنا خمس دقائق».

«تعني أنك تأخّرت خمس دقائق»، أجبت وأنا

أطوي ذراعي.

يحدّق. «هل تريدين الدردشة أم المغادرة؟ اجلسي في الخلف، و...». يتوقف، ويعدُنا، ويتجهّم. «أين ليلى؟».

تحترق عيناي وأحارب الفراغ الموجود في معدتي، وأنظر بعيدًا. يتحوّل تعبير أم إلى الغضب.

يقول: «لذلك، هذه دفعة أقل»، وعلى الرغم من أن لهجته ليست خبيثة على الإطلاق، إلا أن الرغبة في لكمه تتزايد بداخلي.

يد كنان تثقل على كتفي ويومئ لي. أفتح الباب بحذر ويدخل يوسف أوّلًا، ثم لمى وكنان. ثم أتسلل أنا فتجلس لمى على ركبتي كنان. نترك المقعد الأمامي فارغًا، نريد أن نكون قريبين من بعضنا البعض.

أرجع أم السيارة إلى الخلف، وعيناه تنعكسان في مرآة الرؤية الخلفية. يقود سيارته على الطريق، وبينما كنت ألقي نظرة من النافذة، بدأ جسدي يرتجف من الترقُّب والحزن. نمرُّ عبر شوارع ضيقة، ونقترب من حدود الجيش السوري الحر.

«هل أصابتك تلك الكدمات عندما اقتحم الجيش المستشفى؟» يسأل آم كنان وهو ينظر إليه في المرآة.

«نعم»، يجيب كنان. صوته لا يزال متأثّرًا بالذنب.

«هل سيشكّلون أي مشكلة لنا؟» سألت وأنا أضع يدي حول يده وأثبته معي.

يقود أم بيد واحدة، والأخرى تُلقي الرماد من سيجارته. «كان من الأفضل لو لم تكن مصابًا هكذا، لكن الحراس لن يسبّبوا لنا أي مشاكل طالما أعطيتهم المال. الحدود الأولى ستظهر خلال دقائق

قليلة».

تنقبض عضلاتي، ويدقُّ قلبي بسرعة، وألقي نظرة على كنان وأرى نفس الخوف في عينيه. حتى لو لم يتم إيقاف آم من قبل، فهذا لا يعني أن ذلك لن يحدث اليوم. العقول والقلوب يمكن أن تتغير. ربما يكون الجنود الذين أبرم معهم صفقة قد سئموا من ترتيباتهم.

أخيرًا تمكنّا من الخروج من حمص القديمة، مرورًا بدبابة مُزيّنة بعلم الثورة على الطريق.

بعد وقت قليل، تظهر نقطة عسكرية تابعة للنظام. أتعرّف عليها من خلال حشود الجنود وصفوف السيارات المتجمعة خلف بعضها البعض. كلّما اقتربنا، ارتفعت الأصوات، وأسمع صراخًا. أدير رأسي ببطء لأرى، خائفة من أن تنبههم هذه الحركة إلينا. انحرف آم إلى أقصى الحدود، ومن نافذتي أرى ثلاثة جنود يركلون رجلًا ممدّدًا على الأرض. كل ضربة تجعلني أقفز، ويد كنان تشدُّ على يدي.

يهمس قائلًا: «لا تنظري»، وأبعدت عيني عنهم، نظرت إلى ركبتيّ حتى حسبت أنني أحدثت ثقوبًا بهما. ما زلت أسمع الرجل يعوي من الألم وحنجرتي تنغلق.

لطفًا يا رب. إذا لم ننجح، فلا تدعهم يأخذوننا، أدعو بشدة. من فضلكم دعهم يقتلوننا.

يتوقف آم أمام جندي يرتدي نظارة عسكرية داكنة اللون. شعره الأسود مصفّف إلى الخلف ويبدو عليه الملل. يفتح آم النافذة ويقول: «صباح الخير. كيف تجري الأمور؟».

«بخير»، يجيب الجندي قبل أن يميل رأسه إلى الجانب ليتفحّصنا في الخلف.

شعرت بلمسة نظراته وألصقت عيني على ركبتي. أنا خائفة جدًا من إلقاء نظرة على كنان وإخوته لمعرفة ما إذا كانوا يفعلون الشيء نفسه.

يقول الجندي: «افتحوا النافذة الخلفية»، فضحك آم بعصبية.

«هل هذا ضروري؟ نحن...».

«افتحوها»، صرخ الجندي. تحتجّ النافذة بينما يقوم آم بتحريكها لأسفل.

قلبي في حلقي. يضع الجندي ذراعيه على حافة النافذة. أدركت أن بندقيته تنقر على سقف السيارة، وبدأ الجرح في رقبتي يحترق.

«أين وجهتكم؟» يسأل، ونحن جميعًا مجمّدون.

تنحنحت، وقبل أن أتمكن من قول أي شيء، قال: «انظري إليّ عندما أتحدّث إليكِ».

صوته هادئ، لكن لا يوجد شك في مدى فتكه. أتجه نحوه بثقل.

أقول: «طرطوس»، وينقطع صوتي.

فمه يتجه نحو الأعلى، مستمتعًا. «طرطوس؟ ماذا ستفعلين هناك؟».

إنه يلعب معي كما تلعب القطة مع الفأر. يدرس حبّة العرق التي تشقّ طريقًا أسفل خدي.

«زيارة العائلة»، أكذب على أمل ألا يسمع ذلك في صوتي.

يبتسم، كل أسنانه تظهر، لكن ليس في ابتسامته أي دفء. «عائلة».

يقول ذلك بإثارة كما لو كان هو وأنا على علم بالسر. عيناه تحدّقان في عينيّ وهو ينتظر أن أرتبك. لكنني أقاوم. وأخيرًا أومأ برأسه إلى كنان وسأله: «ماذا حدث لك؟».

أغمض عيني لفترة وجيزة. من فضلكم دعهم يقتلوننا.

يميل كنان رأسه محاولًا حشد أي ذرّة من الفخر. أضغط على يده، وأتوسّل إليه بصمت أن يترك هذا الأمر يمرّ. أجاب بنبرة مهذبة مجبرة: «لقد قفزت».

«لقد أدّبوك، أليس كذلك؟» يسأل الجندي. يتوتّر فكّ كنان. «نعم».

«هل أنت متأكد من أن ذلك لم يكن لأنك كنت تحتجّ وحصلت على ما تستحقه؟» يقول الجندي باستهزاء، والرعب يكاد يوقف قلبي. يوسف ولمى أصبحا تمثالين. حتى آم اهتزّ في وضع مستقيم قبل أن يلتفت في مقعده.

«لن يكون لديّ مجرمون في سيارتي»، يقول كما لو أن الفكرة نفسها تسيء إليه.

وجه كنان لا يكشف شيئًا، لكني أشعر بمدى توتّره. «نعم».

«ما رأيك أن أبحث في أغراضك للتأكد من أن لا أحد منكم يشكل تهديدًا لهذا البلد؟» يسأل الجندي.

نحن لا نحمل أي شيء من شأنه أن يديننا، لكن الأمر لن يهمه. إذا أراد، يمكنه القول على الليمون قنابل. أو ادعاء أن وحدة USB التي تحتوي على صور عائلتي مليئة بالمعلومات السرية.

لكنني أعرف ما يفعله الجندي. التعذيب ليس جسديًا فقط.

ترتعش يدي وأنا أحمل حقيبتي، وأستسلم لهذا المصير.

لن أرى البحر الأبيض المتوسط أبدًا.

يخطفها ويفتحها، ثم يهزّها بعنف، فيتحطم كل شيء بداخلها ويتدحرج بعيدًا. لحسن الحظ، تم

إخفاء جواز سفري وشهادتي المدرسية والذهب في الجيب الصغير. لم يعلق على غرابة ما حزمته لزيارة العائلة. إنه يعرف إلى أين نتجه بالفعل.

قال بتكاسل وهو يلقي الحقيبة على الأرض: «كل شيء واضح. اجمعي هذا القرف».

ألقي نظرة سريعة على كنان قبل أن أفتح الباب وأنحني لأجمع متعلقاتي الملقاة على الأرض.

الإذلال يحرقني. كان بنطالي الجينز ملطّخًا بالأوساخ والحصى الحاد يخز يدي. سقطت ليمونة واحدة تحت السيارة. بعد الإمساك بها، استقمت، دافعة الكراهية في عيني. وضع الجندي إحدى ذراعيه على الباب المفتوح وعيناه تجوبانني من الرأس إلى أخمص القدمين. الاشمئزاز يهدد بخنقي.

عدت إلى كرسي السيارة بحذر وأغلق هو الباب بقوة حتى قفزنا جميعًا.

يقول لآم: «أعطِني المال»، يدفع آم بسرعة.

يعدُّ الجندي المال وهو راضٍ ويضعه في جيب صدره. يصل إلى نافذتي المفتوحة ويسحب بخفة نهاية حجابي. ينزلق قليلًا، وشعري يتساقط.

«ستكونين أجمل بدونها». ابتسم وهو يرفع رأسه إلى الجانب متوقعًا الإجابة. ومن الطريقة التي يتحرك بها كنان، أعلم أنه في نقطة الغليان -على وشك القيام بشيء متهور- ويجب أن أتدخّل.

«شكرًا لك»، تمكّنت من ذلك، دون أن أرغب في شيء أكثر من اقتلاع عيني الجندي.

«استمتعي مع... العائلة»، يقول الجندي ويصفع مؤخرة السيارة.

يضغط أم على دواسة البنزين، ونسمع صوت الإطارات، ويتصاعد الغبار من الخلف كأننا ننطلق

في السباق.

بمجرد أن نكون بعيدين بما فيه الكفاية، أطلقنا نفسًا جماعيًا، وارتعدث، وأدش خصلات شعري داخل حجابي.

«هل أنتِ بخير؟» سألني كنان على الفور، فأومئ برأسي مغمضة العينين، قبل أن أسند رأسي على كتفه وأشبك ذراعي بذراعه.

«أنا بخير»، أهمس. «لا شيء يهم طالما أننا خرجنا».

«كان ذلك خطيرًا». يتحسّس آم جيبه، ويخرج سيجارة أخرى مجعّدة.

«كم عدد الحدود المتبقية؟» أسأل وأنا أستنشق رائحة ليمون كنان.

«من خمس عشرة إلى عشرين».

يأخذ كنان نَفَسًا حادًّا وأنا أتأوّه.

«لا تقلقوا. عادة ما يكون هذا هو الأصعب لأنه الأول بعد مغادرة حمص. والباقي أقرب إلى بعضهم البعض وهم أكثر تساهُلًا بعض الشيء».

كدت أزعق من النبرة غير المقنعة التي استخدمها وأغلق النافذة، لعدم الرغبة في المخاطرة في البرد.

«كيف لم تحاول الخروج أبدًا؟» أسأل آم بصراحة.

«هذا ليس من شأنك».

أحدّق به في المرآة الصغيرة، فينظر إليّ من جديد.

«أنا أجني أموالًا جيدة هنا، حسنًا؟ تجارة اللاجئين تزدهر».

أنظر له نظرة اشمئزاز.

«أيًا كان»، يتمتم، وهو يعرف بالضبط ما يدور في ذهني. «يمكنك أن تذعيني بما تريدين، ولكن هذه

الحقيقة».

كلما زاد عدد الحدود التي نعبرها، زاد قلقنا. على أحد الحدود، اضطررنا للانتظار لمدة ساعتين. وفي مكان آخر، يتم تفتيش آم وأتعرّض أنا للمضايقة. لاحقًا، يتعرض كنان للسخرية والإهانة. وعلى الحدود الأخيرة، يشير جندي بقوة إلى أنه سيأخذ لمى بعيدًا. فقط هي.

«إنها جميلة بالنسبة لفتاة صغيرة جدًا». ينظر الجندي شبقًا ويتحول وجه كنان إلى اللون الأبيض كالورقة.

لمى تلتصق بكنان، وذراعاها النحيلتان ترتجفان.

تمكّن آم من إلهاء الجندي ببعض الأسئلة حول الاقتصاد السوري. في النهاية سمح لنا بالذهاب ونظر آم إلى لمى في مرآة الرؤية الخلفية.

«أنتِ بخير؟» يسألها. تتجمّد لمى في حضن كنان لتعانقه. ترتعش بجانبه وهو يحتضنها وكأن حياته تعتمد عليها. هناك شفقة في عيون آم. لمى في نفس عمر سمر تقريبًا.

بعد نقطة التفتيش الأخيرة هذه، يستغرق الأمر منا ساعة من القيادة دون توقُّف للوصول أخيرًا إلى طرطوس. مع تشقُّق النافذة الأمامية قليلًا، نشمُّ رائحة البحر قبل أن نراه.

البحر المتوسط.

وعلى الجانب الآخر، الأمان وليس الحرية. سأترك الحرية خلفي، وأشعر بحزن الأرض عندما أخرج من السيارة. تحاول الأعشاب المتعبة أن تطوّق كاحلي، وتتوسّل إليّ أن أبقى. يتمتمون بقصص عن أسلافي. أولئك الذين وقفوا حيث أقف. الذين شملت اكتشافاتهم وحضارتهم العالم أجمع. الذين

تجري دماؤهم في عروقي. تغوص آثار أقدامي عميقًا في التربة حيث جرفت آثار أقدامهم منذ فترة طويلة. إنهم يناشدونني: إنه بلدك. هذه الأرض ملك لي ولأبنائي.

أتقدم بضع خطوات نحو البحر، أستنشق هواءه البارد المالح، وأشعر أنه يطهّرني.

البحر الأبيض المتوسط غاضب اليوم. تحت أمواجه المضطربة تهبُّ عاصفة. أراه يرتعد ويتقلب داخل نفسه. أسمع بقايا مَن سبقني يمشون على الرمال، يرمون الحجارة في أعماقه، يحاولون فهم ما يحدث منذ أكثر من خمسين عامًا.

«القارب هناك»، صرخ آم ونظرت. لو كان لديَّ أي توقعات، ربما كنت قد سقطت في ذلك الوقت هنا.

إن تسميته بالقارب سيكون أمرًا سخيًا. ذات مرة كان لا بُدَّ لونه أبيض. الآن أصبح متّسخًا ومتضررًا، مع خدوش بنية صدئة تُخفي لونه الحقيقي. يطفو ببراءة بعيدًا عن الشاطئ. أنا لست خبيرة، ولكنني أرى بالفعل ما لا يقلُّ عن عشرة مخاطر. العدد الهائل من الناس بالفعل على متنه واحدٌ منها. يبدأ طفل في البكاء، وينضمُّ إليه آخر. أتخيل أن خطوة واحدة خاطئة، سوف تقلب الزورق.

«لقد وصلنا في الوقت المناسب أيضًا!» يفتح آم صندوق سيارته ويُخرج أربع سترات نجاة مماثلة لتلك التي يرتديها الأشخاص الموجودون على متن القارب. البرتقالي، حتى نكون مرئيين. يرميهم للأطفال.

«ما هذا بحق الجحيم يا أم؟» أسأل عندما أجد صوتي.

يقف كنان ساكنًا تمامًا، وعيناه لا تغادران القارب أبدًا.

«ماذا؟». قام بربط لمى بإحكام في سترة النجاة الخاصة بها. «ماذا تقصد بماذا؟». أبصق. «هذا قارب صيد ملعون، أليس كذلك؟». «نعم؟».

«أنا متأكدة من أن قوارب الصيد لا تستطيع حمل قرية صغيرة! هناك عدد من الناس أكبر ممّا ينبغي».

«هل كنت تتوقّعين سفينة سياحية؟» يتجوّل ويرمي سترة النجاة في وجهي. أقبض عليها ببراعة. «أنا آسف لأننا لم نتمكن من الحصول على واحدة وفقًا لمعاييرك يا صاحب السمو!».

«أنت تعرف بالضبط ما أعنيه. هذا القارب هو قنبلة موقوتة!».

يقول بحزم: «سوف تنجين. هذا ليس القارب الأول الذي أرسلناه. لقد قام هذا القارب بالرحلة مرات لا تُحصَى».

أنظر إلى كنان بلا حول ولا قوة. ماذا نفعل؟

خلفه تقف جبال طرطوس قوية. ومن خلفهم؟ جحيم. وأنا أدرك، الموت.

يقول كنان بصوت منخفض: «إذا بقينا نموت. وإذا غادرنا، قد نموت».

لا يمكننا البقاء. ليس هناك ما يضمن أننا سنعود إلى حمص. أفضّل أن أغرق على ألّا أبقى هنا.

يقول آم: «سيغادر القارب بدونك».

ألقي نظرة واحدة على سترة النجاة الخاصة بي قبل أن أرتديها، ثم أساعد كنان على ضبط خاصته. يضغط جبهته على جبهتي، ويده على مؤخرة رقبتي.

يهمس قائلًا: «ثقي في إيمانك يا حبيبتي».

أشبك معصمه وأومئ. اغرورقت عينا كنان بالدموع وهو يلقيها إلى جبال طرطوس.

«نحن جاهزون». أنتقل إلى آم، استنشاق بصوت عالٍ.

يقول: «المال والذهب». أخرجهم وأسقطهم في يده.

يعدُّ النقود بصوت منخفض، ويفحص القلادة والخاتم، ثم يضع النقود في محفظته والذهب في جيوبه.

«حسنًا، اذهبوا» يدفعنا نحو القارب. «فقط نقفز بها؟» أسأل.

«نعم». يصعد إلى سيارته ويشغِّل المحرك. «لقد رآني قبطان السفينة، ولن تعودوا معي، فهو يعلم أنكم قمتم بالدفع. اذهبوا!».

أحاول ألَّا أظهر مدى شعوري بالتوتر. كيف يبدو هذا... سهلًا هكذا؟

عندما لا نتحرك، يتنهد آم بصوت عالٍ ويتضرع إلى الله أن يمنحه الصبر. «سلامة، ثِقي بي. أعِدُكِ بحياة ابنتي أن هذا القارب سيأخذك إلى أوروبا. اذهبي!».

إذا كان هناك أي شيء سأثق به من آم، فهو أنه يحب ابنته.

«بالطبع إذا تركتها تموت لن تكون هناك ابنة لأقسم بحياتها. معاذ الله أن يسمحوا لك بالعمل مرة أخرى». يتمتم، لكنني أسمعه. أغمض عيني، وآخذ نفسًا عميقًا.

أدور حولي، وأسير مباشرة نحوه. يتوقف.

أقول: «أعلم أنني كدت أن أدمِّر حياتك بما فعلته. لكنَّك طلبت مني أن أفني نفسي. أنت لست قدِّيسًا. وأنا أيضًا لسث كذلك. لكني على الأقل أشعر بالندم».

أذهب بعيدًا، لا أريد أن أسمع ردّه. وبعد ثانية، يبدأ المحرك في العمل وينطلق هو بعيدًا.

«دعونا نذهب»، أقول لكنان ويوسف ولمى. يضع كنان يده على عينيه، ويبتعد عن الجبال. بعيدًا عن قبر ليلى. عن ماما وبابا. عن حمزة.

أمسك بيد لمى وكنان يأخذ بيد يوسف. نخوض في الأمواج التي تصطدم بركبنا محاولةً دفعنا إلى الخلف، مُحذِّرةً إيّانا. لكننا لا نستمع. نحن نرفض الاستماع.

37

كلّما اقتربنا من القارب، كلما بدا لنا أن الناس يتسرّبون من حوافه. الشخص المسؤول -القبطان على ما أعتقد- يرحّب بنا بفظاظة ويساعد يوسف ولمى على الصعود. تستقبلنا الوجوه ونحن نشقُّ طريقنا على متن السفينة بطريقة خرقاء ونحاول أن نجد مكانًا للجلوس، كانت وجوهًا جائعة وباردة وفارغة. إنهم يشعرون بالانزعاج من عدد أكبر من الأشخاص الذين يزدحمون بالقارب الممتلئ بالفعل.

نجد مساحة صغيرة فارغة ونجلس بسرعة ونتكئ على جانب القارب. ترتعش أطرافي بارتياح، وتصطك أسناني وأنا أقترب من كنان. يلفُّ ذراعه حول كتفي ويعانقني أقرب. الجينز ومعاطفنا مبلّلة حتى الركبتين. لمى تتمسك بيوسف وجسدها يرتعش. معطفها لن يجفَّ في أي وقت قريب، لذلك أخرجت سترة وألقيتها ليوسف، وأدعو الله ألا نموت بسبب انخفاض حرارة الجسم.

«ضعها حولها. إنه ليس كثيرًا، لكنه سيفعل شيئًا ما». همس يوسف: «شكرًا لك».

السماء رمادية، تطابق لون البحر، ولو لم يكن الوضع بهذه الصعوبة، لكنت استمتعت بهذا الطقس. لن أكون معرّضة لسوء التغذية، وبدلًا من ذلك سأكون مغطّاة بالمعاطف والأوشحة مع كوب من الشاي الساخن في يدي.

تتجول عيناي في الأشخاص الآخرين الذين يسافرون معنا. هناك أطفال أكثر من البالغين. ينفطر قلبي عندما أرى امرأة حاملًا، وأنظر بعيدًا قبل أن تراني أحدّق بها. كنان يتأوّه بهدوء، وأنا في لحظة مريضة أشعر بالسعادة بسبب الإلهاء.

«ماذا بك؟» أسأل، التفت للنظر إليه.

«أنا بخير». يغلق عينيه ويتنفس بعمق. أمل أن يخفّ أثر الارتجاج عليه. «هل... هل يمكنك أن تعطيني بانادول؟».

«نعم!» فتحت سريعًا حقيبتي وأخرجت قرصًا واحدًا، ومرّرته إليه سرًّا. فيضعه على الفور في فمه، ويبتلعه بدون ماء. إن الإرهاق الناتج عن تحريك الحطام الثقيل بعد تعرُّضه للركل والضرب وعدم الحصول على قسط كافٍ من النوم- ينهكه. ناهيك عن أن ملابسنا المبللة لا تساعدنا.

أدرك كنان تعابير القلق وابتسم، وسحبني إليه، فخفّت ارتعاشاتنا. «أنا بخير. لا تقلقي. فحصني الدكتور زياد». يشير إلى وجهه الذي لا يزال منتفخًا وإلى الكدمات. «إنها مجرد كدمات مزعجة».

«هل تشعر بالغثيان؟ صداع؟» أخرجت هاتفي، وأسلّط الضوء في عينيه. يتفاعلان بشكل طبيعي.

«لا يا دكتور سلامة»، يقول كمريض مطيع. «أريد فقط أن أجلس هنا مع زوجتي». يفرك يده على ذراعي. «أنت بردانة».

أتراجع. إنه حقًّا متعب فقط.

«قليلًا»، أعترف، سعيدة بأنه يحتضنني. «هل تريد أن أخبرك شيئًا جيدًا؟».

«نعم، من فضلك».

«لديّ فكرة قصة جديدة».

أنظر إليه وهناك وميض في عينيه. يقلُّ التوتر في حواجبه. «أخبريني».

«لقد جاءت إليّ قبل أن نغادر المنزل. عندما كنت أنظر إلى لوحة ليلى».

«إنها لوحة جميلة».

أربّت على خدّه، وهو يميل على كفّ يدي. «إنها قصة عن فتاة صغيرة تعثر على صور سحرية تأخذها إلى عوالم بديلة. ولكن للعبور، عليها أن تضحّي بشيء ذي قيمة».

يبقى صامتًا لبضع ثوانٍ ثم يقول بهدوء: «لا أريد أن أرسم هذا. أريد أن أجعلها متحرّكة».

أنا أبتسم. «تعاوُن آخر؟».

«سيكون شرفًا لي أن أعمل مع عبقرية مثلك مرة أخرى».

«امدحني أكثر وستجد اتّفاقًا».

يضحك بخفة ويسعدني أن أتمكن من إبعاد ذهنه عن رعب الرحلة هنا. «سلامة، حب حياتي. يا سمائي، وشمسي، وقمري، ونجومي، هل تحقّقين أمنيتي الفانية هذه؟».

أتظاهر بالتفكير في الأمر بينما تحمرُّ أذناي. «حسنًا حسنًا». «نحن نغادر الآن!» يقول القبطان بصوتٍ عالٍ، ونعود إلى الواقع. يختفي الهمس، وكأننا في انسجام تام، ننظر جميعًا إلى الشاطئ.

يبدأ القارب في التأرجح بعيدًا بلطف، وتصطدم الأمواج بجسده، محاولة العثور على ثقوب للدخول من خلالها. أنا أعرف السباحة. علّمني بابا وحمزة. أخبرني كنان أنه وإخوته يفعلون ذلك أيضًا. لكنني لا أريد أن نختبر قوتنا ضد البحر. ليس اليوم.

مرة واحدة يتوقف الطنين في دماغي، ولا أسمع سوى البحر وأنين وطني. أرفع رأسي لإلقاء نظرة جيدة وطويلة على سوريا.

تتجول عيناي على الشاطئ، محاولةً بيأس حفظ ملامحه قبل أن يختفي، وهناك أرى فتاة في الثامنة من عمرها، تضحك، تركض على طول الشاطئ،

وفستانها الوردي يبدو في غير مكانه. يقع شعرها البني المجعد تحت كتفيها، وعندما تنظر نحوي تبتسم. أعرف ذلك الوجه، والسّنّ الأمامي المفقود، لأن لديّ صورًا لي وأنا أبدو هكذا. عشر سنوات ستفعل الكثير للوميض الفائق في عيون تلك الفتاة. عشر سنوات ستعلّمها كيفية البقاء على قيد الحياة. سوف يُحشر تراب سوريا تحت أظافرها. على الرغم من كونها صيدلانية، فإنها ستعرف أن بعض الجروح لن تشفى أبدًا.

أغمض عيني وتختفي.

تبدأ أغنية. من أغاني الثورة التي تقارن سوريا بالجنة. الجنة. أستمع كأنها المرة الأولى التي أسمع بها. أتلقى الكلمات وأرسمها على قلبي. وأدركت أنني لا أهلوس بالأغنية، فكل مَن على متن القارب يغني. يضيق حلقي عندما تمتزج الأصوات المبحوحة مع الريح، حاملة لحننا إلى عنان السماء. أستطيع أن أسمع الدموع تتساقط على خدودهم، وأستطيع أن أتذوقها في فمي. إنهم مالحون مثل البحر.

وسرعان ما انضمّ صوتي إلى أصواتهم، وأغني من خلال بكائي الصامت الذي يقطر، يقطر، يقطر على ألواح أرضية القارب، ويغوص في الخشب القديم. حتى يوسف يغني وصوته مجروح من قلّة الاستخدام.

وفي النهاية، نرفع أعناقنا جميعًا نحو سوريا وهي تختفي ببطء خلفنا. يتّكئ كنان على كتفي محاولًا أن ينظر بشكل أفضل، فتنهمر دموعه على يدي. نظرت إليه وأدركت أننا سوريا حقًا الآن. تمامًا كما قلت له. عائلتنا الصغيرة هي كل ما تبقى لنتذكر بلدنا به. أعانقه وأبكي وهو يبكي أيضًا.

نحن لا نرمش. نحن لا ننظر بعيدًا حتى لا نتمكن

من رؤيتها بعد الآن.

38

في البداية لم ألاحظ مدى برودة الجو. ألوم ذلك على الأدرينالين الذي يسبح ببطء في دمي، والذي يرتفع عندما يصطدم بي كنان أو عندما أسمع موجة عالية تتحطم على جانب القارب. كان الركاب الاخرون متجمّعين بجانب بعضهم البعض، ووجوههم مُبلّلة بالدموع، وكل منهم غارق في معاناته. يفركون أيديهم في محاولة لاستحضار بعض الدفء. أشعر بالارتياح عندما أرى لمى بخير، على الرغم من لسعة البرد. لكن كنان يقلقني. تتدلى عيناه، ويومئ رأسه وكأنه على وشك النوم.

«مرحبًا»، أهمس، وأتحرَّك قليلًا لتوفير مساحة أكبر. «نَم على كتفي».

ينظر إلى الأعلى ويهزُّ رأسه، لكن عندما أمسك بمقدمة سترته وأرشده إلى الأسفل، لم يُبدِ أي مقاومة. كتفي العظمية ليست بمثابة وسادة، لكن حجابي ناعم على الأقل.

يهمس: «سلامة... أنا بخـ...».

«صه. نحن على بُعد خطوة واحدة من تناول الكنافة. احلم بذلك».

يتنهّد ويستغرق الأمر ثلاث ثوانٍ حتى ينام. أدعو الله أن يخفّف البانادول آلامه.

أتطلّع إلى السماء، أشاهدها تتغير ألوانها ببطء إلى اللون الرمادي الداكن؛ ممّا يشير إلى نهاية حياتي القديمة وبداية حياة مجهولة. أشغل نفسي برؤية الغيوم وهي تأخذ وقتها وهي تتبدّد أمام الشمس، مثل الخادمات اللاتي يتبعن ملكتهن. بدلًا من ذلك، يرتفع القمر، ويلقي توهُّجه المؤلم على المياه السوداء. تهتز الأمواج بلطف على القارب، وتنتشر

اهتزازاتها عبر المعدن حتى تصل إلى بشرتي.

بدأ الناس يتساقطون في النوم واحدًا تلو الآخر. لكن ذهني، على الرغم من كونه أكثر استنزافًا من أي وقت مضى، إلا أنه مستيقظ تمامًا. لا أستطيع التوقف عن رؤية النجوم وهي تخرج من الظلام، وأدرك أن آخر مرة رأيت فيها هذه الكويكبات كنت مع كنان في أنقاض منزلي المهجور. من الصعب تصديق أن ذلك قد حدث قبل أقل من أسبوع. يبدو وكأنه سنوات. دهور.

أركّز على النجوم، وأربطها بخطوط خيالية حتى أرى الخيط الفضي الذي يستحضره عقلي.

إنه هنا. أنظر إلى الأسفل لأجده جالسًا على حافة القارب، متدليًا بقدميه في الماء وظهره نحوي.

قال: «ليلة هادئة»، وأنا أرتعش. إنه يبدو جميلًا بشكل مؤلم في ظل ضوء القمر. قلبي يقفز.

«ما الذي تفعله هنا؟» أعبس. «ألم تقل إنك متّجه إلى سوريا؟».

يستدير نحوي، ويؤرجح ساقيه إلى الداخل. «هل أنت حريصة على التّخلّص مني؟».

«آسفة، لم يكن لديّ الوقت للحداد على غيابك، بسبب الرعب الشديد الذي أصاب ذهني طوال الطريق هنا»، قلت بغضب، على الرغم من أن وجودي هنا لم يكن ممكنًا على الإطلاق إلا بسبب تأثيره. من خلال تحمّل عقلي المسؤولية.

يبتسم.

«هل كذبت عليّ؟» أسأل. هل سيفي بوعده حقًّا ويتركني وشأني؟ أرتعد عندما أفكر في الاستيقاظ ذات صباح عشوائي في ألمانيا لأجده يحوم عند أسفل سريري.

يهزُّ رأسه. «ما زلنا في المياه السورية». أحدّق به.

«لن أكون معك في سيراكيوز. أعذك»، يقول وهو يضحك.

أتأمّل كلماته. «هذا ليس صحيحًا»، أهمس. «أنت جزءٌ مني، تمامًا كما أنت جزء من الجميع هنا».

يشير إلى الظلام. «وكل هؤلاء من أخذهم إلى البحر... كل أولئك الذين صاروا عظمًا وترابًا؟». يتنهّد. «إنها حقيقة. لقد أخبرتك من قبل، عندما سألتني أين سأذهب. أنا في كل مكان. لكنني لن أكون معك جسديًا. ليس كما هو الحال في سوريا».

أرتجف. «في كل مكان»، أقول وأنا أتذوّق الكلمة على لساني. وكان الجواب على وجوده هناك طوال الوقت.

أستطيع أن أرى التاريخ منسوجًا بين قزحية عينه. «في كل مكان. منذ بداية الزمن، استيقظت في قلوب الناس. لقد أُعطيتَ العديد من الأسماء في عدد لا يُحصى من اللغات. في لغتك أنا خوف. باللغة الإنجليزية، fear. في الألمانية، Angst. لقد استمع البشر إلى همساتي، وأصغوا إلى مجلسي، وذاقوا قوتي. أنا في كل مكان. في أنفاس ملكٍ أعدمه شعبه. في آخر نبضات قلب جندي ينزف وحيدًا. في دموع فتاة حامل تموت على عتبة بابها».

أنظر بعيدًا وأمسح ذراعي على عيني. ليلى. أختي.

يقول خوف بلطف: «لم يكن خطأك».

«إذن لماذا يبدو الأمر كما لو كان كذلك؟» أهمس، وتركت دموعي تتدفق على خدي. الحزن ليس ثابتًا. يتأرجح وينسحب ويضعف مثل أمواج البحر.

يبتسم بحزن. «لأنك إنسان. لأنه مهما كان الأمر، فإن لديك قلبًا ناعمًا جدًا، لدرجة أنه يتعرّض

للكدمات بسهولة. لأنك تشعرين».

صرخة منخفضة تهرب مني.

ويتابع خوف: «لكن هذا لم يكن خطأك. تذكرين ما قاله أم؟ إذا كان من المفترض أن تكون في ميونيخ، فسوف تكونين هناك، حتى لو كان العالم كله ضدك. لأنه مصيرك. لم يكن مصير ليلى. ولم يكن مصير والديك ولا حمزة أيضًا».

مصير. كلمة مُعقّدة تحمل أبوابًا كثيرة تؤدي إلى مسارات لا حصر لها في الحياة، كلها تتحكّم فيها أفعالنا. ولذا، فأنا متمسّكة بإيماني، بمعرفة أنني وليلى بذلنا قصارى جهدنا للبقاء على قيد الحياة. بمعرفتي أنها في الجنة، تعيش مع الطفلة سلامة. مع العلم أنني سأراها إن شاء الله عندما يحين وقتي. أنني سأرى ماما وبابا وحمزة.

«في قلبي، أعلم أنه لم يكن خطئي»، أتمتم وأنا أنظر إلى السماء المرصّعة باللؤلؤ. سأعطي أي شيء لأعانق ليلى الآن. «لكن الأمر سيستغرق بعض الوقت حتى يقبل ذهني ذلك. وهو يؤلم. أكثر ممّا أستطيع أن أتحمل. أنا فقط... اشتقت لها كثيرًا».

«أنا أعرف».

يقف خوف فجأة، ويقفز قلبي لرؤيته متوازنًا على حافة المركب، كأنه يهمس للسقوط. لكن وضعه مستقيم ومتوازن تمامًا.

«لقد كبرت في العام الماضي يا سلامة. أنا أشجّعك، كما تعلمين. لقد تغلّبت على الكثير من الصعوبات وأنا أشعر بالتواضع تجاهها. قد لا تعتبرينني صديقًا، لكني أفكر فيك كصديق».

«ستغادر؟» أسأل، معدتي تنقبض.

يضحك وينظر إليّ. «تبدين متوتّرة جدًا!». «أنا

لست كذلك»، أتمتم، لكن على الرغم من ذلك، غطاء من الكآبة يغمرني. لولا خوف لذفنت في مكان ما في حمص، حيث لا يتذكرني أحد. لولا ظهور ليلى لي، لم أكن لأجد الشجاعة للعيش من أجل سوريا. للقتال من أجل بلدي.

يمسح شعره إلى الجانب، وعيناه تتلألآن بظلّ بتلات الكوبية. «لقد قمت بعملي. لقد وضعتك على متن القارب. كل ما سيحدث بعد ذلك متروك لك. لكن بغضّ النظر عن الأمر، أنا فخور بك». يمدّ إحدى ساقيه خلفه، مخلّفًا انحناءة قصيرة.

«وداعًا»، أهمس، وعندما أرمش، يكون قد رحل.

أحدق في المكان الذي اختفى منه، معتقدة أنه قد يظهر مرة أخرى، لكنه لا يفعل. أرفع يدي وألقي نظرة عليهما، باحثة في روحي عن أي اختلاف، فأجده في الطريقة التي يشعر بها قلبي بخفّة قليلًا. لقد تغيّر شيء ما في الهواء أيضًا. مثل شحذ الواقع واستقراره في مكانه.

يتحرك كنان ويرفع رأسه إلى الأعلى، وترفرف رموشه بالنعاس.

«مرحبًا»، أهمس وأنا أميل نحوه وأضغط بكفّ على جبهته. دافئ، ولكن ليس دافئًا جدًا. «كيف تشعر؟».

عابس. «دوار البحر قليلًا».

لمى ويوسف ناما بسرعة، ورأساهما فوق حقيبتيهما، وأنا سعيدة. إذا كانوا مستيقظين، فسيعانيان أيضًا من الغثيان.

«دعني أحضر لك ليمونة». أخرج واحدة مع السكين من حقيبة كنان، وأقطعها إلى نصفين، وأمرّر له قطعة. أقضم شريحتي وأستمتع بالطعم

الحامض.

أستقر بجانب كنان. «كيف حال ظهرك؟ صدرك؟ رأسك؟ لقد رأيت ما فعله الجنود بك».

يقضم الليمون، وتتألّم تعابير وجهه من حموضته، ويسعل. «إنها بخير».

«كنان».

يتنهّد. «لقد ساعدني البانادول قليلًا، على الرغم من أنني لا أزال متألمًا».

لا يمكن تناول جرام واحد من البنادول إلا كل أربع ساعات، وإلا سيكون هناك خطر التسمم. لقد تناول واحدة قبل أقل من ساعتين قبل أن ينام.

قرّرتُ صرف انتباهه بدلًا من ذلك. «رحل خوف». «للأبد؟».

«إلى حدٍّ ما».

يقول راضيًا: «حسنًا، جيد. لأنه الآن أستطيع أن أخبرك أنني لم أحبه».

أضع يدي على فمي وأضحك بصمت. «هل كنت غيورًا؟».

ابتسامة باهتة ترتسم على شفتيه. «في الواقع، أردت أن ألكمه لأنه أزعجك، لكنني لم أرغب في أن تعتقدين أنه أزعجني. أو لأذكّركِ به في غيابه».

«آه... أنت بطلي». يكشّر. «أحاول».

اقتربت أكثر، وانتهينا من قطع الليمون. «قولي لي شيئًا جيدًا يا سلامة»، يتمتم قائلًا وهو يضغط جبينه على جبيني.

أبدأ ببطء: «في العام الماضي، كانت سوريا رمادية اللون. المباني والطرق المدمرة. وجوه الجائعين رمادية. في بعض الأحيان السماء. أصبحت حياتنا حرفيًا أحاديّة اللون، بالتناوب مع اللون الأحمر

القاسي. بينما كان البعض قادرًا على رؤية ما هو أبعد من ذلك، نسيت أن هناك ألوانًا أخرى. لقد نسيت أن السعادة ممكنة. لكن عندما أريتني غروب الشمس على سطح منزلك ورأيت اللون الوردي والبنفسجي والأزرق... شعرت... وكأنني أرى الألوان لأول مرة». ألقي نظرة عليه وأرى عينيه تتلألأ بالعاطفة.

أتابع: «تخيّل كيف ستكون ألمانيا. تخيّل طلاء شقتنا باللون الأزرق مثل لوحة ليلى. وكنت أفكر في رسم خريطة لسوريا على أحد الجدران».

يقول كنان على الفور: «أنا أحب ذلك. أنا أحبك».

ابتسم، وفي تلك اللحظة أعلم أن ليلى ستكون مُشِعّة، وعيناها تتلألآن بالدموع السعيدة، لو استطاعت أن تراني هكذا: عالقة في وسط البحر الأبيض المتوسط، والمياه الباردة تحاول التسلُّل تحت ملابسي، وبدلًا من ترك الرعب يسيطر عليّ، اخترت التركيز على المستقبل حيث أنا على قيد الحياة. حيث أكون في أمان.

***

أستيقظ مع هزّةٍ. كم من الوقت نمت؟ لا بُدّ أن تأثير الليمون قد زال، لأن معدتي تتقلّب والغثيان يعكر دمي.

أشكال الناس تغيب عن رؤيتي، وأصواتهم خافتة في أذني. أفرك عيني وأنا أتأوه من التشنّجات، وعندما أفتحهما مرة أخرى، كل شيء ينهار بحدّة في مكانه. لا بُدّ أن الصباح قد حلّ الآن ولكن الشمس مخفية خلف سحب كثيفة. شخص ما يهزّني، والتفت إلى كنان.

«ماذا؟» أسأل غير واعية. صرخة تخترق الهواء، فتوقظني من سباتي.

يمسك كنان بكتفي بقوة، وبصوت رزين لا أعرفه، يقول: «سلامة، الطقس سيئ».

يقمع رجفة، وأنا أرفع رقبتي لأدرس البحر. وبمساعدة الريح، تضرب الأمواج نفسها بقوة على القارب، فتهزُّه وقلبي أيضًا.

«هناك الكثير من الناس. القارب ليس جديدًا لا يمكنه التعامل معنا جميعًا. ليس لدينا وقت»، يقول بهدوء، ولكن الرعب واضح في كلماته.

لا أفهم. قام هذا القارب بالرحلة مرات لا تُحصَى.

أم وعدا!

كنان يسحبني إلى الخلف. الكدمة تحت عينه تبدو كالحبر الأسود.

«عندما يغرق القارب، عليك أن تبقي بالقرب مني قدر الإمكان، هل تفهم؟» يقول بحزم.

لمى تبكي، وهي ليست الوحيدة. إن الصراخ والتوسل والصلاة تصمُّ الآذان، وأتساءل عمّا إذا كانت الأصوات قد وصلت إلى الأرض.

«كم نبعد عن إيطاليا؟» أسأل.

يقول كنان: «يحاول القبطان إرسال إشارة إليهم الآن. لكن حتى لو جاؤوا، فسوف يستغرق الأمر ساعات. سنكون بالفعل في الماء».

أضغط بيدي على جبهته. دافئ.

«الماء بارد إلى حدّ التّجمّد. أنت مرهق وربما محموم. إذا سقطت في الماء، لا أعرف ما الذي سيفعله ذلك بجسدك». سوف يصاب بانخفاض حرارة الجسم. قلبي ينبض بألم في صدري.

يهزُّ رأسه. «ليس لدينا خيار». أقول: «قوارب النجاة؟».

«سلامة، هذا قارب صيد. ليس المقصود منه

السباحة لأكثر من بضع ساعات في البحر. لا توجد قوارب نجاة».

لا بدّ أن علامات الضيق تظهر عليّ لأن كنان ضمّ خدي بيد واحدة وقربني منه.

يهمس قائلًا: «تحلّي بالإيمان. سننجو. كوني قريبة مني وكوني مؤمنة».

أومئ برأسي، وأعصر بعض الدموع. يستقيم وينظر إلى أخويه اللذين يشعران بالرعب، لدرجة أنهما لا يستطيعان التحرك.

قال: «حسنًا يا رفاق»، وأنا مندهشة من مدى هدوئه. «أريدكم أن تظلوا معًا، وبمجرد أن نكون في الماء، اركلوا ساقيكم قليلًا لتظلوا واقفين، حسنًا؟ سترات النجاة الخاصة بكم سوف تقوم بالباقي. من المهم ألا يسيطر علينا الذعر. خذوا نَفَسًا عميقًا، وسنكون بخير إن شاء اللـه».

لمى تتمسك بيوسف وكلاهما يومئ برأسه. أربط حقيبتي بسترة النجاة ويغرق قلبي، أعلم أنه عندما نغوص تحت الماء، لن ينجو جواز سفري وشهادتي. تبدو السماء قريبة، وكأنها تبشّرنا بإغراقنا باللون الرمادي الداكن أيضًا.

معظم الناس واقفون بالفعل، لذلك يطلب منّا كنان أن نفعل الشيء نفسه. يميل القارب بشكل خطير إلى اليسار، ونفقد توازننا ونتعثر على الأرض. الناس يصرخون. إحدى الأمهات تعاني من حالة هستيرية، وهي تحمل طفلها على صدرها، وأنا أنظر بعيدًا. لا أستطيع مساعدة أي شخص. يتمايل رأسي مع كل حركة يقوم بها القارب، والماء يغمرنا بالكامل مع تزايد خطر الانقلاب. أمسكت بيد كنان، واقترب لمى ويوسف منه بشدة بينما كان القارب يترنح ويدفع الناس نحونا.

ننتظر، ولا نعرف ماذا نفعل. هل يجب أن نقفز؟ أو البقاء على متن القارب حتى يغرق؟ فكّري يا سلامة، فكّري!

وفجأة، صوت واحد، حاد مثل الزجاج، يرنُّ في رأسي، يحذّرني من القفز.

لا تقفزي، صوت خوف يتردّد في ذهني. إنه فعل انتحاري. أنت لا تعرفين ما ينتظرك في الماء. القارب أكثر أمانًا. كلما قفز عدد أكبر من الناس، زادت احتمالية عدم غرقه. لا تقفزي.

أغمض عيني وأتنفّس من أنفي، وأتخيل زهور الأقحوان. خوف ليس هنا، لكنه يعيش في رأسي، ويجعلني أشك في كل قرار. لكن هذه ليست طريقة للبقاء على قيد الحياة، ولا توجد طريقة للنجاة.

أقول: «كنان». تبدأ الدموع بالتدفق على وجهي. النهاية قريبة. «نحن بحاجة للقفز. عندما يغرق القارب، سيخلق تيارًا لن نتمكّن من السباحة ضده».

ينظر إليّ ويومئ برأسه بشكل آلي. الأمواج المتلاطمة على جانبي القارب تنذر بالعنف. ربما كانت القفزة هي الخيار الأفضل.

وفجأة، قفز رجل يحمل ابنته من القارب إلى الماء. كانت تتمسّك بظهره، وهي تبكي، وهو يستخدم كل طاقته للهروب. يستغرق الأمر من الجميع خمس ثوانٍ بالضبط ليتبعوه.

كنان يمسك بيدي بقوة. كلانا أومئ. يقول: «الآن».

39

يذكّرني البرد بشهر ديسمبر الماضي، عندما عدت من المستشفى وكان الثلج يتساقط والصقيع. كانت ليلى على الأريكة، ترتدي كل ملابسها. تكوّمت بجانب هلوستي ونمث، معتقدة أنني أقوم بتدفئة نفسي، لكن البرد استمر في تغطية عظامي، ودفع نفسه إلى الداخل.

لكن على الرغم من أُلفته، فإن هذا البرد لا يهدهدني لأنام. وبدلًا من ذلك، فإنه يرسل موجة صدمة بعد موجة صدمة عبر جسدي. أغرق تحت البحر، وأفتح عيني على اللون الأزرق الداكن الذي يمتد لأميال.

خوف يتصارع معي. ينقبض قلبي، وتضيق القصبات الهوائية، وتبرد أطرافي لدرجة أنها تحترق. قبل أن أتمكن من الصراخ، أُطلقتني سترة النجاة خارج الماء.

«ماما»، أبكي دون تفكير. «ماما، أنقِذيني!».

ركلت ساقي في الماء، وتحول الخوف إلى هستيريا. أختنق ببكاء وتنهدات متقطعة عندما أتذكر أن هناك أسماك قرش في البحر الأبيض المتوسط.

«ماما»، أصرخ، متمسكة بتلك الكلمة الواحدة وأتركها تتوسع وتغمرني. «ماما. ماما. من فضلك من فضلك ساعديني. لو سمحت. لا أستطيع تحمّل هذا بعد الآن!».

في هذه اللحظة، أنا نصف مجنونة، أركل ساقي لإبعاد أسماك القرش، كما لو كان ذلك مفيدًا في مواجهة أسنانها الحادة وأعينها التي لا روح لها. كل فكرة تختفي. لقد نسيت اسمي ومع من كنت. الذي

من المفترض أن أكون معه. كل ما يمكنني التفكير فيه هو كيف سيتم سحبي للأسفل.

«سلامة!» صوت يخترق الهستيريا، فحاولت أن أستدير بشكل أخرق، والدموع الساخنة تنهمر على خدي. البرد يخترقني حتى ضلوعي. يؤلمني التنفس.

تصبح الأشكال غير الواضحة حادّة وأرى شخصًا يتمايل بعيون مذعورة. يوسف. وخلفه مباشرة لمى.

قلبي يعاد ضبطه. نعم. لا أستطيع أن أخسر نفسي. عائلتي هنا. يوسف. لمى. وكنان.

كنان. أين هو؟

«لمى! يوسف!». لا بدّ أن ضغط الماء انتزع يدي من يد كنان. في كل مكان، يسبح الناس بحثًا عن أحبائهم، وترتفع صرخات مألوفة مع الريح الباردة. لا تزال حقيبتي محاصرة تحت سترة النجاة. «أين كنان؟».

تنهدت لمى: «لا أعرف».

«كنان! أين أنت؟» أصرخ. اللهمَّ اجعله يعيش. لقد اكتفى.

أدور بلا حول ولا قوة، وعيناي تقفزان من جسد إلى آخر، لكنني لا أرى سوى الغرباء.

أقول: «علينا أن نبتعد عن القارب». أنظر إلى الوراء وقد بدأت في الغرق. أومآ برأسيهما وحاولا السباحة ورائي بجهد. نحن نواصل البحث وننادي كنان. أبحث حولي، وسترة النجاة الخاصة بي تجعل من المستحيل التحرك بسهولة. أجهد نفسي وأفتش القارب بعيني، لكن لا يوجد أحد.

«هناك!» تصرخ لمى وهي تشير إلى شخص عائم. ذراعاه مفتوحتان كأنه يحاول احتضان البحر،

ورأسه يتدلى إلى الجانب. أتوجّه إليه وأبعد شعره عن وجهه للتأكد من أنه هو.

«أوه، الحمد لله» صرخت وأنا أحتضنه بقوة. «إنه هنا. إنه هو!».

بشكل مربك، أحاول فحص نبضه. إنه أضعف ممّا أريد. لا بدّ أن صدمة الماء قد جعلته يفقد وعيه، ولا يمكنه البقاء على هذه الحال لفترة طويلة. وجهه بارد كالثلج.

«هل هو بخير؟» يسأل يوسف، وأنا أرفع رأس كنان. عضلات رقبته مرتخية تمامًا.

قلت: «إنه فاقدٌ للوعي»، وسمعت القارب يغرق أخيرًا، لكن لا يمكنني الاهتمام بذلك الآن. «كنان. استيقِظ!».

وبعد دقائق من صفع وجهه والدعاء لله، ترفرف عيناه ويتمتم بشيء غير متماسك. «مرحبًا»، أقول بلطف، وأمسك خديه ثم أمسك بيد واحدة لأرى أن أصابعه قد ازرقّت. «مهلًا»، يهمس.

«نحن في الماء. لقد غرق القارب للتو، وكنتَ فاقدًا للوعي. لا يمكنك النوم. هل تفهم؟».

«نعم»، يقول بضبابية ويتجهم من البرد.

«حسنًا»، صرخت، وأنا أضع يدي تحت سترة النجاة الخاصة بكنان. «نحن بحاجة إلى التوجه إلى مكان وجود الآخرين ومعرفة ما إذا كان القبطان قد اتصل بخفر السواحل الإيطالي».

«أنا أشعر بالبرد»، تشهق لمى.

«هذا هو الشيء الآخر. أحتاجكم جميعًا لمواصلة التحرك. حافظوا على تدفُّق الدم. وإلا فسوف تنامون، وهذا ليس جيدًا».

يتمتمون بنعم، ونحن نسبح ببطء نحو مجموعة

الناجين العائمين. رجل يرشّ الماء بشدة ويصرخ من أجل ابنه الصغير. نجدّف بجانب أجساد، إمّا جثث أو فاقدين للوعي، لا أعرف، ولا أستطيع التوقف لمعرفة ذلك.

«... اتصلت بهم وأخبرتهم، لكني لا أعرف متى سيأتون»، يصرخ القبطان في وجه الحشد المذعور. «نحن بعيدون عن الشاطئ. سيستغرقون بعض الوقت للوصول إلينا. ساعات على الأقل».

تومض شعلة الأمل الصغيرة في عيون الجميع مثل شمعة تحتضر. لا أحد يهتم بمجموعة من اللاجئين السوريين الذين تقطّعت بهم السبل في وسط البحر الأبيض المتوسط. نحن لسنا أول أو آخر مَن يفعل ذلك. فماذا لو لقي مائة أو نحو ذلك حتفهم؟ سيكون عنوانًا رائعًا لتحفيز احتجاج صغير أو حملة تبرعات قبل أن ننساهم مرة أخرى مثل رغوة البحر. لن يتذكر أحد أسماءنا. لن يعرف أحد قصتنا.

«كـ... كنان» أتلعثم. «لـ... لـ... لا تَنَم!».

أومأ، لكنه يستهلك كل أوقية من الطاقة التي يحتاجها للبقاء مستيقظًا. أسحبه بالقرب وأحاول تشجيعه على ركل ساقيه. سترة النجاة هي الشيء الوحيد الذي يبقيه على سطح الماء، وهي بالكاد تفعل ذلك. تتكاثف الغيوم أكثر حتى نشعر وكأننا محاطون بالبحر والسماء. لا يصل إلينا شعاع واحد.

«لمى. يوسف. استمرّا في التحرك»، أتلعثم بأمر. «ستأتي المساعدة».

«أنا متعبة»، تتذمّر لمى، وهي تتأرجح في الماء بفتور. يوسف يركل ساقيه وذراعيه لمدة دقيقة قبل أن يستسلم.

«لا»، أصرخ، وأنا أقترب منهما وذراع كنان مطوّقة

في يدي. «استمرّا. تحرّكا!».

يمسك يوسف بيدي لمى ويبدأ في هزّهما؛ ممّا يؤدي إلى إرسال تموجات على طول الماء.

«سنكون بخير»، أثرثر، مركّزةً على كلماتي وليس على انخفاض حرارة الجسم الذي يغلق ببطء كل خلية. يقتلني ببطء. أحاول ألّا أفكر في أسماك القرش. «سنكون بخير».

لقد استسلم بعض الناس بالفعل للبرد، وتلاشى صراخهم وبكاؤهم، وأنا أعلم دون أن أنظر أن البحر الأبيض المتوسط قد استحوذ عليهم.

«لمى، تحدّثي معي». ألعق الملح من شفتي فيحرق حلقي. إنه يحرق الجرح على رقبتي.

«أنا بخير». صوتها بالكاد مسموع. «يوسف؟».

«نعم». يهمس.

أمسك بأكتاف كنان وأهزّه، فيبدأ. «كنان، إيّاك والنوم».

«لن أفعل»، يقول ويسعل ويركل بساقيه قليلًا. يضع يده الحرة خلف حجابي المبلّل، ويضغط جبهته على جبهتي.

دفعت الأمواج ببطء لمى ويوسف بعيدًا عنّا، واقتربنا مرة أخرى، لنشكّل دائرة، ممسكين بأيدي بعضنا البعض.

«جيد»، أشجّعهم. «الآن، استمرّوا في الرّكل!».

نخلق زبدًا صغيرًا على سطح البحر بينما يتحرك الدم ببطء في عروقنا. تلتصق ملابسي بجسدي المرتعش، وينزلق حجابي ببطء، لكني أواصل الركل.

أقول: «كنان، انظر إلى الألوان»، وهو يحدق في الأفق.

لا يوجد شيء سوى السماء الرمادية والبحر. ليس

مثل الرمادي في حمص.

رمادي مثل لوحة ليلى مع كشط اللون الأزرق بين الخطوط.

أحاول رؤية الظلال الأخرى، لكن يبدو أن اللون الرمادي قد استقر في خلايا شريان شبكيتي. أدمع عيني على عائلتي، وأحفظ وجوههم.

«أتذكر كيف كانت الشوارع تُضاء بالفوانيس في رمضان»، أتلعثم، والجميع ينظرون إليّ. «لا تفكّروا في البرد. تذكر كم كان الخبز دافئًا. طازجًا من المخبز».

ينضمُ كنان. «لمى... يوسف... تذكّرا عندما كنّا نذهب إلى الريف. إلى مزرعة جدو وقطف المشمش. كيف كنت أصعد وأرميه إليك يا لمى. يوسف، هل تتذكرٌ عندما وجدت عشّ الحمام؟».

يومئ يوسف برأسه وأسنانه تصطكُ.

أهمس: «في كل صيف، كنا نقيم أنا وليلى في منزل أجدادها الريفي أو في منزلي. كنا نسبح في حمام السباحة. كنا نلعب مع الدجاج. حتى إننا ركبنا الخيول. أخذنا جدُها إلى أحد الجيران الذي كان يربّيهم».

أتذكر ذلك جيدًا. كنت في الخامسة عشرة من عمري وكنت قد بدأت للتو في ارتداء الحجاب. كان يرفرف في الريح بينما كان الحصان يعدو حول الحقل وليلى على حصانها بجانبي. صيحات فرحنا تعلو حوافر الخيول.

يواصل كنان تشجيع إخوته على الحركة والتحدث، وتذكُر الماضي والأمل في المستقبل، حيث تنتظرهما ذكريات جديدة. يلتفت نحوي ويرفع يدي، فتعود قطرات الماء إلى البحر.

«سلامة، سنتناول تلك الكنافة». خذاه مبتلّان، وأعلم أن ذلك ليس من البحر فقط. شفتاه تلامسان مفاصلي المصابة بالندوب. «إن لم يكن في ألمانيا ففي الجنة».

أبتلع دموعي، ويومئ هو.

نعود إلى الحديث ونحاول التركيز على شيء غير بارد. نحن نتذكر حياتنا القديمة. تصور سوريتنا وترسم أماكن لن نراها مجدّدًا أبدًا.

سوريا التي لن نعرفها أبدًا.

تغطّي التلال مساحة لا نهاية لها من اللون الأخضر، حيث يحمل نهر العاصي الحياة إلى الأرض، وتنمو زهور الأقحوان على طول ضفتيه. تحمل الأشجار ليمونًا ذهبيًا كالشمس، وتفاحًا صلبًا وحلوًا، وخوخًا ناضجًا ومتلألئًا مثل الياقوت. أغصانها منخفضة، تحثُّنا على قطف الثمار. تغني الطيور أغنية الحياة، وترفرف أجنحتها في سماء زرقاء لازوردية.

يتلاشى الريف ببطء حيث يحل الرصيف محل العشب وتطغى أصوات الناس الذين يتجولون في السوق على زقزقة الطيور العرضية. يبيع التجار فساتين حريرية وسجادًا عربيًا غنيًا باللون الأرجواني ومزهريات كريستالية ثمينة. تكتظُّ المطاعم بالعائلات والأزواج الذين يستمتعون بيوم مشمس جميل، وتوضع أمامهم أطباق اللحم المشوي وصحون التبولة. يرنُّ الأذان بصوت عالٍ من المآذن ويتجمع الناس للصلاة في المساجد الفسيحة ذات التصميم الدقيق والتي ظلت قائمة هناك منذ قرون.

أطفال يركضون حول أطلالنا القديمة، يقرؤون تاريخ أجدادهم المنسوج بين الحجر الجيري. يتعرفون على الإمبراطوريات التي حوّلت بلادهم ذات يوم إلى قلب الحضارة النابض. يزورون

قبور مقاتلينا، ويقرؤون على أرواحهم الفاتحة، ويستذكرون قصصهم. ويحاولون إبقاءهم على قيد الحياة في ذكرياتهم. يفخرون بأجدادهم وجداتهم الذين ضحّوا بحياتهم حتى يكبروا في أرض الهواء فيها مُحلى بالحرية.

وأنا عالقة في ضباب انخفاض حرارة الجسم، أحلم بسوريا تلك. سوريا التي ليست روحها مكبلة بالحديد، أسيرة من يودُّ أذيّتها وأذيّة أبنائها. سورية حمزة التي قاتل ونزف من أجلها. سورية كنان التي حلم بها وبرسمها. سورية ليلى التي أرادت أن تربي ابنتها فيها. سوريا، حيث كنت سأجد فيها الحب والحياة والمغامرة. سوريا حيث، في نهاية حياة طويلة، سأعود إلى الأرض التي ربتني. سوريا هذه.. هي بيتي.

يمر اليوم وأنا أفقد الإحساس بالوقت. حلّ الظلام أخيرًا ولم يَعد لديّ أي طاقة، وتوقّفت شفتاي عن الحركة. لقد غزا البرد كل عصب. لا أعرف إذا كان كنان قد توقّف عن الكلام أيضًا أم أنني فقدت القدرة على السمع. يتطلب الأمر كل ما في داخلي لأتذكر مكاني وأنني بحاجة للتنفس.

في مكان ما بعيدًا، يظهر وهج من الضوء فجأة. أرمش، حدّة الضوء تؤذي بؤبؤيّ. أرمش مرة أخرى.

هل مُتّ؟

يُزهر ليلك شاحب في الأفق بينما تشرق الشمس ببطء عبر الظلام. يأخذ فجر سبتمبر في تورونتو العديد من ظلال الطيف، ولكن يبدو في أيامنا هذه أنه يفضل القفز من اللون الأرجواني إلى اللون الأزرق الساطع بينما تختفي النجوم بهدوء.

أنا في الشرفة، أستحمُّ في الوهج الناعم وأحدق في الزاوية التي تحوّلت إلى حديقة صغيرة.

الأقحوانات. زهر العسل. الفاوانيا. لافندر. لقد قمت بزراعتها جميعًا بنفسي، وأعتني بجذورها وبتلاتها الصغيرة بعناية، وأتمتم بكلمات الحب.

«أنت جميلة جدًا»، أهدل لزهرة الأقحوان الصغيرة وهي تنشر بتلاتها بخجل على الندبات الموجودة على يديّ. «أنا فخور جدًّا بك».

نسيم خفيف يقنعني بسحب بطانيتي بحزم أكبر حول كتفي. على الرغم من أنني أرتدي بيجامة من الصوف، إلا أن برد البحر الأبيض المتوسط لم يذب.

كنا أنا وكنان في تورونتو منذ أربعة أشهر، وما زلت لم أعتد على البرد. إنها مختلفة جدًا عن برلين، لكنْ كلاهما يتمتعان بنفس النوع من الهدوء في صباح يوم السبت: هدوء يكسره أحيانًا هدير طائرة تحلق فوقها. لقد استغرق الأمر مني أنا وكنان عامين حتى لا نصاب بالخوف من هذا الصوت. وفي بعض الأحيان ما زلنا ننسى، وتعود الصدمة إلينا على شكل أيدٍ مرتجفة وأعين مليئة بالذعر.

«ها أنتِ ذا»، يقول كنان وهو يتجول في الخارج ومعه كوبان من شاي الزهورات المبخّر.

ألقي نظرة عليه، مبتسمة.

لقد أصبح أكثر مقاوَمةً للبرد ولا يرتدي سوى بنطال بيجامة بسيط وقميصًا أبيض. شعره أشعث من السرير وما زالت عيناه مغطّاتين بالنوم. لقد استغرق الأمر بعض الوقت والكثير من العمل الشاق، ولكنْ كلانا الآن يتمتّع بوزن صحي. نظرت إلى عضلاته، وأشعر أن خدّي يسخن وهو يُسلّمني كوبي.

«شكرًا لك»، أهمس، لا أريد تعكير صفو السلام.

يجلس بجانبي. قمت بضبط البطانية بحيث تكون ملفوفة حولنا وأضع رأسي على كتفه.

يقول بهدوء: «لقد استيقظت مبكرًا. حلم سيئ!».

هناك أوقات تتسلّل فيها الكوابيس خلال نومنا مثل سمّ البلادونا. أحيانًا توقظ كنان. يلهث بحثًا عن الهواء، والعرق يسيل على جبهته. تملأ رأسه الكوابيس، تقنعه بأن لمى ويوسف محاصران في حمص أو يغرقان في البحر الأبيض المتوسط. فقط عندما يتصل بعمه في ألمانيا للتحدث معهما يهدأ. فقط عندما أضمه إليّ وألعب بشعره، وأهمس بـ«شيء جيد»، يسترخي ويعود أخيرًا إلى النوم على صدري.

وبينما اختفى خوف من حياتي مثل حلم الحمى، التقطت الكوابيس من حيث توقّف. سمومها تصيبني بالشلل، وأنا محبوسة في ذهني، أصرخ. في بعض الأحيان، يستغرق كنان بعض الوقت ليوقظني، ويقنعني بأنني هنا حقًّا، لكنّ ذراعيه موجودتان دائمًا لتثبيتي، لإعادتي.

يضع كنان أصابعه في يدي ويقبّل جانب رأسي. «لقد وعدنا بأن نتحدث مع بعضنا البعض، شيتا». أتوجه إليه وعيناي حنونتان. لقد فعلنا. وعندما لا نعرف كيفية العثور على الكلمات، لدينا آخرون لمساعدتنا. غرفة هادئة تنظر إلينا فيها امرأة متعاطفة من خلال نظارتها المستديرة. تبتسم بلطف، والطريقة التي تلمع بها عيناها تذكّرني بنور. عندما تصبح المحادثة صعبة، كل ما عليّ فعله لتخفيف الثقل هو تذكُّر الطريقة التي كانت تقول بها: «العـ لاااا ج».

بمجرّد أن استقررنا أنا وكنان في برلين مع خالته وعمه، ذابت الصدمة التي مررنا بها ببطء وتحوّلت إلى ألم أصبح من الصعب التحدث عنه مع مرور كل يوم. ليلى وماما وبابا دفنوا في حمص. نسيت

للحظات كيف أتجاوز عذاب حياة حمزة في سوريا.

ألمس دومًا الندبة الموجودة على رقبتي. وفي حين أن الندبة بالجزء الخلفي من رأسي مغطاة بشعري، فليس من السهل تجاهل التي برقبتي. تبدو وكأنها قلادة، وعندما تصبح أفكاري سوداء، أستطيع أن أشعر بها تقريبًا تضيق حول حلقي. ينظر كنان إليها، والإدراك يتجعّد في عينيه.

يضع قدحه جانبًا قبل أن يخفض رأسه لتقبيل الندبة. أربط ذراعي حول كتفيه، وأعانقه عن قرب.

«أي خطط اليوم؟» أهمس.

يبتعد قليلًا وخدّاه ورديّان. «سأقابل طارق للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام فيما يتعلق بقبولنا في الجامعة».

«من بين كل المستقبل الذي تصوّرتَه لنا، لم يكن العيش والالتحاق بالجامعة في تورونتو واحدًا منها».

يعبس. «ليس تطوّرًا سيئًا».

لقد أصبح كل ذلك ممكنًا بفضل أحد أصدقاء حمزة. قبل وقت قصير من بدء الثورة، انتقل أحد أصدقائه المقربين في المدرسة الثانوية إلى كندا لدراسة الطب. وقد عرض الآن -وهو مواطن كندي- أن يرعى انتقالنا إلى تورونتو. ساعدنا على مواصلة تعليمنا، والعثور على وظائف، والعيش حياة جيدة وآمنة. لقد تواصلنا بعد أن قمت بإعادة حسابي على الفيسبوك في برلين، حيث قدّمت العائلة والأصدقاء البعيدون كلّ أنواع المساعدة.

عندما عرض طارق المساعدة، جلسنا أنا وكنان ودرسنا الأمر من جميع الزوايا. نحن نعرف اللغة الإنجليزية أكثر من الألمانية. فيما يتعلق بالرسوم

المتحركة، تتمتع كندا بخيارات أكثر، وقد وقعت على الفور في حب برنامج الصيدلة في الجامعة. كان يوسف ولمى يتأقلمان بشكل جيد مع مدرستهما وحياتهما الألمانية، وكان عمهما وخالتهما يتدخّلان كما لو كانا طفليهما. سيكون الأمر مجرد مغادرتي أنا وكنان. في الوقت الراهن، نحن أصغر من أن نعتني بطفلين. وأنا أعلم أن الانفصال عنهما يكسر قلب كنان كل يوم. لكن كوننا لاجئين يحدُّ من خياراتنا، وأنا أعلم أيضًا أن وضعنا أفضل بكثير من العديد من العائلات السورية الأخرى لأن لدينا عم كنان وخالته. وعادة ما تكون الأسَر التي ليس لها أقارب يعيشون في الشتات ممزّقين ومتناثرين في عدد قليل من البلدان اعتمادًا على البلد الذي يقبلهم.

لم يغير كنان شاشة قفل هاتفه من لمى ويوسف، رغم أن الخلفية هي أنا وهو. إنه يتصل بهما كل يوم ويخطط لكيفية تمكنه من السفر إلى ألمانيا لرؤيتهما.

«لا أستطيع أن أصدق أن الجامعة ستبدأ خلال أسبوع». أهزُّ رأسي. «لا أستطيع أن أصدق أننا نجلس هنا نشرب الزهورات بعد ثلاث سنوات».

«لا أستطيع أن أصدق أنك معي». يقبّل خاتم الزواج في إصبعي، ثم يقبّل ندبة مقطوعة في معصمي. «كيف أوقعت بك وأنت أعلى من مستواي؟ كيف نجحت في التقاط شخص خارج دائرتي؟».

أضحك ضحكة مكتومة. «لقد أغريتني بكلامك عن ستوديو جيبلي».

يبتسم ابتسامة عريضة. «ميازاكي لا يستخدم سيناريوهات في أفلامه. إنه يرتجل الأحداث أثناء العمل على الفيلم».

أتظاهر بالارتباك، وأخبئ وجهي. «يا إلهي!».

يضحك وننتهي من تناول الشاي. وبمجرد أن غطى ضوء الشمس السماء، نعود إلى الداخل.

إنها شقة صغيرة بغرفة نوم واحدة ولكنها بيت. لا تزال بعض الصناديق متناثرة على الأرض. قام طارق وأصدقاؤه بتجهيز الشقة لنا، واضطررت للاختباء في الحمام لأبكي من الامتنان لمدة عشر دقائق متواصلة قبل أن أتمكن من مواجهة أي شخص.

تنتشر على طاولة الطعام كراسات الرسم الخاصة بكنان، وكلها مليئة برسومات لقصصنا. وبجانبهم صينية كنافة نصف فارغة. الصورة الفحمية التي رسمها لي عند بوابة براندنبورج محاطة بإطار خشبي، معلّقة فوق الأريكة في غرفة المعيشة. الجدران عبارة عن لوحة فنية لخيالنا، وقد قمنا برشّ اللون الأبيض بدرجات مختلفة من اللون الأزرق. يستضيف أحد الجدران عمل كنان المستمر لخريطة سوريا، بينما قمت بحفر قصيدة لنزار قباني على طول سطح الجدار الآخر لأنه اتّضح أن خطّي أفضل من خطه. هذا ما رأيته في مظاهرة ذكرى الثورة.

«كل ليمونة ستنجب طفلًا ومُحال أن ينتهي الليمون».

نضع الأكواب في الحوض، ونناقش العناصر المختلفة لسرد القصص المستخدمة في الأميرة مونونوكي. أفتح خزانة لأخرج طاولة الإفطار. كل خزانة مليئة بأكياس الأرز والفريكة والحمص المعلب والكشك. أفرغ الطعام بأكمله، دون أن أترك حتى فتاتًا، قبل رمي الغلاف في سلة المهملات.

أخرج كنان دجاجة من الثلاجة ليتركها تذوب، وأجد نفسي أتعجب من حقيقة أن لدينا دجاجة

كاملة.

بينما حمزة لا.

أتصفّح يوميًا صفحات الفيسبوك وتويتر التي تنشر تحديثات منتظمة عن السجناء في المعتقلات السورية الذين تمّ إطلاق سراحهم، وكذلك الصفحات التي تحتوي على معلومات عن السجناء الذين ما زالوا داخلها. أبحث عن اسم حمزة حتى تكلّ عيناي، لكنه لا يظهر أبدًا. وفي قلبي أدعو الله أن يصبح شهيدًا. أدعو الله أن يكون مع ليلى في الجنة، بعيدًا عن هذا العالم القاسي.

ألقي نظرة بعيدًا وأشعر بيد كنان على خدي. «مرحبًا»، يهمس وهو يعرف ما يدور في ذهني. «كل شيء سيكون على ما يرام».

أرتجف بينما أتنفّس وأومأ برأسي قبل أن أمرَّ عبر غرفة المعيشة. لإلهاء نفسي، أفكر فيما إذا كنت سأقرأ كتابًا عن الصيدلة أو أعمل على فيديو جديد. بعد وصوله إلى برلين، واصل كنان نشاطه من حيث توقف، وبعد بضعة مقاطع فيديو أخرى، بدأ يجذب انتباه العالم. تدرّبت على لغتي الإنجليزية من خلال الانضمام إليه، وكتابة المقالات وصنع مقاطع الفيديو حول ما واجهناه في حمص. قمت بربط قصصنا معًا، وكان الأمر صعبًا في البداية. لقد انفجرت في البكاء بعد خمس ثوانٍ من المونولوج، وتذكّرت الشعور بجسد الجثة البارد.

أمسك كنان بذراعي، وأدارني، فسقطت على صدره، مندهشة.

«وااااو! ماذا تفعل؟».

يبتسم وهو يرفع هاتفه. أغنية إنجليزية لا أعرفها تنطلق. «أرقص مع زوجتي».

تلتمع عيني. نحن ننسج الفرح بين نوبات العذاب. تذكير بعضنا البعض بأننا ما زلنا هنا.

أسقط الهاتف على الأريكة بجانب حاسوبه المحمول، وهو يهزني بالموسيقى.

«أنا أرتدي بيجامة»، أتمتم، وأضغط جبهتي على عظمة الترقوة.

يهزُّ كتفيه. «وكذلك أنا». قام بتدوير إصبعه من خلال خصلة من شعري، والآن طوله بالكاد يصل إلى ذقني. «أنت جميلة في بيجامتك».

«وأنت أيضًا».

يضحك. من بعيد، نسمع صوت طائرة منخفضًا ولا يفوتني شدُّ يد كنان في يدي لجزء من الثانية.

«ما رأيك في الإضافة الجديدة لعائلتنا؟» أعيده إليّ.

وهو ينظر إلى الشرفة. «لقد مضى عليها شهران ولم نرَ سوى أوراق خضراء».

أضحك. «الليمون يستغرق وقتًا يا كنان. نحن نزرع شجرة. إنها بحاجة إلى الصبر، تمامًا كما يفعل التغيير».

يعطيني ابتسامة غير مترددة. «أنا أحبك عندما تتحدثين عن التغيير».

أقهقه وهو يضع جبهته على كتفي، ويدندن على أنغام الموسيقى.

تتجوّل عيناي فوق كتفيه نحو القدر الخزفيّة الزرقاء الموضوعة مباشرة تحت أشعة الشمس. ظهرت بتلات في التراب تقاوم الجاذبية، وهي تُذكّرني بسوريا. بقوتها وجمالها. بكلام ليلى وروحها. ماما وبابا وحمزة.

تذكّرني أنه بينما تنمو أشجار الليمون، لن تموت

أبدًا.

(1)- Spirited Away movie.

(2)-زهرة.

(3)- شيش برك أو ششبرك أو آذان الشايب؛ هو طبق مشهور في بلاد الشام وأسيا الوسطى وجنوب القوقاز والشرق الأوسط؛ يعود أصله إلى أوزبكستان. يتكون الطبق من عجينة تملأ بداخلها لحم غنم مفروم وتُلف على شكل أذن الإنسان.